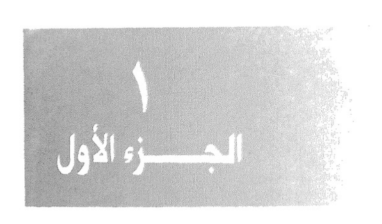
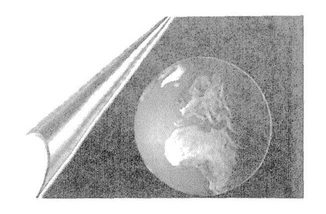




تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

منحة 2006
SIDA
السويد

تاريخ اوربا والعالم في العصر الحديث

من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة

تاريخ اوربا والعالم الحديث

من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة

الجزء الأول

من ظهور البورجوازية الأوروبية
إلى الثورة الفرنسية

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبد الواحد

تقديم

يسرنى أن أقدم للقارئ هذا الكتاب عن تاريخ أوروبا والعالم الحديث، من ظهور الطبقة البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، ويشتمل على تسعة قرون، تبدأ بالقرن الحادى عشر وتنتهى بالقرن العشرين. وهذه القرون التسعة تضم بين ضفتيها تاريخ العالم الحديث بكل سماته وخصائصه ومعالمه التى تميزه عن العالم الوسيط.

ومعنى ذلك أن هذا الكتاب يختلف عن كتب المدرسة التقليدية فى كتابة التاريخ، سواء فى أوروبا أو مصر، التى تنظر إلى التاريخ من منظور سياسى بحت، وتفسر كل ما يطرأ عليه من تغييرات وتطورات اقتصادية واجتماعية فى ضوء هذا المنظور، فتقلب التاريخ رأساً على عقب، وتقدم فيه النتائج على المقدمات، وتخلط الأحداث السياسية مع الأحداث الاقتصادية والاجتماعية دون تمييز.

وقد تمثل ذلك فيما جرى من خلاف بين فرق المدرسة التقليدية حول بداية التاريخ الحديث. فالبعض بدأ بعصر النهضة فى القرن الرابع عشر، على أساس أنه مرحلة انتقال بين العصر الوسيط والعصر الحديث. والبعض الآخر بدأ بالقرن الخامس عشر على أساس أن هذا القرن هو الذى وقعت فيه الأحداث التى أثرت فى مجرى التاريخ، ففيه سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وسقطت غرناطة فى أيدى قوات فرديناند وإيزابيلا سنة ١٤٩٢م، وبذلك بدأ التاريخ الحديث.

على أن البعض بدأ التاريخ الحديث بالقرن السادس عشر، على أساس أنه القرن الذى ظهرت فيه الدولة الحديثة وحركة الإصلاح الدينى، وما نتج عن هذين الحدثين العظيمين من حروب.

والبعض الآخر بدأ بالقرن السابع عشر، على أساس أنه القرن الذى وقعت فيه حرب الثلاثين عاماً، والثورة العظمى فى إنجلترا، وتفوق فرنسا، وحروب الوراثة الأسبانية. بل إن بعض المدارس السوفيتية حددت بداية التاريخ الحديث بالثورة البورجوازية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر.

وواضح أن هذه المدارس تقدم التاريخ مقلوباً على رأسه، إذ تقدم النتائج على المقدمات ـ كما ذكرنا ـ فعصر النهضة كان نتيجة وليس مقدمة للتاريخ الحديث، وظهور الدول القومية الحديثة وحركة الإصلاح الدينى وحرب الثلاثين عاماً، والثورة العظمى فى إنجلترا، وتفوق فرنسا، وحرب الوراثة الأسبانية ـ هذه كلها نتائج لتغيير علاقات الإنتاج التى بدأت بظهور الطبقة البورجوازية فى أوروبا فى رحم المجتمع الاقطاعى، وتغييرها علاقات الإنتاج من علاقات إنتاج إقطاعية إلى علاقات إنتاج بورجوازية، وبذلك تغير البناء الفوقى تغيراً كلياً، وهو ما يمثل التاريخ الحديث.

فالتاريخ الحديث هو تاريخ الطبقة البورجوازية بقدر ما يعتبر تاريخ العصور الوسطى هو تاريخ الطبقة الإقطاعية، والعصور التاريخية تبدأ بتغير علاقات الإنتاج، ولا تبدأ بأحداث سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. فهذه العلاقات تمثل البناء التحتى الذى ينبنى فوقه البناء السياسى والعسكرى والقانونى والدينى والفنى والأدبى والفكرى والعلمى والعلاقات الدولية وكل ما يكوِّن الحضارة البشرية.

ومن هنا كان علينا فى هذا الكتاب أن نقيم التاريخ على قدميه بعد أن كان مقلوباً على رأسه. فنبدأ بالطبقة البورجوازية الأوروبية التى غيرّت وجه الحياة فى أوروبا والعالم، وصبغتها بصبغتها، وننتقل إلى نتائج ظهور هذه الطبقة فى البناء الفوقى، المتمثلة فى النهضة الأوروبية التى نشأت على يد الطبقة البورجوازية فى المدن التجارية فى إيطاليا، وما أحدثته من تغيير فى الفكر والفلسفة والعلوم والفنون والاعتقاد.

ثم ننتقل إلى حركة الإصلاح الدينى باعتبارها إحدى نتائج ظهور الطبقة البورجوازية، وما قامت به من إعادة النظر فى الحياة الدينية التى كانت خاضعة للكنيسة فى العصور الوسطى، بحكم سيطرتها على الدين وقراءة الإنجيل، وامتلاكها وسائل الإنتاج.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ظهور الدول القومية كنتيجة لتحطيم حواجز الإقطاع على يد الطبقة البورجوازية، واتجاه هذه الدول القومية إلى إثبات ذاتها عن طريق التوسع فى أوروبا، الأمر الذى يؤدى إلى «الحروب الإيطالية»، وكذلك التوسع خارج أوروبا، وهو ما يؤدى إلى حركة الكشوف الجغرافية والمرحلة الاستعمارية الأولى، وهى الحركة التى قامت على يد الطبقة البورجوازية ولم تقم على يد الطبقة الإقطاعية التى كانت بعيدة بتفكيرها عن التطلع إلى ما وراء البحار.

ثم يمضى تاريخ العالم الحديث على يد الطبقة البورجوازية، فتغير النظام السياسى فى أوروبا الذى كان قائماً على أساس نظام الملكية المطلقة فى القرن السابع عشر، إلى نظام الملكية المستبدة المستنيرة فى القرن الثامن عشر، والذى كان سائداً فى دول أوروبا فيما عدا فرنسا، فتنشب الثورة

الفرنسية بفكر قومى واجتماعى جديد يستهدف القضاء على بقايا الإقطاع، وهدم الطبقة الإقطاعية وإسقاط الحق الإلهى للملوك فى الحكم الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقيام الدولة القومية على أساس تشخيص الشعب للدولة وليس الملك كما كان الحال منذ بداية العصر الحديث.

ولكن يترتب على هدم الحق الإلهى للملوك فى الحكم أن تهب الدول والأسر الحاكمة فى أوروبا التى تستشعر الخطر، لمحاربة الثورة الفرنسية، وإخماد فكرها الثورى حتى لا ينتقل إلى الدول التى تحكمها، وبذلك تفسح المجال لظهور نابليون للدفاع عن مبادئ الثورة الفرنسية، وإعادة تقسيم أوروبا على أساس هذه المبادئ، فتنقسم أوروبا بين النظم الديموقراطية والنظم الاستبدادية. ولكن النظم الاستبدادية تنتصر على نابليون، وتعيد فى مؤتمر فيينا الذى عقد بعد هزيمة نابليون، الأسر الحاكمة الاستبدادية القديمة.

وهنا يتغير تاريخ أوروبا بالحركات القومية والدستورية التى تتصارع مع النظم الاستبدادية التى فرضت سيطرتها من جديد على أوروبا، وتتلقى هذه الحركات دعماً من علاقات الإنتاج البورجوازية الجديدة التى ظهرت بعد أن هدمت الثورة الفرنسية علاقات الإنتاج الإقطاعية القديمة، فيحدث التطابق بين علاقات الإنتاج ووسائل الانتاج، ويترتب على ذلك الثورة الصناعية التى انتقلت بالبورجوازية الأوروبية إلى مرحلة جديدة من حياتها، هى مرحلة توحيد السوق الداخلية فى البلاد التى نضجت لهذا التوحيد، وتحقيق وحدتها القومية بالتالى.

لذلك تتحقق الوحدة الإيطالية على يد كافور، وفى ألمانيا على يد بسمارك. وفى الولايات المتحدة يكون انتصار الشمال الرأسمالى فى الحرب الأهلية الأمريكية بداية تحقيق الوحدة القومية الأمريكية على أسس راسخة. وفى اليابان تتمكن البورجوازية اليابانية الصناعية من نقل اليابان من مرحلتها الإقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية.

وكل ذلك يدفع البورجوازية فى العالم الصناعى، بعد توحيد سوقها الداخلية، إلى البحث عن أسواق جديدة، ولكنها تختلف عن الأسواق القديمة فى المرحلة التجارية فى أنها أسواق للحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأرخص الأسعار، وتسويق المنتجات الصناعية التى تضخها مصانع أوروبا وأمريكا واليابان بأغلى الأسعار.

ويتطلب الصراع على الأسواق فى أواخر القرن التاسع عشر عقد الاتفاقات الاستعمارية من جديد لتقسيم الأسواق، فيتم تقسيم افريقيا فى مؤتمر برلين فى عام ١٨٨٤م و١٨٨٥م، وفى الوقت نفسه تقوم التحالفات الأوروبية وفقاً لمبدأ توازن القوى، ولكن كل ذلك يفشل فى منع الحرب، فتنشب الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤م وتستمر أربع سنوات.

وعندما تنتهى الحرب العالمية الأولى تكون قد اختفت الإمبراطوريات الأربع التى ظلت تملأ صفحات التاريخ الأوروبى بالحروب، وهى: إمبراطورية النمسا والمجر، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية الألمانية، وتسقط بذلك أسر «الهابسبورج» وآل عثمان، وأسرة رومانوف، وأسرة هوهنزولرن.

وتتعلم البورجوازية الغربية الدرس، فتعيد تقسيم العالم من جديد على اسس قومية، بعد أن أصبحت الدولة القومية لا محيص عنها لتوحيد السوق الداخلى، وتأتى بنظام دولى جديد هو نظام عصبة الأمم، وتحاول وضع العملاق الألمانى فى قمقم باقتطاع أطرافه وضمها إلى الدول القومية المجاورة. وفى الوقت نفسه ينهار النظام الإقطاعى والرأسمالى فى روسيا بانتصار الثورة الاشتراكية فى أثناء الحرب.

وهنا يظهر، كرد فعل مضاد له، النظام الفاشى فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، ويكون هذا النظام الفاشى تعبيراً عن دكتاتورية الطبقة البورجوازية لحماية نفسها من النظام الشيوعى. ويؤدى الصراع الاستعمارى من جديد بين الدول الليبرالية والشيوعية من جهة، والدول الفاشية من جهة أخرى، إلى الحرب العالمية الثانية، بعد فشل نظام عصبة الأمم وعجزها عن منع الحرب.

وتنتهى الحرب بهزيمة الدول الفاشية والنازية، وانتصار الدول الليبرالية والشيوعية، وتحاول الدول المنتصرة تقسيم العالم من جديد على أسس القومية، وتقيم على أنقاض عصبة الأمم نظام هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

ولكن التناقض بين النظم الليبرالية والنظم الشيوعية يدفع إلى صراع دولى على اساس جديد، وهو الأساس الأيديولوجى، حيث تواجه البورجوازية الغربية أكبر تحد لها على مدى تاريخها من جانب نظام يقوم على طبقة البروليتاريا، وتكاد تتحقق نبوءة ماركس بأن البورجوازية فى نموها تنمو معها بذور فنائها، وهى الطبقة العاملة.

ويؤدى هذا الصراع إلى نوع جديد من الحروب لم تشهده البشرية، وهى الحرب الباردة. وهى التى نختم بها هذا الكتاب.

وسوف يلاحظ القارئ أن هذا الكتاب، على الرغم من أنه يدور فى إطار أيديولوجى، فإنه يتبع المنهج التاريخى من ناحية تقسيماته التى تقوم على أساس زمنى، وهو أمر طبيعى استلزمه تتبع النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى للبورجوازية الأوروبية، والذى كان يحدث بشكل تكاملى ومراحل تترتب على مراحل.

وبالنسبة لكتاب فى هذا الحجم كان من الضرورى إعطاء أولويات فى التناول، وتوسيع فى بعض الموضوعات وتضييق فى بعضها الآخر، وفقاً لرؤية المؤرخ. كما تطلب ذلك التركيز على بعض الموضوعات والاكتفاء بالإشارة إلى موضوعات أخرى فى شكل تحليلى. وهذا ما يميز الكتب عن الموسوعات التاريخية، فهدفنا هو أن يلم القارئ بما طرأ على العالم الحديث من تطور تاريخى فى إطار كتاب محدود بصفحاته وليس فى إطار موسوعة تتكون من مجلدات.

وقد حرصت حرصاً شديداً على أن أتبع كل اسم أجنبى بحروفه اللاتينية، لأنها الأساس فى النطق، ولأن تعريب الأسماء يخضع لاجتهادات المؤرخين وفقاً لاتساع معرفتهم باللغات المختلفة، وبالتالى فإن معرفة الأسماء وفقاً لحروفها العربية فيه تضليل كبير للقارئ الذى من الأفضل له أن يعرف الشكل الأجنبى الذى هو الأساس. وإن كان ذلك لم يمنعنا من كتابة الأسماء التى تعورف عليها بين المؤرخين وفقاً لاجتهاداتهم، اعتماداً على أن إثبات النص الأجنبى فيه الكفاية.

وهذا ما دعانى إلى تقديم الخرائط فى غالبيتها فى هذا الكتاب بلغتها الإنجليزية، اعتماداً على أننى قدمت للقارئ اسم البلد بالحروف اللاتينية إلى جانب الحروف العربية، وبالتالى فلا صعوبة أمامه فى العثور على بغيته فى الخرائط الأجنبية. هذا فضلاً عن أن الخرائط الأجنبية أكثر دقة ولا لبس فيها ولا غموض. ووجودها فى هذا الكتاب يغنى القارئ عن اللجوء إلى الكتب الإنجليزية التى قد يصعب حصوله عليها. وقد آثرت وضع الخرائط جميعها فى نهاية الكتاب لسهولة الرجوع إليها فى فهرس الكتاب.

وقد ذيلت الكتاب بعدد كبير من المراجع لمن يرغب فى الاستزادة، واعترافاً بفضلها فى تحضير مادة هذا الكتاب، وهى كتب إنجليزية، ومترجمة عن الإنجليزية أو الفرنسية أو عربية. وقد أودعت فى هذا الكتاب خلاصة خبرتى فى تدريس التاريخ الأوروبى وتاريخ العالم فى الجامعات المصرية إنطلاقاً من المادية التاريخية التى أرى أنها أقوى أداة لتفسير التاريخ.

والله الموفق ،،،

أ. د. عبدالعظيم رمضان

الهرم فى ١٥ يوليو ١٩٩٦م

الفصل الأول

ظهـــور
الطبقة البورجوازية الأوروبية وتطورها

ظهور
الطبقة البورجوازية الأوروبية وتطورها

يعتبر بروز الطبقة البورجوازية (أو الرأسمالية) الأوروبية على المسرح الأوروبى بداية التاريخ الحديث، والعامل الأساسى المحرك لتاريخه. ويمكن تبين أهمية هذه الطبقة فى صنع تاريخ أوروبا الحديث، إذا عرفنا أن النظام الرأسمالى ليس نظاما اقتصاديا فحسب، وإنما هو نظام فكرى واجتماعى وسياسى وقانونى وفلسفى. ويكفى معرفة أن الطبقة البورجوازية (الرأسمالية) صبغت التاريخ الحديث بصبغتها بنفس الدرجة التى صبغت بها الطبقة الإقطاعية العصور الوسطى.

من هنا إذا كان الإقطاع هو سمة العصور الوسطى الرئيسية، فإن البورجوازية هى سمة العصور الحديثة الأساسية. والسبب فى ذلك واضح كل الوضوح، وهو أنها كانت الطبقة الاجتماعية التى تملك وسائل الإنتاج فى العصور الجديثة، فى حين كانت الطبقة التى تملك وسائل الإنتاج فى العصور الوسطى، هى الطبقة الإقطاعية، وحين تملك طبقة اجتماعية وسائل الإنتاج، فإنها تتمثل فيها علاقات الإنتاج، فنقول: علاقات الإنتاج الإقطاعية، ونقول: علاقات الإنتاج الرأسمالية.

ويرتبط ظهور الطبقة البورجوازية الأوروبية بظهور المدن منذ القرن الحادى عشر. وتختلف هذه المدن عن المدن الرومانية القديمة التى ازدهرت فى عصر الرومان، والتى كان لها شأن كبير فى الإمبراطورية الرومانية كمراكز إدارية وحضارية واقتصادية. فإن هذه المدن كانت قد ذبلت نتيجة لانهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية على يد البرابرة الجرمان، وماتبع ذلك فى القرون التالية من انتشار النظام الإقطاعى الذى حلت فيه الضياع الكبيرة محل المدن. ولن ندرك أهمية التغيير الذى أحدثه ظهور هذه المدن الجديدة على يد الطبقة البورجوازية فى أوروبا فى البناء الفوقى السياسى والقانونى والفكرى، إلا إذا عرفنا لمحة عن النظام الإقطاعى فى أوروبا.

لقد قام النظام الإقطاعى فى أوروبا على أساس اقتران امتلاك الأرض بحق امتلاك نواحى الحكم والسلطان على من يكون بتلك الأرض من الناس، وبالتالى أصبح معظم أهل الريف يعيشون فى حال انتقالية بين الحرية والرق، وهى الحال التى عرفت باسم القنية Serfdom فى مطلع العصور الوسطى ومابعدها. وكانت الزراعة والفلاحة هى قوام ذلك المجتمع الإقطاعى، على العكس من المجتمع البورجوازى، ومن ثم فقد أصبح سواد هذا المجتمع مكوناً من الفلاحين.

وكان محور الدائرة التى عاش فيها فلاحو العصور الوسطى هى القرية، وكانت مظاهر الحياة فى تلك القرية هى مظاهر الحياة

العادية التى تصحب عادة مجتمعاً يعيش كله على الزراعة. فإلى جانب الكنيسة، وبيوت الفلاحين، وأجران المحاصيل، كانت هناك دكاكين أصحاب الحرف اللازمة لمجتمع ذى اكتفاء ذاتى. وكان الفلاح يزرع حصته من الأرض الزراعية، التى منحها إياه سيده الإقطاعى، ويسكن بيته الحقير، وبجواره حقل صغير يزرع فيه مايستعين به على قوته اليومى من خضر وبقول.

وكان هذا الفلاح مربوطا إلى أرضه، لايملك الحرية فى الانتقال منها، وعليه أن يؤدى واجبات تبعيته لسيده كاملة، هذا عدا أنه ظل يباع ويشترى ويبدل بغيره حسبما يشاء سيده الإقطاعى.

ولم يكن هذا السيد فى الحقيقة إلا تابعاً هو الآخر لسيد أكبر منه يدين له بالولاء ويؤدى له خدمات حربية معينة. وكان السيد الإقطاعى بموجب النظام الإقطاعى هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضى، التى كان يطلق عليها اسم (الدومين)، وفيمن عليها من السكان. وكان يقوم بتدبير الشئون السياسية والإدارية من قصره الكبير، الذى كان حصنه الحصين وملاذه الأمين بالضرورة.

وهكذا كان شأن المجتمع الإقطاعى فى خطوطه العريضة: قاعدته الأساسية الزراعة، والغالبية العظمى من السكان هم من الأقنان المرتبطين بالأرض ارتباطا شديدا، والذين يدينون بالتبعية التامة لقلة من النبلاء الإقطاعين الذين يمتلكون الأرض وسكانها معا. والذين يدينون بدورهم بالتبعية لنبلاء أكبر منهم حتى الوصول إلى الملك.

على أن هذا المجتمع الراكد لم يلبث أن دب فيه تطور جديد خطير، أدى فى النهاية إلى قلب أوضاعه قلبا تاما. وذلك بظهور النشاط التجارى فى أوروبا منذ القرن الحادى عشر، ونمو الطبقة البورجوازية التجارية فى عالم السلطتين الاقتصادية والسياسية، وازدهار المدن، التى أصبحت المراكز الأساسية للحركة التجارية الجديدة.

ويجد المؤرخون صعوبة فى اكتشاف السبب الذى دفع بهؤلاء التجار منذ بداية الأمر إلى أن يستبدلوا بحياة الزراعة المضمونة الرزق، والتى يتوافر فيها الأمن والطمأنينة، حياة التجارة الحافلة بالقلاقل والمغامرات والهزات الاقتصادية.

ويعتقد هؤلاء المؤرخون أن هؤلاء التجار كانوا من أولئك المغامرين المهرة الذين نبتوا من بين أسوأ الطبقات حالا ومستوى فى المجتمع الإقطاعى، والذين اضطروا نظرا لعدم حيازتهم أية أرض يزرعونها إلى العمل كأجراء فى أوقات الحصاد، وكمرتزقة فى الجيش.

ولابد أن ظاهرة ازدياد عدد السكان التى ظهرت فى القرن العاشر الميلادى قد ساعدت على تضخم أعدادهم. ومثل هؤلاء كانت التجارة تفتح لهم بابا عريضا للربح والثروة، ولذلك فقد أجّروا أنفسهم كبحارة أو مجدفين إلى غير ذلك من الأعمال، وعرف الكثيرون منهم اللغات الأجنبية، وعادات الأمم وحاجات الشعوب.

ولاشك أنهم استفادوا من المجاعات التى كانت كثيرا ما تنتشر فى تلك العصور، فإن قليلا من زكائب القمح تباع فى بلد مهدد بالمجاعة يمكن أن تأتى بربح عظيم.

وعلى ذلك فلم يمض وقت طويل حتى ظهرت طبقة من الأغنياء الجدد من بين تلك الجماعات البائسة، التى لم تكن تمتلك شيئا من الأرض، وكانت مضطرة إلى العيش على صدقات الكنيسة تارة، وعلى البحث عن عمل تارة أخرى.

وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن طبقة التجار التى ظهرت فى القرنين العاشر والحادى عشر قد بدأت نشاطها دون رأس مال، وأن القروض قد لعبت الدور الأول فى هذا الطور من أطوار حياة هذه الطبقة. وتمتاز هذه الطبقة بأنها طبقة محترفة، لاتعتبر التجارة بالنسبة لها ثانوية أو حرفة تزاول بين الحين والحين، بل حرفة تزاول بانتظام، ويعتمدون عليها، لا على الأرض، فى معاشهم وأرزاقهم.

على أن أحوال المجتمع الإقطاعى الذى نشأت فيه هذه الطبقة لم تكن مما يتيح لها النمو فى يسر والتطور فى سرعة وسهولة. ففى ذلك الحين كانت قيود المجتمع الإقطاعى تعرقل التجارة الداخلية، فقد كانت تفرض مائة ضريبة وضريبة على انتقال البضائع عبر الثغور وعند عبور القناطر واستخدام الطرق والأنهار والقنوات. وكان سادة الإقطاع يرون أن من حقهم أن يجْبوا

ضرائب على البضائع المارة بأملاكهم كما تفعل الدول فى هذه الأيام. ومن جهة أخرى كان التجار يتعرضون لأشد الأخطار فى الطرق البرية والمسالك المائية الموبوءة بالحروب الاقطاعية.

ـ النقابات الطائفية :

لذلك كان التجار يسيرون جماعات مسلحة بالسهام والسيوف يحيطون بالعربات المحملة بالبضائع، وعلى رأس القافلة يسير حامل العلم، وهناك رئيس للجماعة Hans graf أو Doyen يمارس سلطة على الجماعة، التى كان أفرادها عادة مرتبطين بقَسم الوفاء والأمانة، وتسودهم روح التضامن.

كانت هذه الجماعات من التجار تدعى فى أثناء رحلتها Gilds أو Hanses، ولم تكن تنفض عند عودتها من الرحلة، بل كانت تكون هيئات دائمة تضم كبار التجار وتتعهد مصالحها بنفسها. ولما كانت هذه المصالح تتمشى عادة مع مصالح بقية الجماعات، فقد اتخذت هذه الهيئات أو النقابات شكل «إدارة محلية شبه رسمية». وكانت هذه النقابات أقوى ماتكون فى إيطاليا، التى شهدت فى العصر الرومانى نظام النقابات الطائفية حتى قضت عليها الغارات الجرمانية.

وكانت نقابات القرن ١١ الطائفية جميعها تقريبا للتجار، وأصبحت هذه النقابات على مر الزمن هيئات متحدة قوية تتجر فى

أنواع مختلفة من البضائع، وتؤمن التجار. وفى القرن الثالث عشر كانت نقابات التجار تؤمن أعضاءها من حوادث الحريق وغرق السفن وغيرها من الكوارث والأضرار، بل تعدت ذلك إلى تأمينهم من القضايا التى تقام عليهم لجرائم ارتكبوها! وكان هذا بداية نظام التأمين!

وكان لكل نقابة تجارية فى العادة غرفتها الخاصة التى يعمل بها طائفة من الموظفين والمسجلين، وخزينة الأموال والشرطة، وكانت لها محاكمها الخاصة التى يحاكم أمامها أعضاؤها إذا عرضوا منازعاتهم على محكمة النقابة الطائفية، وكانت تفرض على أعضائها أن يمدوا بالمساعدة زملاءهم فى حالات المرض والكوارث والسجن.

وكان لكل نقابة للتجار عيد سنوى تمجد فيه راعيها من القديسين. وفى القرن الثانى عشر أخذ أرباب الحرف الأخرى يؤلفون فى كل بلدية نقابة خاصة بهم. وفى القرن ١٣ أخذت هذه النقابات الطائفية فى الانتشار لتشمل كل الحرف، وكانت تقوم بما تقوم به نقابات التجار.

ـ المدن البورجوازية :

وقد كان من الطبيعى أن يصحب انتشار ونمو النشاط التجارى فى أوروبا منذ القرن الحادى عشر انتشار ونمو مماثل

فى المدن الأوروبية، التى أصبحت المراكز الأساسية للحركة التجارية الجديدة.

ففى ذلك الحين كانت كل تجارة تتطلب لها مراكز معينة تتمركز فيها، وقد حددت الطبيعة بعض هذه الأماكن، وجعلتها صالحة للوقوف عندها كمحطات، مثل مصاب الأنهار ونهاية الخلجان، والأماكن التى لا يصلح النهر عندها للملاحة. غير أن التجار كانوا فى حاجة أكثر إلى مراكز يتوافر فيها قسط من الاستقرار والأمن، ولذلك فقد لجئوا إلى المدن الرومانية القديمة، والى القلاع التى بقيت فى عهد متأخر، والتى كانت تقع على طرق المواصلات الطبيعية للتجارة.

وهذا يثير سؤالا مهما عما إذا كانت قد وجدت مدن فى القرن التاسع الميلادى؟ وما الفرق بينها وبين المدن الجديدة للطبقة البورجوازية؟ على أن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على معرفة ماهو المقصود بلفظ مدينة City؟ فإن كان المقصود مجتمعا محليا يعتمد أهله فى معيشتهم على النشاط التجارى بدلا من زراعة الأرض، فإن الجواب يكون النفى. ويكون النفى أيضا هو الجواب إذا فهمنا أنه كان مجتمعا له شخصية قانونية، وله قواعده وقوانينه الخاصة به، لأن هذا المجتمع الذى كان سائداً فى القرن التاسع لم يكن يتميز عن المحيط الذى يحيط به من ناحية خضوعه لنفس القوانين. أما إذا كان المقصود بالمدينة مركزا للإدارة وقلعة للحماية، فان العصر الكارولنجى قد شهد مثل هذه المدن.

وفى الحقيقة أن المدن القديمة كانت تفتقر إلى سمتين أساسيتين تميزت بهما المدينة الجديدة. وهما طبقة وسطى، وتنظيم اجتماعى Communal Organization بالمعنى الاجتماعى والاقتصادى والقانونى لهذه الكلمة، وإنما كانت المدن القديمة عبارة عن مراكز حصينة تعرف باسم Bourg بها مقرات للإدارة، ولم يتمتع سكانها بأية قوانين أو نظم خاصة بهم، ولا بأسلوب للمعيشة يميزهم عن بقية المجتمع. وكان النشاط التجارى والصناعى غريبا عنهم تماما، كما كانت جماعاتهم قليلة الأهمية، إذ كل الدلائل تشير إلى أن سكان المدن التى كانت تسمى Bourg لم يتجاوز عددهم ألفين أو ثلاثة الآف.

فإلى أى حد يمكن القول إن المدن البورجوازية قد نشأت من هذه المدن الرومانية، وإلى أى حد يمكن القول إنها نشأت كأثر من آثار التطور الاقتصادى الذى ظل يجرى فى مجراه زمنا طويلا؟

فى الواقع أن كثيرا من المدن الرومانية قد حافظت على وجودها المستمر ونظامها الرومانى طوال قرون الفوضى والاضمحلال، خصوصا فى إيطاليا وفرنسا الجنوبية الشرقية. ولذلك نجد أن المدن البورجوازية التى قامت فى إيطاليا وجنوب فرنسا وأراضى الراين، قد قامت فى نفس أماكن المدن القديمة، وفى داخل نفس حوائطها التى كانت للبلديات القديمة Municipia.

أما فى شمال الألب، فإن قوانين القبائل الهمجية كانت قد طغت على التراث الرومانى، وتسربت بعض العادات السياسية

السـائدة فى القـبـيلة والقـرية الألمانيـة إلى البلديات القـديمـة، ولذلك نشـأت المدن البورجوازية شمـال الألب من تطور المراكز التجارية.

ومـع ذلك فحتى فى إيطاليا نفسـها نجد أن المدن البورجوازية لا تدين للبلديات القـديمـة Municipia بأكـثـر من الآثار القـديمـة والحـوائط المتـآكلة والكنائس. فـقـد قـامت المدن الجـديدة على نظم جديدة مـسـتوحـاه من النشـاط التجـارى ومـا تبعه من قيام طبـقة التجار.

وقد مـر اسـتـقـرار التـجـار فى تلك المدن وفى الـ Bourg بعدة مراحل وأطوار. فقد استقر التجار فى بادئ الأمر داخل الحوائط، ثم فيما بعد خارج الحـوائط عندما زاد عددهم. ونتيـجة لذلك نـشـأت خارج الـ Bourg مدينة أخرى هى الـ Faubourg.

وهكذا أصـبـحت المدن البـورجـوازية تتكون من عنصـرين، وطبقتين مـختلفـتين أيضـا: الأولى هى الـ Bourg وهى الأقدم، وهى مكان مـعـين يرجع إنشـاؤها إمـا إلى الرومـان أو إلى العـصـر الإقطاعى، ويقطنهـا سـكان من رجـال الدين والفـرسـان والأقنان، ويعتمدون فى مـعيشـتهم على الزراعة. والثـانية وهى الـ Faubourg التى كانت ثمرة نمو الطبقة التجارية.

ومـا لبثت الـ Bourg أن أصـبـحت تـابعـة للـ Faubourg، نظرا لتوقف نموها. لقد بقيت فى الحقيقة الواجبات التى تؤديها، ولكن لم

تكن ثمة حاجة لازدياد عدد الفرسان أو رجال الدين، كما لم تكن هناك حاجة أيضا لتطور النظم المتعلقة بإدارة مثل ذلك المجتمع الزراعى البحت.

أما الـ Faubourg فقد أخذت تنمو حثيثا مع ازدياد النشاط التجارى الذى جلب إليها أعدادا لا تنقطع من سكان الأقاليم المجاورة، حتى أصبحت الـ bourg عبارة عن مجرد حى مركزى من أحياء المدينة.

من ناحية أخرى إذا نظرنا إلى المركز القانونى لسكان الـ bourg، تجد أنهم كانوا ينقسمون إلى قسمين: السكان الأحرار من رجال الدين والفرسان، والقسم الثانى يتكون من الأقنان. وهذا الأمر لا نجده فى الـ Faubourg، لأن سكانها من التجار من المفروض أنهم أحرار. صحيح أنهم انحدروا من أصول قنية، ولكن من يستطيع أن يثبت ذلك، وهم الذين كانوا جميعا غرباء مهاجرين؟. ولقد أطلق على هؤلاء التجار اسم Burgenses نسبة إلى bourg، وظل هذا الاسم طويلا مرادفا لكلمة تجار قبل أن يأخذ معنى Bourgeoisie.

على كل حال فإذا كان هؤلاء البورجوازيون أحرارا كما ذكرنا، فإن هذه الحرية كانت قاصرة على أشخاصهم فقط، بمعنى أنهم لم يكونوا يملكون الحق فى حكم أنفسهم أو التمتع بأية سلطة قضائية أو قوانين خاصة بهم. لقد كان هناك تباين كبير بينهم وبين المجتمع الذى وجدوا أنفسهم يعيشون فيه، والذى كان قائما على

حيازة الأرض والتملك عليها، وليس فيه أى اعتبار للملكية الشخصية التى كانوا يملكونها. ومن هنا أهمية التمتع بالحقوق المدنية، أو الحرية المدنية – أى التمتع بحقوق يكفلها المجتمع.

وهكذا قام الخلاف بين الماضى والحاضر، ولم يكن فى وسع البورجوازيين الوقوف مكتوفى الأيدى أمام العقبات والقوانين الإقطاعية التى لاتعد ولا تحصى، والتى كانت تقف حائلا بينهم وبين ممارسة نشاطهم على الوجه المطلوب. وهكذا أخذوا يطالبون برفع جميع القيود التى تثقل الحياة الاقتصادية. ولما كانوا لا يملكون إلا الزواج من عائلات قنية، فلذلك أخذوا يطالبون بالحرية لزوجاتهم ولأطفالهم، ويطالبون بتغيير الأحوال القانونية للمجتمع للتلاؤم مع أحوالهم الاقتصادية، وأخذت نقاباتهم تطالب بالإذن لها بتشريع مايلزم لها من قوانين محلية لتنظيم المعاملات والإعفاء من السخرة، وتطالب بالاعتراف لها بحق النظر فى القضايا غير الجنائية، فضلا عن الحق فى اختيار الموظفين الإداريين.

وبمعنى آخر أنه بعد أن تغيرت العلاقات الإنتاجية، التى تشكل البناء التحتى، أخذت البورجوازية فى تغيير البناء الفوقى السياسى والقانونى.

على أنه لما كانت المدن قد نشأت بطبيعة الحال فى ممتلكات أحد النبلاء أو رجال الكنيسة، فقد كان على البورجوازية لتحقيق أغراضها أن تتجه إلى هؤلاء. وقد اتبعت فى ذلك وسيلتين:

ـ الأولى : شراء الامتيازات وبراءات الاستقلال Charters.

ـ الثانية : انتزاع هذه الامتيازات والبراءات انتزاعا.

وقد حصلت البورجوازية فى مدن شمال إيطاليا على أول قسط من حريتها على فترات متقطعة فى القرن الحادى عشر، تارة بالمساومة، وتارة بالاغتصاب. ففى بيزا، على سبيل المثال، نسمع عن اتفاقية بين الأسقف والبورجوازيين (١٠٨٠ ـ ١٠٨٥م)، تولوا بمقتضاها الحق فى تشكيل اتحاد، وعقد اجتماعات عامة، وانتخاب قناصل أو نواب يتعاونون مع الأسقف فى الحكم. وحدث ذلك أيضا فى جنوة سنة ١١٢٢م.. وقد ساهم الأباطرة فى إنجاح الحركة الجديدة أملا فى تأييد البورجوازية لهم فى صراعهم المرير ضد البابوية وضد الإقطاعيين.

أما فى إنجلترا فقد حصلت البورجوازية على مطالبها بالطريقة الثانية، وهى الاغتصاب، فبهذه الطريقة نالت بورجوازيات كثير من المدن الإنجليزية الحكم الذاتى، من ريتشارد الأول ومن سادة الإقطاع.

ويمكن القول بأنه حين تكون المدينة تحت سيادة، أو فى أرض سيد واحد، سواء أكان ملكا أم إقطاعيا، فإن الحصول على البراءة التى يخولها الحكم الذاتى كان يتم بسهولة، وبالعكس إذا كان جزء من المدينة ينتمى إلى سيد، والجزء الآخر ينتمى لسيد آخر، فإن الأمر كان يتطلب مزيدا من الجهد والوقت أيضا!

ويلاحظ أن رؤساء الأديرة والأساقفة هم الذين قاوموا هذه النزعة الاستقلالية أكثر من غيرهم، لأن اليمين التى أقسموها كانت تحتم عليهم ألا ينقصوا من موارد أديرتهم أو كراسيهم الأسقفية. ومن أجل ذلك كان كفاح البورجوازيين ضد رجال الكنيسة شاقا ومريرا إلى أقصى حد.

وفى منتصف القرن الثالث عشر بلغ عدد المدن التى تمكن البورجوازيون فيها من الحصول على البراءات حوالى ٢٠٠ مدينة، يبلغ عدد سكان كل منها من ١٥٠٠ إلى ٤٠٠٠ نسمة، وكانت لندن تبلغ غالبا ٢٥ ألف نسمة، فى حين كان عدد سكان بريستول ويورك، وهما من أكبر المدن الإقليمية عشرة آلاف تقريباً.

وقد تطلب تحرير المدن فى فرنسا كفاحا عنيفاً من البورجوازية فى أغلب الأحيان، وقد تمكن الأساقفة بما كانوا يصدرونه من أحكام الحرمان تارة، والعنف تارة أخرى، من القضاء على الحكومات المحلية التى أقامها البورجوازيون.

أما فى شمال إيطاليا وفى الفلاندرز، فقد كان الحال يختلف، إذ كانت بورجوازيتها على درجة من القوة وضعتها موضع المساواة مع السادة الإقطاعيين، وفى شمال إيطاليا بالذات بلغت البورجوازية من السلطان السياسى مالا يعرف له نظير فى ذلك الوقت، وإن ظلت المدن فى القرن الخامس عشر تعترف بسيادة الإمبراطورية الرسمية، وتصدر أوراقها الحكومية باسمها، ولكنها كانت من جميع الوجوه حرة مستقلة. وقد نجحت فى نهاية الأمر

فى تكوين جمهوريات حرة منفصلة عن الدولة الإقطاعية التى ظهرت فى وسطها، كان يطلق عليها كومونات Communes.

أما فى أسبانيا فقد بسط ملوكها رعايتهم على الحكومات المحلية ليتخذوها معولاً لتقويض سلطان الإقطاعين المشاغبين، ولهذا كانت البراءات التى منحت للمدن البورجوازية بعيدة المرمى فى الحرية، وعلى هذا الأساس نالت Leon (وهى غير ليون الفرنسية) براءتها من ملك قشتاله سنة ١١٢٠م، ونالت طليطلة براءتها سنة ١٠٨٧م، وكذا برشلونه وغيرها.

أما فى ألمانيا فقد تطلب تحرير مدنها زمنا طويلا. وقد تم ذلك غالبا بطريق السلم. وقد منح الأساقفة ، الذين ظلوا عدة قرون يحكمون حكما إقطاعيا من قبل الأباطرة، المدن حق اختيار حكامها وسن قوانينها.

ولم ينقض القرن الثالث عشر حتى كانت الثورة البورجوازية فى سبيل الحكم قد تم لها النصر فى أوروبا الغربية.، فقد خلعت المدن عن عاتقها السيادة الإقطاعية، وتخلصت من الضرائب والمكوس الإقطاعية، وحصرت حقوق رجال الدين فى أضيق نطاق، وإن كانت كثرتها الغالبة لم تنل حريتها كاملة. وكان البورجوازيون هم المسيطرون على الحياة المدنية والاقتصادية.

وقد اعترفت كل الحكومات المحلية تقريبا بنقابات التجار الطائفية، باعتبارها هيئات ذات حكم ذاتى. وكانت الحكومات

المحلية ونقابات التجار الطائفية فى بعض الأحيان هيئة واحدة!، ولكنها كانت فى العادة منفصلة إحداهما عن الأخرى، غير أن الحكومة المحلية قلما كانت تعارض مصالح النقابات الطائفية.

- عصبة المدن الهانسية :

بلغت المدن البورجوازية فى ألمانيا وإيطاليا أقصى ما تستطيع من قوة واستقلال بسبب عدم وجود حكومة مركزية قوية تستحق الذكر، وتكونت اتحادات للتجارة والحرب، منها عصبة المدن الهانسية Hanseatic League، التى شهد القرن الرابع عشر أيام عظمة هذه العصبة حين كانت نقابات التجار تمد سيطرتها فى مدن البحر البلطيقى، وذلك قبل أن يغير كشف العالم الجديد طرق التجارة الأوروبية، وقبل أن ينشئ الإنجليز لأنفسهم أسطولا تجاريا.

ففى القرن الرابع عشر الميلادى كانت قد سنحت الفرصة للتجار الألمان، دون غيرهم من التجار، أن يصبحوا وسطاء مبادلة ومتاجرة بين بلاد شمال غرب أوروبا، وكثر عدد التجار الألمان الذين غدوا عاملا مهما فى التجارة. ولكن التجارة كانت غير آمنة فى تلك العصور، بسبب قراصنة البحار وقطاع الطرق، ثم سيطرة الدانيين Danish بشبه جزيرتهم الدانمارك على مضيق Sound

السوند الواصل بين بحر الشمال والبحر البلطيقى، مما جعلهم شوكة فى حلق ألمانيا، ومصدرا لإيذاء السفن الألمانية المستخدمة فى التجارة وصيد الأسماك.

وهكذا وجب على التجار الألمان أن يأخذوا الدانيين المزعجين بشئ من السياسة، وأن يحيطوا محطات التجارة الألمانية فى إنجلترا وإسكنديناوه بشئ من الامتيازات عن طريق الشراء بالمال، وأن يؤمنوا سفن التجارة وصيد الأسماك ببعض وسائل التأمين. غير أن القيام على تلك الواجبات لم يكن فى مقدور مدينة من المدن الألمانية بمفردها. ولذا تعين عليها أن تتحد، وأن تعتمد على اتحادها كل الاعتماد.

مع هذا كله لم تستجب طوائف التجار إلى نداء المصلحة إلا بعد تردد طويل ومفاوضات أطول، فاتحدت لوبيك Lubeck وهامبورج سنة ١٢٤١م، وأخذ ذلك الاتحاد يتسع رويداً رويداً حتى شمل جميع المدن المهمة من نوفجورود Novgorod فى روسيا إلى بلجيكا الحالية، وكان يضم ٥٢ مدينة، ويشرف على مصب جميع الأنهار الكبرى، مثل الراين والألب والأودر Oder والفستولا Vistula التى تنقل غلات أوروبا الشمالية. وظل مدة طويلة يحتكر مصايد الرنجة فى البحر البلطيقى وتجارة القارة الأوروبية مع إنجلترا.

وقد أنشأت العصبة محاكم للفصل فيما يشجر بين أعضائها من نزاع، والدفاع عنهم فيما يقام عليهم من قضايا من البلدان

الخارجية، وكانت فى بعض الأحيان تحارب بوصفها سلطة مستقلة.

وقد حدث ذلك حين اصطدمت مصالحها بمصالح فالديمار الثالث Waledemar ملك الدانمارك ومطامعه، وخاضت ضده حربين شهيرتين فى تاريخ العصبة الهانسية، ثم انتهى القتال بين الفريقين سنة ١٣٧٠م بمعاهدة سترالسند Stralsund، وهى المعاهدة التى جعلت للعصبة المظفرة حق الإشراف على مضيق السوند ومصادر الأسماك فى البحار المجاورة، فضلا عن حق التدخل فى اختيار الملك بالدانمارك.

وقد سنت العصبة قوانينها لتنظيم العمليات التجارية، بل وتنظيم السلوك الأخلاقى بين أعضائها، مدنا كانوا أم ناسا. وكانت تحمى التجار المنضمين إليها من القوانين والضرائب والغرامات غير القانونية، وتفرض على أعضائها مقاطعة المدن التى تسىء إليها، وتعاقب المماطلين فى الدفع والمخلين بالأمانة.

ولكن فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى أخذت عصبة المدن الهانسية تمشى فى طريق الانحلال تدريجيا، حتى ذهب عنها سلطانها، حين هاجرت الأسماك لغير سبب معلوم من شواطئ البحر البلطيقى إلى شواطئ بحر الشمال!

وفى أواخر ذلك القرن تطورت الأوضاع السياسية تطورا غير ملائم لمصالح الشركة العامة للتجار الألمان General Company of

German Merchants وهو الاسم الرسمى لعصبة المدن الهانسية – وقامت قوى بحرية أخرى فى إنجلترا والأراضى المنخفضة والسويد والدانمارك تنافس العصبة أحر المنافسة. ثم أخذت تجارة البلطيق، وكذلك البحر المتوسط، تتراجع إلى المقام الثانى مع اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، ومع اكتشاف كولومبوس وكورتيز وبيزارو لعالم جديد فى الغرب حافل بالثروة والمجد.

- زحف الحياة البورجوازية على أوروبا :

وعلى كل حال، فيهمنا أن نتتبع كيف غيرت الطبقة البورجوازية وجه الحياة فى أوروبا. فقد رأينا كيف ساعدت على ظهور الملكية المطلقة فى أوروبا الغربية، وقد أدى ظهور المدن واتساع الموانى، وإنشاء الأساطيل الحربية والتجارية، وقيام البنوك والمصارف، واتساع نطاق أعمالها، إلى تغير وجه الحياة فى أوروبا، وأخذت تلك الحياة التجارية تغير نظرة الناس فى العصور الوسطى إلى الحياة، فتزعزعت أسس وتقاليد العالم القديم.

ومن ناحية أخرى، فإن المجتمع الأوروبى الحديث أخذ كثيرا من المنظمات السياسية والإدارية والاقتصادية عن المدن، ومنها التنظيمات الخاصة بالنقابات والجمعيات المنتجة والنظام البلدى والمدنى.

ومن الناحية الثقافية كان النشاط التجارى قد استلزم الإلمام بالقراءة والكتابة، ومن ثم فلم تعد مدينة فى أوروبا منذ القرن ١٢م فصاعدا إلاّ وبها مدرسة. كذلك أصبح لكل مدينة أرشيفها وسجلاتها، مما أدى إلى انتقال مراكز التعليم من المؤسسات الكنسية والأديرة إلى مدارس المدن، فنشأ التعليم المدنى أو العلمانى.

ويمكن فهم أهمية الدور الذى لعبته المدن البورجوازية فى هذا السبيل، إذا أدركنا تلك الحقيقة القائمة من أيام الفينيقيين والإغريق، من أنه لايمكن الفصل بين التبادل التجارى والتبادل الفكرى والثقافى. وعلى هذا النحو يمكن القول إن أوروبا اكتست ثوبا جديدا بظهور الطبقة البورجوازية، ونمو المدن منذ القرن الحادى عشر الميلادى.

ـ البورجوازية والاستعمار :

على أنه من جانب آخر، فان نمو الطبقة البورجوازية قد اقترن بالاستعمار والفتوحات الاستعمارية، ذلك أن الطبقة البورجوازية لم تلبث أن أخذت تنمو نموا هائلا مع حركة الاكتشافات الجغرافية، التى بلغت أبعد آفاق الكرة الأرضية. فقد أعقبت هذه الاستكشافات حركة الفتوحات الاستعمارية فى أمريكا الجنوبية والوسطى على يد

الأسبان والبرتغاليين، وفى أمريكا الشمالية على يد الإنجليز والهولنديين والفرنسيين، ثم فتح مناطق مختلفة فى الشرق الأقصى وأفريقيا بحثا عن التوابل والذهب والعبيد.

ومع أن قصة هذه الفتوحات هى قصة من النهب والسلب والاسترقاق والاغتصاب، إلا أن تأثيرها على الحياة الاقتصادية فى أوروبا كان تأثيرا عميقا، فقد عجلت بازدهار البورجوازية ازدهارا هائلا بسبب اتساع نطاق الأسواق والمبادلات إلى حد لم يعرفه العالم من قبل، وبسبب تدفق المعادن الثمينة إلى غرب أوروبا: إلى البرتغال وأسبانيا أولا، ثم إلى بقية القارة ثانيا، مما كانت نتيجته المحققة بالنسبة للبورجوازية هو تضخم أرباحها وازدياد ثرواتها، وتجمع الثروات النقدية فى أوروبا الغربية، وتوافر المنتجات المستوردة من الشرق والغرب، والتوسع الكبير فى فروع الإنتاج الأخرى، سواء فى الصناعة وبناء السفن واستغلال مناجم الفحم والحديد، أو فى الزراعة بالاتجاه إلى المنتجات التجارية، كما حدث فى إنجلترا حيث تحولت مزارعها إلى مراعٍ لتربية الأغنام وطُرد الفلاحون منها، وذلك لإنتاج الصوف بعد اتساع الأسواق التجارية.

ولقد كانت نتيجة هذه التغيرات أن أصبح النظام الإقطاعى بحواجزه المعروفة، وعلاقاته التى ذكرناها، عقبة فى سبل التقدم. فأخذ فى الانهيار بشكل ثابت، وظهرت علاقات جديدة تتناسب مع

درجة التطور التى بلغتها القوى الإنتاجية فى المجتمع. فلم تعد العلاقة القديمة بين القن والإقطاعى لتصلح بين البورجوازى والأجير. فقامت علاقة جديدة أساسها تعامل البورجوازى مع أجراء متحررين من التبعية التى سادت المجتمع الإقطاعى، وأيضا من القيود الحرفية العديدة التى أقامتها طوائف الحرف - أجراء يضطرهم حرمانهم من ملكية أدوات الإنتاج إلى بيع قوة عملهم إلى البورجوازيين فى مقابل أجر يمكنهم من استمرار حياتهم. وبذلك انهارت علاقات الإنتاج الإقطاعية، وظهرت علاقات جديدة تتناسب مع درجة التطور التى بلغتها القوى المنتجة ومع مقتضياتها.

- ظهور البورجوازية الصناعية :

ومع تطابق علاقات الإنتاج مع قوى الإنتاج، كان لابد من أن تتطور قوى الإنتاج تطورا عظيما دون قيود أو عوائق. وعلى سبيل المثال فإن الثورة الصناعية - ويقصد بها جميع التطورات التى طرأت على الصناعة الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى - إنما أطلق عليها ثورة لأن الكثيرين من الكتاب والباحثين قد اعتقدوا أن أغلب هذه التطورات كانت مفاجئة وسريعة، ولأنها كانت انقلابا تاما فى وسائل وطرق الصناعة - مع أن الواقع أن هذا التطور فى الصناعة لم يكن مفاجئا، إذ أن الصناعة تعرضت للتطور منذ القرن السادس عشر الميلادى، مع نمو البورجوازية

وازدهارها، ولكن التقدم الفنى كان يلاقى صعوبات تتفاوت شدة وضعفاً تبعا لقوة وضعف بقايا النظام الإقطاعى، فقد أدخلت تحسينات متعددة على صناعات السفن والزجاج والساعات والذخائر، واستعمل الأوروبيون القوى المحركة، سواء كانت قوى حيوان أو هواء أو ماء، وحتى البخار استعمله الأوروبيون ابتداء من سنة ١٧٠٠م.

ومع ذلك فمدينة دانزج منعت استعمال آلة جديدة للغزل، وقامت باعدام مخترعها سنة ١٥٨٦م! ومنع شارل ملك إنجلترا استعمال آلة لصناعة الأزرار النحاسية فى سنة ١٥٣٢م، بحجة أنها تهدد عمال هذه الصناعة بالبطالة. ولكن مع التخلص من بقايا النظام الإقطاعى، واتساع حركة التجارة على يد الطبقة البورجوازية، أخذ التقدم الفنى فى الصناعة يلقى كل مساعدة من البورجوازية، وترتب على ذلك ظهور الطور الثانى من أطوار نمو البورجوازية، وهو البورجوازية الصناعية، فظهر الإنتاج الكبير فى نطاق المصانع الضخمة القائمة على استعمال القوى المحركة، بدلا من مجهود الإنسان العضلى، وطبقت العلوم المختلفة، التى تطورت فى ذلك الحين لحاجة الإنتاج إليها، على عملية الإنتاج بأوسع مدى وهو مايعرف بالتكنولوجيا.

وقد أخذت هذه المصانع تحل محل المصانع اليدوية والورش الحرفية، فجمعت عددا كبيرا من العمال فى هيكل إنتاجى يتميز

عن الهياكل القديمة بأنه هيكل ضخم يفوق إمكانة أى حرفى بمفرده، حيث يضم المبانى والأجهزة والآلات والمنافع المختلفة اللازمة للإنتاج، كما يتميز بأن إنتاجية العمل فى مثل هذا المصنع لاتقارن بإنتاجية العمل القائم على أدوات بسيطة، فضلاً عن ذلك، فإن نمط العمل فى هذه المصانع يختلف تماماً عن نمط العمل الحرفى أو المنزلى سواء من حيث الالتزام فى المصانع بعدد محدود من الساعات، أو من حيث حرص صاحب العمل على استغلال كل دقيقة من وقت العمل، والقضاء على التهاون والتراخى، وأخيرا تشجيع النساء والأطفال على الاشتغال بتلك المصانع لزيادة عدد الأيدى العاملة وتخفيض أجرها بالتالى.

وقد كان أساس العلاقات الجديدة فى هذه المصانع، وهى التى تختلف عن العلاقات الإقطاعية كل الاختلاف، هو ملكية البورجوازى لأدوات الإنتاج فحسب، مع شرائه لقوة عمل غيره من الأفراد المتحررين من كل تبعية ـ أى البروليتاريا ـ نظير ثمن معلوم هو الأجر.

ـ البورجوازية القانونية :

على كل حال، يجدر بنا أن ننتقل إلى جناح آخر من أجنحة البورجوازية الأوروبية، وهو البورجوازية القضائية أو القانونية. وقد

نما هذا الجناح من أجنحة البورجوازية مع تضخم مصالح البورجوازية، وحاجتها إلى الدفاع عن هذه المصالح، وتغيير قوانين المجتمع الإقطاعى لتتلاءم مع وضعها الجديد، وحتى تكون لها محاكمها المستقلة فى وجه المحاكم الدينية ومحاكم النبلاء. فأخذ البورجوازيون فى دراسة الحقوق ليتسنى لهم تسنم مناصب القضاء فى الدولة لمساندة قضاياهم المالية.

وقد ساهم هؤلاء فى تطوير القوانين بما يتناسب مع الوضع الاجتماعى الجديد، وساعد على ذلك تزايد المصالح المادية وتزايد نشاط الحركة التجارية. وقامت جامعات كبرى أثرت تأثيراً كبيراً فى تطوير دراسة الحقوق، ومن أشهرها جامعة بولونى.

وفى البداية كان الحقوقيون من الإقطاعيين والبورجوازيين، وقد حاول كل فريق منهم أن يدون قوانين طبقته وعاداتها، ولكن القانونيين البورجوازيين تفوقوا، لأن القوانين التى شرعوها كانت تتلاءم مع المجتمع الجديد، ولأن البورجوازية كانت طبقة غنية بدأت تبرز فى شكل كبير فى المجتمع رغم ماقام فى وجهها من عقبات.

وفى الوقت الذى كان الحقوقيون الإقطاعيون يوجهون فيه خدماتهم لمصلحة إقطاعاتهم، فإن الحقوقيين البورجوازيين كانوا أحرص مايكونون على الدولة القومية، وعلى مصلحة الحكومة المركزية، وكانوا خُداماً لها متطرفين، وكانوا يقفون على الدوام إلى جانب الملك فى أى خلاف بينه وبين الكنيسة، بل ولم يتورعوا عن

مهاجمة تدخل الكنيسة فى شئون الدولة، والدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وتركيز السلطة فى الدولة وتوحيدها.

ولقد كان على يد القانونيين البورجوازيين أن أخذت تتطور سلطة الملك لتقوى فى الصراع الناشب بين الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين. فقد كان الملك فى العهد الإقطاعى مجرد سيد من الأسياد، لاتمتد سلطته لأبعد من منطقته الخاصة، حتى لم يكن له الحق فى التدخل فى شئون الإقطاعات الأخرى، أو يفرض أى قانون الا بعد إستشارة مجلس إستشارى من النبلاء أنفسهم، ولتقوية سلطة الملك فى الدولة القومية الجديدة سن الحقوقيون البورجوازيون النظرية الجديدة القائلة بربط الدولة بأجمعها بارادة الملك، وبحكم الملك المطلق، وبحقه فى سن أى قانون يريد دون أن تستطيع أية سلطة أخرى أن تلغيه. وهكذا بدأت تظهر نظرية «سلطة الملوك الإلهية» أو حق الملوك الإلهى فى الحكم.

ـ البورجوازية الزراعية :

وقد كان من الطبيعى أن تتطرق جهود الحقوقيين البورجوازيين إلى حق الملكية. وكانت المِلْكية فى ذلك الحين غير محددة تماما، وكانت كل الكتابات التى دارت حول هذا الموضوع منذ العصور الوسطى تتجه نحو تأكيد الملكية الشخصية، ومِلْكية الأرض وما تنتج، ولكن إذا أردنا أن نعرف تماما من كان المالك فى

تلك العهود، لوجدنا أن القن كان له الحق فى استخدام الأرض وزرعها والحصول على قسم من إنتاجها، ورعى مواشيه فيها، وكان له أيضا أن يورث حقه من بعده لأبنائه، ولكن لم يكن له أن يتخلى عن الأرض أو يتصرف فيها أى تصرف.

أما البارون، فقد كان هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضى ومن عليها من السكان، وذلك مقابل قسم إقطاعى يقسمه للملك أو السيد اللورد على أن يؤدى له خدمات حربية معينة. ومن الناحية النظرية كان من الممكن أن يسترد السيد اللورد الأرض متى يشاء، إذا أخل البارون بشرط من شروط القسم الإقطاعى أو مات ولم يترك وريثا.

وبطبيعة الحال فإن هذا المفهوم لم يكن يتفق مع العقلية البورجوازية التى قامت على التجارة، ومن طبيعتها أن تبيع وتشترى وتتصرف كما تشاء فيما تشترى منذ أن تدفع ثمنه. ولما كانت نظرة القانون الرومانى إلى الملكية فى عصر العبودية، تقول بأن «للمالك الحق فى التصرف فيما يملك حسبما يشاء». فقد اتفقت هذه النظرة مع نظرة الحقوقيين البورجوازيين، لأنها تلائم حاجات وضعهم الاقتصادى ووضع طبقتهم.

وفى ذلك الحين كان نظام الأجر يحل شيئا فشيئا محل نظام تبادل الحقوق والواجبات. فبعد أن كانت العلاقة بين السيد والقن تقوم على أن يقدم السيد الأرض للقن، ويقوم هذا بزراعتها للسيد

مقابل حصة منها يشغلها لحسابه الخاص، أصبحت العلاقة هى بين صاحب عمل وعامل، يهيئ الأول للعامل العمل، ويتقاضى هذا عن عمله أجرة مالية. وفى الوقت نفسه لم تعد الأرض ذاتها مجرد ملك مادى، وانما أصبحت ذات قيمة مالية معينة، فهى سلعة كباقى السلع.

وقد عمق البورجوازيون هذا المفهوم، وأخذوا يشترون أراضى الكثيرين من النبلاء المفلسين، وشاعت ظاهرة التملك بين القضاة والتجار، وأصبحت الأرض قاعدة للإثراء أكثر من المال، وكانت الإقطاعية فى طريق الانهيار المادى شيئا فشيئا، ومن حولها الطامعون من البورجوازيين الذين يملكون المال، والذين تكونت منهم طبقة بورجوازية زراعية، كانت بالنسبة للفلاحين أسوأ من سادتهم الإقطاعيين السابقين، فقد أحالوا هؤلاء الفلاحين إلى أُجراء.

وفى الوقت نفسه أخذ هؤلاء الأسياد الجدد يعملون على إعادة النظم الجائرة السابقة، وإعادة ماكان لها من فاعلية، ودرجت مجموعة منهم على محاولات ضم الأراضى الصغيرة بعضها إلى بعض، وتوحيد الأراضى التى جزأها التقسيم بسبب الإرث والبيع وغيره، فبدأت الملكية تتسع وتكبر على حساب صغار المنتجين، ولم يعد الفلاح الصغير فى نظام الملْكية الجديدة ذا سلطة على الأرض، بل غدا مجرد عامل لا علاقة له بالأرض إلا أن يعمل فيها ويحصل على أجره، مما جعل الفلاحين يطالبون بإعادة النظام الإقطاعى

القديم، الذى كان يسهل لهم حياتهم رغم القيود المفروضة عليهم! أما بعد تملك البورجوازيين للأرض فقد فقدوا تقريبا كل وسيلة للعيش وكل علاقة بالأرض.

ـ البيروقراطية البورجوازية :

ننتقل الآن إلى جناح آخر من أجنحة البورجوازية الأوروبية، وهو جناح البيروقراطية. وقد نشأ هذا الجناح مثل زميله القانونى مع تزايد نشاط البورجوازية التجارية والصناعية. ذلك أنه على الرغم من أن التجار والصناع أصبحوا يؤلفون طبقة حيوية منتجة، فإن السيطرة على جهاز الدولة الإدارى كانت لطبقتى النبلاء ورجال الدين. ولذلك كان لابد للبورجوازية أن تحاول الوصول إلى المراكز الحكومية لتخدم مصالحها وترعى شئونها. ويذكر بعض المؤرخين أن هذه الطبقة قد تميزت بفهم غريب لدور الوظائف، فكانت تستولى عليها شيئا فشيئا وتمد جذورها فى كل ركن من أركان الحكومة، حتى كادت تصبح الطبقة الوحيدة التى تقتسم الوظائف الصغيرة منها والكبيرة.

ولقد كانت طريقة شراء الوظائف، وسيلة استطاع بها قسم كبير من البورجوازيين الوصول إلى الوظائف، وكانت حاجة الملك إلى المال تدفعه إلى قبول هذه الطريقة. وكان باستطاعة الموظف أن يبيع وظيفته بدوره، ثم تطور التوظيف فأصبح وراثيا، وبذلك نشأت

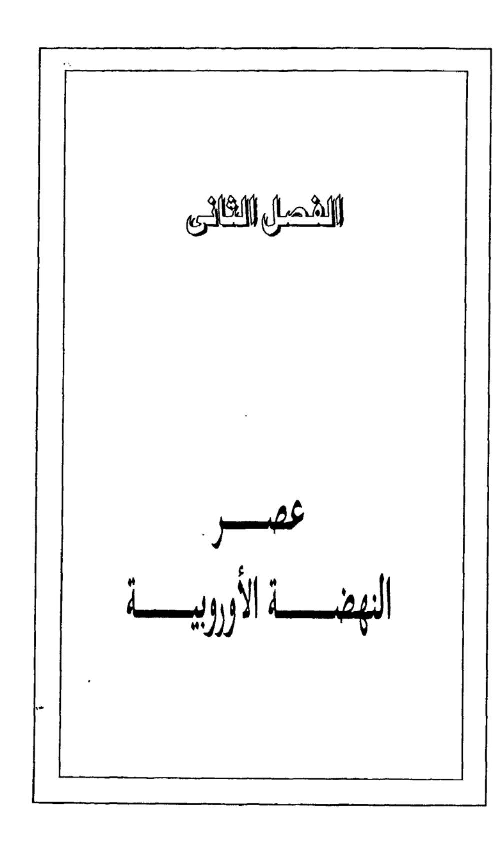
طبقة بورجوازية من الموظفين. ولم تلبث هذه الطبقة من الموظفين الإداريين الوارثين أن أخذت تكسب الكثير من الامتيازات وتشترى ألقاب النبل، فسموا بنبلاء الرداء.

وبطبيعة الحال فلما كانت الوظائف تشترى بالمال، فقد كان هم الموظف أن يكسب من وظيفته بقدر ما يستطيع على حساب الشعب، وكان التنافس بين البورجوازيين على الوظائف كبيرا، فقد كان البورجوازى عندما يحصل قدرا من المال، يبحث عن وظيفة تؤمن له ولأولاده العيش الرغد. وكانت الوظيفة الأكثر ربحا يتزاحم عليها الأثرياء من البورجوازيين لأنها مورد للرزق مضمون.

وقد استعانت الملكية بالبيروقراطية البورجوازية فى مواجهة النبلاء والرقابة عليهم. وخير مثال على ذلك لويس الرابع عشر، الذى كان كل موظفى قصره وحكومته من البورجوازيين الذين تمرسوا بالحكم وعرفوا وسائل الوصول إلى الوظائف واستغلالها، وكانت فى أيديهم أهم مراكز الدولة طيلة مدة حكمه.

وكان لويس الرابع عشر مضطرا إلى التعاون مع هذه الطبقة بسبب حاجته إلى المال، وكانت هذه الطبقة تعرف جيدا كيف توجد له المال اللازم لحروبه وبلاطه، كما أنها كانت تعرف كيف تجمع له الضرائب، وكيف تضع قوانينها وتقوم بتنفيذها، وكان بيدها سلطة التفتيش على الصناعة والتجارة وكل موارد الدولة.

وكان صاحب الفضل فى تدعيم الحكومة المركزية الرئيسية بهذه البيروقراطية البورجوازية هو ريشيليو، الذى كان وزيرا فى عهد لويس الثالث عشر، وأصبح رئيسا لمجلس الملك، وبقى حوالى ١٨ سنة يهيمن على شئون فرنسا. وكانت سياسة ريشيليو تقوم على تقوية سلطة التاج المركزية فى وجه النبلاء الإقطاعيين، ولذلك فقد أعاد تنظيم الإدارة على أساس دعم سلطان الحكومة المركزية فى الشئون المحلية، وأوجد نظام المأمورين أو مفتش الملك Intendant للتفتيش على شئون القضاء والمالية والأمن والأقاليم، والإشراف على الحكام المحليين والمجالس المحلية والبرلمانات القديمة القضائية. وقد أدى نظام المأمورين هذا، أعظم الخدمات للملكية من حيث تركيز السلطة فى يد الحكومة المركزية.



الفصل الثانى

عصر النهضة الأوروبية

عصر النهضة الأوروبية

(أولاً) : النهضة فى إيطاليا :

كلمة النهضة هى الترجمة العربية لكلمة Renaissance أى البعث أو الإحياء. وهى تطلق على التجديد والنهوض والخلق والابتكار الذى حدث فى أوروبا فى مجالات الأدب والفلسفة والدين والعمارة والتصوير والنحت والعلم والسياسة والقانون. ومن ذلك يتضح أن مجال النهضة هو البناء الفوقى للمجتمع الأوروبى. ولما كان البناء الفوقى هو انعكاس للبناء التحتى المكون من العلاقات الإنتاجية، ولما كانت العلاقات الإنتاجية الإقطاعية قد أخذت تتغير فى ذلك الحين إلى علاقات بورجوازية بظهور الطبقة البورجوازية فى أحشاء المجتمع الإيطالى منذ القرن الحادى عشر، فإن النهضة التى تشمل التجديد والنهوض فى جميع المجالات الإنسانية التى ذكرناها تكون بالضرورة انعكاسا للعلاقات الإنتاجية الجديدة وبروز الطبقة الاجتماعية الجديدة وهى البورجوازية.

وهذا أمر طبيعى، ويمكن تبينه إذا عرفنا أن هذه النهضة لم تقم قبل ظهور الطبقة البورجوازية فى العصور الوسطى، ولم يكن

من الممكن فى الحقيقة، فى ظل سيطرة نظام الإقطاع والكنيسة المطلق، أن تقوم، لأن النظام الإقطاعى لم يكن ليفرز أو ليعكس تغييرا يتناقض مع أسسه وقواعده.

ولعل أهم دليل على هذه الحقيقة هو بدء النهضة فى إيطاليا قبل غيرها من الدول الأوربية الأخري. فلقد رأينا من دراستنا لظهور الطبقة البورجوازية كيف أن المدن البورجوازية كانت في إيطاليا أقوي من مثيلاتها في الأقطار الأوروبية الأخرى، فقد تحررت المدن الإيطالية من سيطرة الإقطاع قبل غيرها من المدن الأخرى، وأصبحت عبارة عن دويلات صغيرة.

وقد حكم هذه المدن حكام مطلقون. ففى ميلان كانت تحكم أسرة فسكونتى Visconti، وفى فلورنسا كانت السيطرة لأسرة مديتشى Medicci وهكذا.

ودليل آخر هو أن النهضة وإن بدأت فى إيطاليا، إلا أنها بدأت فى القسم الشمالى منها، وهو الذى يشمل سهل لمبارديا والبلاد المطلة على البحر، كجنوة والبندقية ومقاطعة تُسكانيا، وبمعنى آخر القسم الذى أصبح منطقة كبرى للمدن. أما القسم الجنوبى منها، بما فى ذلك روما والأراضى المجاورة لها، وفيها مملكة نابولى، والذى لم يتأثر كثيرا بحركة ظهور المدن، وظل يسوده نظام الإقطاع، فقد ظل أقل تطورا من القسم الشمالى، إذ بقى محافظا زراعيا، فى حين كان القسم الشمالى حضريا متطورا.

ولذلك لا نعجب إذا وصف فرديناند سكيفيل Schevill - فى كتابه عن «المجتمع فى عصر النهضة الإيطالية» - عصر النهضة بأنه عصر المدن المتحررة.

وفى الواقع أن المدن البورجوازية الإيطالية الشمالية قد تمتعت برخاء اقتصادى بفضل سيطرتها على أسواق التجارة، وخصوصا البندقية وجنوة اللتين كانتا تقومان بنقل توابل الشرق وحريره وجواهره إلى الموانى والمدن الإيطالية، ومنها عبر ممرات الألب إلى الأسواق الأوروبية الأخرى. وقد أدى هذا النشاط التجارى إلى نمو الطبقة البورجوازية فيها نموا كبيرا وتمتعها بالثراء والغنى. وكان أغلب هؤلاء التجار أهل فن وذوق، فعنوا بالثقافة وشجعوا رجال العلم والفن.

وقد ذكرنا آنفا كيف أن ظهور الطبقة البورجوازية قد أدى إلى ازدياد الاهتمام بالقراءة والكتابة وانتشارها، نظرا لحاجة البورجوازية إليها فى الأعمال الحسابية والمالية والمعاملات وغيرها، وكيف انتشر التعليم العلمانى (المدنى) إلى جانب التعليم الدينى. وقد أوجد ذلك الحاجة إلى اختراع وسيلة يسهل بها انتشار التعليم، والحاجة أم الاختراع، فاخترعت آلة الطباعة أولا فى ألمانيا عام ١٤٥٤م، حيث انتشرت المدن على نحو ما ذكرنا، وكان أول كتاب طبع بالحروف المصفوفة هو الكتاب المقدس باللغة اللاتينية فى مطبعة يوحنا جوتنبرج Gutenberg (١٣٦٧ ـ ١٤٦٨م) ـ من

مدينة مـاينز Mainz على الراين بألمانيا ـ ثم انتشرت الطباعة خلال السنوات التـالية من مدن الراين إلى بقية أوروبا ـ فدخلت إيطاليا عام ١٤٦٥م، وباريس عام ١٤٧٠م وستوكهلم عام ١٤٧٣م وفالنسيا Valencia بأسبانيا عام ١٤٧٤م ولندن عام ١٤٧٧م ومدريد ١٤٩٩م.

وقد كـان من نتيجة اختراع آلة الطباعة انتشار الكتب وانخفاض ثمنها وازدياد الإقبال على العلم والمعرفة. فلم تعد الثقافة والمعرفة مقصورة على رجال الكنيسة، بل أصبحت فى متناول عامة الناس.

وقد تمثلت مظاهر النهضة فى إيطاليا فى الآتى:

(١) حركة إحياء الدراسات اليونانية واللاتينية أو الحركة الإنسانية:

تطلق الحركة الإنسانية humanism على حركة إحياء الدراسات الإغريقية واللاتينية وما تفرع عنها من حركات أخرى. ويعتبر الدافع على إحياء الدراسات الكلاسيكية (القديمة) هو التغيير الكبير الذى طرأ على الروح الأوروبية كنتيجة لنمو علاقات إنتاجية جديدة، وما ترتب على ذلك من تدهور العلاقات القديمة وتدهور المؤسسات التى تسند هذه العلاقات. وخصوصا الكنيسة.

وكانت الكنيسة ـ كما ذكرنا ـ هى أداة العلاقات الإنتاجية القديمة الفكرية التى تدعمها بالعلم والمبادئ والنظريات. وكانت هذه

التعاليم تقوم على احتقار الجسد واحتقار الدنيا ومتاعها ولذاتها، وتحرض الإنسان على أن يقف من الحياة موقفا سلبياً، وأن يعرض عنها. ولما كانت هذه التعاليم لا تتفق، بل وتتعارض مع نظرة الطبقة البورجوازية الجديدة العملية والمادية من الحياة، إذ هى طبقة دائبة النشاط تستمد حياتها من نشاطها واجتهادها وحاجتها إلى الاستمتاع، فقد كان من الطبيعى أن تصطدم هذه النظرة الأخيرة بنظرة الكنيسة وتتصارع معها.

وهذا يفسر كيف أن حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية قد بدأت فى المدن الايطالية الشمالية وبتشجيع من حكامها الذين أضفوا على المشتغلين بها الدعم المادى والأدبى.

وليس معنى ذلك أن حركة إحياء الدراسات اليونانية واللاتينية قد قامت على أيدى الطبقة البورجوازية ذاتها، وإنما تعنى أن وجود هذه الطبقة وتغييرها للعلاقات الإنتاجية القديمة، قد أفسح المجال وهيأ المناخ لنمو هذه الدراسات، وأزال العقبات من وجهها التى كانت كفيلة بإحباطها لو لم تظهر هذه الطبقة الجديدة والعلاقات الإنتاجية التى أتت بها.

ـ الفلسفة الكنسية :

كانت الحياة الفكرية والعلمية فى العصر الإقطاعى خاضعة إما للفلسفة الكنسية أو الفلسفة المدرسية، وبالنسبة للفلسفة

الكنسية فإن الكنيسة كانت قد انفردت منذ أواخر القرن السابع بالإشراف على التعليم الذى أصبح دينيا بحتا هدفه إعداد الشباب ليصبحوا رجال دين. وقد تمثل إشرافها على التعليم فى إشرافها على مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات وفى قيام رجال الدين بالتدريس فى غالبية أنواع المدارس الأخرى.

وقد وضعت الكنيسة منهج العصور الوسطى التقليدى المعروف باسم منهج «الفنون الحرة السبع» Seven Liberal Arts كان يدرس فى المرحلة الثانية من مراحل التعليم، وينقسم هذا المنهج إلى مجموعتين: مجموعة ثلاثية، تضم النحو والبلاغة والمنطق، ومجموعة رباعية تضم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. وقبل القرن الحادى عشر كان الاهتمام موجها إلى دراسة النحو اللاتينى لإعداد الطالب للدراسات الدينية، وخلال القرن الثانى عشر أصبح «المنطق» هو الدراسة الرئيسية بعد أن أصبحت مسائل ما وراء الطبيعة واللاهوت أهم موضوعات العصر ـ وعندما ازداد الاهتمام بفلسفة أرسطو وعلومه تغير الاتجاه ووجهت العناية إلى دراسة الفلك والحساب والهندسة.

ـ الفلسفة المدرسية :

أما الفلسفة المدرسية، فإن القرنين الحادى عشر والثانى عشر كانا قد شاهدا حركة تعليمية تمثلت فى مضاعفة عدد

المدارس الكاتدرائية التى تمتعت بنوع من الحرية فى برامجها الدراسية. وقد أدى ازدهار هذه المدارس التى توافرت لها هيئات تدريس من أصحاب الشهرة والكفاءة العلمية، إلى تحويلها إلى معاهد للتعليم العالى لم تلبث أن أطلق عليها اسم «جامعات» تدريجيا. ثم أخذت تكتسب شخصية معنوية كفلت لها الحرية فى الدرس والتحصيل، وترتب على اعتراف السلطة الرسمية فى المدن بشخصية هذه الجامعات المعنوية، حصولها على استقلالها فى تنظيم أمورها إلى جانب منح الدرجات العلمية.

وقد بدأت الجامعات فى الظهور إبان القرن الثانى عشر فى مدينة بولونيا بإيطاليا، وفى مدينة باريس بفرنسا، وتفرعت من جامعة باريس جامعات شمال أوروبا وغربها، وفى مقدمتها جامعة أكسفورد بإنجلترا، ثم إنتشرت فى سائر أرجاء أوروبا.

واشتهرت جامعتا باريس وأكسفورد بدراسة الفلسفة واللاهوت (الفلسفة المدرسية) واشتهرت جامعة «مونبيلييه» فى فرنسا وساليرنو فى إيطاليا بدراسة الطب، وجامعات بولونيا فى إيطاليا وأورليان فى فرنسا وكولونى فى ألمانيا بدراسة القانون.

وقد كان القرن الثالث عشر هو عصر ازدهار الفلسفة المدرسية التى اتجهت إلى التوفيق بين العقل والدين. فقد كانت كتب أرسطو فى المنطق بالذات هى التى اهتم بها أساتذة الجامعات، حيث تلمسوا فيها الأداة لتأييد منطقى لتعاليم الكنيسة التى ظهرت

أصلا كعقيدة صرفة، وبالتالى فقد كان هذا المزج بين المنطق الأرسطوى والعقيدة المسيحية هو قوام هذه الفلسفة التى قام بها العلماء المدرسون الذين قاموا بالتدريس فى تلك المدارس.

وكان أستاذ هذا التفكير المدرسى وزعيم هذه الفلسفة بلا منازع هو توماس أكويناس Thomas Aquinas (١٢٢٥ – ١٢٧٦م) أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحى فى العصور الوسطى، والذى استطاع فى كتابه: «الخلاصة اللاهوتية» أن يعرض العقيدة الدينية مؤيدة بالبراهين الفعلية، ويخلق بمهارة وإقناع توفيقا بين مفردات العقيدة المسيحية ومستلزمات العقل والمنطق من ناحية أخرى.

ـ سقوط التفكير المدرسى وقيام الحركة الإنسانية :

وقد كان من الطبيعى ألاّ يلائم هذا التفكير المدرسى الطبقة البورجوازية فى المدن، فقد كان هذا التفكير – كما رأى «روجر بيكون» Roger Bacon 1214 - 94 – لا يولى العلم إلاّ قدرا ضئيلا من وقته، وكان المدرسون ينفقون الكثير من وقتهم فى الجدل المنطقى والميتافيزيقى. فضلا عن ذلك فإن هذا التفكير بدأ هو الآخر يعتريه الجمود بعد توماس أكويناس.

ولما كان هذا التفكير لا يوجه أى اهتمام للإنسان، كما أن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها إلى دراسة العلوم العملية مثل الطب والقانون. وكانت تقف معادية للدراسات الإنسانية، ولما

كانت مثل هذه الفلسفة المدرسية أو الفلسفة الكنسية السابقة لاتقدم الحل لمشاكل الانسان البورجوازى، فقد أخذت هذه الطبقة تبحث لنفسها عن فلسفة لحل مشاكلها، فاتجهت إلى مصدر آخر هو حياة القدماء، فهذه الحياة كانت أكثر اهتماما بالإنسان ومشاكله من فلسفات العصور الوسطى، لأنها بحكم وثنيتها وبعدها النسبى عن الروحانية، وموقفها الإيجابى من الحياة، تجعل الإنسان وسعادته محور النشاط البشرى، وبالتالى فإن هذه الحياة تتجاوب مع نظرة الطبقة البورجوازية العملية للحياة.

وعلى هذا النحو، أخذت الحركة الفكرية الجديدة التى ظهرت فى المدن تتجه إلى احياء الدراسات اللاتينية واليونانية القديمة، وقد أطلق على هذه الحركة اسم الحركة الإنسانية Humanisn. لأنها تجعل الإنسان محور اهتمامها، على العكس من الفلسفات الوسيطة التى تقف من الإنسان موقفا سلبياً. وتمثلت فى المظاهر الآتية:

(أ) إحياء التراث القديم :

ـ الطور اللاتينى :

وقد اتجه الاهتمام فى المدن الإيطالية فى بادئ الأمر إلى التراث الرومانى – كما ذكرنا – ولذا عرفت هذه المرحلة الأولى من عصر النهضة بالطور اللاتينى لإحياء التراث القديم.

ويمثل فرانشيسكو بترارك Petrarch هذه المرحلة، مرحلة الانتقال بين العصور الوسطى والنهضة بشكلها المتكامل، إذ يُعْزَى إليه الفضل الأول فى تنشيط الدراسات اللاتينية. وقد بالغ البعض فى تقدير دور بترارك فى إحياء الدراسات اللاتينية. فيصور أحيانا على أنه المنقذ للكتابات اللاتينية من النسيان. على أن الحقيقة أن اللغة اللاتينية، وكما هو معروف، كانت هى لغة الأدب والعلم فى العصور الوسطى، ولكن المشكلة كانت تتمثل فى أن أصحاب التفكير المدرسى من أساتذة العصور الوسطى كانوا منشغلين بالتفكير الفلسفى والدينى. ومن ثم فلم يبذلوا أى جهد فى التعمق فى روح القدماء الذين كانوا يبدون لهم وثنيين ويعيشون فى عالم غير مفهوم أو مكروه.

لذلك فإن فضل بترارك يتمثل فى أنه اكتشف ما تحمله كتابات القدماء من إتجاهات إنسانية تفتَّح لها عقله، واستطاع أن يتذوقها، ذلك أن ماجعل هذه المؤلفات اللاتينية تجد طريقها إلى نفس بترارك، هو أنها كانت بمثابة التعبير الحر لمجتمع المدينة فى مواجهته للمشاكل الإنسانية، فمجتمع المدينة فى إيطاليا كان يمر فى نفس التجارب التي مر بها أسلافه الرومان.

لهذا فإن الأدب اللاتينى القديم الذى كان يقرأ قبل بترارك لا بإعتباره أدبا لذاته، وإنما لما يحتويه من حقائق ومعان، وبالتالى كان تأثيره الأدبى ضئيلا فى كتابات العصور اللاتينية ـ قد أصبح منذ ظهور بترارك يلقى ترحيبا، لأنه يشمل فكرة جديدة فى الحياة

أكثر انطلاقا وحيوية من أفكار العصور الوسطى، فكرة تفتح مجالا واسعا للمشاعر الإنسانية لتذوق الجمال ولجميع أنواع النشاط الإنسانى.

وهذا هو السبب فى أنه أطلق على آدابها اسم: الآداب الانسانية Litterae Humanae لأنها تدور حول حياة الإنسان وما يتصل بها، على العكس من ثقافة العصور الوسطى التى انحصر اهتمامها فى الروحانيات والعالم الآخر.

وتتضح الروح الإنسانية فى كتابات بترارك فى وصفه الرقيق لجسد الإنسان على نحو تأباه تقاليد العصور الوسطى، كما تتضح فى كلامه عن معشوقته لورا Laura. فهو يعبر عن حبه وعواطفه بصراحة ودون تحرج.

ونجد مثالا آخر لتحرر بترارك من روح العصور الوسطى، فى تفكيره السياسى. فقد شغل بأحوال إيطاليا السياسية، وخلافاتها الداخلية التى لا تنقطع بين الإمارات، وبالفساد والفوضى فيها، فدعا إلى تغيير هذه الحالة متأثرا فى ذلك بعهد الجمهورية الرومانية القديمة، وطالب بوحدة إيطاليا السياسية، مما تعد دعوة جديدة حتى بالنسبة لعصره.

لذلك أطلق على بترارك : «أبو الحركة الإنسانية»، وتوج كشاعر عظيم فى الكابتول Capitol[١] فى روما عام ١٣٤١م من أجل ملحمته اللاتينية الشهيرة «افريقية»، وأن لم يقدر له أن يكملها حتى وفاته.

---

(١) معبد للاله جوبيتر Jupitar وقلعة اقيمت فوق تل «كابيتولين» أحد تلال روما.

ويعتبر جيوفانى بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣ - ١٣٧٥) أنشط تلاميذ بترارك، وقد خالفه فى أنه كتب بالإيطالية إلى جانب اللاتينية، وترجع شهرته إلى مجموعة قصصه التى أنهاها عام ١٣٥٨م تحت اسم «ديكاميرون» Decameron على طراز الف ليلة وليلة، وتضم مائة قصة أظهر فيها سخريته من تقاليد وخرافات العصور الوسطى. وتشيع فيها نظرة باسمة للحياة الدنيا، تعتبر نظرة جديدة على العصور الوسطى التى اتصفت بالتزمت واحتقار الحياة الدنيوية.

ولم يقتصر بوكاشيو على ذلك، فقد درس مؤلفات الرومان، وذهب إلى القسطنطينية ينشد التعمق فى الدراسات الإغريقية، فكان أول إيطالى فى النهضة استطاع أن يحرز بعض التقدم فى دراسة اليونانية، وترجم الإلياذة والأوديسة لهوميروس إلى اللغة اللاتينية من أجل أستاذه بترارك.

وقد بلغ من تحمس الناس للغة اللاتينية الفصحى والتراث الرومانى انهم أخذوا يسمون أبناءهم بأسماء رومانية. وحاولوا محاكاة الرومان فى ملبسهم وطريقة كلامهم وخصالهم، حتى إن شاعر إيطاليا العظيم دانتى Dante الذى كان أول من كتب باللغة الإيطالية القومية الحديثة، درس اللاتينية وكتب بعض مؤلفاته الصغرى بها، مثل كتابه «عن اللغة العامية»، وكتابه الآخر «عن الملكية».

ـ الطور الإغريقــى:

ولم يمض وقت طويل حتى أخذ اهتمام الإنسانيين يتجه نحو استعادة التراث اليونانى القديم أيضا، إذ وجدوا أن الرومان قد تأثروا بالحضارة الهللينية. ولم تكن اللغة الاغريقية مجهولة فى أوروبا العصور الوسطى، ولكنها كانت محدودة الانتشار. وقد حدث تقارب فكرى بين المدن الإيطالية والدولة البيزنطية بتشجيع حكام المدن، وتبودلت الزيارات العلمية من الجانبين، فزار عدد من البحاث الإيطاليين القسطنطينية للتخصص فى دراسة اللغة الإغريقية على يد كبار الأساتذة، كما وفد على فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية نخبة من العلماء البيزنطيين.

ويعتبر أول رجل انتعشت على يديه حركة إحياء اللغة الإغريقية فى الغرب هو كريزولوراس Chrysoloras الذى زار إيطاليا فى بعثة سياسية من قبل الإمبراطور البيزنطى باليولوجوس Palaeulugos للحصول على مساعدة حكومات إيطاليا ضد الأتراك العثمانيين، ثم عاد إلى فلورنسا أستاذا للدراسات الإغريقية فى جامعة فلورنسا من سنة ١٣٩٧ ـ ١٤٠٠م.

وبمجىء «كريزولوراس» للمرة الثانية إلى فلورنسا تبدأ حقبة فى تاريخ الآداب الأوروبية. فلم يقم بتدريس اللغة الإغريقية فحسب، بل كان باحثا من الطراز الأول، لبقا وقديرا فى قراءة النثر والشعر اليونانيين القديمين وشرحهما، وقد راح ينتقل بين المدن

الإيطالية، وأسهم فى افتتاح مدارس لتعليم اللغة الإغريقية فى روما وميلان والبندقية.

وسرعان ما تجمع حوله عدد من التلاميذ المتحمسين كونوا مدرسة فكرية إغريقية برزت بروزا واضحا فى نشر الدراسات الإنسانية. واستمرت الحركة وزادت انتشارا على يد العلماء اليونانيين الذين شعروا بتقدير المدن الإيطالية لكريزولوراس، وأدركوا حاجة هذه المدن لمزيد من الأساتذة المتخصصين فى اللغة الإغريقية وآدابها، وأغرتهم مناصب الأستاذية فأخذوا يتوافدون على إيطاليا فى الفترة مابين ١٤٠٠م وسقوط القسطنطينية فى ١٤٥٣م. حتى إذا سقطت القسطنطينية وانهار المجتمع البيزنطي، شد العلماء البيزنطيون رحالهم إلى إيطاليا فى هجرة مكثفة، الأمر الذى أدى إلى إنعاش الدراسات الهللينية فيها بعد أن قطعت هذه الدراسات شوطا بعيدا فى طريق الازدهار.

ومن ذلك يتضح أن هجرة العلماء البيزنطيين كانت عاملا مساعدا فقط فى حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية، ولم تكن هى السبب. وقد كان تأثير هذه الدراسات الإغريقية عظيما فى النهضة الأوروبية، فقد كانت تعنى مولد النقد والمقارنة والبحث، وفتحت آفاقا فلسفية أبعد مدى من عالم الأحلام لرجال الكنيسة والرهبان، وحفزت مبادئ العلم الأولية، وأوحت بافتراضات فلكية جديدة، كما أحيت معنى الجمال فى الفن والأدب.

(ب) جمع المخطوطات Manuscripts :

لم يكن الاهتمام بالدراسات اللاتينية والإغريقية سوى مظهر واحد من مظاهر الحركة الإنسانية، أما المظهر الثانى فيتمثل فى جمع المخطوطات القديمة التي غصت بها مكتبات الأديرة والكاتدرائيات. وقد أسهم أمراء الأسرات الحاكمة فى المدن الإيطالية فى جمع هذه المخطوطات والكتب القديمة النادرة، وأوفدوا العملاء لهذا الغرض فى أوروبا والشرق، كما شجع البابوات والكاردينالات هذه الحركة، وأنفقوا أموالاً طائلة للبحث عن هذه المخطوطات فى إيطاليا والإمارات الألمانية وغيرها من أقطار أوروبا.

وكان أمراء إيطاليا وأثرياؤها يتنافسون على جمع المخطوطات، حتى أصبح اقتناء هذه المخطوطات، مظهرا سائدا من مظاهر النهضة فى إيطاليا. ولذا كان من الطبيعى أن تنشأ حول المخطوطات تجارة منتشرة. وكانت القسطنطينية بعد سقوطها مركز هذه التجارة حيث كان الإنسانيون يبحثون عنها بهمة لنصف قرن مضى.

والواقع أن المخطوطات القديمة كانت المصدر الأول فى حركة احياء الدراسات القديمة، وكان بترارك يبحث بنفسه عن المخطوطات القديمة وجمع حوالى مائتي مخطوطة، بل وصل به الأمر أن نسخ بيده كتابات شيشرون Cicero (١٠٦ ـ ٤٣ق.م)، وكان يحث تلاميذه وأصدقاءه على اقتناء المخطوطات.

وقد استطاع فرانشيسكو فيليلفو Francesco Filelfo (١٣٩٨ - ١٤٨١م) الذى أصبح إنسانيا مبرزا بعد أن درس اليونانية فى القسطنطينية، أن يحصل على مكتبة ضخمة من هناك كانت تشمل شعراء اليونان المبرزين، ومؤلفات الدراميين من أتيكا، كما شملت فى النثر: المؤرخين من هيرودوت إلى بوليبيوس Polybius (٢٠٤ - ١٢٢ ق.م)، والكثير من الخطباء، وكل كتابات أرسطو. وفى مستهل القرن الخامس عشر جمعت فى دير القديس ماركو مكتبة حوت ثمانمائة مخطوط قديم اشتراها الأمير كوزيمودى ميدتشى - Cosimo de Medici - وأنشئت فى أواخر القرن مكتبة عظيمة فى الفاتيكان، وكان الاهتمام فى البداية منصبا على المخطوطات اللاتينية، ثم انتقل الاهتمام إلى المخطوطات اليونانية.

(جـ) إنشاء المكتبات العامة والخاصة :

وقد كان من الطبيعى أن يترتب على جمع المخطوطات القديمة، وهو المظهر الثانى للحركة الإنسانية، الاهتمام بإنشاء المكتبات العامة والخاصة وهو المظهر الثالث للحركة الإنسانية.

ففى مستهل القرن الخامس عشر، جمعت فى دير سان ماركو فى فلورنسا مكتبة احتوت على ثمانمائة من المخطوطات القديمة التى اشتراها بماله الأمير التاجر كوزيمو دى ميدتشى Cosemo de Medicci، كما أنشأ فى أواخر ذلك القرن مكتبة عظيمة فى الفاتيكان (وهو قصر البابا فى روما).

وقبل سقوط القسطنطينية، ترجمت كتب أرسطو وأفلاطون وبلوتارك إلى اللغة اللاتينية، وجاء بعض الإغريق إلى فلورنسا ليعلموا اللغة والفلسفة فى جامعاتها. وكان هؤلاء العلماء هم الذين مهدوا السبيل لزملائهم الذين رحلوا إلى أوروبا عام ١٤٥٣م بعد سقوط القسطنطينية.

وقد أنشئت مكتبات عديدة جديدة فى نابولى وبافيا وغيرها، ففى أوربينو أنشأ أميرها مكتبة عظيمة أنفق عليها أموالا طائلة وكانت تضم عددا وافرا من المخطوطات اللاتينية والعبرية، وجميع كتب الطب الموجودة ومؤلفات الكتّاب الإيطاليين فى القرن الرابع عشر.

وقد روعى فى إنشاء هذه المكتبات وضع الكتالوجات حتى يسهل الإطلاع على مافيها. بل إن مكتبة أوربينو كانت تحتفظ بكتالوجات لمكتبات الفاتيكان وسان ماركو بفلورنسا ومكتبة بافيا، وحتى مكتبة أكسفورد بإنجلترا.

(د) الأكاديميات :

أما المظهر الرابع لحركة إحياء الدراسات الكلاسيكية، فيتمثل فى قيام الأكاديميات، أو مجمعات العلم، حتى إن النصف الثانى من القرن الخامس عشر يعتبر عصر الأكاديميات. وكانت هذه الأكاديميات عبارة عن مراكز أو حلقات يجتمع فيها عشرات الطلبة

حول الأساتذة للاستماع والدراسة ثم المناقشة. وعن طريق هذه الأكاديميات التى انتشرت فى إيطاليا فى مختلف المدن الإيطالية، انتشرت الحركة الإنسانية انتشارا عظيما. ولم تكن هذه الأكاديميات أكاديميات علمية كتلك التى تنشر فى العالم النهضة العلمية الحقيقية التى اتسم بها القرن السابع عشر، ولكنها كانت أدبية بحتة.

وقد نشأت أقدم الأكاديميات فى عصر النهضة، فى نابولى على يد ألفونسو الخامس صاحب أراجونة الذى كان حاكما فى نابولى عام ١٤٤٢م، واستطاع أن يجمع فى بلاطه عددا من العلماء فى المدينة، وكانت هذه الأكاديمية تناقش جميع الموضوعات التى تتصل غالبا بالتراث القديم، والناحية الأدبية بصفة خاصة. وقد اختفت هذه الأكاديمية بعد وفاة ألفونسو سنة ١٤٥٨م، ولكنها عادت إلى الظهور على يد كاتب قدير هو جوفيانوس بونتانوس Jovianus Pontanus الضليع فى اللغة اللاتينية.

أما فلورنسا مدينة الصيارفة والتجار، فقد نشأت فيها أكاديمية عرفت باسم الأكاديمية الفلورنسية أو الأكاديمية الأفلاطونية، وقد تولى أمرها مارسيلو فيتشينو Marsilo Ficino (١٤٢٣ ـ ١٤٩٩م)، وكان اهتمامها موجها إلى الدراسات الفلسفية الإغريقية وخاصة الفلسفة الأفلاطونية. وقد ظلت الأكاديمية تقوم بدور مهم فى الحياة العقلية فى فلورنسا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر.

وفى البندقية أسس أكاديميتها ألدو مانوتزيو Aldus Manutius، صاحب بيت الطباعة الشهير، والناقد النحوى، ومؤرخ الأدب، وعالم الأخلاق. وقد أسس هذه الأكاديمية سنة ١٥٠٠م واهتمت بالدراسات الهللينية (الاغريقية). وأقامت اتصالات بالدوائر العلمية فى أنحاء أوروبا. وكان أبرز أعضاء هذه الأكاديمية جون لأسكاريس الضليع فى الدراسة اليونانية. وقد وجهت الأكاديمية عنايتها بصفة خاصة إلى جمع المخطوطات واختيار الكتب الكلاسيكية لطبعها.

أما فى روما فقد تأسست الأكاديمية الرومانية Accademia Romana فيها على يد يوليوس بومبونيوس لايتوس Julius Pomponius Laetus (١٤٢٥ - ١٤٩٨م) الذى تخصص فى الأدب اللاتينى. وقد غلبت على هذه الأكاديمية الدراسات التاريخية والأثرية. وقد اختلفت مواقف البابوات من هذه الأكاديمية، ففى حين رأى البابا بولس الثاني (١٣٦٤ - ١٤٧١م) فى دراستها الوثنية خطرا على المسيحية، فقد تردد عليها كبار موظفى البلاط البابوى فى عهد سكستوس Sixtus IV الرابع. وحظيت بحماية البابا ليو العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١م) الذى كان يهتم بنشاط النهضة وانتاجها الفكرى.

وعلى كل حال فان الأكاديميات لم تلبث أن انتشرت فى المدن الإيطالية أمثال: رافنا Ravenna وفاينزا Faenza وماتشيراتا Macerata وبيروچيا Perugia وأوربينو.

(٢) تقدم علم التاريخ :

كان الاهتمام بالتاريخ هو المظهر الثانى من مظاهر النهضة والإحياء فى إيطاليا. فلأول مرة أخذت الدراسة طريقها على أساس المادة الموثوقة وليس على أساس الرواية والسماع. كما أخذت الدراسة التاريخية تصطبغ بالصبغة الزمنية، وتنتقل من يد رجال الدين إلى العلمانيين.

وكان من أبرز مؤرخى عصر النهضة لورنزو فاللا Lorenzo Valla الذى ولد ونشأ فى روما، ثم صار قسيسا فكاتب سر ألفونس الخامس صاحب أراجونة. وقد قام فى سنة ١٤٠٠م، حين كانت نابولى خاضعة لنفوذ البابوية، بكتابة كتابه المشهور «منحة قسطنطين» Donation of Constantine الذى أثبت فيه بالدليل القاطع من واقع دراسته للغة التى كانت تكتب بها الوثائق، أن الهبة التى ارتكزت عليها البابوية فى ادعائها بالسلطة الزمنية لم تكتب، كما يبدو من أسلوبها - فى زمن الإمبراطور قسطنطين، وإنما كانت مزورة افتعلت فى روما فى زمن متأخر نحو خمسة قرون عن التاريخ الوارد بها. وقد حوكم بسبب هذا الكتاب، وكاد يفقد حياته، لولا أن كان البابا فى ذلك الوقت هو نيقولا الخامس، وكان باحثا وسياسيا، فأعجب ببحث فاللا وعينه موظفا فى الحكومة البابوية.

ومن أبرز مؤرخى عصر النهضة فى إيطاليا أيضا ليونردو برونى Leonardo Bruni الذى يعتبر مؤلفه : «تاريخ فلورنسا فى اثنى

عشر كتابا» أول مؤلف مهم يحوى كل خصائص المدرسة الحديثة من صفة زمنية، وحب للقديم، وتعقل للأشياء، وعناية بالأفراد.

ومن أبرز مؤرخى النهضة أيضا بوجيو براتشيولينى Poggio Bracciolini وفلافيو بلوندى الذى كتب واحدا وثلاثين كتابا فى تاريخ النصرانية ابتداء من سقوط الدولة النصرانية . ثم إينياس سلفيوس بيكرولومينى الذى صار فيما بعد البابا بيوس الثانى (١٤٠٥ – ١٤٦٤م)، ثم بييرو جويتشاردينى Guicciardini (١٤٨٢ ـ ١٥٤٠م) الذى كتب «تاريخ ايطاليا» وهو أول تاريخ من نوعه يشمل شبه الجزيرة كلها، ونيكولو مكيافيللى Machiavelli (١٤٦٩ ـ ١٥٤٢م) صاحب كتاب «تاريخ فلورنسة»، والذى كتب فى سنة ١٥١٢م كتابه المشهور «الأمير» Il Principe الذى يتضمن دراسة واسعة عن الاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية.

(٣) ظهور اللغات الحديثة :

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجى على اللغة اللاتينية التي كانت لغة الأدب والعلم. حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، وهو بالتالى يعد المظهر الثالث من مظاهر النهضة.

فقد عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم، فنشأت فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الاصل اللاتينى، وظهرت فى

شمال أوروبا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتونى. وعمد علماء كل لغة إلى نحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها، حتى أصبحت هذه اللغات صالحة لتدوين العلوم والآداب بها، وعاملا مهماً طرأ على نشر الأفكار الجديدة التى اتسمت بها النهضة. كما أوجد نمو هذه اللغات الوطنية طائفة من القراء والأدباء فى إيطاليا وفى فرنسا وغيرها، فأضحى الأدب ملكا للشعب.

وإذا اتخذنا إيطاليا مثلا، فإن لهجة توسكانيا هى التى أصبحت أساس اللغة الايطالية. ويرجع تفوق لهجة توسكانيا إلى أنها كانت بعيدة عن التأثر بلهجات الغزاة البرابرة بحكم موقع توسكانيا فى إيطاليا، وظهور شعراء ممتازين توسكانيين قرضوا الشعر باللهجة العامية.

وقد كان أول كاتب فى إيطاليا يستخدم اللغة الإيطالية الحديثة فى التعبير هو أليجييرى دانتى (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) Dante, Alighieri، الذى كتب كتابه المشهور «الكوميديا الالهية» Devina Commedia باللغة الإيطالية، وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى العالم الآخر، يؤكد بعض الباحثين أن دانتى تأثر فى كتابتها بـ «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى من ناحية الفكرة، وإن اختلفت من حيث البناء والتفصيلات والمضمون والأهداف..

وتنقسم الكوميديا إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريبا، وهى: الجحيم Infero والمطهر Purgatorio والفردوس Paradiso وكل قسم ينقسم بدوره إلى مجموعة من الأناشيد متقاربة الطول.

ويصور دانتى فى الجحيم عالم الخطيئة والإثم والعذاب، وهو يقسم تسع درجات، ويتصور أنه شاهد فى كل درجة عددا من أعاظم رجال الشعر والحرب والفلسفة والسياسة.!

أما المطهر، فهو يمثل النصح والتوبة والتطهر والأمل. وهناك فرق بين الجحيم والمطهر، ففى الجحيم يبقى الآثمون فيه أبدا، أما فى المطهر فيوجد فيه الآثمون بصفة مؤقتة لأنهم تابوا وكفروا عن ذنوبهم قبل موتهم.

أما الفردوس فيمثل عند دانتى الطهارة والصفاء والحرية والنور الإلهى، ويضم أرواح الصالحين الأتقياء، ويصوره دانتى على شكل سماوات عشر ترتقى حتى تصل إلى الذات الإلهية. وقد اتخذ دانتى من الشاعر فرجيليوس Virgilius (٧٠ ـ ١٩ ق.م) الشاعر اللاتينى القديم صاحب الإنيادة Aeneid، والذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد، مرشده فى الجحيم والمطهر. أما فى الفردوس فاتخذ من بياتريشى Beatrice التى كان يحبها وماتت فى الخامسة والعشرين من عمرها وحزن عليها دانتى حزنا شديدا، دليلا ومرشدا.

هذا فى إيطاليا، أما فى فرنسا فقد كتب مونتانى de Mon-taigne (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢م) باللغة الفرنسية رسائل رائعة فى الأخلاق عرفت باسم Essais. وكتب فرانسوا رابليه Rabelais قصته عن مخاطرات بنتجرول وجارجانتوا Pentegruel et Gargantua، ولما كان النثر الفرنسى حين بدأ رابليه كتابته لايزال وليدا، فقد استطاع أن يلعب بالألفاظ ويؤلف منها تراكيب غريبة.

وفى أسبانيا ألف سرفانتيز Cervantes (١٥٤٧ ـ ١٦١٦م) باللغة الأسبانية قصته المشهورة دون كويكزوت Don Cuixote أو دون كيشوت Don Quichotte سنة ١٦٠٥م، وقد قصد بها السخرية بروايات الفروسية التى كتب معظمها قبل ذلك العهد بجيلين أو أكثر، ونقد مساوئ المجتمع فى عصره.

وفى إنجلترا كتب تشوسر Chaucer (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠م) قصص كانتربرى Canterbury باللغة الإنجليزية. وقد تأثر تشوسر فى شعره ببوكاشيو أبو النثر الإيطالى. كما ظهر سبنسر Spenser (١٥٢٢ ـ ١٥٩٩) ثانى الشعراء الإنجليز العظام. وقد ظل موضع فخار إنجلترا الأدبى حتى ظهور شكسبير فى أخريات عهد النهضة.

كل هؤلاء إلى جانب عدد كبير آخر ممن ظهروا فى مختلف البلاد الأوروبية، وكتب كل منهم بلغة وطنه. وبفضل التطوير والتحديث الذى طرأ على هذه اللغات الحديثة، أصبحت أداة لها شأن فى نشر العلم وإعداد أفراد المجتمع لتقبل الآراء الجديدة والمفاهيم الجديدة.

(٤) تطور الفنون الجميلة:

كان من الطبيعى بعد أن خفت قبضة الكنيسة على الحياة الاجتماعية فى أوروبا، مع ظهور طبقة مادية النظرة إلى الحياة

كالطبقة البورجوازية، أن ينعكس ذلك على الفنون، التى كانت فى العصور الوسطى موجهة لخدمة الكنيسة والأغراض الدينية بوجه عام، إذ دبت فيها روح علمانية متحررة من تزمت العصور الوسطى، وتمثل ذلك بصفة خاصة فى فن الرسم وفن النحت وفن العمارة.

وبالنسبة لفن الرسم فيعتبر الفن الأول لعصر النهضة فى إيطاليا، وقد اصطبغ بصبغة دنيوية سافرة، وتحرر من قيود وتزمت العصور الوسطى، وتمثل ذلك فى إبراز أجزاء جسم الإنسان، وتصوير جمال الوجه والطبيعة. وقد تنافست المدن الإيطالية فى هذا القرن، وبرزت فيها اثنتان، هما: فلورنسة، والبندقية.

ويعتبر ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩م) ومايكل أنجلو Michel Angelo زعيما المدرسة الفلورنسية، ويتميزان بأن نشاطهما الفنى لا يقتصر على الرسم، بل يتعداه إلى بعض الفنون الأخرى.

وبالنسبة لليوناردو دافينشى، فقد اشتمل نشاطه على التصوير والنحت والموسيقى والأدب، والهندسة العسكرية، والعلوم الطبيعية، وإن قامت شهرته على فن الرسم.

ومن أشهر صوره «الجيوكندا» La Gioconda المعروفة ايضا باسم موناليزا Monalisa نسبة إلى صاحبتها. وتعتبر الصورة معجزة فنية تمثل سيدة تجلس أمام شرفة رخامية واضعة يدها اليمنى على معصم يدها اليسرى. ومع أن السيدة لاتبدو على

جانب كبير أو قليل من الجمال، كما أن ليوناردو ترك عينيها دون هدب. إلا أن الابتسامة الغامضة التى تكسو وجهها وترتسم على وجنتيها وشفتيها، ظلت موضع سحر وإعجاب الفنانين.

ومن أشهر صور دافينشى أيضا صورة «العاصفة»، وصورة «ميدوسا» Medusa الفتاة الجميلة التى حول «بوسايدون» Poseidon رب البحار شعرها إلى أفاع. ثم صورة العشاء الأخير Last Supper وتصور السيد المسيح جالسا على مائدة كبيرة بين حوارييه الذين يتناولون معه الطعام للمرة الأخيرة، وهى ملأى بالانفعالات التى ترسم على الوجه والأجسام والحركات، لأنها تصور اللحظة التى أنهى فيها المسيح كلامه لحوارييه عن خيانة يهوذا الاسخريوطى له Iscariota.

أما مايكل أنجلو فقد برع أيضا إلى جانب الرسم فى النحت وهندسة البناء والشعر الإيطالى، وبلغ فى كل ذلك مستوى رفيعا.

ومن أهم أعماله فى فن الرسم صورة يوم الحساب Last Judgement فى قبة كنيسة «سستين» فى الفاتيكان، التى استغرق إنجازها ثمانى سنوات، وهى تمثل البشر رجالا ونساء وهم يخرجون من القبور، وقد سادهم الاضطراب والفزع لما ينتظرهم من العقاب، والمسيح قائم من على عرشه غاضبا لما ارتكبه شعبه من الخطايا. وقد صور مايكل أنجلو أجسام الرجال والنساء كلها عارية.

كذلك من أهم أعمال مايكل أنجلو الفنية صور السقف فى كنيسة «سستين» فى الفاتيكان التى استغرق انجازها ثمانى سنوات، وهى ثلاث مجموعات تاريخية، تناول فى المجموعة الأولى «خلق العالم» فى ثلاث لوحات: الاله الأعظم يفصل النور عن الظلام، والإله يخلق الكواكب، والإله يبارك الأرض بمياهها ونباتها. وتناول فى المجموعة الثانية خلق آدم، والإغراء والخطيئة. أما المجموعة الثالثة فتناول فيها نوح عليه السلام فى ثلاث لوحات هى: تضحية نوح، الطوفان، ونشوة نوح.

هذا فيما يتصل بمدرسة فلورنسا، أما ما يتصل بمدرسة البندقية، فقد اختلفت بسبب ظروفها الاقتصادية والاجتماعية، فقد كانت تحتل مكانة عظيمة فى التجارة، وبالتالى نمت فيها طبقة بورجوازية على جانب كبير من الثراء. لذلك امتاز الرسم البندقى بحيوية فى اللون، وبعرضه لنواحى الحياة الارستقراطية، وبنزعته الدنيوية الصرفة. وإمام هذه المدرسة هو تزيانوتيتيان Tizano Titian (١٤٩٠ ـ ١٥٧٦م) الذى تتميز صوره لمعاصريه - مثل الإمبراطور شارل الخامس، والبابا بول الثالث، وصورة «الأسرة المقدسة» - بالازدهار المادى والعظمة الاجتماعية.

ويعتبر من أعظم رسامى النهضة الفنان «رافايلو سانتزيو» Raffaello Sanzio (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠م) الذى جسد بفنه العبقرية الايطالية، ونال حظوة لدى البابا ليو العاشر. ومن أعماله صورة «صلب المسيح» و «تتويج العذراء» و «التجلى» Transfiguration

و«مـدرسـة أثينـا» التى اسـتـوحـاها من وصف دانتى لـهـا فى «الكوميديا الالهية»، وتمثل الفلاسفة والعلماء الأقدمين وقد وقفوا فى أوضاع مختلفة.

أمـا النحت، فـقـد ازدهر أيضـا على يد طائفـة من الفنانين العظام مـثل: لورنزو دى تشـينو جيـبرتى Lorenzio di Cino Ghiberte (١٣٧٨ - ١٤٥٥م) الذى حفـر الأبواب البرونزية بمعمودية كنيسة فلورنسا قبل مايكل انجلو، ومن أهم روائعه تمثال ليوحنا المعمدان Baptist فى كاتدرائية سيينا، وتمثالان لـ «داود» أحدهما من البرونز والآخر من المرمـر. كذلك من أشـهر تماثيله ونقوشـه تلك التى تمثل الأطفال وقت نومهم أو لعبهم. وتلك التى نحـتـها لرءوس وأجسام بعض معاصريه على طبيعتها.

ويعتبر مايكل انجلو من تلاميذ دوناتللو، ولكنه تميز بالابتعاد قليلا عن فن دوناتللو Donatello التقليدى، فقد احتفظ بما تميزت به مدرسة دوناتللو من واقعية يستمدها من الطبيعة، ولكنه مزج بين الشكل الفردى الذى كان هدف هذه المدرسة والشكل المثالى الذى يميز الطابع الإغريقى القديم.

وقـد عـبر مـايكل انجلو بتـماثيله العظيمـة عن عـصـر جـديد تسوده القوة والحرية. ومن أعماله: تمثال «باخوس» Bacchus و «داود» David و«موسى» Moses والعذراء والطفل Madonna and the Child والأسيران المقيدان.

وعلى كل حال، فقد كان يغلب على فن النحت بصفة عامة المظهر الوثنى القديم، نظرا لأن التماثيل الرائعة التى خلفها الرومان كانت لا تزال موجودة فى إيطاليا، فكانت هذه التماثيل مصدر إلهام لنحاتى عصر النهضة ـ مما ساعد على ازدهار فن النحت، وكان وراء حرص الفنانين على إبراز مفاتن الجسم بكل أعضائه دون التقيد بأخلاقيات أو غيرها، فأخرجوا إنتاجاً فنياً مبدعاً.

أما بالنسبة لفن العمارة، فقد انعكس الاتجاه إلى إحياء الدراسات القديمة على نهضة هذا الفن، وكان فن العمارة فى أوائل العصور الوسطى متأثراً بطبيعة الحال بنماذج الفن القديم، ثم برز بعد ذلك طراز جديد هو الطراز القوطى Gothic الذى تميز بكثرة الدعائم الطائرة Flying Bettresses والأقبية العالية، وانتشر فى بناء الكنائس والكاتدرائيات الضخمة، وقد أدخل هذا الطراز القوطى فى إيطاليا فى أواخر القرن الثالث عشر بعد إدخال تعديلات عليه تجعله يتفق مع حالة الطقس فى بلادهم. وفى الوقت نفسه فإن المبانى قد غلب عليها طابع الدفاع، بسبب الخوف من غزوات البرابرة، وتمثل ذلك فى القلاع المحصنة.

ولما جاءت النهضة بدأت فى القرن الرابع عشر روح جديدة تدخل فى فن العمارة، فأدخلت على الطرز المعمارية الخصائص والرسومات الهندسية التى كان يتبعها الرومان فى مبانيهم القديمة، وتمثل ذلك فى الرجوع إلى الشكل الكلاسيكى الذى يتميز

بالعمود والعتب، أى الجزء المحمول على العامود مباشرة ويليه الإفريز ثم الكورنيش، كما تمثل فى استعمال السقف المسطح الذى استعمله الإغريق والرومان، والعمود والقوس.

وقد تدفقت عمارة النهضة من مركزها فى إيطاليا إلى خارجها، فملأت أوروبا بمبان وقصور رحبة لم تنشأ لأغراض الدفاع بقدر ما أنشئت لمتعة أصحابها، وحل المنزل الريفى محل القلعة الحصينة، وأخذت مبانى المدينة تزحف خارج أسوارها.

على أن فن العمارة لم يكن فى عصر النهضة مقيدا تماما بالنظريات الكلاسيكية، أو تقليدا أعمى للنماذج الرومانية، وانما تعدلت قوالب الماضى لتتمشى مع أساليب الحياة الجديدة، ولتلائم رخاء الحياة وترفها.

وفى المراحل المتأخرة من عصر النهضة أصبحت الضخامة أهم ما يميز فن العمارة، والتى تعرف بالعصر الباروكى Baroque. وتمثل ذلك فى كنيسة القديس بطرس الجديدة فى روما، التى وضع أسسها البابا يوليوس الثانى فى ١٨ أبريل ١٥٠٦م بعد أن تصدعت الكنيسة القديمة التى أقامها قسطنطين الكبير وتقرر هدمها. وقد اشترك فى بناء الكنيسة الجديدة أفذاذ المهندسين المعماريين والفنانين أمثال برامانتى Bramante وبيروتزى Peruzzi ورافايللو، ومايكل انجلو، وتعتبر من عجائب الدنيا وهى تتسع لحوالى ٦٠ ألف شخص.

ومن أعلام العمارة الرواد فى عصر النهضة فيليبو برونيلليسكى Fillippo Brunelleschi (١٣٧٧ ـ ١٤٤٦م) وهو فلورنسى المولد، وقد عاد بفن البناء إلى الشكل الكلاسيكى الذى يتميز كما ذكرنا بالعامود والعتب، أو العامود والقوس، وبتطبيق هذا الشكل القديم على الأبنية المعاصرة شاع نموذج العمود الذى ينتهى بالتاج.

وقد انتشر البناء الجديد فى فلورنسا إلى بقية أنحاء إيطاليا فى النصف الأول من القرن الخامس عشر، حتى احتلت روما والبندقية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر مكانة فلورنسا، وقد وصل فن البناء درجة الكمال عند مايكل أنجلو.

(٥) تقدم العلوم :

كان من الطبيعى مع ظهور طبقة بورجوازية تجارية، عملها الأساسى نقل المتاجر بين الجهات والبلاد، أن تنشأ الحاجة إلى تحسين وسائل المواصلات، ولما كانت الملاحة البحرية أداة مهمة من أدوات المواصلات، فسرعان ما أحرزت تقدما ملموسا.

فقد تم الإهتداء إلى آلات نافعة مثل البوصلة أو الإبرة المغناطيسية والإسطرلاب. وهو آلة تستخدم فى تقدير المسافات وتبين اتجاه السفينة وهى فى أعالى البحار.

كما تقدمت صناعة السفن فى تصميمها، فحسن البرتغاليون من صنع السفينة الكرافيل حتى بلغوابها حد الإتقان، وهى سفينة سريعة خفيفة محكمة الصنع قوية البناء، قادرة على السير قريبا جدا من الشاطئ وعلى اختراق المستنقعات الساحلية، كما حسنوا صناعة الغلايين، وهى سفن ثقيلة البناء بطيئة الحركة تستطيع حمل المدافع.

وبفضل هذا التقدم تجاسرت السفن على شق البحر فى كثير من الجرأة والاطمئنان، بعد أن كانت تلتزم بالسير قرب الشاطئ خوفا من الغرق، أو أن تضل الطريق وسط البحار. وكان ذلك أساس الكشف الجغرافى الذى لم يكن من الممكن أن يتم بدونه.

ويتصل بالملاحة البحرية التقدم الذى طرأ على علم الجغرافيا، وقد اعتمد الأوروبيون فى ذلك على ما كتبه الجغرافيون القدامى خاصة كلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaeus الذى كانت مؤلفاته عن الجغرافيا والفلك قد نقلت إلى اللاتينية عن العربية. ولم يأت النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى كانت أوروبا تملك خرائط مفصلة ودقيقة لكثير من بقاع الأرض.

وكان من أشهر الجغرافيين وراسمى الخرائط رجل من الفلاندر يدعى جيراردوس ميركاتور Gerardus Mercator (١٥١٢ – ١٥٩٤م) أطلق اسمه على طريقة رسم الخرائط التى تمثل فيها خطوط الطول والعرض بخطوط مستقيمة متوازية بدلا من خطوط

منحنية تلتقى عند القطبين. وهى طريقة الإسقاط المركاتورى Mer-cator Projection.

وبتقدم علم الجغرافيا تقدمت نواحى المعرفة التى تتصل بهذا العلم مثل النبات والحيوان والمعادن، كما تقدم علم الفلك، وأمكن التوصل إلى حقائق فلكية جديدة.

فقد أثبت كوبرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م)، العالم البولندى، أن الشمس مركز تدور حوله الأرض وبقية الكواكب، وأن حركة الشمس والكواكب ماهى إلا حركة ظاهرية منشؤها دوران الأرض حول نفسها مرة كل يوم. وكانت النظرية الفلكية القديمة السائدة فى العصور الوسطى، وهى نظرية كلاوديوس بطلميوس، تقوم على العكس اذ كانت تعتقد أن الأرض هى المركز والشمس والكواكب تدور حولها.

وقد أيد جاليليو Galileo (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م) الذى كان أول من استعمل المنظار فى رصد الكواكب رأى كوبرنيكوس، ووصل إلى عدة اكتشافات علمية مهمة.

كذلك فإن الفكرة السائدة فى العصور الوسطى عن تسطح الأرض قد اختفت، واتجه الاقتناع إلى الفكرة الإغريقية القديمة القائلة بأن من المستطاع الوصول إلى الشرق إذا اتجه الإنسان جهة الغرب.

ومع ظهور الروح العلمية للطبقة البورجوازية، أخذت روح البحث العلمي والتنقيب تتقدم على حساب التأخر والجهل. كما أخذت روح النقد وحرية الرأى تنطلق بعد الركود والتجمد.

وقد قام العالم الإنجليزى روجر بيكون Roger Bacon فى القرن الثالث عشر (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م) يهزأ بالآراء السائدة فى عصره، ويهاجم المنهج القياسى بعد أن فطن إلى قيمة المنهج التجريبى ومنفعته. وأخذ يدعو إلى استخدام التجربة باعتبارها الأساس الوحيد للتوصل إلى اليقين، وقد أطلق على العلم الذى يتبنى هذا المنهج اسم «العلم التجريبى».

ومع أن روجر بيكون ينتمى إلى العصور الوسطى، إلا أنه كان خير تمهيد لعصر النهضة، فقد أيقظ روح البحث والشك من رقادها، ووضع قاعدة عدم التسليم المطلق بمعرفة شئ دون إخضاعه للتجربة، بل لقد كان أول من أصر على ضرورة إلمام الطبيب بأصول علم الكيمياء كشرط أساسى لتكوينه.

فلما كان عصر النهضة، أخذ مفكروه يستهجنون استقاء الحقائق من قدماء الفلاسفة ومشاهيرهم، وسخروا من منهج أرسطو الجدلى وبراهينه الصورية، وطالبوا بالكشف عن أسرار الطبيعة عن طريق الملاحظة والتجربة، وبدت هذه المحاولة فى الفلك والطب وسائر مجالات العلم الطبيعى.

وقد مهد ذلك لظهور فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ ـ ١٦٢٦م) واضع أسس المنهج التجريبى الحديث، ومؤلف كتاب الأورجانوم الجديد Novum organum (أى الآلة أو الأداة الوحيدة)، الذى رد به على أورجانوم أرسطو، مستبدلاً بنموذج التفكير القياسى الصورى نموذجا جديدا قوامه الملاحظة والتجربة هو الذى يعرف بمنهج الاستقراء. ويتألف من جانبين: جانب نقدى، وجانب بنائي.

وغرض الجانب الأول تطهير العقل وتنقيته مما يحويه من أوهام حددها فرانسيس بيكون بأوهام أربعة هى:

ـ أوهام الجنس	Idols of the race
ـ أوهام الكهف	Idols of the Cave
ـ أوهام السوق	Idols of the Market-Place
ـ أوهام المسرح	Idols of the Theatre

وقد اعتبر هذه الأوهام الأربعة حجر عثرة فى سبيل البحث العلمى. أما الجانب الإيجابى فيضم مراحل المنهج التجريبى التى تتمثل فى جميع الحقائق والترتيب والتبويب والاستقراء الحقيقى.

(٦) تطور الفكر السياسى:

تمثلت روح العصر البورجوازى العملية أكثر ما تمثلت فى التطور الذى طرأ على الفكر السياسى، والذى عبر عنه ماكيافللى

Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧م) فى نظرياته أو مبادئه التى تتألف من مجموعة أقواله فى كتبه، وخاصة كتابه: «الأمير» Il Prin- cipe. فمع أن «ماكيافيللى» قد ولد من طبقة النبلاء القديمة، إلا أنه ولد فى فلورنسا حيث كانت الطبقة البورجوازية على درجة كبيرة من القوة.

وقد شهد حكم الراهب الثائر سافونا رولا Savonarola (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨م) الذى كان يرى ألاَّ خلاص لإيطاليا إلاَّ عن طريق التمسك بالفضيلة والأخلاق. وكانت مأساة سافونارولا تجربة عملية أمام مكيافيللى استقى منها دروسه السياسية التى شرحها فى بعض كتبه، فقد رأى أن «سافونارولا» قد لقى حتفه لأنه كان خياليا متعسفا فى إيمانه بالفضيلة التى لا وجود لها بين الناس، ورأى أن فكرة الإخاء الإنسانى التى قامت عليها دعوة «سافونارولا» وحملته الدينية، غاية فى السخافة، وأن القيود التى تضمنتها تعاليم المسيح لا يمكن التقيد بها إذا كان لابد أن يُحكم الناس وأن يسود بينهم نظام.

فضلا عن ذلك، فقد عاش ماكيافيللى حياته العملية متصلا بالأحداث التى عصفت بفلورنسا، فقد قام ببعثات دبلوماسية إلى روما وفرنسا، كما أوفد إلى بلاد الإمبراطور الألمانى مكسميليان فى الوقت الذى كانت فلورنسا مهددة بالجيوش الأجنبية من جهة، وبمرتزقة سيزار بورجيا من جهة أخرى، وشاهد أطماع البابوات

السياسية، وتحررهم من أخلاقيات البابوية، فكانت هذه الأحوال والظروف والحوادث هى التى ألهمته عندما كتب كتابه المشهور «الأمير»، مستخلصا منها الآراء والقواعد التى وضعها لإرشاد الحكام فى حكم الإمارات عموما.

وتتلخص فلسفة ماكيافيللى السياسية فى أن الطبيعة الإنسانية تتصف بالشر والفساد فى جوهرها، وأن الإنسان ولد خبيثا لا يفعل الخير إلا إذا اضطر إلى ذلك. وبناء على هذه الحقيقة، التى يعتبر ماكيافيللى التسليم بها أول المبادئ السياسية فى العلوم السياسية، فإنه لا يمكن الاعتماد على الطبيعة الإنسانية وحدها لإصلاح نفسها، فالشر لايمكن التغلب عليه إلاَّ بكبحه والضغط عليه.

ثانياً: أن القوة هى أساس نجاح الحكام، ومن ثم فإن الالتجاء إلى الحرب من وقت إلى آخر ضرورة للمحافظة على كيان الدولة، لأن السلام الدائم من شأنه أن يؤدى إلى ضعف أبناء الدولة، فى حين يؤدى الخوف والخطر إلى اتحادهم وتماسكهم، ومن ثم فلابد من تأسيس جيش وطنى فى حكومة أمير له القدرة على تنظيم وقيادة جنوده، ثم استخدام هؤلاء فى الدفاع عن البلاد والحفاظ على وحدتها الوطنية.

ثالثاً : أن من يتطلع من الحكام إلى السلطة المطلقة، لابد أن يرحب بالفلسفة التى تقول: «إن فشل الحاكم هو الجريمة التى لا

تغتفر»! ولذلك فعليه أن يكيف أخلاقه حسب الظروف، وأن يتحرر من القيود الأخلاقية المقررة باعتبار هذا التحرر ضرورة يحتمها الصالح العام.

وفى ذلك يقول: إذا تعرضت حياة الوطن للخطر، وجب ألا يّفكر الإنسان فى عدل أو ظلم أو قسوة أو شرف أو عار، بل يجب فى هذه الحال أن ينبذ كل المبادئ كما ينبذ الثوب البالى، وألاّ يسلك إلاّ السبيل التى تنقذ الوطن وتحفظ له حريته.

وبمعنى آخر كان ماكيافللى يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن من حق الحاكم ان يرتكب أعمال العنف والشدة والخداع والغش حسب اقتضاء الظروف لمصلحة بلاده.

رابعاً: على الرغم من إعجاب ماكيافيللى بالمستبد القوى، فإنه كان يعجب بالشعب الحر الذى يحكم نفسه بنفسه. وقد وفق بين هذين النوعين من الإعجاب المتناقضين، بأن أوصى بالحكم الاستبدادى فى حالتين خاصتين: الحالة الأولى: إنشاء دولة، والحالة الثانية: إصلاح دولة فاسدة.

ومن الناحية الأولى، فبعد تأسيس الدولة لابد لضمان استمرارها من أن يسمح للناس بنصيب فى الحكومة، ولابد أن يدبر الحاكم عندئذ شئون الدولة وفقا للقانون، وأن يراعى حقوق رعاياه.

أما من الناحية الثانية، وهى التى تختص باصلاح دولة فاسدة، فقد رأى ماكيافيللى أن العنف الاستبدادى دواء سياسى قوى لابد من استخدامه فى الدولة الفاسدة، ولكنه كالسم يجب استخدامه بحذر.

ويعتبر بعض المؤرخين أن ماكيافيللى لم يبتدع شيئا جديدا، فإن كل ما أخرجه من أعمال ونظريات لاتعدو التعبير عن الآراء السائدة فى عصره، وشرح الطرق والمسائل السياسية التى استخدمت فى عصره لتنفيذ السياسات. وهذا تفسير صادق. ولذلك يرى بعض المؤرخين أن كتاب «الأمير» يمكن اعتباره وثيقة تاريخية تصور الأخلاق السياسية فى إيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر، أكثر منه عملا مثاليا شبيها بجمهورية أفلاطون أو «يوتوبيا» سيرتوماس مور.

ومع ذلك فإن الأثر الذى أحدثه كتاب «الأمير» فى تاريخ العالم، يكاد يضارع فى رأى بعض المؤرخين ما تركه كتاب «العقد الاجتماعى» لجان جاك روسو من أثر. فإن أوروبا فى المائتين والخمسين عاما التى أعقبت موته كانت إما خاضعة للمبادئ الماكيافيللية، وإما ثائرة عليها.

فقد سارت على هذه المبادئ كاترين دى مديتشى زوجة هنرى الثانى ملك فرنسا التى وقعت فى أيامها مذبحة سان بارثولوميو، Saint Partholomew's Day Massacre التى قتل فيها عدد كبير من

الهوجينوت Huguenots (البروتستنت) الفرنسيين، كما سار على هذه المبادئ ريشيليو Richelieu، ولويس الرابع عشر، وهنرى الثامن، والملكة إليزابيث، وفردريك الأكبر ملك بروسيا. ثم بسمارك مثل الماكيافيللية الأعلى، وكان نابليون نفسه أعظم من تمثلت فيه هذه التقاليد.

(٧) أفول النهضة فى إيطاليا:

على كل حال فإن هذه النهضة العظيمة التى قامت فى المدن الإيطالية لم تلبث أن أخذت تخبو منذ نهاية القرن الخامس عشر. ثم انطفأت تماماً فى سنة ١٥٢٧م. وهناك عاملان أساسيان أديا إلى افول النهضة فى إيطاليا:

ـ العامل الأول : الحروب الإيطالية:

ففى عام ١٤٩٤م غزا شارل الثانى ملك فرنسا إيطاليا عبر الالب، وكان ذلك فاتحة الحروب الإيطالية بين الدول الأوروبية الكبرى، التى كان ميدانها إيطاليا، واشتركت فيها الإمارات الإيطالية نفسها، وكان تأثيرها فادحا على النهضة الإيطالية.

فقد طردت أسرة مديتشى من فلورنسا، التى رأينا كيف أسهمت فى حركة النهضة، وأخذت تتنازع الحكم أسرتا بيانونى

Pianoni وأوتيماتى Ottimati. كما استولى فردناند ملك أراجونة Aragon على نابولى فى سنة ١٥٠٤م. وأما ميلان فقد خربت على يد الجيوش الفرنسية والألمانية والسويسرية.

وقد ظلت روما بمنأى عن التخريب حتى عام ١٥٢٧م، فأصبحت مركز الإشعاع للنهضة الإيطالية، ومحور الحركة الإنسانية. وكان ليو العاشر شديد التحمس للدراسات الكلاسيكية، حتى أصبحت روما فى عهده مركزا أوسع وأكبر من فلورنسا فى عهد لورنزو مديتشى، وإن كانت أقل منها فى عمقها وعبقريتها. وقد تطورت علاقة البابوية بالحركة الإنسانية حتى أصبح الإمتياز فى الدراسات الإنسانية سبيلا للوصول إلى مناصب الكنيسة الكبرى.

على أن نهب روما فى مايو ١٥٢٧م على يد جنود الإمبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا، وهزيمة البابا وعقده الصلح مع الإمبراطور فى كامبرى Cambrai، لم يلبث أن أدى إلى انهيار النهضة الإيطالية انهيارا تاما. فقد نهبت قوات الإمبراطور شارل الخامس كل الكنائس والأديرة، وقطعت رءوس رهبانها وقساوستها، واغتُصِب عدد من الراهبات، وتحولت كنيسة القديس بطرس إلى اسطبلات للخيول.

ـ العامل الثانى : حركة الإصلاح الدينى:

فإنه لما كانت هذه الحركة تحمل معنى التحرر الدينى والتحرر من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وكانت فى الوقت نفسه

ثمـرة من ثمـرات الحـركـة الإنسـانيـة، فـقـد كـان ذلك مـا أدى إلى معارضة البابوية للحركة الإنسانية بقوة منذ ظهور حركة الإصلاح الدينى فى الربع الثانى من القرن السادس عشر، فتواطأت البابوية فى عهد كليمنت السابع فى سنة ١٥٢٠م مع شارل الخامس ملك أسبانيا على تصفية الحركة الإنسانية فى إيطاليا.

على أنه قبل انطفاء شعلة النهضة فى إيطاليا، كانت قد انتقلت عبر الألب إلى بقية أنحاء القارة الأوروبية، وعلى الأخص فى غربها وشمالها على يد الطلاب الذين كانوا قد حصلوا المعارف الجديدة فى المدن الايطالية. ثم عادوا إلى بلادهم لينشروا ما حصلوه على مواطنيهم، فقامت نهضة جديدة فى كل بلد أخذت تتخذ لها سماتها وخصائصها المنفردة حسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية.

(ثانياً) : النهضة خارج إيطاليا

١ ـ النهضة فى فرنســا :

اختلفت النهضة فى فرنسا عنها فى إيطاليا بسبب الخلاف بين العقلية الإيطالية والعقلية الفرنسية فيما يتعلق بالقديم. ففى حين أحيت العقلية الإيطالية القديم فى صورة مطابقة للأصل، أى أنها قلدت القديم واستسلمت دون تحفظ إلى المخلفات الكلاسيكية وإخراجها بدقة وأمانة، فقد احتفظت العقلية الفرنسية باستقلالها إزاء القديم، فقد اقتبست منه ما راقها، وطعمته بخصائصها الذاتية، فجاء إنتاجها الأدبى والفنى مخالفا لإنتاج إيطاليا الذى كان لحد كبير صورة مطابقة للقديم. ويتمثل ذلك فى انتاج فرنسا فى النحت والبناء وفى الأدب.

وكانت الحضارة الكلاسيكية مزدهرة دائما فى فرنسا فى العصور الوسطى المتأخرة، حيث انتشر فيها الاهتمام بالأدب اللاتينى أكثر من أى بلد آخر فى أوروبا. على أن الحركة الثقافية توقفت بسبب حروب المائة سنة مع إنجلترا، وبسبب ما أعقب هذه الحروب من صراع داخلى بين الملك لويس الحادى عشر والبلاد الإقطاعيــة، وهو الصــراع الذى انتــهى بهـزيمة النبــلاء وضم برجــاندى Burgundy وبيكاردى Picardy ومين Maine وأنجــو Anjou وبريتانى Brittany إلى التاج الفرنسى.

وعلى هذا النحو فبينما ازدهرت النهضة فى إيطاليا فى النصف الأول من القرن الخامس عشر، كانت فرنسا تعانى من توقف نموها الثقافى، ولكن بعد أن بدأ الاتصال بين فرنسا وإيطاليا بغزو شارل الثامن لإيطاليا سنة ١٤٩٤م أخذت عناصر النهضة الإيطالية تتسرب إلى فرنسا.

ولكنها لم تبدأ فجأة عقب الغزو الفرنسى، وإنما بدأت معالمها منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر. ففى سنة ١٤٥٨م عين جريجورى تيفرناس Tifernas مدرسا لليونانية فى جامعة باريس، كما حاضر جون لاسكاريس John Lascaris فى اليونانية فى باريس، كذلك حاضر جيروم أليانديز Jerome Aleander فى اليونانية واللاتينية والعبرية فى باريس منذ سنة ١٥٠٨م وأصبح مديرا لجامعة باريس.

ولكن هذه المحاولات المتفرقة كانت ضعيفة، فظلت الدراسة المدرسية هى المسيطرة فى الجامعات الفرنسية وجامعة باريس بالذات، ولم يكن إلاّ حوالى منتصف القرن السادس عشر حينما استقرت الدراسات الكلاسيكية تماما فى باريس.

فقد نشأت حركة واسعة لنشر الكتب اليونانية، كما شجع الملوك الفرنسيون انتشار الدراسات الانسانية ببناء الكليات والأكاديميات.

فقد أنشأ فرانسوا الأول فى سنة ١٥٣٠م الكلية الملكية فى باريس (الكوليج دى فرانس) Le College de France خارج نطاق جامعتها، وذلك لتشجيع هذه الدراسات.

وقد كان الفضل الأكبر فى انتشار الكلاسيكيات فى فرنسا إلى جيوم بوديه Guillaum Bude (١٤٦٧ ـ ١٥٤٠م) الذى تلقى العلم على يد لاسكاريس وألياندر. وكان هو الذى حث وشجع فرانسوا الأول على تنفيذ فكرته فى انشاء الكوليج دى فرانس.

كما كان من أعلام النهضة الفرنسية «رابليه» Rabelais (١٤٩٥ ـ ١٥٥٣م) الذى اشتهر برواياته الفكاهية، وقد أشرنا إليه. وقد كتب بالفرنسية ونقد بشدة الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية السائدة فى عصره. كما نقد رجال الكنيسة والرهبان والتفكير الدينى عموما وطرق التربية وحالة القضاء. ولما كان من الإنسانيين فقد وضع نظاما للتربية على الأسس التى يرضى عنها الإنسانيون. فقام هذا البرنامج على تعليم اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية، وعلم النفس والقانون والفلك والطب وظواهر الطبيعة وقوانينها، وتربية الأجسام.

ويعتبر مونتانى Montaigne أيضا من أعلام النهضة، وفيليب دى كومين Philippe de Commines الذى ترك مذكرات تاريخية قيمة عن عهدى لويس الحادى عشر وشارل الثامن. كذلك تفوق العلماء الفرنسيون فى دراسة القانون الرومانى القديم. وفى مقدمة فقهائهم جاك كوجاز Jacques Cojas (١٥٢٢ ـ ١٥٩٠م).

أما عن الفنون، فلم يبلغ التصوير مبلغه الذى وصل إليه فى إيطاليا، حتى إن الملك فرانسوا الأول اضطر إلى استدعاء مصورين أو رسامين إيطاليين لتزيين قصره فى فونتين بلو Fontainebleu. وفى الحقيقة أن النهضة الحقيقية تمثلت فى النحت والعمارة. غير أن ذلك الفن لم يظهر فى الكنائس كما حدث فى إيطاليا، بل ظهر فى الأماكن العامة وفى القصور. وبلغت نهضة فرنسا فى هذا الفن أعلى درجاتها فى النصف الثانى من القرن السادس عشر.

ومن أهم الأعمال التى ظهرت فى هذا الميدان، بناء قصر اللوفر الذى بدأ فى عهد فرانسوا الأول ولم يتم إلاّ فى عهد لويس الرابع عشر. وقد ظهرت أهم أعمال النحت فى تزيين قصر اللوفر، وخصوصا فى التماثيل التى زينت واجهته.

٢ ـ النهضة فى إنجلترا :

لم تسهم إنجلترا فى النهضة الأوروبية العامة بإضافة شئ جديد إلى تراث الدراسات الإنسانية الأوروبية إلا فى القرن السابع عشر، وكانت إنجلترا قد شغلت بحروب المائة سنة ثم بحروب الوردتين.

فلما كان عهد أسرة تيودور تمهد السبيل للدراسات الإنسانية فى إنجلترا على يد الإنجليز الذين كانوا قد سافروا إلى إيطاليا،

منهم وليم جروسين Grocyn (١٤٤٦ ـ ١٥١٩م) ،وتوماس ليناكر Linacre (١٤٦٠ ــ ١٥٢٤م)، وجون كوليت John Colet (١٤٦٦ ـ ١٥١٩م)، ووليم ايللى Lilly (١٤٦٨ - ١٥٢١م)، وسير توماس مور Thomes More (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥م)، وإيرازموس Erasmus. وقد عرف هؤلاء المشتغلون بالدراسات القديمة، خاصة اليونانية، باسم «مصلحى أكسفورد». وإلى جانب أكسفورد وجدت الدراسات القديمة طريقها إلى كمبردج.

وفى النصف الأول من القرن السادس عشر دخل التعليم الكلاسيكى فى المدارس الإنجليزية، وكانت أقدم المدارس التى خصصت للدراسات الإنسانية، هى مدرسة سانت بول St. Paul التى أسسها كوليت.

وكانت حروب المائة سنة بين إنجلترا وفرنسا قد أدت إلى عملية التبادل الحضارى بين البلدين. فأخذت اللغة القومية فى إنجلترا تحل محل اللغة الفرنسية فى المؤلفات الأدبية والمحاكم والبرلمان والكنيسة، وفى مراسلات الملوك ومكاتبات الطبقة المثقفة.

فلما كان النصف الثانى من القرن السادس عشر ومطلع القرن الثانى كانت اللغة الانجليزية قد أينعت، وازدهر الأدب الإنجليزي ازدهارا كبيرا حتى أصبح يضارع أدب أى شعب آخر حتى الشعب الإغريقى، بعد أن كان حتى عام ١٥٧٩م أفقر من اللغة الفرنسية أو الأسبانية فى مجال الآداب الرفيعة.

وقد وصل الأدب الإنجليزى إلى الذروة خاصة فى الدراما. ففى عام ١٥٨٧م كتب كرستوفر مارلو Cristopher Marlowe (١٥٦٣ - ١٥٩٣م) أول وأعظم تراجيدياته، وهى فاوستس Faustus، وتلاه وليم شكسبير Shakespeare (١٥٦٤ ـ ١٦٦٦م) بتراجيدياته وكوميدياته ومسرحياته التاريخية أمثال: روميو وجولييت، وتاجر البندقية، وهاملت، وعطيل، ومكبث.

وإلى جانب مارلو وشكسبير رفع الشاعران أدموند سبنسر (١٥٥٢ ـ ١٥٩٩م) وفيليب سدنى (١٥٥٤ ـ ١٥٨٦) الشعر الإنجليزى إلى أرفع مستوى، بل صار عصرهما أبدع العصور إطلاقا فى الأدب الأوروبى الحديث.

وعلى كل حال فإذا عدنا إلى الحركة الإنسانية فى إنجلترا لنقارنها بغيرها من دول أوروبا، فإننا نجد أنها لم تتجه كما حدث فى إيطاليا وفرنسا، اتجاها وثنيا، ولم تشتمل على الأدب والفن فحسب، بل إنها اتجهت لخدمة الكنيسة أيضا. ويرجع الفضل فى هذا الاتجاه الإنسانى لايرازموس ولصديقه كوليت.

٣ ـ النهضة فى شبه جزيرة أيبريا:

كانت شبه جزيرة أيبيريا فى أوائل القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الإنسانية كبقية أنحاء أوروبا، فقد انتقلت بذور

هذه الدراسات إليها على يد بعض التلاميذ الذين زاروا إيطاليا فى القرن الخامس عشر ودرسوا فى جامعاتها وعادوا إلى بلادهم ليحاضروا فى الدراسات الإنسانية، ومن أبرز هؤلاء أرياس باربوسا Arias Barbosa فى جامعة سالامانكا Salamanca، وأنطونيو ليبريكسا Lebrixa، الذى حاضر فى أشبيلية Seville وألكالا Alcala، ثم المؤرخ البرتغالى والشاعر الكبير ريسندى Resende فى لشبونة.

على أن الخوف من بوادر حركة الإصلاح الدينى دعا شارل الخامس والبابا كليمنت السابع إلى الوقوف ضد الدراسات الإنسانية، مما جعل تأثير الدراسات الإنسانية فى المجتمع الأسبانى محدودا بصفة عامة. وكانت محاكم التفتيش الأسبانية سيفا على رءوس هؤلاء الإنسانيين.

على أن أثر حركة الإحياء فى شبه الجزيرة الأيبيرية تمثل بدرجة أوضح فى استخدام اللغة الأسبانية القومية فى مجال الأدب والمسرح. فكتب سرفانتيز Cervantes قصته المشهورة دون كيشوت، التى أشرنا إليها، وكتب لويس دى كاميونس De Cameons (١٥٢٤ ـ ١٥٨٠م) ملحمته الشهيرة لوزياد Lusiad، وكتب لوب دى فيجا Lope de Vega، المعاصر لسرفانتيز، عدة درامات.

وإلى جانب الدراسات القديمة والأدب القومى، اقترنت النهضة فى شبه جزيرة أيبيريا بالاهتمام بالملاحة وصناعة السفن، فضلا عن الفنون التى تأثرت بالناحية الدينية نظرا لأن رعاة الفن

من ملوك أسبانيا كانوا من الكاثوليك المتعصبين. ولذلك فإذا كان الفن الأسبانى فى عصر النهضة قليل الأهمية بالنسبة للمستويات الأوروبية، إلا أنه كان متميز الشخصية.

٤ ـ النهضة فى الأراضى المنخفضة :

كانت مقاطعات البلاد المنخفضة فى القرن الخامس عشر من ممتلكات دوقية برجنديا. وعندما آلت إلى شارل الخامس ملك أسبانيا عن جده مكسمليان وجدته مارى دوقة برجنديا والأراضى المنخفضة، انسحبت على هذه البلاد القيود التى فرضت على الدراسات الإنسانية فى أسبانيا ذاتها.

ولكن بعد أن اندلعت الثورة فى الأراضى المنخفضة على أسبانيا بزعامة وليم أورانج William of Orange وأفلحت فى استخلاص إرادتها واستقلالها، أخذت الدراسات الإنسانية فيها فى النمو والازدهار بسرعة، حتى أصبحت جامعة ليدن Lyden فى غضون نصف قرن مركزا عالميا للدراسات الإنسانية، وتركز اهتمامها بصفة خاصة بالتاريخ والآثار والدراسات الإغريقية واللاتينية والطب.

وكانت الدراسات الإنسانية فى الأراضى المنخفضة تستهدف أصلاً ترتيب ونقد المؤلفات التى جمعها الإنسانيون الأوائل، وتتميز

بعمق أصيل. ويقف إيرازموس فى مقدمة الإنسانيين الهولنديين، وإن كان فنه لا يرتبط بأصله، وإنما كان عالميا . ويأتى بعده جويست ليبس Joest Lips.

ويستوى فن الأراضى المنخفضة مع الفن الإيطالى فى إنطلاقهما من قاعدة بورجوازية هى المدن. فقد نافس سكان الأراضى المنخفضة سكان فلورنسا والبندقية في تقديرهم للجهود الأدبية والفنية.

وقد استمد الرسامون الفلمنكيون Flemish رسومهم من الحياة الواقعية، ولكن فى أصباغ مشرقة، وانتشر الفن الفلمنكى غربا عبر بورجنديا إلى فرنسا، وشرقا إلى ألمانيا الشمالية. ويعتبر أعظم المصورين والنقاشين الهولنديين قاطبة رمبرانت Rembrandt (١٦٠٦ ـ ١٦٦٦م). وقد صور رمبرانت ٦٠٠ صورة بفرشاته و٢٠٠٠ رسما، و ٣٠٠ نقشا.

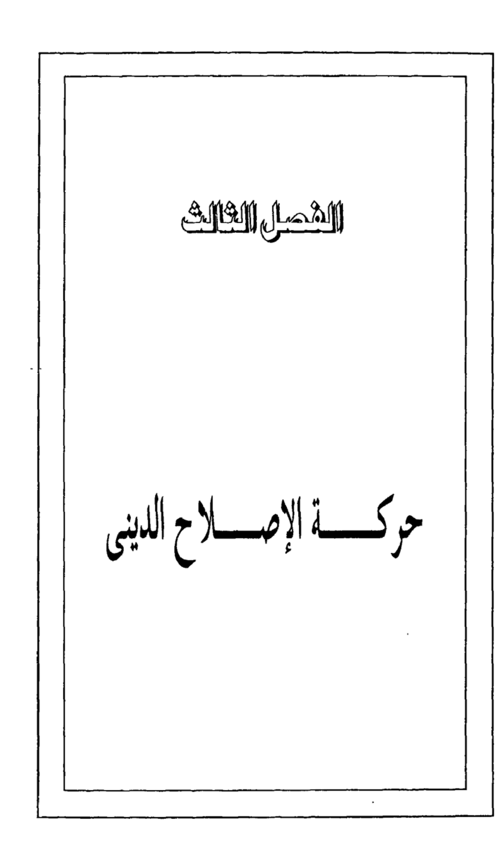
٥ ـ النهضة فى ألمانيا :

تميزت النهضة فى ألمانيا باتجاهها الدينى والعلمي، على العكس من إيطاليا التى اقتصرت الدراسات الإنسانية فيها على الطابع الوثنى. وكانت طلائع النهضة فى ألمانيا جماعة من المبتدئين الذين جذبتهم الدراسات القديمة فى إيطاليا ونقلوها بمجرد عودتهم

إلى ألمانيا. وكان هدف الألمان من دراسة الأدب القديم تهذيب النفوس وتربية النشء وتنمية شعور التقوى.

ويرجع الفضل فى إثارة الاهتمام بهذه الدراسات الجديدة فى ألمانيا إلى جوهان رويخلن Johann Reuchlin (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢م) الذى درس الأدبين اليونانى واللاتينى، ثم انصب اهتمامه على العبرية باعتبارها مفتاحا لدراسة العهد القديم .وهكذا كان اهتمام رويخلن بالعبرية لخدمة المسيحية.

وفى الواقع أن هذا هو الاتجاه المميز للحركة الإنسانية فى مرحلتها الأولى فى ألمانيا، فقد أخضع الإنسانيون الدراسات الإنسانية لخدمة الكتاب المقدس، فكان الائتلاف قويا بين الحركة الإنسانية وحركة الإصلاح الدينى، فكما أن الدراسات الإنسانية تعتمد على الدراسات القديمة، فكذلك حركة الإصلاح الدينى تعتمد على الرجوع إلى المصادر الأولى للمسيحية دون فلسفة العصور الوسطى من مدرسية وغيرها. لذلك اتجهت النهضة فى ألمانيا لخدمة الإصلاح الدينى واتخذت أشكالها فى دراسة الكتاب المقدس كما كتب باليونانية، وفى مهاجمة رجال الدين ومحاربة البدع والخرافات الدينية. وقد تبلور هذا الاتجاه بصورة صارخة فيما بعد فى قيام حركة الإصلاح الدينى Reformation المعادية للكنيسة الكاثوليكية، والتى انتهت بحروب دينية مدمرة.



الفصل الثالث

حركة الإصلاح الدينى

حركـــة الإصـــــلاح الدينى

(أولاً) الطبقة البورجوازية والإصلاح الدينى :

رأينا كيف أدى ظهور الطبقة البورجوازية التجارية الأوروبية إلى تغيير وجه الحياة فى أوروبا، وكيف تغيرت نظرة الناس إلى عادات وتقاليد العصور الوسطى، فأخذت هذه العادات والتقاليد تتزعزع أسسها مع انهيار المجتمع الإقطاعى وبناء المجتمع البورجوازى، كما أخذ البناء السياسى والفكرى والدينى والقانونى والفلسفى فى الانهيار مع انهيار العلاقات الإقطاعية القديمة وقيام العلاقات البورجوازية الجديدة.

وكانت الكنيسة فى ظل العلاقات الإقطاعية قد استطاعت أن تصوغ الدين فى شكل يتفق مع هذه العلاقات، فعملت على تمجيد حياة الزهد والتقشف، والنهى عن التمتع بجمال الحياة ونعيمها، ودعوة الناس إلى تعذيب النفس وحرمانها، استعدادا لنعيم الدار الآخرة. وذلك بغرض حمل الناس على قبول الاستغلال الإقطاعى فى إذعان واستسلام.

وكانت الكنيسة تطلب إلى الناس اتباع تعاليمها دون مناقشة، الأمر الذى أمات فيهم روح البحث والابتكار، وأعمى إنسان العصور الوسطى عن رؤية جمال العالم. فقد كان الجمال فى نظره

رجسا من عمل الشيطان، ولم تكن الدنيا فى رأيه الإمطية إلى الدار الآخرة، وكان الجهل فى نظره مقبولا عند الله، لأنه دليل على صدق العقيدة وقوة الإيمان.

وفى الوقت الذى كانت الكنيسة تقوم بهذا الدور إزاء الجماهير الكادحة، كانت تمارس الاستغلال المادى لهذه الجماهير بأشد مما كانت تمارسه طبقة النبلاء الإقطاعيين! وكان البابوات فى روما يعيشون حياة الترف، وانغمس بعضهم فى حمأة الرذيلة. كما تمتع رجال الكنيسة بالكثير من الامتيازات والحقوق المدنية التى لم يكن يتمتع بها سائر أفراد المجتمع، وكانت الكنيسة إلى جانب امتلاكها لإقطاعات واسعة معفية من الضرائب، لها الحق فى جمع نوع من الضرائب، وهى العشور.

وفى الوقت نفسه، لم تكتف الكنيسة بما كانت تتمتع به من مركز سام فى المجتمع الإقطاعى بحكم دورها الدينى، بل أراد البابوات إخضاع الأباطرة لسلطتهم، وبمعنى آخر إخضاع السلطة المدنية للسلطة الدينية، رغم أن النظرية المسيحية تؤكد أن الكنيسة والدولة تستمدان سلطتيهما من الله، الذى أوكل لواحدة حكم الروح، والأخرى حكم البدن، الأمر الذى أدى إلى قيام النزاع بين البابوية والإمبراطورية.

وقد كان من الطبيعى، مع إنهيار المجتمع الإقطاعى، وظهور طبقة جديدة على أنقاض هذا المجتمع، بمفاهيم ومثل جديدة، وبأسلوب فى الحياة والتفكير يختلف عن أسلوب العصور الوسطى،

أن تصحو أذهان الناس على مساوئ الكنيسة ومفاسدها، وأن تتمرد نفوسهم على قيودها ونظرياتها، فوقعت سلسلة من ردود الفعل العنيفة التى نقلت الناس من عصر إلى عصر، وانتهت بالقضاء قضاء مبرما على كنيسة العصور الوسطى، وبناء هيكل كنسى جديد يتفق مع علاقات الإنتاج الجديدة، وما ترتب على هذه العلاقات من قيام بناء علوى جديد.

وقد لعبت الطبقة البورجوازية الدور الرئيسى في تحطيم سلطان كنيسة العصور الوسطى. فلقد كانت هذه الطبقة، حين برزت أوروبا من العصور الوسطى، هى الطبقة الثورية ـ كما رأينا ـ وكان قد سبق لها أن بلغت مركزا مرموقا فى المجتمع بفضل ثرائها القائم على رأس المال، ولكن هذا المركز مع ذلك كان لا يتلاءم مع قوتها وقدرتها على التوسع والامتداد، وبالتالى، لما كان النظام الإقطاعى هو الذى يقف حائلا دون نموها وتطورها، فقد كان عليها أن تحطم هذا النظام.

ولكن الكنيسة الكاثوليكية كانت المركز الدولى العظيم للإقطاع، وهى التى وحدت أوروبا الغربية الإقطاعية، وجعلت فيها، برغم كل الحروب الداخلية، نظاما سياسياً موحداً يقف إزاء الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية المنشقة، والممالك الإسلامية، على حد سواء، وأحاطت الأنظمة الإقطاعية بهالة من القداسة، ونظمت طبقاتها وفق الأنموذج الإقطاعى، وأخيرا كانت الكنيسة أقوى سيد إقطاعى، وتملك ثلث أرض العالم الكاثوليكى ـ ولهذا كان لابد، قبل توجيه هجوم ناجح إلى النظام الإقطاعى الفاسد فى كل بلد، من تحطيم نظامه المركزى المقدس.

وفضلا عن هذا، فقد صاحب نمو البورجوازية، عملية إحياء العلوم العظيمة، من فلك، وميكانيكا، وطبيعة، وتشريح، وفسيولوجيا. فى حين كان العلم فى العصر الإقطاعى الخادم المطيع للكنيسة، ولم تكن تسمح له بأن يتخطى الحدود التى رسمتها العقيدة.

يتبين من كل ذلك أن البورجوازية كانت هى الطبقة التى يعنيها - أكثر من غيرها ـ النضال ضد دعاوى الكنيسة الكاثوليكية، ذلك أن كل صراع فى ذلك الوقت ضد الإقطاع كان لابد أن يجرى تحت ستار دينى، أى يجب أن يكون موجها ضد الكنيسة أولاً.

ولكن إذا كانت الصيحة بدأت من البورجوازية، فقد كان من المحقق أن يتردد صداها فى طبقات أخرى. فقد تردد صداها فى جماهير الفلاحين الذين كان عليهم أن يكافحوا من أجل وجودهم ضد سادتهم الإقطاعين، كما تردد صداها فى طبقة الفرسان الذين كان عليهم أن يكافحوا ضد سيطرة كبار النبلاء.

(ثانياً) الإصلاح الدينى فى ألمانيا:

١ ـ أسباب الإصلاح الدينى:

وهناك جملة أسباب جعلت هذه الظروف تنضج فى ألمانيا بالذات، وتفسر لِمَ قامت حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا، بدلا من قيامها فى إنجلترا أو السويد مثلا.

فمن ناحية، فقد أصبحت المدن الجديدة منذ نهاية القرن الرابع عشر ذات أثر واضح فى مقدرات الشعوب الألمانية، فإن المدن من أمثال فرانكفورت Frankfurt وستراسبورج Strassburg ونورمبورج Nuremberg وغيرها من مراكز النشاط التجارى والصناعى، قد أخذت تلعب دوراً مهماً فى حياة ألمانيا، فقد ظهرت طبقة من المولين الذين برز من بينهم بيت فوجر Fuggers، سيطرت على تجارة ألمانيا مع إيطاليا الشمالية والأراضى المنخفضة ومع الشرق أيضا، وكان المال هو أهم مصادر قوتهم. وقد أصبحت هذه الطبقة قبلة أنظار الأمراء والحكام يطلبون منها المال لسد احتياجاتهم، وبفضل هذا المركز الاقتصادى الممتاز، فرض البورجوازيون سيطرتهم الواسعة على كافة نواحى الحياة فى زمنهم.

وإلى جانب هذه الطبقة كانت توجد طبقة الفرسان الساخطين. وكان انحلال هذه الطبقة من النبلاء الضعفاء، قد بدأ منذ القرن الثالث عشر عندما تضاءلت قيمة أراضيهم بسبب التطور الاقتصادى، فلم تصبح الأرض مصدر الثروة الوحيد، وتغيرت أساليب القتال وأدواته وفنون الحرب، ففقدت هذه الطبقة مبرر بقائها. ومع أن قلائل منهم استطاعوا الاحتفاظ بشئ من امتيازاتهم، مثل فرسان الراين وسوابيا Swabia وفرانكونيا Franconia، فإن الأغلبية الكبرى خضعت لسيادة الأمراء الأقوياء، ولم

تحتفظ إلا بالقليل من امتيازاتها النوعية. ولهذا أصبح هؤلاء الفرسان متحفزين دائما للثورة ضد النظام الاجتماعى والسياسى القائم.

وإلى جانب هذه الطبقة الساخطة كانت توجد طبقة أخرى أشد سخطا، هى طبقة الفلاحين. فقد كان هؤلاء يعيشون على هامش الحياة بمعزل عن التطورات العميقة التى شهدتها المدن الألمانية، حيث كان أفراد الطبقة البورجوازية قد قطعوا شوطا بعيداً فى مجالات التقدم والرفاهية.

وكان هؤلاء الفلاحون الألمان يرسفون فى اغلال «القنية» وقيود الإقطاع، وكانوا محل استغلال مشترك من الأمراء ورجال الكنيسة والفرسان، إذ كانوا نهبا لشتى أنواع الضرائب نقداً وعينا وسخرة، ويحرم عليهم ممارسة كثير من الحقوق، فقد كانوا يحرمون من ممارسة صيد الأسماك فى الأنهار والقنوات، وصيد الحيوانات فى الغابات، فى حين كانت تنتهك أراضيهم وبيوتهم وأعراضهم. وكان عداؤهم لرجال الدين شديدا، فقد ندوا بالأعباء المالية التى فرضها عليهم هؤلاء، وبإسرافهم فى فرض ضريبة العشور وغيرها من ضرائب ورسوم مختلفة الأسماء والأنواع.

وبالإضافة إلى ذلك فهناك أسباب أخرى تفسر قيام حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا ـ وهى أن الألمان كانوا يحقدون منذ القدم على الكنيسة الكاثوليكية فى روما، اذ كان النزاع المستمر بين

البابا والإمبراطور الألمانى (إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة) سبباً فى أن كل فريق كان يشعر نحو الآخر بعداء شديد. وفضلا عن ذلك ففى الدول الأوروبية الأخرى كانت مقاليد الحكم فى أيدى ملوك أقوياء استطاعوا حماية رعاياهم من جشع رجال الدين، ولكن فى ألمانيا، حيث كان الإمبراطور يحكم مجموعة من الأمراء الأقوياء، وليس له إلا ظل من السلطة، فإن البورجوازيين كانوا تحت رحمة القساوسة والمطارنة مباشرة، الذين كانوا يحاولون جمع المال لصالح تلك الكنائس الضخمة، التى كان إنشاؤها هواية البابوات فى عصر النهضة.

وهناك سبب مهم آخر، هو أن ألمانيا كانت موطن الطباعة، منذ اخترع جوتنبرج Gutenberg (١٣٩٧ ـ ١٤٦٨م) الطباعة بالحروف المصفوفة فى منتصف القرن الخامس عشر، فأزال العقبات فى سبيل انتشار العلم وتوصيله إلى عامة الشعب.

وكان الكتاب المقدس أول كتاب طبع بهذه الطريقة فى سنة ١٤٥٥م، وبذلك لم يعد مخطوطاً محجبا بالأسرار فى حوزة رجل الدين الذى يتولى وحده التفسير، بل أصبح كتابا من الكتب المتداولة فى كثير من البيوت، التى كان ربها وأولاده يعرفون اللغة اللاتينية. فأخذت أسر بأجمعها تقرأ الكتاب المقدس ـ وكان ذلك مخالفا لقوانين الكنيسة – فتبين للناس أن القساوسة كانوا يقصون عليهم أشياء كثيرة تختلف عما هو موجود فى النص الأصلى! فأثار ذلك فى نفوسهم الشك فى رجال الدين، والحملة عليهم.

فى ذلك الحين كانت الظروف تتجمع داخل الكنيسة وتدفع للثورة عليها. وتنقسم هذه الظروف إلى قسمين: القسم الأول ويتصل بفساد الكنيسة، والقسم الثانى ويتصل بمحاولات الإصلاح الفاشلة.

وفيما يختص بفساد الكنيسة، ففى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كان عدد كبير من رجال الكنيسة، وعلى رأسهم البابا يعيشون عيشة الترف والمجون، وتحولت الولايات البابوية إلى دول علمانية من الناحية الفعلية، استخدم فيها البابا كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق أغراضه السياسية، ومن هذه الوسائل التآمر والغدر، والاغتيال بالسم، والحروب.

وفى الفترة التى سبقت حركة «مارتن لوثر»، جلس على كرسى البابوية اثنان من البابوات يعتبران بحق مسئولين عن تدهور سمعة البابوية وانحدار مركزها، هما: اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣م) ويوليوس الثانى (١٥٠٣ ـ ١٥١٥م).

وبالنسبة لحياة إسكندر السادس، فقد كانت حياة مخزية، فقد كرس حياته لإشباع ملذاته وتحقيق أطماعه، وإغداق مراتب الشرف على أبنائه، وتنمية ثرواتهم. وكان قد أقام علاقة بإحدى السيدات المتزوجات Vanozza، وأنجب منها بفضل هذه الصلة غير الشريفة أبناءه الأربعة: دون جوان، وشيزار، وجوبى Jope، وابنته لوكريزيا Lucrezia. كما كان له أبناء آخرون من نساء أخريات. وقد

أقام إبنه شيزار بورجيا Borgia قسيسا، ثم كاردينالا، فارتكب من الجرائم ما جعل روما ترتجف رعبا لاسمه، ولم يتورع عن قتل أخيه دون جوان عندما خشى أن يشاركه فى سطوته ونفوذه. واستخدم البابا وابنه جميع الوسائل غير المشروعة لتحقيق أهدافهما، مثل الرشوة والاغتيال على أوسع نطاق، وسلاح الحرمان البابوى.

وأما البابا يوليوس الثانى، فلم يكن يقل فى أطماعه الدنيوية عن اسكندر السادس، وإن سلك اليها طريقا مختلفا عن طريق آل بورجيا Borgia، هى طريق الحرب والسياسة. فقد وقف يوليوس الثانى Julius II موقف المحارب والسياسى، يقود الجيوش، ويقاتل الأعداء، ويدبر المكائد، ويعقد المحالفات، وذلك لإعادة تأسيس ممتلكات الكنيسة، حتى ليعتبر بحق مؤسس أملاك البابوية فى القرن السادس عشر.

وقد كان من الطبيعى أن تتأثر ميول كبار رجال الكنيسة بميول البابوات، فانكبوا بدورهم على الدنيويات، وطرحوا العناية بالشئون الدينية والروحانية جانبا، وصار من المألوف أن ينظر أصحاب هذه المراكز الدينية إلى وظائفهم باعتبارها مصدر إيراد فحسب، وأصبحت كافة الوظائف الكنسية تباع غالبا عن طريق المساومات مع البابوات، وصارت هذه الوظائف، بفضل تحايل رجال الإكليروس، شبه وراثية ماداموا قادرين على دفع المال.

وقد ترتب على ذلك أن أهملت الواجبات الكنسية، وفقدت الكنيسة مكانتها العالية التى تبوأتها، واهتز الأساسى الروحى

والأخلاقى الذى أقامت عليه نفوذها وهيمنتها فى العصور الوسطى. ومن هنا بات المسيحيون فى دول غرب أوروبا يدعون إلى إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة فيها، وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع أرجاء العالم المسيحى.

وقد أخذت هذه الدعوة تمر بعدة أدوار، وتتعرض لعدة تطورات، نقلتها من مجرد الدعوة إلى إصلاح الكنيسة، إلى الدعوة إلى إصلاح العقيدة ذاتها! وهذه الدعوات جميعها، وهى التى تحولت إلى حركات، هى التى يطلق عليها فى مجموعها: «حركة الإصلاح الدينى».

٢ ـ حركة الإصلاح الدينى من الداخل:

أما الدعوة إلى إصلاح الكنيسة فيعبر عنها بالإصلاح من الداخل، أى من داخل الكنيسة ذاتها، فتقوم الكنيسة على أيدى رجالها بإزالة مفاسدها وتنظيم شئونها وإصلاح نفسها بنفسها.

وكان قوام هذا الاتجاه عقد المجالس Councils أو «المجامع الكنسية» تباعا، وفى فترات متفاوتة نوعاً ما، ويطلق عليها «حركة المجامع الكنسية». وقد بدأت على يد رجال الدين الكاثوليك الذين عقدوا المجالس الدينية لإدخال الإصلاح اللازم للكنيسة من داخل الكنيسة، بل إن آخر هذه المجالس، وهو المجلس الدينى الذى عقد فى بال Basle فى سنة ١٤٣١م، أراد أن يضع القرارات التى تصدرها المجالس الدينية فوق قرارات البابا، وأراد أن يحد من سلطة البابا ويمنع عنه بعض الأموال الكنسية. ولكن اعتلاء البابا

نقولا الخامس فى ١٤٤٧م كرسى البابوية قضى على هذه المحاولة، الأمر الذى أدى إلى فشل حركة المجالس الدينية فى إدخال الإصلاح المطلوب من داخل الكنيسة.

وقد كان من كبار المصلحين الدينيين الذين أرادوا أن تقوم الكنيسة بإصلاح نفسها، يوحنا رويخلين John Reuchlin (١٤٥٥ - ١٥٢٢م)، وديزيديريوس إيرازموس Desiderius Erasmus (١٤٦٧ - ١٥٣٦م).

أما يوحنا رويخلين، فهو «إنسانى» ينتمى للحركة الإنسانية فى عصر النهضة، ومتخصص فى الدراسات العبرية، وكان طيلة قسم كبير من حياته المركز الحقيقى لكل الدراسات الإغريقية والعبرية فى ألمانيا. وقد استعان باللغة العبرية فى تفسير العهد القديم من الكتاب المقدس The Old Testament وأثار بكتاباته ضجة من الجدل، وكشف هو وتلاميذه وأتباعه عن مساوئ الكنيسة، ونقدوا البدع والخرافات التى إنتشرت فيها، مما أدى فى النهاية إلى تكوين قسم من الرأى العام معادٍ لكنيسة روما. ولكنه مع ذلك لم يستهدف إطلاقا الخروج على الكنيسة أو الانفصال عنها، وإنما كان هدفه أن تقوم الكنيسة بإصلاح نفسها.

أما ديزيديريوس إيرازموس Desiderius Erasmus فهو «إنسانى» أيضا، وهو الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة فى أوروبا حتى أيام فولتير (اسمه الأصلى جيرهارد جيرهاردسون)

وقد نادى بإصلاح عيوب الكنيسة، وأسهم فى إثارة الرأى العام ضد البابوية والكنيسة، وإن لم يستهدف هو ايضا الانفصال عن الكنيسة أو الانشقاق عنها.

وتتمثل أهميته، من ناحية الإصلاح الدينى، فى ترجمته إلى اللغة اللاتينية القسم اليونانى من الكتاب المقدس، أى الإنجيل أو العهد الأعظم، وأرفق مع هذه الترجمة النص اليونانى القديم الأصلى، فكشف بهذه الترجمة الصحيحة ما فى الترجمة اللاتينية القديمة للكتاب المقدس، والتى راجعها القديس جيروم فى القرن الرابع، واعتمدتها الكنيسة الكاثولوكية The Vulgate ، من أخطاء فى بعض مواضعها. وبذلك لم تعد نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئا مقدسا.

وقد كان تأثير ذلك على الفكر المسيحى عظيما. فإذا كان فى وسع الرجل العلمانى أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية، وهى اللغة الرسمية للإكليروس، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس، وهما: العبرية التى كتب بها العهد القديم أو التوراة، واليونانية التى كتب بها العهد الجديد أو الإنجيل. وإذا كانت نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية والمعتمدة من الكنيسة الكاثولوكية، قد فقدت قداستها، فقد كان لابد أن تظهر فكرة أن الإنسان يستطيع الإتصال بربه مباشرة دون وساطة القسس!

ومع فشل الكنيسة فى إصلاح نفسها بنفسها، وعدم استجابتها لرغبات المصلحين، انتقلت حركة الإصلاح الدينى إلى

مرحلتها الثانية، وهى مرحلة فرض الإصلاح من الخارج. وهذه المرحلة لا تقتصر فقط على إصلاح الكنيسة، بل واصلاح العقيدة ذاتها! وكان على رأس هذه الحركة: مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ – ١٥٤٦م) وأولريك زفينجلى Ulirich Zwingli، ويوحنا كلفن John Calvin.

٣ ـ حركة الإصلاح الدينى من الخارج :

(أ) مارتن لوثر وحركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا :

ولد مارتن لوثر عام ١٤٨٣م فى قرية أيزلبن Eisleben من أعمال سكسونيا، لأب معدم من عمال التعدين، وعاش فى بيئة ريفية شاقة. وفى سن الثامنة عشرة التحق بجامعة ايرفورت Erfurt، وكانت أشهر جامعات ألمانيا، لتلقى علم القانون. فبدأ بدراسته فى كلية الفلسفة تمهيداً للالتحاق بكلية الحقوق، ونال إجازته الأولى عام ١٥٠٢م، ثم إجازة الأستاذية فى عام ١٥٠٥م، ولكن لم يكمل دراسته بكلية الحقوق، وإنما انخرط فى سلك الرهبنة فى أحد أديرة القديس أوغسطين، وانكب على الصلاة والتقشف والزهد وتعذيب النفس أملا فى التخلص من خطاياه، والتوصل إلى رحمة الله. ثم ترك الدير وقام بتدريس الفلسفة فى جامعة وتنبرج Wittenburg الجديدة سنة ١٥٠٨م، ثم صار يدرس بها اللاهوت.

وفى سنة ١٥١٠م زار روما، وهناك شاهد بنفسه مفاسد البابوية، فعظم قلقه، وتركت هذه الزيارة فى نفسه جرحا داميا.

وفى خلال ذلك وحتى سنة ١٥١٥م، كان قد استطاع الاهتداء إلى العقيدة التى ساعدته على الوصول إلى الهدوء النفسى الذى ينشده، وتتلخص هذه العقيدة فى أن الإيمان المطلق برحمة الله، هو الذى يضمن النجاة من عقاب الله. فإن الإنسان إذا ماكان مؤمنا، فإنه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر فى نفسه من شرور، أما الطقوس، كالحج، والاحتفالات الدينية، والهمس فى المسابح، وإيقاد الشموع، وعبادة المخلفات الدينية، فلا جدوى منها.

وأما الغرض من الصلاة والعبادة بأنواعها فليس التخلص من الخطايا، ولكن إسداء الحمد والشكر لله.

وقد اهتدى لوثر إلى هذه العقيدة من دراسته للكتاب المقدس، ورسالة الرسول بولس إلى مسيحيى روما خصوصا. وتعرف هذه العقيدة باسم عقيدة «التبرير بالإيمان» Justification by Faith.

ولم تلبث الظروف أن تهيأت لنشر هذه العقيدة حين دخلت مسأله صكوك الغفران فى مرحلة جديدة لا تحتمل، على يد راهب دومينيكانى Dominican، هو يوحنا تتزل John Tetzel.

والغفران Indulgence، كما عرفه توماس أكويناسAcquinas، وهو من كبار مفكرى الكنيسة فى العصور الوسطى، يقوم أساسا على قواعد ثلاث: الندم Repentance، والاعتراف Confession، والتكفير Justification وهو الذى يكون بالصلاة والصوم والزكاة. ومعنى ذلك أن الغفران لايتم إلا إذا مر بالمراحل الثلاث السابقة.

على أن البابوات صاروا يستعيضون عن التكفير (وهو الصلاة والصوم والزكاة) بعمل آخر، كالاشتراك فى الحروب الصليبية، أو الحج إلى روما عند أول كل مائة سنة جديدة، فيمنح البابا الغفران الكامل للمحارب أو الحاج إلى روما، دون حاجة إلى استيفاء الركنين الأولين للغفران، وهما: الندم والاعتراف. ثم صار الغفران يمنح إلى كل فرد يجهز محاربا من الصليبيين، ثم أخذت صكوك الغفران تصدر لأغراض أخرى متنوعة، كبناء الكاتدرائيات أولا، ثم لغايات دنيوية، كإنشاء الطرق، وإقامة الجسور، وغير ذلك من الأعمال العامة المفيدة.

وكان الغفران عبارة عن صك من الورق، يبذل فيه الوعد للمذنب ـ لقاء قدر من المال ـ بإنقاص المدة التى سوف يمكثها فى «المطهر».

وكان الباباوات لهم سلطة غفران الذنوب بناء على السلطة التى استمدها تلاميذ السيد المسيح وخلفاؤهم من قول المسيح لتلاميذه: «من غفرتم خطاياه نغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت».

ولم تلبث صكوك الغفران (التعويض عن التكفير) أن أصبحت عملية تجارية، يكفى فيها أن يدفع الإنسان قدرا من المال ليحصل على شهادة أو صك بالغفران.

فى ذلك الحين كان هناك نوع من الغفرانات يسمى بالغفران الاحتفالى (أو اليوبيلى)، وقد بدأ فى عام ١٣٠٠ على يد البابا

بونيفاس الثامن Boniface للاحتفال ببداية القرن الجديد (القرن الرابع عشر)، ويعطى لكل من يقوم بالحج الى روما، وهو غفران شامل لكل الذنوب.

وقد أغرى نجاح هذا الغفران أحد البابوات بعد قرن من الزمان على أن يصدر غفرانات احتفالية بمناسبة مضى ربع قرن، ولم تلبث هذه اليوبيلات أن انتشرت أيام لوثر، حتى رأى البابوات أن يعهدوا بترتيبها إلى البنوك والمصارف فى ألمانيا، خصوصا بيت فوجرز Fuggers فى أوجزبرج Augsburg، الذين صاروا يعملون بمثابة وكلاء لإبرام العقود، وتقديم القروض وترتيب اليوبيلات، وتحصيل الأموال - كما حدث عندما قام هؤلاء المولون بالمفاوضة بين «ألبرخت» Albrecht أمير براندنبرج Brandenburg ورئيس أساقفة ماينز Mainz ومجدبرج Magdeburg وبين البابا فى روما، على أن يقدموا قرضا لتنفيذ التسوية، وعلى أن يصدر البابا ليو العاشر Leo غفرانات شاملة لمدة ثمانية أعوام، تباع وتشترى فى أراضى ألبرخت، على أن يستولى «ألبرخت» على نصف المتحصل من الغفرانات، وأمّا النصف الآخر فيرصد رسميا لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما.

وبطبيعة الحال فلم يلبث أصحاب هذه التسوية أن أخذوا يقومون بالدعاية لصكوك الغفران، وينشرون أعوانهم فى جميع القرى. وقد لجأ البائعون من الرهبان الدومينيكان، فى سبيل ترويج بضاعتهم، واستثارة حماس الناس إلى شراء هذه الصكوك ـ أو

«الرسائل البابوية» كما كانت تسمى ـ إلى أساليب مبتذلة، حتى إن يوحنا تتزيل John Tetzel، رئيس هذه الجماعة، الذى فوضه ألبرخت لبيع الصكوك لحسابه، إندفع فى خطابه مرة، وبلغت به الجرأة أن قال ـ وهو يلوح بالصكوك فى الهواء ـ «إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها، فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران»! بل إن البابا ليو العاشر قرر أن يسرى مبدأ الغفران على الأموات مثل سريانه على الأحياء!

ولما كان تداول صكوك الغفران على هذا النحو يهدم الغفران الحقيقى بأركانه الثلاثة المعروفة، ولما كان لوثر يعتقد أن النجاة من العقاب لاتأتى إلا عن طريق الإيمان بالله وبرحمته فقط، فقد استنكر هذا العمل، وانتهز فرصة اجتماع الناس فى كنيسة وتنبرج يوم أول نوفمبر ١٥١٧م للاحتفال بعيد الشهداء All Saint Day، فعلق على باب الكنيسة احتجاجا طويلا، يتألف من ٩٥ حُجة ضد صكوك الغفران. وفى هذا الاجتماع لم يحمل فقط على عملية بيع صكوك الغفران، بل حمل كذلك على الغفران نفسه، كما كان معمولا فى الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون ـ أى أن لوثر هاجم الغفران بقواعده الثلاثة التى أشرنا إليها. ثم أخذ يبسط عقيدته فى التبرير بالإيمان، وهى أن الغفران مربوط فقط برحمة الله.

ـ وتتلخص الحجج التى تضمنها احتجاجه فى الآتى:

١ ـ أن الغفران لايعدو أن يكون الإعتاق من العقوبات الكنسية وليس الإعتاق مما فرضه الله.

٢ ـ أن صك الغفران لايمكن أن يمحو ذنبا، لأن البابا لايستطيع ذلك.

٣ ـ أن صك الغفران، بالتالى، لايمكن أن يخلص الإنسان من العقوبة، وإنما الله وحده الذى يحتفظ بهذا الحق بين يديه.

٤ ـ أن صك الغفران لا يمكن أن يفعل شيئا للروح فى «المطهر»، حيث أنه لايسرى إلا على ما توقعه الكنيسة من عقوبة، وهى عقوبة متعلقة بالأحياء، وتسقط بالموت. وكل ما يستطيع أن يفعله البابا للروح فى «المطهر» هو الصلاة فقط.

٥ ـ أن طريق المغفرة والصفح من الله، هو التوبة الصادقة وحدها.

ولم يمض أسبوعان على هذا الحادث، حتى كانت قد ذاعت أنباء هذه الحجج الخمس والتسعين، وترجمت من اللاتينية إلى الألمانية. ولم يمض شهران حتى كانت أوروبا بأسرها تناقش هذه الحجج التى وضعها الراهب السكسونى، وكان لزاما على كل فرد أن ينحاز إما إلى جانب لوثر وإما إلى الطرف الآخر.

على أن لوثر مضى خطوة أخرى. ففى مناقشة مع يوحنا تتزل ومع غيره من علماء اللاهوت، وأقدرهم يوحنا إيك John Eck أستاذ اللاهوت بجامعة انجولشتات Ingolstadt، نقد لوثر نظام الكنيسة وسلطتها العليا، بل وتعاليمها، وصرح بأن الكتاب المقدس هو وحده القانون الذى يجب الرجوع إليه فى تفسير العقائد. كما

وجه فى سنة ١٥١٩م الدعوة إلى الأمراء وإلى الفرسان فى ألمانيا لتزعم الاصلاح على الأسس الآتية:

١ ـ خضوع رجال الدين للسلطة المدنية.

٢ ـ ليس من حق البابا وحده أن يحتكر تفسير الكتاب المقدس.

٣ ـ ضرورة إنقاص عدد الأديرة.

٤ ـ عدم الحج إلى روما.

٥ ـ ضرورة زواج القسس.

٦ ـ الطلاق أمر شرعى.

٧ ـ ليس فى استطاعة القسس، عند تناول القربان، أن يحولوا الخبز والنبيذ فى العشاء الربانى الأخير إلى جسد المسيح ودمه.

وعلى هذا النحو هاجم لوثر الكنيسة الكاثوليكية فى صحيح سلطاتها وعقيدتها.

ولم يلبث لوثر أن كتب إلى البابا رسالة بعنوان: «فيما يمس الحرية المسيحية»، قال له فيها: «إنك لا تستطيع أن تنكر أن مايسمى بهيئة الكهنوت الرومانية هى أفسد من بابل وسدوم! ولقد أظهرت احتقارى حقا، وانتابنى الغضب لأن الشعب المسيحى يُخدع تحت ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية. لهذا قاومت، وسأظل أقاوم، ما وجد فىّ عرق ينبض بروح الإيمان».

وإزاء ذلك أصدر البابا ليو العاشر قراره بحرمان لوثر، وأجاب لوثر على ذلك بحرق القرار علنا فى ساحة وتنبرج فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠م، وبذلك انقطعت كل صلة تربطه بالكنيسة، وأصبح السلام بينه وبين البابا مستحيلا.

وعندئذ طلب البابا من الإمبراطور شارل الخامس أن يقتص من لوثر، وينفذ قرار الحرمان ضده، فعقد الإمبراطور مَجْمعا (اجتماع عام) فى ورمز Diet of Worms فى يناير ١٥٢١ لمناقشة لوثر فى آرائه. فذهب لوثر إلى المجمع، بعد أن غدا بطل الألمان القومى، ورفض أن يسحب كلمة واحدة مما قال أو كتب،.وعندئذ أصدر المجمع قرارا اعتبر فيه لوثر خارجا على السلطة القائمة، وطرده خارج القانون، وإهدار دمه. وحرم على جميع الألمان إيواءه أوتزويده بالطعام والشراب، كما حرم عليهم قراءة كلمة واحدة مما كتبه.

على أن فردريك، ناخب سكسونيا، ومؤسس جامعة وتنبرج، تقدم لحماية لوثر، فلجأ لوثر إلى قلعة فارتبرج Wartburg حيث أقام فى هذا المخبأ مدة عام تقريبا، ترجم خلاله الإنجيل إلى الألمانية، مما كان له أثر كبير فى إحياء الأدب الألمانى، وجعل اطلاع الناس على كتابهم المقدس أمرا سهلا، بعد أن كان الدين وتفسيره وقفاً فقط على رجال الدين وحدهم.

وفى أثناء عزلة لوثر اتصل به أقرب أخصائه، وهو فيليب ميلانكتون Philip Melanchthon، المتعمق فى الدراسات الإغريقية، والذى يرجع إليه الفضل فى وضع فلسفة واضحة للإصلاح اللوثرى.

ففى ديسمبر ١٥٢١م أمد فيليب ميلانكتون المذهب الجديد بأول كتاب ظهر فى الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون، حاويا لنظام مبنى على الإنجيل وحده، وهو كتاب «كلام معاد» Loci Communes.

وبينما كان لوثر مختبئا فى قلعة فارتبورج، أخذت حركة الإصلاح الدينى فى الانتشار فى ألمانيا، وفى الوقت نفسه أخذ بعض المتحمسين يتطرفون فى دعوتهم، ويشتطون فى تأييد حركته الإصلاحية. كما رأى البعض فى الحركة الفرصة للانقضاض على أراضى الكنيسة وهدم النظام الاجتماعى. على هذا النحو ظهرت حركات ثورية ثلاث هى:

(ب) حركة الأنابابتيين Anabaptists (الذين يريدون إعادة التعميد) :

وقد ظهرت هذه الحركة فى تزفيكاو Zwikau فى سكسونيا ١٥٢١م، على يد جماعة متطرفة من أنصار لوثر، على رأسهم توماس مونزر Munzer، رأت أن تعميد الأطفال (تغطيسهم ثلاث مرات فى الماء على اسم الثالوث المقدس: الآب والابن والروح

القدس) من أجل صلاحهم، لا يتفق مع تعاليم الإنجيل، حيث يجب أن تتوافر فى المعمودية أركان الحياة الدينية الصحيحة، من توبة وندم وإيمان، وهو ما لايتوافر فى الأطفال، ومن ثم فإن سر المعمودية لايسمح الا للبالغين الراشدين الذين اعتنقوا المسيحية فقط.

على أنه عندما تطرف هؤلاء فى دعوتهم، وقعت اضطرابات واعتداءات جعلت لوثر يشعر بأن دعوة الإصلاح الدينى فى خطر، فخرج من مخبئه ليدعو المتطرفين لالتزام الهدوء والحكمة.

(جـ) حركة الفرسان Knights:

رأينا كيف كانت هذه الطبقة ساخطة ومتحفزة للثورة ضد النظام الاجتماعى والسياسى الذى لم يعد يوفر لها امتيازاتها السابقة، فلما ظهرت دعوة لوثر، وتصدعت هيبة الكنيسة، رأى هؤلاء فى تلك الدعوة الفرصة لانتزاع أراضى الكنيسة، واتخذوا من أقوال لوثر ذريعة لمهاجمة أملاك الأسقفيات الكبرى. (كان لوثر يريد تجريد الكنيسة من أملاكها لارغامها على استعادة بساطتها الأولى) كما أراد الفرسان هدم سيطرة النبلاء الذين اعتبروهم أعداء لهم.

على أن لوثر امتنع عن تأييدهم ، كما تحالف مع النبلاء ضدهم. وفى الوقت نفسه لم تجتذب حركتهم تأييد الفلاحين الذين كرهوا منهم الإرهاق الذى ألحقوه بهم.

وعلى هذا النحو فحين قامت هذه الحركة فى سوابيا وفرانكونيا بقيادة فرانزفون سيكينجن Franz Von Sickingen وصديقه ألريك فون هتن Von Hutten، وأخذوا فى مهاجمة رجال الكنيسة ورؤسائهم من الأساقفة لانتزاع أراضى الكنيسة. واجههم الأمراء بالقوة المسلحة، فقتل فون سيكنجن، وهرب فون هتن إلى سويسرا سنة ١٥٢٣م، حيث مات بها فقيرا.

(د) ثورة الفلاحين Peasants War:

قامت هذه الثورة فى التيرول وأوستريا وفرانكونيا وسوابيا، وهى عبارة عن سلسلة من الثورات التى قام بها الفلاحون فيما بين سنتى ١٥٢٤ و ١٥٢٥م، وكان قد سبقها ثورات أخرى قبل ظهور الحركة اللوثرية، ولكن هذه الثورات الأخيرة بالذات تميزت بأنها أشد عنفا وأكبر خطرا.

وكان الفلاحون قد استمالتهم دعوة لوثر إلى الحرية والإنسانية والإخاء الجرمانى، فاعتنقوا هذه الآراء، وأعجبتهم مهاجمة لوثر لرجال الكنيسة الذين كانوا يشكون منهم مرّ الشكوى، بسبب إسرافهم فى فرض الضرائب والرسوم تحت مختلف الأسماء والفئات. ويلاحظ أن لوثر كان يفاخر بأنه ينحدر من أبوين اشتغلا بالفلاحة، وكان يدرك المظالم التى تنهال عليهم.

وعلى ذلك، فعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يرون أن الفلاحين الألمان لم يكونوا فى وضع اقتصادى واجتماعى أسوأ من وضع غيرهم من الفلاحين فى دول غرب أوروبا، حيث كانوا قد بدءوا فى تحرير أنفسهم من حالة القنية، وكان الرخاء المادى قد بدأ طريقه إليهم، فإن دعوة لوثر أحدثت فيهم من الأثر ما أحدثته الأفكار الحرة التى أشعلت الثورة الفرنسية فى استثارة الفلاحين إلى الثورة.

وقد بدأت ثورة الفلاحين فى دوقية بادن متخذة طابع الاحتجاج على الاسراف فى فرض نظام السخرة، ثم انتشرت فى الجنوب الغربى من ألمانيا، وفى الحوض الأعلى لنهر الراين، وحوض الدانوب الأعلى، ثم امتدت شرقا فى إقليم التيرول وسالزبورج وكارينثيا Carinthia فى النمسا، ثم اتجهت صوب الشمال فى أراضى سكسونيا مسقط رأس لوثر.

وقد وضع الفلاحون بيانا بمطالبهم فى مارس ١٥٢٥م، طالبوا فيه بإلغاء رق الأرض، وتحديد القيم الإيجارية للأراضى تحديدا عادلا، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتحديد الخدمات الإقطاعية التى يؤديها الفلاحون للأمراء الإقطاعيين، وتقرير حق صيد الأسماك فى الأنهار والقنوات التى يعملون فى فلاحتها، وحق صيد الحيوانات فى الغابات، ومنح كل جماعة الحق فى اختيار وتعيين القسس فى الكنائس، والأساقفة فى الأبرشيات. وقد طالب

الفلاحون بأن تنظر مطالبهم فى ضوء الكتاب المقدس، مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء! وقالوا: «لن نكون بعد اليوم عبيدا، لأن المسيح جعلنا أحراراً».

ولم تلبث هذه الحركة أن اتخذت طابعا شيوعياً على يد توماس مونزر Munzer، حاكم «تزفيكاو» وزعيم الأنابابتيين، والذى نصب نفسه زعيما للفلاحين منذ أقام فى إحدى مدن ألمانيا، وهى مدينة مولهاوسن Mulhausen مجتمعا شيوعيا يقوم على إلغاء الملكية الفردية، والمساواة المطلقة بين الأفراد وشيوعية الملك، ودعا إلى إقامة مجتمع مسيحى جديد يقوم على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية، وهو ما يقتضى التخلص من الأمراء ورجال الدين على بكرة أبيهم.

(هـ) مارتن لوثر وثورة الفلاحين :

وقد تمكنت الثورة الفلاحية من الحصول على انتصارات ساحقة فى مراحلها الأولى، فسقطت مدن مهمة فى أيدى الثوار. ولكن لوثر لم يلبث أن تنكر للفلاحين، رغم معرفته ما يعانونه من ظلم، وما عليه مطالبهم من عدل، فقد خرج من مخبئه يؤلب النبلاء على الفلاحين، ويدعوهم لمقاومة الثورة بالقوة، ووصف الفلاحين بأنهم «الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء»، ولم يستطع أن يرتفع من مستوى الإصلاح الدينى المحدود إلى مستوى الإصلاح الاجتماعى العريض، ولم يكترث إلا بشئ واحد، وهو أن ثورة الفلاحين تهدد مذهبه الجديد بالخطر فى بداية انتشاره.

وقد ترتب على موقفه أن اجتمعت قوة النبلاء والفرسان ضد ثورة الفلاحين. ثم انقلب ميزان الثورة ضد الفلاحين حين تفرغ الإمبراطور شارل الخامس لمحاربتهم، بعد أن أنزل الهزيمة بملك فرنسا فرنسوا الأول فى معركة بافيا Pavia فى فبراير ١٥٢٥م (الحروب الإيطالية)، فعادت قواته من شبه الجزيرة الإيطالية إلى ألمانيا لضرب الثوار. ولم يكن فى وسع الفلاحين تشكيل فرق عسكرية يمكنها مواجهة قوات الإمبراطور، فتمكنت مدفعية هذه القوات من حصد الثوار، وهزموا هزيمة ساحقة فى موقعة فرانكينهاوسن Frankenhausen فى مايو ١٥٢٥م، وأعدم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة.

ولقد كانت الطريقة التى واجه بها لوثر حركة الفلاحين، وفشله فى اقتراح أسس للتوفيق والمصالحة، وتشجيعه إجراءات القمع الوحشية، نقطة سوداء فى تاريخ لوثر واللوثرية. وقد كانت آثارها فادحة على الثوار، فقد تركت الفلاحين الألمان أكثر عجزا وهوانا من أية طبقة اجتماعية أخرى فى وسط أوروبا أو غربها، كما أن انحطاط طبقة الفلاحين الألمان قد أدى إلى نقص فاحش فى الطاقات الحيوية للحركة اللوثرية، فمنذ ذلك الوقت فقدت الحركة اللوثرية شعبيتها، وفقدت الفرصة لأن تكون حركة قومية بالمعنى المعروف، واضطر لوثر لأن يسقط من حسابه هذه القوة الجماهيرية الكبيرة، وهى قوة الفلاحين، وأن يعتمد على الأمراء والحكومات الألمانية.

على كل حال، فلم يلبث لوثر بعد القضاء على ثورة الفلاحين أن أخذ يتفرغ لبناء صرح كنيسته الجديدة ومذهبه الجديد، فأعلن إلغاء الديرية والرهبنة، وتزوج من الراهبة كاترين فون بورا Von Bora فى سنة ١٥٢٥م، وراح يشرع فى وضع أسس العقيدة.

وعندئذ طلب الأمراء الكاثوليك من الإمبراطور شارل الخامس التدخل فى الأمر. على أنه كان من سوء حظ الكنيسة الكاثوليكية عموما أن الإمبراطور لم يكن متفرغا لهذه المشكلة، ذلك أن اللوثرية انتشرت فى ألمانيا فى وقت هدد فيه الأتراك العثمانيون أملاك الإمبراطورية فى النمسا والمجر، وفى الوقت نفسه لم تكن علاقات شارل الخامس بالبابا علاقات تحالف ثابتة فى أثناء نضاله مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، فكان البابا ينحاز إلى الإمبراطور تارة، وإلى فرنسوا الأول تارة أخرى. وقد أثرت هذه الأسباب على معالجة شارل الخامس للحركة اللوثرية.

٤ ـ شارل الخامس والحركة اللوثرية :

مرت هذه المعالجة بعدة مراحل:

ـ **المرحلة الأولى** : عندما عقد شارل الخامس فى سبير Speier فى يونيه ١٥٢٦م المجلس الإمبراطورى الأول للفصل فى المسألة الدينية، والنظر فى تنفيذ قرارات مجمع ورمز الصادرة ضد لوثر، وقد أصدر مجلس سبير هذا قرارا فى غير مصلحة

الكاثوليكية، إذ أعطى لكل حكومة أن تعيش وتحكم وتسلك المسلك الذى سوف تسأل عنه أمام الله فقط وأمام الإمبراطور. وبذلك أصبح لأنصار لوثر مركز معترف به.

ـ أما المرحلة الثانية : فبدأت عندما نهبت جيوش الإمبراطور روما واضطر البابا لقبول الصلح، فعقد شارل الخامس مجلساً إمبراطوريا ثانيا فى سبير Speier فى فبراير سنة ١٥٢٩م، تقرر فيه تنفيذ قرارات مجمع ورمز، وإلغاء الحرية التى أعطيت للأمراء فى اختيار المذهب الذى يريدون. فأعلن اللوثريون احتجاجهم على هذه القرارات، وتحدوا سلطة الإمبراطور، وكان بسبب احتجاجهم هذا أن عرفوا باسم «المحتجين» (بروتستانت Protestants).

ـ أما المرحلة الثالثة : فحدثت عندما حاول الإمبراطور أن يحسم النزاع بالطرق السلمية، فدعا البروتستانت للاجتماع مع الكاثوليك فى مجلس عقد فى أوجزبورج Augsburg فى يونيه ١٥٣٠م. وفى هذا المجلس وضع فيليب ملانكتون مبادئ العقيدة اللوثرية فيما عرف باسم اعتراف أوجزبرج Confession of Augsburg، ولكن المجلس رفض هذا الاعتراف، واعطى الإمبراطور البروتستنت مهلة للتخلى عن أرائهم حقنا للدماء، ولكن الأمراء البروتستنت أجابوا على هذا الانذار بتأليف اتحاد للدفاع عن مصالحهم، عرف باسم: «حلف شمالكالديك Schmalkaldic League فى سنة ١٥٣١م.

ـ أمـا المرحلـة الرابعـة : فكانت عندمـا شكل الأمـراء الكاثوليك حلفا ضد البروتستنت، عرف باسم : حلف نورمبرج Nu-remberg league سنة ١٥٣٩م، فعقد الإمبراطور مجلسا فى راتيزبون Ratisbon سنة ١٥٤١م لحل الخـلاف سلمـيـا، ولما فشل فى تحقـيق هدفـه أعلنت الامـارات الألمانيـة فـارتبـرج Wartburg وبادن Baden، وهيس Hesse وبراندنبـرج Brandeburg انضـمـامـهـا إلى المذهب اللوثرى واحدة وراء الأخرى، فعقد البابا بول الثالث مجلسا دينيا فى ترنت Trent لبحث الخلافات الدينية، ولكن الكاثوليك سيطروا على المجلس، كـمـا رفض البـروتسـتنت قـبـول الدعـوة وحضـور المجلس، وأخذ الإمبراطور يعد العدة للقضـاء على الانقسـام الدينى الذى هدد ممتلكاته، بالقـوة، ولكن مـارتن لوثر مـات فى ١٧ فبـراير ١٥٤٦م، وانقـسـم البـروتسـتنت بعـد وفـاتـه، فـانحـاز مـوريس دوق سكسـونيا إلى جانب الامـبـراطور، فخسـرت جيوش البروتستنت بذهابه قـائدا مـدربا، وحلت بهـا الهـزيمة فى مـوقعة مـوهلبـرج Muhl-berg فى ابريل ١٥٤٧م، ووقع قواد الجيش البروتسـتنتى فى الأسر، وباتت ألمانيا بأسرها تحت رحمة الإمبراطور.

وفى مـايو ١٥٤٨م دعـا الامـبـراطور المجلس الإمـبـراطورى للاجتماع فى أوجزبرج، وعرض عليه النظام الذى أراد فرضه على البروتستنت والكاثوليك، وينطوى فى جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسـامح لإرضـاء البـروتسـتنت فى مسـائل

زواج القسس، وتناول القربان، والتبرير بالايمان. وقد سمى هذا النظام بالنظام المؤقت Interim. ولكنه اضطر إلى استخدام الجنود لتنفيذ النظام المؤقت فى ألمانيا الجنوبية، فى حين قاومت البروتستنتية بزعامة مدينة مجدبرج Magdeburg فى ألمانيا الشمالية، واحتج موريس دوق سكسونيا على النظام المؤقت، وعاد إلى صفوف البروتستنت، فاكتسبوا بعودته قوة جديدة.

- **المرحلة الخامسة** : وفيها سارت الحوادث لصالح البروتستنت، بسبب انشغال الامبراطور بمسألة الوراثة فى أملاكه، وانضمام الأمراء البروتستنت إلى هنرى الثانى ملك فرنسا فى معاهدتى شامبورد Chambord (١٥٥٢)، وعهد شارل الخامس إلى أخيه فردناند بالتوسط فى عقد معاهدة باساو Passau فى يوليو ١٥٥٢م، التى نصت على دعوة المجلس الإمبراطورى فى بحر ستة أشهر لتسوية جميع المسائل المختلف عليها نهائيا.

وفى فبراير ١٥٥٥م دعى للانعقاد فى أوجزبرج Augsburg ذلك المجلس الإمبراطورى، وترأس جلساته فردناند، لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستنت. ،وأهم شروطه:

١ - تقرير المبدأ الذى ظهر فى مجلس سبير الأول ١٥٢٦م بأن لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الذى يريد سريانه فى إمارته، وألزم الأفراد المعترضين بمغادرة الإمارة.

٢ - أبقى الصلح على أملاك الكنيسة التى أخذت منها قبل عام ١٥٥٢م فى حوزة الذين أخذوها من رجال الدين أو العلمانيين، ونص على إرجاع أملاك الكنيسة التى أخذت منها بعد ١٥٥٢م.

وعلى الرغم من أن صلح أوجزبرج Treaty of Augsburg حفل بالسلبيات، وأخطرها أنه أعطى للأمراء حرية التصرف فى أخطر المسائل شأنا وقتئذ، وهى المسألة الدينية، وحرم منها الأفراد وجمهور الناس، فإنه بقى أساسا صالحا للحياة السياسية والدينية فى ألمانيا مدة تزيد على الخمسين عاما حتى قيام حروب الثلاثين سنة فى بداية القرن التالى.

٥ ـ الإصلاح الدينى خارج ألمانيا :

وقد انتشر الإصلاح الدينى فى أوروبا الشمالية وفى ألمانيا الشمالية والجنوبية فى حياة مارتن لوثر نفسه، ثم فى إنجلترا التى توطدت دعائم الإصلاح الدينى فيها على أسس لوثرية فى جوهرها. كما انتشرت اللوثرية فى الدنمارك والسويد.

ويرجع السبب فى عدم ذيوع اللوثرية فى كل أوروبا، إلى صعوبة فهم العقيدة اللوثرية، خصوصا فيما يتصل بتناول القربان، والتبرير بالإيمان. واعتماد لوثر على تعضيد الأمراء، مما جعل السواد الأعظم من الناس ينفضون من حوله. وعدم اهتمام لوثر بتجديد وتعريف العقيدة الجديدة، وعدم اهتمامه بنشرها فى خارج ألمانيا.

والمهم هو أن النجاح الذى لقيه الإصلاح الذى نادى به لوثر بالطرق السلمية لم يلبث أن شجع على ظهور مصلحين آخرين، فى طليعتهم أولريك زفينجلى (١٤٨٤ - ١٥٣١م) Ulrich Zwingli الذى ظهر مذهبه فى سويسرا وألمانيا الجنوبية، وجون كلفن John Calvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) الذى انتشر مذهبه فى الجزء الباقى من أوروبا الوسطى والغربية، وخصوصا فى فرنسا والأراضى المنخفضة.

وقد خالف زفنجلى آراء لوثر وآراء الكنيسة الكاثوليكية على السواء فى مسألة القربان، حيث اعتبر سر الشكر أو «الأفخاريستا» حفلة تذكارية محضة، واعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية لكل المسيحيين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة منهم فى الفصل فى كل المسائل المتعلقة بالكنيسة والتعيين فى الوظائف الكنيسية وغيرها، على حين اعتبر لوثر أن أمير البلاد هو دائما الرئيس الأعلى للكنيسة. وقد قتل زفنجلى فى الحرب التى دارت بين الكاثولوليك والبروتستانت فى أكتوبر ١٥٣١م.

أما جون كلفن John Calvin الفرنسى الأصل، فقد اتفق مع اللوثرية فى الاعتماد على الكتاب المقدس وحده فى جميع المسائل الدينية، والتبرير بالإيمان، وأن السيد المسيح وحده هو الذى يشفع لدى الله، ولكنه اختلف عن اللوثرية فى مسألة الغفران، الذى اعتبره من الأمور المقدرة منذ الأزل، ولاترتبط بأعمال الانسان، كما اعتبر القصاص أيضا من الأمور المقدرة. ويعرف هذا المذهب بمذهب القدرية Predestination.

كذلك اختلف كلفن عن لوثر فى مسألة القربان، فقد اعتبر العشاء الربانى الأخير حفلة تذكارية، وزاد على هذا بأن قال إنها ضرورية لإسداء الحمد والشكر لله أيضا. ولم يعترف كلفن الابسرين فقط من أسرار الكنيسة السبعة - وهى: الشكر أو الافخاريستا، والمعمودية، والمسيحية المقدسة أو الميرون، والزيجة الكهنوت، ومسحة المرضى، والتسوية - وهذان السران هما: سر الشكر أو الأفخاريستا، وسر المعمودية.

وعلى الرغم من اقتناع كلفن بضرورة وجود «الحكومة العلمانية» (المدنية أو الزمنية)، اقتناعه بضرورة وجود «الحكومة الكنسية»، فإنه أباح الانقلاب والثورة ضد الحكومة الزمنية إذا أقدمت على شئ يعتبر مخالفا لكلمة الله. ومن هنا ثار أتباع كلفن ضد سلطان الحكومة الزمنية فى فرنسا والأراضى المنخفضة.

وقد أتيحت الفرصة لوضع تعاليم كلفن موضع التنفيذ فى جنيف، ولكن الناس نفروا منها بسبب شدة وصرامة نظام الكنيسة التى أراد كلفن تأسيسها، وعنف التعاليم التى أراد تطبيقها، فاضطر إلى مغادرة جنيف سنة ١٥٣٨م، ولكنه لم يلبث أن عاد فى ١٥٤١م بسبب استدعاء شعبها له، وبقى فى جنيف حتى مات بها فى ٢٧ مايو ١٥٦٤م.

وقد انتشرت الكنيسة الكالفينية فى فرنسا والأراضى المنخفضة واسكندناوه، وتعرض البروتستنت فى فرنسا (الذين

عرفوا بالهيجينوت) Huguenots لاضطهادات كبيرة ومذابح، مثل مذبحة يوم بارثولوميو Saint Bartholomew's Day ، وأجبر ألوف منهم على الخروج من فرنسا إلى المنفى، ولم يسمح للهيجينوت بالحرية المدنية والدينية إلا فى عام ١٧٨٩م على يد الثورة الفرنسية.

الفصل الرابع

ظهور الدول القومية

ظهور الدول القومية

ظهرت الدول القومية فى أوروبا فى أوائل العصر الحديث، نتيجة عوامل ثلاثة هامة:

العامل الأول : تصدع وسقوط الإقطاع. وبذلك زالت الحواجز الإقطاعية التى كانت تحول دون ظهور الشعور القومى وتوحد الأمة وتحولها إلى دولة - أى تحول الأمة إلى دولة.

العامل الثانى : تصدع نفوذ الكنيسة التى كانت تهيمن على الحياة فى أوروبا فى العصور الوسطى، كنتيجة لتصدع الإقطاع، بما ترتب على ذلك من تحرير الفكر واللغة والفن.

العامل الثالث : سقوط فكرة الإمبراطورية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى، وإفساحها السبيل لظهور الدولة التى تقوم على أساس قومى ولا تقوم على أساس الإمبراطورية، وبالتالى ظهور ملوك يشخصون الدول القومية بدلا من الأباطرة.

ومن الطبيعى أن عملية الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث لم تتم فجأة، بل استغرقت فترة طويلة من الزمن، وتدرجت فى مراحل متعددة. فانتقال المجتمعات من عصر إلى عصر لايحدث بين يوم وليلة، بل هى عملية بطيئة تختلط فيها خصائص الجديد مع خصائص القديم، ويستمر الاختلاط أجيالا، حتى تأخذ مميزات القديم فى السقوط، وتنفرد المميزات الجديدة بالسيطرة على حياة المجتمعات، وتبقى المميزات القديمة تراثا يشار إليه.

لقد كانت الكنيسة هى المسيطرة فى أوروبا فى العصورالوسطى وكان رجال الدين هم المسيطرون على حياة المجتمعات فيها. وهذا ليس واضحا فى نفوذ رجال الدين وسيطرتهم على كل الناس فى ذلك الوقت، بل واضح أيضا فى سيطرة اللغة اللاتينية، وهى لغة الكنيسة، كلغة للعلم والأدب، وكلغة للقانون أيضا.

ولقد تعرضت الكنيسة لأزمتين حادتين تاريخيتين، أولاهما الانقسام الهائل بين الكنيسة الكاثوليكية والأورثوذكسية، وثانيهما الصراع الهائل أيضا بينها وبين الامبراطورية، ولكن مع ذلك فقد ظلت الكنيسة الشرقية مسيطرة فى شرق أوروبا وجنوب شرقيها، فى حين بقيت الكنيسة الرومانية الغربية، أو البابوية، هى المسيطرة فى غرب أوروبا.

وقد عبر البابا «جريجورى» السابع (١٠٧٢ ـ ١٠٨٥م) عن هذه السيطرة بقوله: «إن من حق البابا أن يخلع الأباطرة إذا شاء. لأن الإمبراطورية من صنع البشر، أما الكنيسة فمن صنع الله، فالبابا فوق الأباطرة».

ولم يكن نفوذ الكنيسة مقصورا على الناحية الفكرية، فقد كان لها السيطرة والنفوذ من الناحية السياسية والاقتصادية أيضا، فرجال الكنيسة فى أى بلد من البلاد الأوروبية كانوا يجلسون فى المجالس التشريعة إلى جانب النبلاء، ولهم سيطرة فى البلاط الملكى. ومن الناحية الاقتصادية، فقد كانت الكنيسة تسيطر كذلك إلى حد كبير بما لها من أملاك الأوقاف، خصوصا فى الأراضى الزراعية.

هذا فى العصور الوسطى. أما فى العصور الحديثة، فقد أخذت هذه السيطرة فى الزوال. فلم تعد اللغة اللاتينية هى لغة الثقافة كما كانت فى العصور الوسطى، إذ بدأ الأدباء والعلماء فى البلاد المختلفة فى القرن الخامس عشر يتخذون لغاتهم، أو حتى لهجاتهم القومية، أداة للتعبير، بعد أن كانت هذه اللغات القومية أداة للتعبير عند الطبقات الجاهلة فقط.

ومن ناحية أخرى فقد بدأ الخروج فى أوروبا عن التفكير الضيق الذى كان طابع العصور الوسطى، والذى كان يتمثل أكثر مايتمثل عند أهل الفن من الشعراء والأدباء والرسامين فى الحد

من التعبير عن عواطفهم وميولهم. وكان انطلاق التفكير الحر والتعبير الحر، خصوصا عند الأدباء والفنانين، هو المكون لأول حدث فى أوروبا، وهو النهضة الأدبية والفنية فى إيطاليا ثم فى بقية أوروبا.

كذلك فإن نفوذ البابوية قد تعرض لصدع كبير وتدهور عظيم بظهور المذاهب الدينية الحديثة، مثل المذهب البروتستنتى والمذهب الكلفينى، وكذلك الكنائس القومية، مثل الكنيسة الإنجليكية فى إنجلترا. وهذه المذاهب أو الحركات هى التى تسمى فى مجموعها بحركة الإصلاح الدينى فى أوروبا Reformation.

ومع أن هذه المذاهب كان الدافع إليها دينيا عقائديا إصلاحيا، إلا أنه كان لها ما يبررها من الناحية السياسية والاقتصادية.

فمن الناحية السياسية كانت هذه المذاهب التكأة التى استندت إليها الملكيات فى أوروبا لإضعاف نفوذ البابوية وتدخلها فى شئون دولها، وإضعاف نفوذ رجال الدين كطبقة سياسية لها أهميتها.

ومن الناحية الاقتصادية أيضاً، فقد كانت هذه المذاهب سبباً كافيا، فى نظر الملكيات الأوروبية، لحرمان الكنيسة الكاثوليكية من أملاكها الزراعية الواسعة، وجعلها تابعة تبعية مباشرة للدولة.

وقد واجهت الكنيسة الكاثوليكية المذاهب الجديدة بمحاولة إصلاح نفسها من الداخل، وهو ما يطلق عليه الإصلاح المضاد أو Counter Reformation.

هذا كله من الناحيـة الفكرية والدينيـة. أمـا من الناحيـة السـياسـيـة، فـقـد كـانت الفكرة السـائدة فى العـصـور الوسطى والمسيطرة على عقول الناس هى فكرة الإمبراطورية.

وترجع سيطرة هذه الفكرة على أفـهـام الناس من الناحيـة السـيـاسـيـة إلى أيام الإمـبـراطورية الرومـانيـة. ورغم زوال هذه الإمـبـراطورية على أيدى الغزاة البرابرة، فإن فكرة الإمـبـراطورية ظلت حلم الناس فى أوروبا من الناحية السياسية، يدل على ذلك ما أطلق عليها فى العصور الوسطى المتأخرة، أى فى منتصف القرن العاشـر، بالإمبراطورية الرومـانيـة المقدسـة. وهو الاسم الرسـمى لإمبراطورية أوتو الكبير Otto tha great. فمع أنها لم تكن لارومانية ولا مـقـدسـة إلا أن إطلاق هذا الاسم عليـهـاكـان مـتـأثرا بفكرة الإمـبـراطورية، حـتى كـان دانتى يعـتـقـد أن الإمـبراطورية هى أداة الحكم التى أوجـدها الله على الأرض. ولهذا أيضـا كـانوا يطلقـون على البلاد المسيحية اسم العالم المسيحى Christendom وهى تسمية ترمز إلى وحدة المسيحيين سياسيا وروحيا.

على أن الإمـبـراطورية الرومـانية المقدسة تدهور نفوذها نتيجة لصـراعها الطويل مع البابوية فى العصـور الوسطى المتأخرة، كـما أخـذت فكرة الإمـبـراطورية تتـلاشـى فى أذهان الناس فى هذه العصـور المتأخرة. ولم تلبث أن أخذت تظهر الدولة القومية الحديثة، أى الدولة التى تقـوم على أسـاس قـومى لا الإمـبـراطورية، وذلك لانهيار نظام الإقطاع، وظهور الطبقة البورجوازية الحديثة.

ويعتبر القرن السادس عشر قرن ظهور الدول القومية الحديثة. فقد ظهرت إنجلترا كدولة قومية بعد حروب أهلية استمرت ثلاثين عاما من ١٤٥٥ إلى ١٤٨٥م، وعرفت باسم حروب الوردتين (كانت الوردة البيضاء ترمز إلى بيت يورك York والوردة الحمراء ترمز إلى بيت لانكستر Lancaster. وقد انتهت بتأسيس هنرى تيودور Tudor السابع (١٤٨٥ ـ ١٥٠٩م) ملكية تيودور القومية المركزية، وبذلك أصبحت إنجلترا ذات حكومة مركزية قوية فى بداية القرن السادس عشر.

كذلك ظهرت فرنسا كدولة قومية فى أوائل العصر الحديث، بعد صراع طويل خاضته أسرة كابيه Capet ضد أمراء الاقطاع، وبعد حروب المائة سنة مع إنجلترا (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣م)، التى حاولت فيها أسرة فالوا Valois منذ عام ١٣٨٢م استرداد الأراضى الفرنسية التى انتقلت إلى إنجلترا بطريق الوراثة والزواج فى القرن الثانى عشر، ثم انتهاء هذه الحروب فى عام ١٤٥٣م باسترداد هذه الممتلكات فيما عدا كاليه، وفى الفترة من ١٤٧١م الى ١٥٩٥م ضم ملوك فرنسا (لويس الحادى عشر وشارل الثامن ولويس الثانى عشر) دوقية برجاندى Burgundy ودوقية بريتانى Brittany ثم أورليانز Orleans، وبذلك تم توحيد فرنسا، وأصبحت دولة قومية حديثة.

وقد ظهرت أسبانيا كدولة قومية موحدة عندما اتحدت أراجونة Aragon مع قشتالة Castile عند زواج ايزابيلا Isabella صاحبة قشتالة

من فرديناند ملك أراجونة فى سنة ١٤٦٩م. فكان هذا الزواج هو الأساس الذى قامت عليه وحدة أسبانيا. وعندما سقطت غرناطة، آخر معاقل المسلمين، فى يد الملوك الكاثوليك فى سنة ١٤٩٢م، تم توحيد أسبانيا على أساس الملكية المطلقة ذات الحكومة المركزية.

أما البرتغال، فقد كانت فى بداية الأمر إمارة خاضعة لقشتالة، ولكنها نبذت سيادة قشتالة وأصبحت مملكة مستقلة فى عام ١١٤٣م على يد ألفونسو الأول من أسرة برجندى. وفى سنة ١٣٨٥م أسس يوحنا الأول أسرة أفيز Avis. وفى عهده بدأ سياسة التوسع الاستعمارى التى انتهت بتكوين إمبراطورية كبرى.

أما الأراضى المنخفضة، فقد ظهرت فى مظهر الدولة القومية عندما استطاعت مدينة أنتويرب Antwerp سنة ١٤٩٤م أن تستأثر بمركز ممتاز كمقر للنشاط التجارى فى الشمال الغربى، وأصبحت تدريجيا بمثابة العاصمة لهذه البلاد ومقر تجارة الأراضى المنخفضة بأجمعها، فأعطى وجودها الأراضى المنخفضة مظهر الدولة القومية.

أما سويسرا التى كانت من أملاك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فقد اتخذت طريقها لتكون دولة قومية، عندما اتحدت المقاطعات الشمالية والمدن فيها ضد ادعاءات أسرة هابسبورج، وانتصر الاتحاد فى موقعة مورجارتين Morgrten سنة ١٣١٥م، الأمر الذى شجع بقية المقاطعات على الانضمام إلى الاتحاد. وعندما

انهزم النمساويون بعد ذلك فى معركة سيمياخ فى Sempach فى سنة ١٣٨٦م، اعترفت النمسا باستقلال ثمانية من هذه المقاطعات. وفى آخر القرن الخامس عشر، استطاع السويسريون أن يتحرروا من السيادة الإمبراطورية، وأصبحوا دولة مستقلة عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد تم الاعتراف بهذا الاستقلال فى صلح وستفاليا Westphalia سنة ١٦٤٨م.

وقد كان بعد ظهور هذه الدول القومية أن أخذت تتطلع إلى التوسع خارج حدودها، إما داخل القارة الأوروبية وإما خارجها.

وفيما يتصل بداخل القارة، فقد أدى تطلع هذه الدول القومية للتوسع إلى اصطدامها بعضها ببعض فى حروب طويلة فى مطلع القرن السادس عشر استمرت أكثر من نصف قرن (١٤٩٤ - ١٥٥٩م) هى التى تعرف باسم الحروب الإيطالية، لأن النزاع حول إيطاليا كان من أهم أسبابها. وفى هذه الحروب عرفت الدول الأوروبية تلك القاعدة الدبلوماسية الجديدة التى صارت تعرف باسم «توازن القوى» أو التوازن الدولى Balance of Power.

أما التوسع خارج القارة، فقد أدى بالدول القومية الحديثة إلى حركة الكشوف الجغرافية، سواء فى جنوب وشرق آسيا وحول أفريقيا من ناحية، أو فى الأمريكتين من ناحية أخرى. فبدأ من ثم التاريخ الحديث لهذه البلاد.

وفى حركة الاكتشافات الجغرافية عرفت الدول القومية أمرين:

الأمر الأول هو تكوين الإمبراطوريات فيما وراء البحار. والأمر الثانى هو تطبيق المبدأ التجارى Mercantile Systen أو Mercantalisn.

وبالنسبة للأمر الأول، فقد تكونت أولى الإمبراطوريات الأوروبية على يد البرتغال، وكان مركزها جزر الهند الشرقية والهند.

أما فيما يتصل بالأمر الثانى، فقد قام هذا المبدأ على أساس أن الثروة أساس القوة، وأن الذهب يستطيع أن يشترى أى شئ، فهو المقياس السليم لثروة أى بلد من البلاد، ومن ثم يجب أن يكون هم الدولة تصدير أكثر مايمكن من سلعها، واستيراد أقل مايمكن من سلع البلاد الأخرى، والحصول على الفرق بين الاستيراد والتصدير بالذهب. كذلك يجب أن تحتكر الدولة تجارة المستعمرات وتحتكر سفنها نقل البضائع منها وإليها، حتى تظل فى حالة اعتماد عليها، وفى الوقت نفسه لا ينبغى للمستعمرة أن تنتج أو تبيع ما تنتجه الدولة المستعمرة. وقد ظل هذا المبدأ هديا لسياسة الدول القومية حتى أواخر القرن الثامن عشر.

الفصل الخامس

الحروب الإيطالية

الحـــروب الإيطاليـــة

تعتبر الحروب الإيطالية إحدى نتائج ظهور الدول القومية فى أوروبا على أنقاض الإقطاع. فقد ترتب على ظهور الدول القومية أن أخذت تتطلع الى التوسع، إما داخل أوروبا، وإما خارجها. وقد أفرز التوسع الأول الحروب الإيطالة، وأفرز التوسع الثانى الكشوف الجغرافية.

وبالنسبة للحروب الإيطالية، فلم تكن حروبا بين إيطاليا والدول الأوروبية المجاورة، وإنما كانت إيطاليا نفسها هى ميدان الحروب بين الدول الأوروبية. فقد كانت الجزيرة الإيطالية فى ذلك الحين منقسمة إلى دويلات وإمارات منقسمة على نفسها، أهمها: ميلان، والبندقية ومانتوا Mantua، وفيرارا Ferrara، وفلورنسا Flor-ence،. وكان هناك نزاع بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول احتلال البابا إقليم رومانيا Romagna. وكانت البندقية فى الوقت نفسه تريد امتلاك دوقية ميلان، فى حين أرادت البابوية امتلاك فلورنسا.

وقد أوجدت هذه النزاعات فراغا فى شبه الجزيرة الإيطالية أغرى الدول الأوروبية المجاورة على ملئه، وكانت هناك دولتان

تحركهما الأطماع إلى السيطرة على إيطاليا، هما فرنسا وأسبانيا، إذ كانت لكل منهما ادعاءات فى وراثة عرش نابولى، فى حين كانت أسبانيا وفرنسا تطمعان فى امتلاك ميلان.

وقد ترك هذا النزاع بين فرنسا وأسبانيا آثاره على الدول المجاورة، ذلك أن سيطرة إحدى الدولتين على إيطاليا كان يعطيها من القوة ما يهدد جيرانها، وكان على هذه الدول فى هذه الحالة أن تتحالف لموازنة قوة هذه الدولة، وبذلك ظهرت تلك القاعدة الدبلومسية الجديدة التى صارت تعرف باسم «مبدأ توازن القوى» Balance of Power، الذى أصبح محركا للتاريخ الأوروبى.

وفى الوقت نفسه أدى انقسام وتصارع الدويلات الإيطالية إلى حالة تشبه لحد ما الحالة السائدة فى أوروبا، فنجد بعض هذه الدويلات تنضم إلى أسبانيا أو فرنسا ضد البعض الآخر، ثم لا تلبث أن تغير التحالف إذا ظهر خطر على مصالحها. وبذلك أصبح يطبق على شبه الجزيرة الإيطالية نفس المبدأ السياسى الذى كان يطبق فى أوروبا، وهو «مبدأ توازن القوى».

وقد مرت الحروب الإيطالية بدورين : أولهما من ١٤٩٤ إلى ١٥١٥م، والثانى: من ١٥١٥ إلى ١٥٥٩م.

وبالنسبة للدور الأول، فقد حاولت فيه فرنسا تحقيق ادعاءاتها فى وراثة عرش كل من مملكة نابولى ودوقية ميلان، فكان ذلك هو الذى أشعل الحروب الإيطالية.

أما بالنسبة للدور الثانى، فقد دار الصراع فيه بين فرنسا تحت أسرة فالوا Valois وأسبانيا تحت أسرة هابسبرج Habsburg. وحول هذا النزاع بين أسرة الفالوا وأسرة الهابسبرج توزعت الدول الأوروبية الأخرى تحقيقا «لمبدأ التوازن».

وقد اختتمت هذه الحروب «بمعاهدة كاتو ـ كامبريسيس Ca-teau - Cambrésis» فى سنة ١٥٥٩م، وهى أول تسوية دولية عامة شهدتها أوروبا فى العصور الحديثة.

الدور الأول ١٤٩٤ ـ ١٥١٥م :

كانت نابولى هى التى أشعلت نار الحروب الإيطالية. وكان شارل أنجو Anjou أخو لويس التاسع ملك فرنسا قد فتح مملكة نابولى وصقلية فى خلال القرن الثالث عشر. ولكن فى عام ١٢٨٢م قامت ثورة فى صقلية ضد الفرنسيين انتهت بضم الجزيرة إلى أملاك أسرة أراجون Aragon فى أسبانيا، وبقيت نابولى تحت حكم أسرة أنجو.

عل أنه فى عام ١٤٣٥م اندثر بيت أنجو بموت جوانا الثانية، فانضمت نابولى إلى ألفونس الخامس ملك صقلية وأراجون وسردينيا، وأصبحت نابولى وصقلية مرة ثانية تحت حكم بيت واحد.

على أن البلدين عادا مرة ثانية إلى الانفصال عندما مات ألفونس الخامس فى عام ١٤٥٨م، فقد قسم ملكه بين أخيه وابنه، فأخذ أخوه (حنا الثانى) أراجون وصقلية وسردينيا، وأخذ ابنه (فرديناند الأول) نابولى.

عند ذلك طالب بعض أمـــراء بيت أنجـــو بنابولى، ولكن فرنسسكو سفورزا Francesco Sforza صاحب ميلان وبعض أمراء إيطاليا عارضوا فى ذلك خوفا من تدخل فرنسا وبسط نفوذها على بلادهم.

على أن عسف فرد يناند وظلمه أدى بشعبه إلى الثورة عليه فى عام ١٤٨٥م، وساعد هذه الثورة البابا الذى كان يدعى لنفسه السلطان على نابولى. وفى عام ١٤٩٢م ذهب فريق من أهل نابولى إلى شارل الثامن ملك فرنسا طالباً منه المساعدة ويقدم له عرش نابولى. ولما كان بيت أنجو قد تنازل عن حقه للويس الحادى عشر ملك فرنسا فى عام ١٤٨١م، وورثها عنه ابنه شارل الثامن، فقد رحب شارل الثامن بالاستيلاء على نابولى، حيث يتيح له ذلك فرصة لتكوين مملكة فى الجنوب تكون مقدمة لحرب صليبية مع الأتراك، وفى الوقت نفسه نجدة حاكم ميلان لود وفيكو سفورزا Ludovico Sforza الذى اغتصب السلطة فى ميلان من ابن أخيه جيان جاليازو Gian Galeazzo المتحالف مع فرد ناند ملك نابولى.

وعلى هذا النحو، عبر الجيش الفرنسى جبال الألب بقيادة شارل الثامن فى سبتمبر ١٤٩٤م، ولم يلق مقاومة فى شمال إيطاليا

لأن ميلان كانت حليفته، ودخل تورين، ثم توسكانيا، ووصل فلورنسا، وتوغل فى بيزا، فاضطر حاكم فلورنسا إلى عقد صلح مع شارل الثامن تنازل له فيه عن بعض مدن فلورنسا، الأمر الذى أثار عليه الشعب، واضطره إلى الفرار من البلاد.

على أن شارل الثامن دخل فلورنسا دون مقاومة، وفرض شروطا جديدة وضعت فلورنسا تحت النفوذ الفرنسى. ثم وصل إلى روما، وعقد مع البابا إسكندر السادس معاهدة نزل فيها الأخير عن بعض المدن. ثم زحف على نابولى، فتنازل ملك نابولى ألفونس الثانى عن العرش لابنه فرد يناند الثانى، ولكن هذا عجز عن المقاومة، فدخل شارل الثامن نابولى وتوج ملكا عليها.

على أن هذا النصر السريع أزعج لودوفيكو سفورزا حاكم ميلان، خصوصا عندما أخذ دوق أورليان، قائد الجيش الفرنسى على حدود لمباردىLombardy يستعد لغزو ميلان التى ادعى ملكيتها. وفى الوقت نفسه خشيت البندقية من سيطرة الفرنسيين على إيطاليا.

أما خارج إيطاليا فقد خشى الإمبراطور مكسمليان Maxi-milian، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والملك فرد يناند الكاثوليكى ملك أراجونه (فى أسبانيا) وصقلية، أن يختل توازن القوى بسبب النصر الفرنسى، وكان لفرد يناند هو الآخر ادعاءات فى وراثة عرش نابولى.

لذلك تكون حلف مضاد لفرنسا فى مارس ١٤٩٠م، عرف باسم «حلف البندقية»، تكون من البندقية، وميلان، والبابا إسكندر

السادس، والإمبراطور مكسميليان، وفرديناند، هدفه موازنة قوة فرنسا، وذريعته الدفاع عن أملاكهم.

وقد كان هذا الحلف هو أول مظهر لذلك المبدأ السياسى الشهير الذى ظهر فى أوروبا، وهو «مبدأ التوازن الدولى»، وفحواه ألا يسمح بحدوث تغيير كبير فى قوى الدول الكبرى، فإذا قويت دولة على نحو يهدد الدول الأخرى بالخطر، وجب اتحادها جميعا لدفع هذا الخطر.

وعندما علم شارل الثامن بتكوين هذا الحلف، خشى أن يقطع عليه خط الرجعة، فقرر إخلاء نابولى، وغادر عاصمتها «فورنوفو» Fornovo فى ٦ يولية ١٤٩٥م. وفى طريق عودته مر بروما، ثم على بيزا Pisa حيث منح أهلها الحرية، مما أغضب فلورنسا التى كانت بيزا تحت سيادتها منذ عام ١٤٠٦م. وعقد مع لودوفيكو صلحا ترك له بمقتضاه ميلان، فى مقابل تعهد هذا بإعطاء الفرنسيين حق المرور، ومساعدتهم إذا قرروا مهاجمة نابولى. على أنه بعد ترك شارل الثامن نابولى قامت ثورة فيها، وانتهت برجوع الأسرة المالكة السابقة إلى العرش، وتسليم الحامية الفرنسية فيها.

وبعد ثلاث سنوات أخرى، أى فى عام ١٤٩٨م، مات شارل الثامن فى فرنسا، وخلفه دوق دورليان تحت اسم لويس الثانى عشر Louis XII، وكانت توليته حدثا مهما فى تاريخ إيطاليا، فلم يكن كسلفه يدعى فقط ملكية نابولى، بل كان يدعى ملكية ميلان أيضا. ومن ثم أخذ فى الإعداد لحرب جديدة.

فى ذلك الحين كانت الظروف السياسية فى إيطاليا تشجع على الغزو، فقد انحل حلف البندقية، ورجعت الخلافات القديمة فى إيطاليا إلى ما كانت عليه، وانحازت البندقية إلى فرنسا بسبب أطماعها فى ميلان.

وعلى ذلك ففى أغسطس ١٤٩٩م عبرت القوات الفرنسية جبال الألب مرة أخرى، ونزلت فى سهول لمباردى دون أن تلقى مقاومة، ومرت فى بلاد بيد مونت بتصريح من دوق سافوا. وانضم إلى الفرنسيين خمسة آلاف من السويسريين أرسلتهم المقاطعات السويسرية التى تحالفت مع لويس الثانى عشر. ولم يلق المهاجمون إلا مقاومة بسيطة. وفى الوقت نفسه كانت قوات البندقية تزحف من الشرق على ميلان، ففر لودوفيكو إلى الإمبراطور مكسميليان، وسلم الأهالى مدينة ميلان للفرنسيين. وفى مدى شهر استولى الفرنسيون والبنادقة على أراضى ميلان كلها بدون استثناء.

على أن لودوفيكو لم يلبث أن عاد إلى ميلان بجيش كبير لتخليص بلاده، وأرغم الفرنسيين على إخلاء ميلان العاصمة، والتخلى عن فتوحاتهم بسرعة تفاديا للاشتباك، على أنهم عادوا فتمكنوا من أسر لودوفيكو، واحتلوا العاصمة من جديد، وبذلك استتب لهم الأمر فى ميلان.

وقد كان ذلك ما شجع لويس الثانى عشر على إعادة فتح نابولى، فعقد مع فرديناند الكاثوليكى «معاهدة غرناطة» فى نوفمبر

١٥٠٠م، التى اتفقا فيها على إرسال حملات مشتركة، واقتسام نابولى. وقد تذرع فى ذلك بتحالف ملك نابولى فريدريك مع الأتراك العثمانيين. وبناء على هذه المعاهدة زحف الفرنسيون على نابولى من الشمال، فى حين زحف الأسبان من الجنوب، فسقطت العاصمة نابولى فى أيدى الفرنسيين من غير قتال فى يوليو ١٥٠١م، ووقع ملكها أسيرا، وأرسل إلى فرنسا، وبقى بها أسيرا حتى مات فى سنة ١٥٠٣م.

على أن الخلاف على تقسيم نابولى لم يلبث أن دفع بالحليفين الفرنسى والأسبانى إلى الحرب. وفى هذه الحرب مُنى الفرنسيون بالهزيمة، واستولى الأسبان على العاصمة نابولى فى مايو ١٥٠٣م، وسلمت آخر معاقل الفرنسيين فى جايتا Gaeta فى يناير ١٥٠٤م، واضطر الفرنسيون فى مارس ١٥٠٤م إلى الاعتراف بامتلاك الأسبان لنابولى، وأصبحوا لا يملكون فى إيطاليا سوى ميلان.

على أن الظروف السياسية لم تلبث أن اضطرت الفرنسيين إلى التخلى عن ميلان أيضا. ففى ذلك الحين اعتلى البابا يوليوس الثانى Julius البابوية خلفا للبابا إسكندر السادس فى عام ١٥٠٣م، وكان يطمع فى استرداد أملاك الكنيسة، وبسط نفوذ البابوية على إيطاليا، كما كان فى الوقت نفسه يخشى من امتداد نفوذ البندقية إلى أملاكه، فعمل على تكوين حلف ضد البندقية فى كمبراى سمى «League of Cambrai» فى ديسمبر ١٥٠٨م. وقد تكون هذا الحلف من

كل من البابا، وفرديناند الكاثوليكى، والإمبراطور مكسمليان، ولويس الثانى عشر، وبعض الولايات الإيطالية: فرارا، وأوربينو، ومانتوا، فى حين بقيت فلورنسا على الحياد.

وقد تمكن الجيش الفرنسى من إلحاق الهزيمة بالبنادقة فى معركة «أجناديللو Agnadello» فى أبريل ١٥٠٩م، وكادت البندقية تشرف على الهلاك حتى فكرت فى الاستنجاد بالدولة العثمانية.

على أنه فى تلك اللحظة انفضت المحالفة ضد البندقية، فقد رأى البابا أنه حصل على المدن التى يريدها، فى إقليم رومانيا، وهى: رافنا، وريمينى Rimini وفاينزا Faenza ولم يعد ـ بالتالى ـ مبرر لاستمرار الحرب ضد البندقية، وفى الوقت نفسه اعتبر وجود البندقية ضرورة لدفع خطر الأتراك على المسيحية وعن إيطاليا وعن أوروبا، فعقد الصلح مع البندقية فى أبريل ١٥١٠م.

على أن كلا من الإمبراطور مكسمليان ولويس الثانى عشر أصرا على مواصلة الحرب، فأعلن البابا عزمه على طرد البرابرة من إيطاليا، واستطاع أن يضمن حياد فرد يناند الكاثوليكى مقابل الاعتراف له بنابولى وصقلية. ولكن الفرنسيين تمكنوا من الاستيلاء على بولونيا، واضطروا البابا إلى التقهقر، وقرروا خلع البابا، فدعوا مجلسا من الكرادلة Cardinals للاجتماع فى بيزا حيث قرر عزل البابا يوليوس الثانى من البابوية.

على أن هذا العمل بدلا من أن يضعف البابا، فإنه أدى إلى تقويته، فتمكن من عقد حلف جديد ضد فرنسا عرف باسم «الحلف

المقدس «Holly League» فى أكتوبر ١٥١١م، تكون من البابا، وفرديناند الكاثوليكى ملك أسبانيا، وجمهورية البندقية، وانضم إلى الحلف ملك إنجلترا هنرى الثامن، وكان غرضه الظاهرى القضاء على الحركة الانفصالية التى أوجدها مجلس الكرادلة فى بيزا، ولكن غرضه الحقيقى هو استرداد المدن التى كان البابا يطمع فى امتلاكها، وهى بولونيا وفرارا وغيرها، واستيلاء فرديناند الكاثوليكى ملك أسبانيا على مملكة نافار Navarre حتى تستكمل أسبانيا حدودها الطبيعية من الشمال.

وفى البداية تمكن الفرنسيون من الانتصار على قوات الحلف المقدس فى ثلاث معارك، ولكن الإمبراطور مكسمليان انضم إلى الحلف قبل المعركة الثالثة، وانفصل علناً عن فرنسا، كما انضم السويسريون إلى الحلف المقدس، وزحف الجيش السويسرى فى عام ١٥١٢م على ميلان، وأجبر الجيش الفرنسى على الانسحاب من العاصمة، وتبعه حاكم ميلان، وعاد الجيش الفرنسى إلى فرنسا بعد أن ضاعت منه فتوحاته، وأعيدت بولونيا إلى البابا، كما أعيدت أسرة مديتشى Medici إلى فلورنسا، وأعطيت ميلان إلى ابن لودوفيكو، واستولى الأسبان على نافار Navarre فى سنة١٥٩٢م.

على أنه فى أوائل عام ١٥١٣م انحل الحلف المقدس. فقد اتجهت البندقية من جديد إلى فرنسا، خوفا من طمع الإمبراطور مكسمليان فى بعض أملاكها، وكونت مع فرنسا حلفاً. فتكون حلف

فى المقابل ضد فرنسا من مكسمليان وهنرى الثامن ملك إنجلترا والبابا ليو العاشر الذى خلف الباب يوليوس الثانى، وفردناند ملك أسبانيا.

وحاولت فرنسا من جديد فتح ميلان بمساعدة البندقية، ولكنها هزمت على يد السويسريين الذين اعتبروا ميلان فى حمايتهم. كما غزا هنرى الثامن ملك إنجلترا فرنسا وانتصر على الفرنسيين، وغزا السويسريون فرنسا، وأحدق الخطر بفرنسا وأشرفت على السقوط.

على أن هذه النتيجة ذاتها التى حققها الحلفاء، لم تلبث أن أدت إلى وقوع النزاع بينهم. ذلك أن سقوط فرنسا كان من شأنه اختلال التوازن الدولى اختلالا شديدا، فلم يكن من مصلحة فرديناند، كما رأى البابا أن مصلحة أسرة مديتشى تكمن فى إيجاد التوازن بين أسبانيا وفرنسا فى إيطاليا، وكان يطمع فى مساعدة فرنسا فى إقامة أخيه فى الحكم فى نابولى، ومن ثم عقد صلحا مع فرنسا، وعفا عن الكرادلة الفرنسيين الذين اشتركوا فى «مجلس بيزا» الذى عزل البابا السابق. كما عقد مكسمليان معاهدة أخرى مع لويس الثانى عشر، وتبعه هنرى الثامن فى أغسطس ١٥١٤م.

وفى أول يناير ١٥١٥م توفى لويس الثانى عشر فى فرنسا، فانتهى بوفاته الدور الأول من الحروب الإيطالية. وفى هذا الدور –

كما رأينا - فشلت فرنسا فى بسط نفوذها فى إيطاليا، وخرجت هى نفسها منها، ونالت أسبانيا بفضل دهاء فرديناند الكاثوليكى مواقع ثابتة فى شبه الجزيرة فى نابولى، كما اقتسمت مع السويسريين ميلان، واستولت على ناڤار، أما البابوية فقد امتلكت رومانيا، كما ظفرت بالسيطرة على فلورنسا بعد أن عادت إلى الحكم فى فلورنسا أسرة مديتشى، وهى أسرة البابا ليو العاشر نفسه، ففقدت فرنسا بذلك إمارة فلورنسا.

الدور الثانى من الحروب الإيطالية :

مر هذا الدور بخمس مراحل :

١ ـ من ١٥١٥ إلى ١٥١٩م.

٢ ـ من ١٥١٩ إلى ١٥٢٩م.

٣ ـ من ١٥٢٩ إلى ١٥٤٧م.

٤ ـ من ١٥٤٧ إلى ١٥٥٢م.

٥ ـ من ١٥٥٢ إلى ١٥٥٩م.

وكان بطل الأدوار الثلاثة الأولى هو فرانسوا الأول Francis I ملك فرنسا الذى كان من أسرة ڤالوا ـ أورليان أى الفرع الأصغر من أسرة ڤالوا.

١ ـ المرحلة الأولى من ١٥١٥ ـ ١٥١٩م

فقد رأى فرانسوا الأول بعد توليه الحكم ضرورة إزالة العار الذى لحق بفرنسا من جراء هزيمتها عند محاولتها استعادة ميلان، فأخذ يمهد الطريق لذلك عن طريق التحالف مع الدول المعنية، وعقد بالفعل حلفاً مع كل من هنرى الثامن ملك انجلترا، ومع البندقية، ومع شارل حاكم الأراضى المنخفضة (شارل الخامس فيما بعد).

وقد ترتب على ذلك أن تكون حلف مضاد تكون من البابا، والإمبراطور مكسمليان، وفرديناند ملك أسبانيا، وفلورنسا، ودوق ميلان، والسويسريين.

وفى أغسطس عبر فرانسوا الأول جبال الألب مرة أخرى، وانتصر على أعدائه فى موقعة مارينيانو Marignano بالقرب من ميلان، واستولى على ميلان نفسها فى أكتوبر ١٥١٥م، وأرسل دوق ميلان أسيرا إلى فرنسا.

وقد كان بفضل هذا النصر أن تحققت النتائج المهمة الآتية :

١ ـ خرج السويسريون من التحالف بعد أن أعجبوا بشجاعة فرانسوا الأول، وعقدوا معه معاهدتين فى عامى ١٥١٥ و ١٥١٦م، تعهدوا فيهما بعدم الانضمام إلى أعداء فرنسا فى المستقبل (وقد دامت هذه الصداقة بين فرنسا وسويسرا حتى قيام الثورة الفرنسية).

٢ ـ عقد البابا ليو العاشر مع فرانسوا الأول إتفاقا Concordat فى بولونيا Bologna فى أغسطس ١٥١٦م لتنظيم العلاقات بين كنيسة روما والكنيسة فى فرنسا، تضمن أن تدفع فرنسا الأموال الكنسية التى امتنعت عن دفعها قرابة القرن، فى مقابل حق ملك فرنسا فى تعيين رجال الدين فى فرنسا فى جميع الوظائف الكنسية. وبذلك استكملت فرنسا استقلالها القومى بالحصول على استقلالها الدينى، وخرجت من تحت هيمنة الكنيسة التى كانت طابع العصور الوسطى.

٣ ـ عقد فرانسوا الأول مع الإمبراطور مكسمليان ومع البندقية معاهدات كفلت لفرانسوا الأول الاحتفاظ بميلان وجنوة (فى أغسطس ١٥١٦) فصارت له السيطرة التامة فى لومباردى.

٤ ـ عندما مات فى يناير ١٥١٦م فرديناند ملك أسبانيا وأصبح حفيده شارل حاكما على أسبانيا ونابولى وصقلية والمستعمرات الأسبانية فى الدنيا الجديدة، عقد معه فرانسوا الأول معاهدة «نوين Noyon» فى أغسطس ١٥١٦م، وفيها اعترف باستيلاء فرانسوا على ميلان، وتنازل فيه فرانسوا عن ادعاءاته فى عرش نابولى ـ وبذلك اقتسمت كل من فرنسا وأسبانيا الغنائم فى ايطاليا، فحصلت فرنسا على ميلان، وحصلت أسبانيا عل نابولى.

٢ ـ المرحلة الثانية ١٥١٩ ـ ١٥٢٩م

هذه هى المرحلة الأولى من الدور الثانى من الحروب الإيطالية، أما المرحلة الثانية فقد تميزت بخروج الصراع من دائرته الضيقة فى إيطاليا، وتحوله إلى صراع بين أسرتى هابسبورج الألمانية وأسرة ڤالوا الفرنسية من أجل الزعامة فى أوروبا. وقد بدأ بعد وفاة الإمبراطور مكسمليان فى يناير ١٩١٩م.

فنظرا لأن الإمبراطورية كانت انتخابية وليست وراثية، فقد رشح نفسه كل من فرانسوا الأول وهنرى الثامن ملك إنجلترا، كما رشح نفسه أيضا شارل ملك أسبانيا وحفيد الإمبراطور مكسميليان من زوجته مارى صاحبة ببرجاندى، وهو من أسرة هابسبرج Habsburg الألمانية. وقد ورث من أملاك أسرة هابسبرج النمسا، فضلا عما ورثه من قبل عن جده فرديناند الكاثوليكى من ملك يتمثل فى أسبانيا وأملاكها فى العالم الجديد وفى نابولى التى تهدد أملاك ونفوذ فرنسا فى إيطاليا الشمالية.

على أن الشعب الألمانى رفض أن يختار امبراطوراً أجنبيا من غير الألمان، ولم يملك «الدايت Diet» وهو مجلس الإمبراطورية، إلا أن يمتثل لرغبات الشعب الألمانى، فانتخب شارل إمبراطورا، لأنه من أصل ألمانى ومن أسرة هابسبورج، وكذا خوفا من انتخاب فرانسوا الأول فيبسط سيطرة فرنسا على ألمانيا. وقد عرف شارل منذذلك الحين باسم شارل الخامس.

على أن هذا الاختيار فى حد ذاته أخل بالتوازن الدولى، لأن شارل الخامس أصبح يجمع فى شخصه أملاك أسرة هابسبورج فضلا عن أسبانيا، وبذلك أصبح أمن فرنسا فى خطر لأن أملاك الإمبراطور الجديد تشمل كلاً من برجندى بإقليميها: الأراضى المنخفضة النيذرلاندية Netherlands وفرانش كومتيه Franch Comté وهذه على حدود فرنسا الشمالية والشرقية.

وفى الوقت نفسه فإن امتلاك الإمبراطور شارل الخامس هذه الأملاك الواسعة، التى تقسمها فرنسابموقعها، جعله يفكر فى ربط هذه الأملاك فى الأراضى المنخفضة وفرانش كومتيه من ناحية، وأسبانيا من ناحية أخرى، على حساب فرنسا، وذلك بتقسيم فرنسا على نحو يضمن انحلالها فلا تستطيع مقاومة سياسته.

ومن ثم فقد عمد شارل الخامس فى تنفيذ خطته إلى استمالة خصوم فرنسا، فتحالف مع هنرى الثامن ملك إنجلترا على أن ينال هنرى الثامن بيكارديا Picardy ونورماندى فى شمال فرنسا، ليطمئن شارل الخامس على حدود أملاكه فى الأراضى المنخفضة. ثم عقد مع دوق دى بوربون Bourbon، أحد نبلاء فرنسا الخارجين على فرانسوا الأول، اتفاقا ينضم فيه هذا إلى جانب شارل الخامس فى الحرب ضد فرانسوا الأول، فى مقابل حصوله على مملكة مستقلة فى فرنسا الجنوبية والغربية تضم مقاطعتى دوفينيه Dauphiné وبروفانس Provence وذلك لكى يضمن حماية حدود ممتلكاته فى

بيـرجندى من جـهــة، ويربط ـ من جـهـة أخـرى ـ بين بيـرجندى وأسـبـانيا عن طريق مملكة تدين بالفـضل له فى تأسـيسـهـا. كذلك تحالف شارل الخامس مع البابا.

وبناء على ذلك بدأت الحـرب بين شـارل الخـامس وفـرانسـوا الأول فى ربيع عـام ١٥٢١م، وكانت كارثة على فـرانسـوا الأول. فقد انتصـرت قوات الإمبراطور فى إيطاليا، واضطر فرانسوا الأول إلى إخـلاء دوقـيـة مـيـلان، مـا عـدا قـلعـتـهـا، ولوفـارا Lovara كـمـا طرد من جنوة.

وفى عـام ١٩٥٢م عقـد شـارل الخـامس مع هنرى الثـامن ملك إنجلتـرا مـعـاهدة اتفـقـا فـيـهـا على الـهـجـوم على فـرنســا، وعلى التـحـالف مع كل من البابا والبندقية، فـتكونت بالفعل فى أغسطس ١٥٢٣م مـحـالفـة دفـاعـيـة من كل من الإمـبـراطور شـارل الخـامس والبابا أدريان Adrian الـسـادس، وإنجلترا وميلان وجنوة وفلورنسا.

ولمواجـهة ذلك رأى فرانسوا العودة إلى إيطاليا، فعبر جبـال الألب من جـديد، ودخل ميـلان فى عـام ١٥٢٤م، ولكنه هزم فى بافيا Pavia سنة ١٥٢٥م، ووقـع فـى الأسـر، وأخـذ أسيرا إلى أسبانيا حيث أرغم على تـوقـيع «مـعـاهدة مـدريد» فى يناير ١٥٢٦م، وبمقتـضـاهـا تنازل عن دوقية بيـرجندى – وهـى غير كومـتيه بيرجندى أو فـرانش كومـتيه وعن ادعـاءاته فى ميلان وفى نابولى وفى الفلاندرز Flanders وأرتوا. وتعهد بعدم مساعدة نافار، وأعطى ولدين من أولاده رهينة،

وتعهد بأن يتزوج من شقيقة شارل الأرملة ملكة البرتغال. وبذلك أطلق سراحه، وعاد إلى فرنسا فى مارس ١٥٢٦م.

على أن هذه الهزيمة البالغة التى لحقت بفرنسا، أخلّت بالتوازن الدولى فى أوروبا من جديد، وألقت الخوف فى قلوب الدول من زيادة نفوذ أسرة الهابسبرج فى أوروبا. فتألف «حلف كونياك المقدس» Gognac فى مايو ١٥٢٦م لإعادة التوازن إلى أوروبا، من كل من البابا كليمنت السابع، وفرانسوا الأول، وسفورزا (من الأسرة الحاكمة السابقة فى ميلان) والبندقية، وفلورنسا، وانجلترا. وكان غرض هذا الحلف الظاهرى تأييد سفورزا فى امتلاكه ميلان، وإعادة الولايات البابوية إلى ما كانت عليه قبل الحرب.

وبذلك تعرض شارل الخامس لحلف عظيم قام ضده فى وقت كان جيش شارل فى حالة تمرد بسبب تأخر المرتبات وقلة المؤن. كما كان معرضا لانقضاض الإيطاليين عليه فى إيطاليا، وكان السلطان سليمان القانونى على أبواب الانتصار فى المجر انتصارا حاسما يؤدى إلى استيلائه على معظم المجر، وكان فرانسوا الأول يفاوض سليمان القانونى عدو المسيحية، كما أعلنت البندقية أنها تفضل أن تكون تابعة للأتراك على أن تكون تابعة للإمبراطور شارل الخامس، وبهذا كان الموقف ضد شارل الخامس من جميع الوجوه.

على أنه من حسن حظ شارل أن الحلفاء لم يكونوا متحدين فى الهدف العام، ففرانسوا الأول اتخذ الحلف سبيلا للحصول من

الإمبراطور شارل الخامس على شروط أحسن من شروط معاهدة مدريد، كما أن الولايات الإيطالية نفسها كانت منقسمة.

وعندما بدأت الحرب ركزت قوات شارل الخامس على قلعة ميلان، فاضطر سفورزا إلى التسليم، وتقدمت قوات شارل الخامس إلى روما فدخلتها، وعندما تأخرت المرتبات ثار الجند وقاموا بنهب روما فى مايو ١٥٢٧م، فكان فى ذلك انهيار النهضة الإيطالية انهيارا تاما، وحاصروا البابا فى قلعة سان أنجلو.

على أن فرانسوا الأول غزا إيطاليا، واستولى على لومباردى، عدا مدينة ميلان، واتجه بالجيش الفرنسى جنوبا لتخليص البابا كليمنت السابع، ولكن البابا كان قد عقد الصلح مع شارل الخامس قبل وصول الفرنسيين، فقرر فرانسوا مواصلة السير إلى نابولى. ولكنه انهزم فى النهاية، واضطر إلى عقد الصلح مع الإمبراطور فى كامبرى Cambrai فى أغسطس ١٥٢٩م، وتضمنت شروطه الآتى :

إعفاء فرانسوا من تنازله عن دوقية بيرجندى، واستعادة ولديه اللذين سلمهما إلى شارل كرهينة فى «معاهدة مدريد» مقابل دفع فدية، وتنازل فرانسوا عن ادعاءاته فى ميلان ونابولى وفى الفلاندرز وأرتوا.

وبذلك خرجت فرنسا من إيطاليا، وعادت السيطرة فى شبه الجزيرة الإيطالية إلى الإمبراطور شارل الخامس. وبذلك يكون قد أخفق «حلف كونياك» فى الغرض الذى تألف لأجله.

٣ ـ المرحلة الثالثة ١٥٢٩ ـ ١٥٤٧م

تميـزت هذه المرحلة بتـخلى شـارل الخـامس عن فكرة ربط ممتلكاته على حساب فرنسا، والعمل على المحافظة على مصالح أسرة الهابسبرج فى كل من إيطاليا وألمانيا. ويرجع السبب فى ذلك إلى انشغال الإمبراطور بالمشاكل التى ترتبت على حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا، وعلى توسع العثمانيين المطرد فى حوض نهر الدانوب الذى كان يخترق أملاك الإمبراطورية، فى عهد سليمان القانونى، الأمر الذى جعله يقدم اهتمامه بحركة الإصلاح الدينى والمحافظة على أملاك أسرته فى حوض الدانوب على المنافسة القديمة مع ملك فرنسا، وجعله يظهر بعد عام ١٥٢٩م فى مظهر الإمبراطور الذى تهمه مصلحة الإمبراطورية المباشرة قبل أى اعتبار آخر.

على أن فرانسوا الأول من الجانب الآخر كان ساخطا على صلح كامبرى الذى أخرجه من إيطاليا، فعمد إلى الاستفادة من مشاكل الإمبراطور فى ألمانيا ومع العثمانيين، فى استعادة دوقية ميلان. فتقرب من اللوثريين فى ألمانيا، وعقد المعاهدات مع العثمانيين ضد الإمبراطور شارل الخامس.

وقد أدى ذلك الى اتساع نطاق الحروب الإيطالية فى هذه المرحلة باشتراك العثمانيين. ففى نوفمبر ١٥٣٥م توفى فرنسسكو سفورزا دوق ميلان، وهو آخر سلالة هذه الأسرة، فتنازع على

وراثتها كل من شارل الخامس وفرانسوا الأول الذى طلبها لابنه. ونتج عن هذا النزاع أن عبر الجيش الفرنسى الألب، واحتل تورين، فهجم جيش الإمبراطور على بروفانس، ولكنه اضطر إلى الارتداد.

وفى عام ١٥٣٧م غزا الفرنسيون أرتوا، وفى الوقت نفسه أرسل حليفهم السلطان سليمان القانونى قوة لمهاجمة نابولى، الأمر الذى أزعج أوروبا.

وقد ترتب على انهاك الحرب قوة كل من شارل الخامس وفرانسوا الأول، أن اضطرا فى يونيه ١٥٣٨م إلى عقد «هدنة نيس Nice» لمدة عشر سنوات، وبها تأيد صلح كامبرى، وتخلى الطرفان عن حلفائهما، واحتفظ كل منهما بما فى يده من الفتوح.

على أن هذه الهدنة لم تستمر أكثر من أربع سنوات، ففى عام ١٥٤١م قتل السفير الفرنسى حينما كان يعبر ميلان فى طريقه إلى القسطنطينية، وفى السنة التالية ١٥٤٢م أعطى شارل الخامس دوقية ميلان إلى ابنه فيليب، فنشبت الحرب بين الفريقين فى عام ١٥٤٢م. وفيها تحالف هنرى الثامن ملك إنجلترا مع شارل الخامس.

وقد انتصرت القوات الفرنسية فى بيدمونت، ولكن قوات كل من شارل الخامس وهنرى الثامن تمكنت من إخضاع لوكسمبورج، كما توغلت قواتهما فى فرنسا حتى هددت باريس. على أنه نظرا لعدم اطمئنان شارل الخامس لحليفه هنرى الثامن، ولرغبته فى

فصم التحالف بين فرانسوا والعثمانيين، عرض على فرانسوا الأول الصلح، وتم ذلك «بمعاهدة كرسبى» Crespy فى سبتمبر ١٥٤٤م، وبمقتضاها تركت الفتوح التى حصل عليها الطرفان بعد «هدنة نيس»، وتنازل شارل عن ادعاءاته فى برجندى، كما تنازل فرنسوا عن ادعاءاته فى نابولى وعن سيادته على الفلاندرز وأرتوا، واتحد الطرفان فى الدفاع عن المسيحية ضد العثمانيين، وإعادة السلم والوحدة للكنيسة ضد البروتستانت.

على أنه فى مارس ١٥٤٧م توفى فرانسوا الأول، وخلفه على العرش ابنه هنرى الثانى، وبذلك انتهت المرحلة الثالثة من الدور الثانى من الحروب الإيطالية، وبدأت المرحلة الرابعة.

٤ ـ المرحلة الرابعة ١٥٤٧ ـ ١٥٥٢م

تتميز هذه المرحلة من الحروب الإيطالية بارتباطها بالحركة اللوثرية فى ألمانيا، كما أن النزاع على إيطاليا كان من أهم أسباب استئنافها.

وكانت قد جدّت عوامل جديدة فى تلك المرحلة، مرتبطة بصراعات أخرى فى ألمانيا وإنجلترا واسكتلندا، جعلت لهذه المرحلة أهمية تاريخية خاصة.

فقد ارتبط هنرى الثانى بعد توليه العرش بأسرة جيز Guise الفرنسية، التى تنتسب إلى بيت أنجو صاحب الأملاك القديمة فى

إيطاليا وفى بيت المقدس. وكانت سياسة أسرة جيز استئناف الحرب مع الإمبراطور شارل الخامس صاحب النفوذ الواسع فى إيطاليا. ولما كانت مارى لورين Mary of Guise، شقيقة دوق جيز والكارد ينال شارل، قد تزوجت من جيمس الخامس ملك اسكتلندا، واستأثرت بكل سلطة بعد وفاة زوجها نظرا لصغر سن ابنتها مارى ستيوارت، فقد اعتمدت على الروابط العائلية لتقوية المحالفة بين فرنسا واسكتلنده فى أثناء الصراع.

وفى الوقت نفسه كانت حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا قد أوقعت ما بين الإمبراطور شارل الخامس والبابا بول الثالث. ففى سنة ١٥٤٨م أصدر الإمبراطور شارل الخامس «النظام المؤقت» In- terim لإنهاء النزاع الدينى فى ألمانيا، وقد تضمن بعض التساهل لإرضاء البروتستنت، فأغضب ذلك البابا.

وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كان النفوذ الأسبانى يتوطد فى لمباردى، إذ ضمت أسبانيا كلا من بارما وبياكانزا Piacanza إلى دوقية ميلان، بعد أن اغتيل حاكمهما الذى كان ابنا غير شرعى للبابا نفسه فى سنة ١٥٤٧م. ومن أجل ذلك أخذ البابا يتفاوض مع هنرى الثانى ملك فرنسا لاستئناف القتال فى إيطاليا.

على أن هنرى الثانى كان فى ذلك الحين مشغولا بالحرب مع إنجلترا بسبب النزاع حول اسكتلندا. وقد بدأت هذه الحروب عندما امتنع البلاط الاسكتلندى الكاثوليكى الخاضع لمارى لورين

الفرنسية الكاثوليكية عن تنفيذ خطوبة مارى ستيوارت إلى إدوارد السادس ملك إنجلترا الدولة البروتستنتية، فأرسل الإنجليز حملة على أسكتلندا هزمت الاسكتلنديين فى «موقعة بيانكى Piankie» فى ١٠ سبتمبر ١٥٤٧م.

وهنا احتمت اسكتلنده فى فرنسا، وعقدت مارى لورين خطوبة ابنتها، التى انتقلت إلى فرنسا، على ولى عهد فرنسا وابن الملك هنرى الثانى، فى أغسطس ١٥٤٨م، فأنذرت هذه الخطبة بانضمام التاج الاسكتلندى إلى التاج الفرنسى، ونشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا واستمرت حتى مارس ١٥٥٠م، وفيها خسر الإنجليز ثغر بولونى فى فرنسا الشمالية فى نظير حصولهم على تعويض من فرنسا.

وقد شجع هذا النصر هنرى الثانى على القيام بعمل حاسم ضد شارل الخامس، ولكن فى ميدان جديد غير إيطاليا، وذلك فى جهة نهر الموزيل Moselle، أحد فروع الراين، وفى حدود الإمبراطورية الألمانية.

وكانت خطة هنرى الثانى الاستفادة من ثورات اللوثريين ضد الإمبراطور، وضم الأمراء الألمان الذين كانوا يخشون من ازدياد نفوذ أسرة هابسبرج بعد انتصار الإمبراطور على البروتستنت فى «معركة موهلبرج Mahlberg» فى أبريل ١٥٤٧م، فتم عقد محالفة بين هنرى الثانى والأمراء الألمان فى شامبورد Chombord فى يناير

١٥٥٢م، ثم وقع موريس ناخب سكسونيا المعاهدة مع فرنسا فى فرايادوالد Friadwald فى ١٤ فبراير ١٥٥٢م.

وقد كان لهذا الاتفاق أهمية تارخية كبرى للسببين الآتيين :

أولا: أنه كان أول اختيار حقيقى لسياسة توازن القوى فى أوروبا، التى كان من نتيجتها فى المائة سنة التالية إنقاذ فرنسا من خطر أسرة هابسبرج، وتحطيم قوة هذه الأسرة.

ثانيا : أن الاتفاق أباح لملك فرنسا الاستيلاء على المدن، التى كانت من أملاك الأمبراطور الدائمة على الرغم من أنها لم تكن تتكلم الألمانية، وهى: كمبراى، وتول Toul، وميتز Metz، وفردان Verdun، فكانت هذه المادة بمثابة العهد الذى أعلن حق فرنسا الطبيعى فى امتلاك كل إقليم اللورين الفرنسى الذى تقع فى أرضه هذه المدن.

فى ذلك الحين كان الصراع بين هنرى الثانى والإمبراطور فى إيطاليا قد تجدد فى عام ١٥٥١م حول مسألة بارما «Parma» عندما ساند هنرى أحد الأمراء على تولى الحكم فيها، وساند الإمبراطور أميراً آخر. ولكن الصراع انتهى بعقد هدنة بين الطرفين فى العام التالى لقيام الصراع، أى فى عام ١٥٥٢م.

فلما وقع الاتفاق التاريخى بين هنرى الثانى والأمراء البروتستنت فى «شامبورد» فى يناير ١٥٥١م ووقع موريس ناخب

سكسونيا المعاهدة نهائياً فى «فرايد والد» فى ١٤ فبراير ١٥٥٢م، سارع هنرى الثانى إلى تنفيذ هذا الاتفاق، فاستولى على تول وميتز وفردان، واستولى موريس ناخب سكسونيا على أوجزبيرج، وأخذ يطارد الإمبراطور فى التيرول، فالتجأ شارل الخامس إلى أخيه فرديناند الذى كان يحكم ألمانيا، وتمكن فرديناند من التوسط بين شارل والأمراء الألمان فى عقد «صلح باساو Passau». وفى الوقت نفسه عمد شارل الخامس إلى توطيد علاقته بإنجلترا عن طريق تزويج ابنه فيليب من ملكة انجلترا مارىٰ تيودور Mary Tudor .

٥ - المرحلة الخامسة ١٥٥٢ - ١٥٥٩م :

بعقد «صلح باساو» بين شارل الخامس والأمراء الألمان، تكون الحرب قد انتهت بالنسبة لهم، ولكنها لم تنته بالنسبة لفرنسا، إذ لم يدخل هنرى الثانى طرفاً فى الصلح. وعلى ذلك استمرت الحرب بين الطرفين، ولكنها لم تكن فى صالح شارل الخامس، فاضطر إلى عقد الهدنة مع هنرى الثانى فى «فوسيل» Vaucelles فى فبراير ١٥٥٦م لمدة خمس سنوات. وقد تركت هذه الهدنة فى يد الفرنسيين جميع فتوحاتهم من ميتز إلى كورسيكا.

وقد أصابت هذه الهزائم شارل الخامس بالمرض، وصار يطلب العزلة الدينية، فتنازل فى يناير ١٥٥٦م عن أسبانيا لابنه فيليب، فأصبح ملكاً عليها باسم فيليب الثانى. وكان قد استولى من

قبل على ميلان ونابولى وعلى الأراضى المنخفضة. كذلك تنازل شارل الخامس لأخيه عن تاج الإمبراطورية، واعتزل العالم ليعيش فى يوست Yuste بأسبانيا.

ولم تلبث الحرب أن تجددت بين فرنسا وأسبانيا بسبب البابا بول الرابع الذى اعتلى عرش البابوية فى مايو ١٥٥٥م، وكان يكره الأسبان ويريد طردهم من نابولى والقضاء على نفوذهم فى إيطاليا.

فقد عقد معاهدة مع هنرى الثانى تقضى بانتزاع نابولى من يد فيليب ومنحها لأحد أبناء هنرى الثانى، فيما عدا الجزء الشمالى الذى يعطى للبابا. ولمواجهة هذه المعاهدة قام حاكم نابولى من قبل فيليب بغزو أملاك البابا حتى اضطر هذا إلى طلب الهدنة فى ديسمبر ١٥٥٦م، كما طلب من هنرى الثانى ملك فرنسا النجدة، فأرسل إليه جيشاً بقيادة فرانسوا دوق جيز فى آخر ديسمبر ١٥٥٦م.

على أن فيليب الثانى، الذى كان يعتبر نفسه حامياً للكاثوليكية، لم يشأ القضاء على البابا زعيم الكاثوليكية، فأمر حاكم نابولى بإبرام الصلح. ولكن بينما كانت المفاوضات تدور مع البابا، وصل الجيش الفرنسى إلى الأملاك البابوية، واضطر حاكم نابولى إلى التقهقر جنوباً، فغزا الفرنسيون نابولى.

فى ذلك الحين زار فيليب الثانى ملك أسبانيا، إنجلترا ليستميل زوجته مارى تيودور Mary Tudor للدخول فى الحرب إلى

جانبه، ونجحت الزيارة، فأعلنت إنجلترا الحرب على فرنسا فى يونية ١٥٥٧م، وحاصرت جيوش فيليب الفرنسيين فى مدينة سان كانتان San Quentin. وعندما حاولت النجدات الفرنسية تخليصهم، هزمهم الأسبان هزيمة بالغة بالقرب من سان كانتان فى ١٠ أغسطس ١٥٥٧م، ففقدت فرنسا جيشها الوحيد فى الشمال، وانفتح الطريق أمام فيليب إلى باريس.

على أنه بدلا من أن يواصل فيليب الزحف على باريس، ارتكب فى ذلك الحين خطأ فادحا عندما اكتفى بتشديد الحصار على سان كانتان حتى سقطت فى ٢٧ أغسطس، فأتاح للفرنسيين استقدام جيوشهم بإيطاليا بقيادة فرانسوا دوق جيز.

فى ذلك الحين كان التذمر قد اشتد بين الجنود الألمان المرتزقة فى جيش فيليب لتأخر مرتباتهم، حتى انضم فريق منهم إلى صفوف الفرنسيين. كما أبدى الإنجليز الرغبة فى العودة إلى أوطانهم. ولم يملك فيليب إزاء ذلك إلا احتلال بعض الحصون قليلة الأهمية، ورجع إلى بروكسل ليأمر بتسريح جيشه، فأضاع بذلك فرصة الانتقام من الهزائم التى نزلت بأبيه فى أواخر أيام حياته.

أما الفرنسيون فقد جمعوا جيشاً كبيراً وبدءوا فى يناير ١٥٥٨م محاصرة الإنجليز فى كاليه، وهى آخر معاقلهم فى أرض فرنسا، فسقطت فى أيديهم بعد حصار ثمانية أيام فقط، بعد أن بقيت فى أيديهم من أيام حروب المائة سنة.

على أن الفرنسيين لم يلبثوا أن هزموا هزيمة شنعاء على يد جيش فلمنكى من الأراضى المنخفضة تساعده من البحر مدفعية الجيش الإنجليزى، وذلك بالقرب من جرافيلين Gravelines فى يوليو ١٥٥٨م، فبدأت بعد هذه الهزيمة مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والأسبان التى انتهت بعقد الصلح فى كاتو ـ كامبريسيس فى ٢/٣ أبريل ١٥٥٩م. وكان مما سهل الاتفاق أن مارى تيودور توفيت فى نوفمبر ١٥٥٨م، واعتلت اليزابيث عرش إنجلترا، ولم تعد بفيليب حاجة للتمسك بعودة كاليه إلى إنجلترا، وعندما وجدت اليزابيث أن أسبانيا لن تساعدها على استرجاع كاليه رضيت ببقائها فى حوزة الفرنسيين لمدة ثمانية أعوام.

وقد انتهت «بصلح كاتو ـ كامبريسيس» الحروب الإيطالية، وأكثر من ذلك أنه أصبح يمثل التسوية الدولية التى انتظمت على أساسها العلاقات الدولية فى أوروبا فى مدة المائة سنة التالية تقريباً ـ أى لغاية «معاهدة وستفاليا Westphalia» سنة ١٦٤٨م. وقد تقرر فيه ما يلى:

أولاً: بالنسبة للحدود الشمالية الشرقية الفرنسية، أعادت فرنسا «مارينبورج» Marienburg و«تيونفيل» Thionville و«دامفيللرز» Demvillers و«مونتميدى» Montmedy، واستبقى فيليب «هزدن» Hesden .

وحصلت فرنسا على «سان كانتان»، و«هام» Ham، و«لوكاتيليه» Le Catelet و«تيرونان» Terounanne وأعادت فرنسا إلى أسقف «لييج» Liege بلدتى «بوفين» Beauvines و«بوييون» Bouillon .

ثانياً: بالنسبة لإيطاليا والحدود الجنوبية الشرقية الفرنسية، أخلى الفرنسيون «مونفيرات» Monferrate و«الميلانيز» Milanese وكورسيكا، وسافوى، و«بريس» Presse بين فرعى الرون، وتقع جنوب «فرانش كومتيه»، وبيدمونت. كما وافقت فرنسا على إعطاء «مونتاليينو» Montalieno إلى دوق توسكانيا، واستبقت لها ماركيزية سالوتزو Saluzzo .

ثالثاً: بالنسبة للحدود الشرقية الفرنسية، استبقت فرنسا «تول» «وميتز»، و«فردان»، فبقيت هذه لفرنسا.

رابعاً: لم تشأ فرنسا المطالبة بأى تعويض لحليفها ملك نافار، وتزوج/فيليب الثانى من اليزابيث ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا، فى حين تزوج دوق سافوى من مارجريت أخت ملك فرنسا.

ولكن فى أثناء احتفالات الزواج قتل هنرى الثانى حينما كان يقوم بأعمال الفروسية فى ١٠ يوليو ١٥٥٩م.

وقد اعتبر الفرنسيون المعاصرون «صلح كاتو - كامبريسيس» محنة كبرى لما يأتى:

١ - تضمنت المعاهدة قبول السيطرة الأسبانية فى إيطاليا، حيث بقيت أسبانيا محتفظة بنابولى وميلان، فلم تتخلص إيطاليا من النفوذ الأسبانى قبل ثلاثة قرون.

٢ - أتاح إخلاء فرنسا سافوى الفرصة لقيام دولة حاجزة منها بين فرنسا وإيطاليا ضد المطامع الفرنسية.

٣ ـ أعيدت حدود الأراضى المنخفضة إلى ما كانت عليه بتعديل طفيف، ولم تنل فرنسا فى مقابل ذلك سوى أماكن قليلة.

مع ذلك، فلم تحمل «معاهدة كاتو ـ كاميريسيس» لأسبانيا النصر كله، لأنها حملت فى أصولها أسباب المتاعب التى واجهت أسبانيا فى بقية القرن ١٦ الميلادى حتى القرن الثامن عشر الميلادى خصوصاً، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ كان استيلاء فرنسا على كاليه، ثم احتفاظها بتول وميتز وفردان، مما أعطاها قواعد مهمة سمحت لها فى الفترة التالية من القرن السادس عشر إلى السابع عشر الميلاديين، بتوجيه جيوشها منها لتلحق الضرر بالنفوذ الأسبانى فى الأراضى المنخفضة ذاتها.

٢ ـ لم يكن تأكيد سلطان أسبانيا فى الأراضى المنخفضة فى صالح أسبانيا، لأنه أدخلها فى منازعات كثيرة خرجت منها منهوكة القوى.

الفصل السادس

الكشوف الجغرافية
والموجة الاستعمارية الأولى
من القرن ١٥ إلى القرن ١٨

الكشوف الجغرافية والموجة الإستعمارية الأولى من القرن ١٥ إلى القرن ١٨

أولاً : الملامح العامة للاستعمار فى هذه المرحلة:

رأينا كيف نشأت الدول القومية الحديثة على أنقاض المجتمع الإقطاعى، وكيف أسهمت الطبقة البورجوازية الجديدة فى نشأة هذه الدول عن طريق مساندتها للملكية فى صراعها مع النبلاء الإقطاعيين، الأمر الذى ترتب عليه أن هذه الدول القومية الحديثة قد أصبحت دولا مركزية موحدة تحكمها ملكيات مطلقة، حيث أصبح الملك هو الذى يشخص الأمة.

وبعد ظهور هذه الدول الأوروبية الحديثة أخذت تتطلع، بدافع العزة القومية والتعصب القومى، إلى التوسع، إما خارج أوروبا، وهذا ما أنتج حركة الكشوف الجغرافية وما تلاها من الموجة الاستعمارية الأولى، وهى التى استمرت من القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر (الموجة الثانية بعد الانقلاب الصناعى فى القرن التاسع عشر)، وإما داخل أوروبا، وهذا أنتج الحروب الإيطالية والحروب التالية لها التى خاضتها الدول تحت أسباب مختلفة.

وسنعالج هنا التوسع الأوروبى خارج القارة الأوروبية فيما وراء البحار، وهو الذى أنتج ـ كما ذكرنا ـ حركة الكشوف الجغرافية والموجة الاستعمارية الأولى.

ويهمنا قبل أن نتتبع الزحف البورجوازى الاستعمارى الأوربى فيما وراء البحار أن نبرز أهم ملامحه وسماته العامة. وأولى هذه الملامح والسمات هى الفلسفة الاقتصادية التى تم هذا الزحف فى ظلها، وهى المركانتيلية Mercantile System أو المذهب التجارى.

ومن المعلوم أن الاستعمار قد سبق ظهور الرأسمالية بزمن طويل. ففى مرحلة العبودية، ملكت أثينا وفينيقية وقرطاجة وروما مستعمرات واسعة لاجتلاب العبيد. وفى مرحلة الإقطاع احتاج الإقطاعيون إلى الاستيلاء على الأراضى لتوسيع رقعة ممتلكاتهم، فالغزو الصليبى، على سبيل المثال، لم يكن فى جوهره الا تنفيسا عن مشكلة التشبع الإقطاعى الذى بلغه النظام الاقطاعى فى غرب أوروبا عند نهاية القرن العاشر، والذى أدى إلى تكاثر الطبقة الاقطاعية على الأرض الزراعية حتى أصبحت لا تتسع لها، وكانت هذه الطبقة هى التى قادت الحروب الصليبية وخرجت إلى الشرق تبحث عن أراض إقطاعية.

أما فى العصور الحديثة التى نحن بصددها، فقد انبعثت السياسة الاستعمارية وتأسيس الإمبراطوريات الاستعمارية من

الطبقة البورجوازية التى نشأت فى رحم المجتمع الإقطاعى، وكان نوع النشاط الاقتصادى الذى كانت تمارسه هذه البورجوازية، وهو التجارة، هو الذى قاد خطاها إلى حركة الكشف الجغرافى أولا، ثم إلى حركة الاستعمار ثانيا.

ومعنى ذلك أنه لم تكن نظريات الشمال والجنوب، أو المناخ، أو العنصر المتفوق هى سبب سقوط شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تحت الاستعمار الأوروبى وتخلفها، كما يدعى الاستعماريون، وإنما كان ظهور الطبقة البورجوازية الأوروبية وتحولها الحتمى إلى الاستعمار ـ كمرحلة من مراحل تطورها ـ هو السبب، وكانت هذه الطبقة هى التى حققت المكاسب وجنت الأرباح دون غيرها من طبقات الشعب فى بلاد المستعمرات.

وعلى حد قول الأستاذ تاونى Tawney فى كتابه: «الدين وظهور الرأسمالية» Relgion and the Rise of Capitalism :

«أمسكت البرتغال وأسبانيا بمفاتيح خزائن الشرق والغرب، ولكن الذى جنى الثمار المادية للتوسع الإمبريالى الذى دخلت الدولتان فى حومته، لم يكن البرتغال بقلة سكانها وإمبراطوريتها التى لم تكن تزيد على خط من القلاع والمحطات يمتد عشرة آلاف ميل، ولا أسبانيا التى أخذت تترنح تحت وطأة مسئوليات إمبراطوريتها الضخمة المتناثرة، وهى تجعل التعصب الدينى دينها، وتظهر عدم الكفاية فى المسائل الاقتصادية، وإنما كانت هاتان

الدولتان لا تعدوان مجرد وكلاء سياسيين لقوم أشد مكرا ودهاء، ولشخصيات آخبر وأعلم بفنون السلم» .

وفى الحقيقة انه يمكن تتبع الموجة الاستعمارية للرأسمالية الأوروبية التجارية فى تلك المرحلة، بتتبع حركة التجارة الأوروبية فى ذلك الحين.

وكانت أوروبا فى العصور الوسطى تكفى نفسها بنفسها بالنسبة لكثير من السلع، الا انه كان ينقصها بعض السلع التى لا يمكن إنتاجها محليا بسبب عدم صلاحية المناخ لزرعها، مثل القطن والحرير ومواد الصباغة والعقاقير، وعلى رأس هذه المواد، التوابل الضرورية لحفظ لحوم الماشية المذبوحة فى فصل الشتاء، وجعلها مقبولة الطعم.

وكان المصدر الوحيد لهذه التوابل هو جزر الهند الشرقية، التى كانت تصل منها المنتجات إلى أوروبا: إما عبر الطريق البرى من الصين إلى فارس ثم آسيا الصغرى فالقسطنطينية وموانىء البحر الأبيض الأوروبية، وإما عبر الطريق البحرى الذى يصل إما إلى الخليج، ومنه إلى نهر الفرات والموانى السورية، ومنها إلى موانىء أوروبا الجنوبية عن طريق البحر المتوسط، وإما يصل إلى البحر الأحمر ومنه إلى النيل ثم إلى الإسكندرية.

ولما كانت البورجوازية التجارية الايطالية فى البندقية تحتكر هذه التجارة فى جزئها الغربى، فى حين كانت البورجوازية العربية

تحتكرها فى جزئها الشرقى، فقد أحست البورجوازية الأسبانية البرتغالية بوطأة هذا الاحتكار الاقتصادى، وبدأت تفكر جديا فى كشف الطريق البحرى حول أفريقيا للوصول إلى جزر الهند الشرقية.

ولما كانت البورجوازية العربية التى تحتكر تجارة التوابل فى جزئها الشرقى هى بورجوازية إسلامية، فمن هنا اصطبغ العامل المادى بالعامل الدينى، واختلطا فى ذهن البورجوازية البرتغالية والأسبانية، التى رفعت فى ذلك الحين شعارات القضاء على المسلمين عن طريق انتزاع تجارة الشرق من أيديهم.

يقول ألبوكيرك فى خطابه الذى ألقاه على جنده فى ملقا Malacca : «إن إبعاد العرب عن تجارة التوابل هو الوسيلة التى نرجو بها إضعاف قوة الإسلام». فكأن الهدف الاستراتيجى هو إضعاف الإسلام وليس إبعاد العرب عن تجارة التوابل.

ومن هنا تتبدى مهارة البورجوازية فى المزج بين مصلحتها الخاصة والمصلحة العامة، ذلك أنها تعرف أن رفع شعار احتكار تجارة التوابل وانتزاعها من يد العرب، لايبعث الحماس إلا فى صدور كبار التجار وحدهم. أما رفع شعار إضعاف الاسلام، فإنه يبعث الحماس فى الغالبية العظمى من الشعبين البرتغالى والأسبانى.

فى ذلك الحين، كانت المركانتيلية هى المذهب الاقتصادى أو السياسة الاقتصادية التى جرت بإلهامها حركة الاستعمار الأوروبى، ونحن نعرف أن النظريات الاقتصادية لا تنشأ من فراغ. وإنما هى انعكاس لظروف اقتصادية تدعو إليها، وهذه النظريات ليست أديانا منزلة، وإنما وضعها وفلسفها أفراد ومجتمعات لكى تنظم مصالحها، وهى بالتالى قابلة للتغيير حين تتغير هذه المصالح.

ولقد كانت المركانتيلية هى المذهب الاقتصادى الذى قام ليعبر عن مصالح المجتمعات الأوروبية الحديثة فى ذلك الحين، وهى تطلق على مجموعة الآراء والأعمال الاقتصادية التى تميزت بها على وجه الخصوص الفترة فيما بين ١٥٠٠، و ١٨٠٠م، والتى مكنت الدولة القومية الحديثة التى ظهرت فى أعقاب العصور الوسطى من تحقيق وحدتها وقوتها.

فلقد رأينا كيف نشأت الدول القومية الحديثة فى أوائل العصور الحديثة على إنقاض النظام الإقطاعى. وقد اختلفت هذه الدول عن الملكيات التى ظهرت فى العصور الوسطى، فلم تكن الدولة فى العصور الوسطى تعتمد على ميزانية كبيرة، لافتقارها إلى السلطة المركزية، وكان الملك يحصل على دخله من أملاكه، وكانت الخدمات المدنية تدر ما يسد مصروفاتها، أما الدولة الحديثة، ذات السلطة المركزية، فقد اختلفت لحد كبير، فقد تطلب الجيش والأسطول والإدارة الداخلية أموالا طائلة، وكان الحصول

على هذه الأموال هى مشكلة هذه الدول. فلما كان المال معناه القدرة على تعبئة الجيوش وإعدادها، فإن أغنى الدول كانت من ثم أقواها، وهى تستطيع أن تحكم العالم.

فى ذلك الحين، كان الكشف عن القارة الأمريكية واستغلال مناجم بيرو، وانتقال مركز التجارة القديمة من البحر المتوسط وبحر البلطيق إلى سواحل الأطلنطى، قد أدى إلى تدفق المعادن النفيسة إلى غرب أوروبا على يد الأسبانيين والبرتغاليين والهولنديين والانجليز. ولما كان الذهب والفضة يعتبران ثروة بحق، فقد ذهبت آراء الاقتصاديين فى الدول القومية الحديثة إلى أنهما أساس القوة الاقتصادية وعصب الحرب، ومن ثم اعتقدوا أن الدولة التى تحتفظ بأكبر قدر من الثروة فى خزانتها تصبح أقوى دولة، ولكن لكى يكون للدولة الحديثة فائض من المعادن النفيسة، يجب أن يكون ميزانها التجارى فى صالحها، بمعنى أن تزيد صادرتها على واردتها، لأن العكس يترتب عليه دفع الفرق ذهبا أو فضة، مما يؤدى إلى ضعف الدولة اقتصاديا، وبناء على هذه النظرية قامت السياسة الاقتصادية لدول أوروبا فى تلك الفترة على الآتى:

(١) فرض ضرائب عالية على الواردات الصناعية وتشجيع انتاجها محليا، بما يقتضيه ذلك من تدخل الدولة.

(٢) الاهتمام بالتجارة الخارجية، وتفضيلها على التجارة الداخلية، ونقل كل الأرباح إلى الوطن الأم.

(٣) الاهتمام بالفتوح الاستعمارية لاحتكار التجارة، واجتلاب أكبر قدر من الربح.

(٤) فرض القيود على تصدير المعادن النفيسة.

(٥) الاهتمام باستغلال المناجم داخل الدولة لاستخراج الذهب والفضة.

(٦) الاتجاه إلى الحصول على ممتلكات فى الخارج بها مناجم ذهب وفضة.

(٧) توفير أسطول تجارى كبير لخدمة هذه السياسة، من ناحية اعتماد البلاد التى تستورد البضائع الأوروبية على هذا الأسطول من جانب، ومن ناحية توفير قدر كبير من نفقات النقل فيما لو تم على سفن الدولة المستوردة من جانب آخر.

(٨) استخدام جهود الدولة وتدخلها ونفوذها لتحقيق هذه الأغراض.

وقد يتطرق إلى الذهن أن هذه السياسة المركانتيلية القائمة على تدخل الدولة، قد نبعت فقط من رغبة ملوك الدولة المركزية فى ذلك الحين، وهى التى تخضع لنظام الحكم المطلق، فى تحقيق أهداف هذه الدولة فى تحقيق الوحدة الاقتصادية والسياسية وتقوية الدولة. على أن الحقيقة أن هذه السياسة قد نبعت أيضا من رغبة

الطبقة البورجوازية التى وجدت أن الوسيلة لاستئثارها بالنفوذ فى الدولة القومية هى الحكومة المركزية القوية التى تستطيع وحدها تنشيط التجارة الوطنية بفتح الأسواق الجديدة وبناء القوة العسكرية اللازمة لحماية هذه التجارة، ولم تكن تخشى من وجود الحكومة المركزية القوية لأن هذه الحكومة كانت فى حاجة مستمرة لمعوناتها المالية.

وتظهر هذه الحقيقة بوضوح فى كل من هولندا وانجلترا، حيث كان نفوذ البورجوازية التجارية قويا. ولا يخفى على كل حال الصلة الوثيقة بين البورجوازية والملكية فى تلك الفترة، وهى صلة تحالف ضد الطبقات الإقطاعية. فالطابع البورجوازى هو الذى يهيمن على النشاط الاقتصادى فى الدولة القومية الحديثة.

وعلى كل حال، فيهمنا النتائج التى ترتبت على هذه السياسة الاقتصادية الاستعمارية بالنسبة للمستعمرات، وتتمثل فى الآتى:

أولاً : الأسلوب الاستعمارى فى تلك المرحلة. وهو أسلوب النهب والاستنزاف الاستعماريين الكبيرين لشعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وهو نهب واستنزاف لم يقتصرا على الثروات الطبيعية بل تعدياها إلى الثروة البشرية أيضا، حيث تحولت أفريقيا إلى مزرعة لاصطياد السود وبيعهم فى الأمريكتين.

ثانياً : إدماج هذه المستعمرات فى السوق العالمية بعد أن فرض الاستعمار عليها الاقتصاد التجارى. وكانت حياة هذه

المستعمرات الاقتصادية قائمة على الإنتاج الزراعى والتجارة الداخلية، وبعض التجارة الخارجية المحلية مع الدول المجاورة، فأصبحت تقوم على التجارة الدولية.

ثالثاً : انتقال هذه المجتمعات على وجه العموم من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة بعد اضطرارها إلى الدخول فى علاقات دولية جديدة مع دول ذات حضارات أكثر تقدما. وكانت العزلة عن هذه الحضارات هى طابع حياتها السياسية فى المرحلة السابقة.

رابعاً : انقلاب حياة هذه المستعمرات الاجتماعية والسياسية تبعا لانقلاب حياتها الاقتصادية. وكانت أهم هذه التغيرات هى التى تتمثل فى نمو طبقة من التجار فى هذه البلاد متحالفة مع المصالح الأجنبية التجارية، وتطلع هذه الطبقة إلى القوة والنفوذ السياسى، وحدوث تغييرات فى العلاقات الاجتماعية والسياسية الداخلية تبعا لذلك، على رأسها هدم النظام القبلى. وفوق ذلك انتقال مراكز الاقتصاد والقوة السياسية من المناطق الداخلية إلى الساحل.

خامساً : التفرقة العنصرية فى كل من الولايات المتحدة وأفريقيا، التى نتجت عن استنزاف الثروة البشرية لبيعها فى الخارج كسلعة من السلع من ناحية، ومن ناحية أخرى نتيجة تصدير الفائض البشرى من الشعوب الأوروبية الناتج عن زيادة السكان فيها.

هذا على كل حال فيما يتصل بالخصيصة العامة الأولى من خصائص المرحلة الاستعمارية الأولى. أما الخصيصة الثانية، فهى أن هذه المرحلة هى على وجه الإجمال مرحلة سيادة الدول البحرية الأوروبية على الدول القارية.

ففى هذه المرحلة، وحتى ابتداء القرن الحالى، كانت الدولة التى تسيطر على الأطلنطى قادرة على تصريف سياسات المحيطات. فالتحكم فى الأطلنطى كان معناه السيادة على المحيط الهندى، فالسيطرة فى النهاية على المحيط الهادى.

وفى أثناء المائة السنة الأولى كانت السيادة على الأطلنطى للدولتين الأيبيريتين «أسبانيا والبرتغال»، وبالتالى كانت السيادة التجارية فى أيديهما. ولكن هذه السيادة لم تلبث أن انتقلت إلى أيدى الهولنديين الذين انتزعوها قسرا من البرتغاليين. وبعد هزيمة «الأرمادا»، وهى الحملة البحرية التى أرسلتها أسبانيا لغزو إنجلترا فى عهد فيليب الثانى سنة ١٥٨٨م، انتقلت السيادة إلى بريطانيا، وظل الصراع قائما بينها وبين فرنسا حتى أواسط القرن الثامن عشر. ومنذ ذلك الحين لم تتعرض السيادة البريطانية البحرية لأى تحد خطير حتى أوائل الحرب العالمية الثانية.

وقد تمثلت هذه الحقيقة ليس فقط بالنسبة للهند وسيلان وأندونيسيا، التى كانت للدول الأوروبية البحرية على امتداد سواحلها مستوطنات تجارية وبعض السلطان السياسى، بل وأيضا بالنسبة للصين واليابان.

فقد كانت للإمبراطورية الصينية القوية مع الجزر الأندونيسية علاقات تجارية ضخمة، لكن السيادة البحرية التى حققها البرتغاليون هناك فصمت هذه العلاقات فصما، واضطرت الإمبراطورية الصينية المتفوقة فى البحر إلى الانسحاب المطلق من البحار، ولم تعد السفن الصينية تبحر بعد ذلك إلى ملقا أو جاوة، بل إن الصين نفسها لم تلبث أن وقعت منذ بداية القرن السادس عشر فريسة لحصار قوى دام حتى منتصف القرن التاسع عشر.

أما بالنسبة لليابان ،فقد كان لها علاقات تجارية أيضا مع الملايو والجزر الجنوبية، بل لقد كانت لها أطماع سياسية حول فورموزا وجزر الفلبين، ولكن وصول البرتغاليين إلى المحيط الهادى أدى إلى تضييق دائرة النشاط اليابانى، اللهم إلا فى بحر الصين الشمالى والبحر الكورى. وهكذا كانت السيطرة للدول البحرية.

على أن الفشل النهائى الذى انتهت إليه سيادة الدول الأوروبية البحرية، واضطرارها فى النهاية إلى الانسحاب من الدول القارية (وآخر مثال لذلك انسحاب الولايات المتحدة من فيتنام) شاهد على أن الاعتماد على القوة البحرية فى الشئون العسكرية يؤدى فى النهاية إلى خيبة الأمل.

ففى الصراعات التاريخية الكبرى الحاسمة، يبرهن التاريخ على أن الدولة التى تبدأ الصراع بقوة بحرية كبرى، تلقى الهزيمة فى النهاية على يد القوة البرية، وأن الكتل القارية التى تحيق بها

...هزومة في البداية لا تلبث أن تتغلب على القوى المعتمدة على البحر.

أما الخصيصة الثالثة، فهى أن مفهوم السوق فى هذه المرحلة يختلف عن مفهوم السوق فى العصر الصناعى، أى فى المرحلة الإمبريالية للاستعمار.

ذلك أنه وإن كانت السيادة قد عقدت فى هذه المرحلة الأولى للقوى الأوروبية البحرية، إلا أن هذه القوى لم تكن تمثل فى ذلك الحين فى كل الأحوال، حضارة متفوقة تزحف للأمام وتتحدى حضارة البلاد التى سادتها! كما أنها لم تكن تمثل أيضا على الدوام أى تحد لأساليب الحياة التى تعارف عليها البشر فى ذلك الحين وقبلوها. بل إن أوروبا لم يكن لديها فى ذلك الحين، خصوصا بالنسبة لآسيا إلا القليل لاقتصاد تلك البلاد. فلم تجد شركة مثل شركة أمستردام ما تصدره إلى سيام فى ذلك الحين سوى مجموعة من المنحوتات والتماثيل وصور العذراء والصور العارية !

وفى الحقيقة أن الطلب على البضائع الأوروبية فى هذه البلاد كان قليلا، إلى أن تمكنت مصانع مانشستر من إنتاج منسوجات رخيصة، وإلى أن أمكن تصدير البضائع المصنوعة بالآلات.

وحتى القرن التاسع عشر كان الطلب على البضائع الأوروبية أقل من المتوقع، وعلى العكس من ذلك فإن آراء الاقتصاديين

التجاريين، التى تقوم على عدم تصدير الذهب لشراء البضائع، لم تستطع أن تحد من طلب الشعوب الأوروبية على البضائع الشرقية، بل ساعد ازدياد الثروة والترف على استمرار الطلب على هذه البضائع والاستنزادة منها.

وفى البداية كان الطلب الأول على التوابل، ففى القرن السادس عشر وحتى القرن السابع عشر كانت التوابل تتسلط على التجارة بين أوروبا وآسيا، ولكن بعد تدفق ثروة أمريكا على أوروبا مائة سنة، وإغداق مناجم الذهب والفضة بأمريكا الوسطى والجنوبية الثراء على الشعوب البحرية الواقعة على ساحل الأطلنطى، تحولت نقطة الاهتمام التجارى إلى أصناف أخرى.

فلقد كان من الطبيعى أن يورث هذا الرخاء الاقتصادى فى أوروبا أنواعا جديدة من الطلب، فاشتد الاقبال فى إنجلترا وفرنسا وأسبانيا، وهى الدول العظمى فى ذلك الحين، على الموسلين والمنسوجات المطبوعة المستوردة من الهند، وعلى الشاى والحرير من بلاد الصين، وعلى البن من جزر الهند الشرقية والهولندية. وما وافت سنة ١٦٩٥م حتى حلت المنسوجات الهندية محل المنسوجات البريطانية على نحو أدى إلى قيام ناسجى الحرير بمدينة «سبيتال فيلد» Spital Field بمظاهرة أمام دار البرلمان !

ولم يكن الموقف فى فرنسا بأحسن من هذا، حتى صدرت فيها، تحت ضغط مصانع المنسوجات فى البلاد، عدة تشريعات متعاقبة تحد من تدفق سيل البضائع الهندية والصينية.

ولم يقتصر الطلب على المنسوجات، بل لقد كان من السلع المهمة المرغوبة: ورق الجدران، والمراوح، والخزف الصينى، وشيلان الكشمير، والديباج الموشى من الهند، وهكذا كانت التجارة الآسيوية حتى القرن التاسع عشر تجارة من جانب واحد تقريباً.

وقد أثرت هذه النظرية المركانتيلية فى اتجاه إنجلترا إلى استعمار الهند، فبسبب عدم وجود شئ لدى الإنجليز يدفعونه مقابل التوابل التى يحصلون عليها من جزر أندونيسيا، فى الوقت الذى كان اقتصاديو ذلك الوقت يكرهون - كما ذكرنا - تصدير الفضة أو الذهب، رأى وكلاء شركة الهند الشرقية الإنجليزية أنه يمكن تمويل تجارة التوابل عن طريق الأرباح الناتجة عن جلب المنسوجات الهندية وبيعها فى تلك الجزر. وهكذا كان الهدف من إنشاء مركز تجارى فى الهند هو شراء المنسوجات. وكان المكان الذى اختير لهذا الغرض هو سورات Surat سنة ١٦١٢م. ولكن عندما طرد الإنجليز من أندونيسيا، عادت المشكلة إلى الظهور، إذ كيف السبيل لدفع اثمان التجارة الهندية بغير طريق الذهب والفضة؟ وعندئذ بدا للشركة أن طريق التجارة بالبحر الأحمر منفذ مربح.

وعلى كل حال، فإن هذا يبين أن مفهوم «السوق» فى تلك المرحلة يختلف عن مفهوم «السوق» فى القرن التاسع عشر بعد الانقلاب الصناعى. فالسوق فى المرحلة الأولى الاستعمارية، كان

سوق احتكار شراء بأسعار بخسة، أما فى القرن التاسع عشر فكان سوق احتكار بيع. وفى الحقيقة أنه لم يكن إلا بعد الانقلاب الصناعى حين أصبح لأوروبا بضاعة تستطيع تصديرها، وحضارة تستطيع تحدى أسس المجتمعات فى تلك الدول التى فرضت سيادتها عليها، ويمكنها إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية لها شأنها.

الخصيصة الرابعة: إذا كان الاستعمار قد طرق أبواب قارات العالم القديم والجديد فى هذه المرحلة، فإنه فى العالم القديم (أفريقيا وآسيا) ظل فى جوهره ساحليا أو شبه ساحلى بدرجة أو بأخرى .

وفى أفريقيا بالذات كان الاستعمار ساحليا بحتا. فقد كانت أفريقيا بالنسبة للاستعمار صندوقا مغلقا موحشا يدور حوله ذهابا وجيئة، ولكنه لا يملك مفاتيحه، ولايملك الحضارة التى يمكنها أن تنفذ إليه وتفتح مغاليقه.

أما آسيا، فإن قوة الإمبراطوريات البحرية الموجودة فى ذلك الحين على أرضها، سواء فى الهند أو الصين، كانت تشكل حاجزا مانعا ضد التوغل الاستعمارى الأوروبى إلى الداخل.

وعلى وجه العموم، فإن طبيعة الاستعمار التجارية فى تلك المرحلة قد انعكست فى قصر اهتماماته على الأشرطة الساحلية.

وفى الوقت نفسه، فان هذه الطبيعة الساحلية تعتبر انعكاسا لنظرة الاستعمار إلى هذه القارات، فقد كانت نظرة ملاح أساسا، بمعنى أنه لم يكن يتعرف على كتل قارية، بقدر ماكان يتعرف على أشرطة ساحلية، ولذلك فإن هذه الموجة الاستعمارية الأولى يمكن أن توصف بأنها مرحلة الاستعمار «الواسع» أو «الفسيح» لا «الكثيف». ومن تراث هذه المرحلة وتلك النظرة، الأسماء العديدة التى مازلنا نطلقها: «ساحل غانة»، و«ساحل الذهب»، و «ساحل العاج»، و«ساحل الزنج»، و«ساحل مالابار»، و«ساحل كروماندل»، و«ساحل كارناتيك».

ولقد كانت المراكز التجارية فى أفريقيا فى البداية عبارة عن محطات من أجل الوصول إلى الهند. فلقد كانت أفريقيا بالنسبة للاستعمار البرتغالى، الذى كان أول ما طرق سواحلها، عتبة للهند، لأن الهدف الأكبر كان هو الوصول إلى الهند، فلما تم الوصول إلى الهند أهملت هذه المراكز الأفريقية ، ولم يبق منها إلا عدد قليل ظل يعمل فى العاج، وبعض المنتجات الأفريقية.

ولما اكتشفت أمريكا، واحتاجت حقول قصب السكر والمطاط إلى الأيدى العاملة، تحولت هذه المراكز إلى تجارة الرقيق، دون أن يمتد النفوذ إلى الداخل، ودون أن يصحب هذا النفوذ استغلال للأرض. وقد استمرت هذه التجارة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، حتى قامت حركة مقاومة تجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر، فضعفت هذه المراكز إلى حد التصفية.

على أن الأمر اختلف بالنسبة للعالم الجديد، لأسباب ديموغرافية وجغرافية. ففى العالم القديم، دخل الاستعمار مناطق مأهولة بالسكان كثيفة ومدارية، أما فى العالم الجديد، فقد دخل الاستعمار مناطق مخلخلة قليلة السكان، يصلح كثير منها بحكم ارتفاعه لتوطن البيض، ولذلك فقد اتخذ نمطا تغلغليا واستيطانيا أيضا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ففى أفريقيا المدارية كانت الطبيعة تغلف القارة السوداء بساحل غير مضياف، تقل فيه الموانى الجيدة، وتتكاثر عليه الأمواج الضارية. وفى أعماق القارة كانت تسود إما صحراوات قاحلة موحشة، وإما غطاءات نباتية كالأسلاك الشائكة. وحتى أنهار القارة العظيمة هى الأخرى مسدودة أو شرايين مقطوعة. وذلك بحكم تركيب القارة ككتلة هضبية، فقرب مصابها تهوى الأنهار من حالق فى شلالات تشل الملاحة والحركة، دخولا أو خروجا.

فى حين كان هناك تشابه طبيعى ومناخى كبير بين هضاب أمريكا وهضبة قشتالة التى أتى منها الأسبان، كما أن الطبيعة كانت متشابهة، فيما عدا أن كل شئ كان يبدو أكبر : الجبال والغابات والسهول والمستنقعات، وكان ذلك مما سهل عملية الانتشار والتمدد.

الخصيصة الخامسة: تعويضا لعجز الاستعمار فى هذه المرحلة عن التوغل الداخلى، وعن «الاستعمار الجغرافي» فى العالم

القديم، لجأ إلى نمط آخر، خصوصا فى أفريقيا بالذات، وهو «الاستنزاف الديموغرافى» - أى تجارة الرقيق.

لذلك فقد تميز هذا العصر بأنه عصر النخاسة على نحو لم يسبق له مثيل من قبل ولا من بعد. فقد كان الرقيق أغلى سلعة فى التجارة الاستعمارية، وكان وقود آلة المركانتيلية الأسود، وعليه بنت القوى البحرية اقتصادها ورخاءها. وكان للبرتغاليين أولا، ثم الإنجليز بعدهم، الدور الأكبر فى هذه التجارة الإجرامية، كما شارك الهولنديون والفرنسيون فيها بقدر. ويقال إن لشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق ودمائه.

وقد شهد المحيط الأطلنطى مثلثا دمويا (التجارة المثلثة كما تسمى) تبدأ فيه السفن بنقل شحنات بضائع ومصنوعات بريطانيا إلى غرب أفريقيا، حيث تستبدل بها شحنات آدمية، وتذهب بها عبر المحيط لتفريغها فى أمريكا الشمالية، والوسطى، والجنوبية، ومنها تعود محملة بمحاصيل المداريات من سكر وقطن وتبغ... الخ.

وتختلف تقديرات عدد الرقيق المستنزف من أفريقيا، ولكن البعض يقدرها بحوالى المائة مليون، على أن من مات فى أثناء «الصيد» و «الرحلة» ثلاثة أرباع من وصل بالفعل إلى العالم الجديد. وإذا صح هذا الرقم، فلاشك أن هذه أعظم موجة فى حركات السكان فى التاريخ البشرى جميعاً.

وفى مقابل هذه الحقيقة الرهيبة حقيقة أخرى لاتقل عنها شناعة، تتصل بالسبب الأساسى فى هذا الاستنزاف الديموغرافى، أى تجارة الرقيق، وهو إبادة الهنود الحمر فى العالم الجديد. ذلك أن الاستعمار لجأ فى العالم الجديد إلى إبادة الهنود الحمر، خصوصا فى أمريكا الشمالية، حيث كان الشعار الأمريكى الخالد هو: «الهندى الطيب هو فقط الهندى الميت»، حتى تحول الهندى الأحمر إلى شبح وأسطورة، والى عينات متحفية لأجناس بائدة!

وفى استراليا - على سبيل المثال - وصلت عملية إبادة الجنس إلى حد صيد الرءوس بشكل علنى ومنظم - أحيانا كنوع من الرياضة!

أما فى أمريكا الوسطى والجنوبية فقد نجا هنودهما من الانقراض بسبب ضخامة عددهم نسبيا (١٢ مليونا).

وعلى كل حال، فبسبب إبادة الهنود الحمر بالجملة فى العالم الجديد، فقد افتقر الاستعمار إلى الأيدى العاملة، وعندئذ لجأ إلى نقل زنوج افريقيا بالجملة . فكأن الاستعمار قد قام بعملية نزح وتفريغ كاملة: نزح من العالم القديم، وتفريغ فى العالم الجديد.

وفيما بعد، حين تغلغل الاستعمار فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر، كان الموقف قد انقلب، فإن عملية النزح منها قد أحدثت فى بعض أجزائها تفريغا، ومن ثم عمد الاستعمار إلى تهجير الهنود والآسيويين إليها لملء الفجوة الفارغة.

وفى الوقت نفسه، وعلى طول المرحلتين الاستعماريتين، كانت الهجرة الأوروبية البيضاء تضخ باستمرار فى أنحاء العالم الثالث وإن كان العالم الجديد هو المصب الأكبر لهذه الهجرة.

ولقد كانت محصلة هذه العملية الاستعمارية الغربية فى النهاية هى إعادة توزيع البشرية ديموغرافيا وأنثروبولوجيا على ظهر الأرض، وتغيير الألوان التقليدية للقارات، بل وانشاء مجتمعات جديدة ضخمة ليس لها مثيل، خصوصا فى أمريكا اللاتينية.

فقد رأينا كيف نجا هنودها من الانقراض بسبب ضخامة عددهم نسبيا، ولكنهم لم ينجوا بطبيعة الحال من المخالطة الجنسية والتهجين الجنسى الذى ليس له مثيل فى العالم، حتى أصبحت أمريكا الجنوبية بوتقة أجناس بدرجة أكبر من أمريكا الشمالية. فهى تجمع بين ثلاثة أجناس هى، الهنود، والبيض، والزنوج. والتكوين الإثنوغرافى الموجود الحالى للمجتمعات اللاتينية يتألف من : أسبانى أو برتغالى + هندى أو زنجى + مولد من هندى أو زنجى + خليط من هؤلاء.

الخصيصة السادسة: ترتب على نزوح البيض إلى المجتمعات الملونة فى العالم القديم والجديد، تغيير فى العادات الاجتماعية لهذه المجتمعات.

ففى حالة الاستعمار الموجه إلى بلاد حارة، كانت الهجرة البيضاء تقتصر غالبا على الذكور فقط، ومن ثم يصبح الفرد ـ

وليس العائلة ـ وحدة المجتمع، كما هو الحال فى البرتغاليين فى الهند، والهولنديين فى جزر الهند الشرقية. ومن ثم كانت تزداد نسبة الإقبال على الخمور، ويليها ازدياد فى نسبة الجرائم، ثم الاختلاط غير الشرعى بالوطنيات.

أما إذا كان الاستعمار موجها إلى بلاد مناخها معتدل، كما هو الحال فى شمال أفريقيا وجنوبها، فتكون العائلة هنا هى وحدة المجتمع، ولكن إحساس هذه العائلة ببعدها عن الانتقاد كان يدفعها إلى التحلل الأخلاقى، الذى كان ينعكس بدوره على الوطنيين.

الخصيصة السابعة : ترتب على نزوح المستعمرين فى أراض زراعية، أن أخذوا يستغلون علمهم فى زراعة أنواع من المحاصيل تلائم البيئة وتوافق مصلحة الدولة الاستعمارية التى تحتكر التجارة والصناعة. وأدى ذلك إلى خلق نوع من التخصص الزراعى أضر لحد كبير باقتصاديات المستعمرات، إذ جعل هذا الاقتصاد عبدا للمحصول الرئيسى لمدة طويلة، حتى استطاعت هذه المستعمرات التحرر وتكييف اقتصادها على أساس سليم. وسنرى أمثلة لذلك فيما بعد، ولكن يكفى أن نرسم الصورة الآتية للتخصص الزراعى فى صادرات بلاد العالم الثالث :

ففى السنغال يمثل الفول السودانى ٩٢٪ من صادرتها. وفى النيجر، يمثل الفول السودانى أيضا ٨٧٪ من الصادرات، وفى كولومبيا يمثل البن ٧٤٪، وفى هاييتى وسلفادور وجواتيمالا

والبـــرازيل يمثل الـبن ٧٧٪، ٧٣٪، ٦٢٪ على التـــوالى. أمـــا فى جـمـهورية مـصـر العـربيـة فـيمـثل القطن ٧٠٪، وفى سـيـلان يمثل الشـاى ٦٦٪، وفى غانا يمثل الكاكاو ٦٦٪ أيضـا، وفى كوبا يمثل السكر ٩٥٪.

فـضــلا عن ذلك، فـإن الإنتـاج الزراعى الذى جـرى فى ظل الحكم الاسـتـعمارى، لم يقم على أسـاس اقتصـادى سليم. لأنه قام على أسـاس زيادة الكمـيـة لا علـى أسـاس تحـسين النوع. ولـم يكن يتبع الدورة الزراعية أو نظام حفظ التربة. ولذا لم يهتم المسـتـعمر بمستقبل المستعمرات، سواء من ناحية الإنتاج أو الأهالى.

ويختلف الأمر بالنسبة للمستعمرات ذات الجو المعتدل الذى يشجع على الاستيطان، كما هو الحال فى شمال أفريقيا وجنوبها حيث عمد المستعمرون إلى تحسين النوع.

ثانياً : تعاقب الأدوار الاستعمارية :

أشرنا إلى أن احتكار تجارة التوابل مع الشرق كان أعظم الدوافع إلى الكشف الجغرافى، الذى أدى إلى استعمار آسيا وأفريقيا وأمريكا. وأن هذا الدافع قد تداخل مع دافع محاصرة الإسلام. كما أن هذا الدافع الأخير نفسه قد تداخل مع أطماع أمراء الإقطاع فى أواخر العصور الوسطى عند شن الحروب الصليبية، وهذا يبين المهارة التى تستطيع بها أوروبا أن تمزج بين الدين والمصالح المادية.

على أن هناك جملة عوامل مساعدة لولاها لما أمكن القيام بالكشوف الجغرافية أصلا. وهى : تقدم المعلومات الجغرافية، وارتقاء فن الملاحة، وتقدم صناعة السفن، واستخدام البوصلة البحرية، وأخيرا استخدام البارود الذى مكن المستعمرين من القضاء على مقاومة الأهالى.

وقد تميزت هذه المرحلة الاستعمارية الأوروبية الأولى بسمة مهمة، هى: تعاقب الأدوار الاستعمارية. بمعنى أن القارات التى سقطت تحت سيطرة الاستعمار لم تسقط دفعة واحدة فى أيدى الدول الأوروبية الاستعمارية، كما حدث بالنسبة للمرحلة الثانية التى أعقبت الانقلاب الصناعى فى القرن التاسع عشر، وإنما تعاقبت عليها الدول الاستعمارية.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن هذه الدول لم تكن قد برزت جميعها على درجة متوازية من القوة فى ذلك الحين، وإنما تعاقبت فى بروزها، وقام عامل المنافسة والصراع بينها بتصفية دور البعض وتثبيت دور البعض الآخر، حتى إذا كان القرن التاسع عشر، كانت مراكز هذه القوى الدولية قد استقرت لحد كبير، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى بقلبه وتغييره من جديد.

ويمكن تحديد الأدوار الاستعمارية التى تعاقبت على العالم الثالث فى هذه المرحلة على النحو الآتى:

(١) الاستعمار البرتغالى

نقطة البداية فى الاستعمار البرتغالى، هى الأمير هنرى الملاح Henry the Navigator، ابن الملك يوحنا الأول ملك البرتغال، وقد امتزجت فى هذا الأمير بصفة خاصة أهم العوامل التى أدت إلى الكشف الجغرافى والاستعمار فى ذلك الحين، وهى: الدافع المادى، والدافع الدينى.

فقد تغذى الأمير هنرى الملاح منذ طفولته بتصرف دينى مسيحى عسكرى يخالطه بغض مرير للإسلام. وقد دفعه هذا البغض فى عام ١٤٥١م إلى تجريد حملة على «سبتة» Ceuta واستطاع الاستيلاء عليها عنوة. ومنذ حوالى ١٤١٧م وضع الخطة الاستراتيجية الكبرى لتطويق جناح الإسلام.

ويختلف المؤرخون فى هذه الخطة، فبعضهم يرى أنها كانت ترمى إلى احتلال الشواطئ المراكشية على المحيط الإطلنطى، وإخضاع أفريقيا الشمالية الغربية ابتداء من نهر السنغال، ثم الاستيلاء على بلاد غانة الغنية وانتزاع تجارتها من الرقيق والذهب، وإقامة مملكة مسيحية جنوب بلاد المغرب، والاتصال بمملكة القديس يوحنا Orestesr John وراء الصحراء الأفريقية أى الحبشة، التى سمع بوجودها فى تلك الأرجاء، وإحكام التطويق على بلاد الإسلام. وحرمان مصر من الضرائب العالية التى كانت تفرضها على تجارة التوابل.

والبعض الآخريرى أن الخطة كانت ترمى إلى انتزاع تجارة الشرق الثمينة من الغرب، والوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول الساحل الأفريقى، واكتشاف طريق بحرى بدلا من الطريق الذى يمر بالبحر الأحمر فمصر، وبالتالى الالتفاف حول الإسلام وتطويقه؟

ولعل ما سبب الخلاف حول هذا الموضوع، هو الكتاب الذى تلقاه هنرى الملاح من البابا نيقولاس الخامس Nicolas V فى عام ١٤٥٤م والذى يمنحه فيه تفويضا بأن له الحق فى جميع الكشوف التى يكشفها حتى بلاد الهند.

ففى هذا الخطاب، بعد أن يشيد البابا بما فعله هنرى الملاح من إدخاله فى أحضان الكاثوليكية «الغادرين من أعداء الله والمسيح، مثل العرب والكفرة» يقول:

«فاذا تم على يديه (أى على يدى هنرى الملاح) اختراق المحيط ملاحة حتى بلاد الهند، والتى يقال إنها خاضعة أيضا للمسيح، وإن هو توصل إلى إنشاء العلاقات بينه وبين هؤلاء الناس، فإنه سيتمكن من حملهم على النهوض لبذل العون لمسيحيى الغرب على أعداء الدين، ويستطيع فى الوقت نفسه أن يُدخل فى الطاعة والخضوع جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الإسلام، ويُدخل اسم المسيح فى نطاق علمهم.... حتى اذا اخترق لُجَّات عدة بحار، وهو يبحث فى غير هوادة جميع المناطق الجنوبية

حتى القطب الجنوبى عابرا المحيطات، بلغ فى النهاية ولاية غينيا، ثم تقدم منها بعد ذلك إلى مصب النهر الذى يسمى عادة باسم النيل... وستصبح جميع الفتوح التى تمت حتى اليوم أو التى ستتم فى مستقبل الأيام، أو الفتوح التى تمتد إلى رأس بوجادور حتى ساحل غينيا وجميع بلاد الشرق، على الدوام وإلى الأبد فى المستقبل تحت سيادة الملك «ألفونسو».

ففى هذا الخطاب يتضح أن الرأى الثانى هو الأصوب، وأن الهند وليست الحبشة هى الهدف من تطويق المسلمين، حيث كان الظن أن الهنود يدينون بالمسيحية. أما الاتصال بأثيوبيا، فسنرى أن ذلك تم فيما بعد فى إطار خطة السيطرة على البحر الأحمر والبحر العربى.

وفى رأينا أن المعلومات الجغرافية القاصرة فى كتاب البابا، هى السبب فى الخلط الوارد فى الكتاب وفى آراء المؤرخين فى هذا الموضوع.

وفى الواقع أن المؤرخين الذين أرخوا لحياة الدون هنرى، يؤكدون أن فكرة الوصول إلى الهند كانت تملك عليه مشاعره آناء الليل وأطراف النهار. وقد أدرك أن الخطوة الأولى لنجاح الحملة الموجهة إلى الشرق هى كشف الشاطئ الأفريقى. وكان يقع إلى جنوب رأس بوجادور Bojador منطقة غير مأهولة، لم يمر بها أى ملاح أوروبى من قبل.

وتبعا لذلك أرسل هنرى البعوث البحرية لكشف الشاطئ الأفريقى. فتمكنت من كشف جزر ماديرا Madeira سنة ١٤٢٠م، وجزر آزور Azores سنة ١٤٣١م، وبعد أربع عشرة محاولة فاشلة، تمكنت إحدى الحملات بقيادة «جيل إيانس» Gil Eanes من عبور رأس بوجادور Bojador سنة ١٤٣٤م. وفى سنة ١٤٤٥م، اكتشف دينيس دياز Dinis Diaz مصب السنغال والرأس الأخضر (رأس فردى Cape Verde)، وبعد ذلك تم التوصل إلى غينيا التى كانت فى ذلك الحين سوقا عظيما للذهب المصدر من تمبوكتو Tombouctou، كما تم الوصول إلى غانة. وسنة ١٤٧١م وصل «فرناندو دى بو Fer-nando Poo» إلى خط الاستواء، ثم وصل دييجو كام Diego Cam أو Diego Cao إلى مصب نهر الكونغو سنة ١٤٨٢م - ١٤٨٣م.

وفى سنة ١٤٨٧م اجتازت بعثة جديدة بقيادة أعظم الملاحين البرتغاليين «بارثلوميو دياز Bartholomew Diaz رأس الرجاء الصالح Cape of Good Hope دون أن تكتشفه، وصعدت شمالا بمحازاة الشاطئ الأفريقى، وبذلك أصبح الطريق البحرى إلى الهند مفتوحا.

وفى يوليو ١٤٩٧م أقلعت حملة على رأسها فاسكو داجاما Vasco Da Gama للوصول إلى الهند بطريق يدور حول أفريقيا، فوصل إلى رأس الرجاء الصالح، ثم استمر فى السير صعدا على الشاطئ الشرقى لأفريقيا إلى «سوفالا» Sofala، ومنها إلى

«موزمبيق»، ثم إلى «ماليندى»، ومنها إلى الهند قرب قاليقوط -Calic out فى مـايو ١٤٩٨م. وبذلك أصبح البرتغاليون على أبواب استعمار أكبر قارتين فى العالم.

كانت قاليقوط هى المركز الأساسى لتجارة التوابل، ولم يكن ذلك قاصرا على الفلفل وحب الهان، ومنتجات أخرى من ساحل مالابار Malabar، بل إن توابل منقولة من جزر المحيط الهادى كانت تمر بقاليقوط فى طريقها إلى أوروبا. ولما كانت البيوت الكبرى التى تهتم بتلك التجارة بيوتا عربية إسلامية، فقد فوجئ البرتغاليون مفاجأة غير سارة. فإن مرسوم البابا نيقولاس الخامس السالف الذكر، كان الأصل فى صدوره افتراض البابا أن سكان الهند هم من المسيحيين.

وعلى كل حال، فقد أدرك البرتغاليون أنهم قد التقوا فى المحيط الهندى ايضا وجها لوجه مع أعدائهم الألداء العرب المسلمين، وأنهم إذا لم يبذلوا جهدا متواصلا، فلن تعود عليهم اكتشافاتهم للطريق البحرى إلى الهند بأية فائدة. وقد اتجهت همتهم بعد ذلك إلى أمرين:

الأول : القضاء على العرب المسلمين فى هذه البحار.

الثانى : إتمام الكشف والفتح.

ففى مارس سنة ١٥٠٠م أقلعت حملة كبيرة من قادش بقيادة كبرال Alvarez Cabral ـ إلى قاليقوط ومعه أوامر بمطالبة

«الزامورين» حاكم قاليقوط بالإذن للبرتغاليين بإنشاء مركز تجارى، والسماح لخمسة من الآباء الفرنسيسكان بالتبشير بدين المسيح.

لكن الحملة وصلت إلى البرازيل جنوبا بوجه المصادفة، وذلك عندما أراد كابرال أن يتجنب خليج غانة، فاتجه إلى الجنوب الغربى.

ونتيجة لذلك أرسل الملك عمانويل لكشف هذه البلاد الجديدة «أمريجو فسبوتشى» Amerigo Vispucci.

وأما كابرال، فقد استأنف رحلته حول أفريقية، ووصل إلى قاليقوط فى أغسطس سنة ١٥٠٠م بست سفن من ٣٣ سفينة، ووقع نزاع بين جنوده وبين الأهالى، فقامت ثورة شعبية أفقدته خمسين رجلا، فضرب المدينة بمدافعه، وانسحب إلى بلاده.

ثم أرسل عمانويل حملة أخرى بقيادة فاسكو دا جاما للاقتصاص، وذلك في فبراير ١٥٠٢م، وفى الطريق أخذ دا جاما يطبق بالقوة ادعاء مولاه أنه سيد الملاحة ومولاها. فقد اعتبر عمانويل سيادة بحار الهند من حقه وحده، فهو الذى يحتكر التجارة بها ولا يجوز الملاحة فيها دون إذنه. ومعنى ذلك ضرورة الاستيلاء على جميع الموانئ الرئيسية فى البحار. لذلك كان دا جاما يقطع الطريق دون أى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه، ويدمرها.

وبلغت أنباء هذه القرصنة الهمجية أسماع «الزامورين» قبل أن تظهر سفن داجاما أمام الساحل، فاستعد لها، وأمكنه فى الاشتباك الذى دار خارج مياه «كوتشين» Cochin الإحاطة بها، فانسحب داجاما بسفنه إلى البرتغال.

ولكنه لم يكد يغادر المحيط الهندى، حتى أقبل إلى مياه قاليقوط أسطول آخر من أربع عشرة سفينة برتغالية، وأمكنه مهاجمة الأسطول الهندى، وتدمير جزء كبير منه. وعندئذ أدرك الزامورين أن سفنه لم تعد متكافئة مع مراكب «الكارڤيل» البرتغالية الثقيلة التسليح، فطلب مساعدة سلطان مصر، وعندئذ تقدم إلى بحر العرب أسطول مصرى مجهز بأحدث الأسلحة بقيادة «مير حسين».

وقد تلخصت خطة مير حسين العسكرية الاستراتيجية فى الوصول إلى جزيرة «ديو» Diu الشمال لاتخاذها قاعدة له، على أن تنضم اليه سفن «الزامورين» لمهاجمة البرتغاليين فى الجنوب. وعندئذ تقدم الأسطول البرتغالى بقيادة «لورنسو دالميدا d'Almeida ابن نائب الملك» نحو الشمال من قاعدته فى «كوتشين» لملاقاة الأسطول المصرى ـ الهندى، حيث دارت معركة قتل فيها «دالميدا» وعندئذ أطلت الكارثة على البرتغاليين، وأحسوا أن عدوا يكافئهم فى العتاد ويفوقهم فى المهارة البحرية قد برز لهم فى المياه الهندية، وأوشكت احلامهم أن تتحول إلى كابوس.

ولكن نائب الملك «الدون فرانسيسكو داليدا» استجمع شجاعته وجمع كل ما أمكنه من سفن وجند، وانطلق شمالا حتى بلغ «ديو» فى فبراير سنة ١٥٠٩م، ووقف ينتظر الأسطول المصرى. وهنا ساعدته الخيانة، فإن حاكم «ديو» انضم سرا إلى البرتغاليين، وحرم مير حسين من المدد والمؤن. ومرة أخرى لم تكن لذلك الاشتباك نتيجة حاسمة، ولكن الأسطول المصرى أسخطته الخيانة، فانسحب من المياه الهندية فى سنة ١٥٠٩م.

وبرحيل الأسطول المصرى، يمكن القول إن البرتغاليين قد ثبتوا ادعاءهم بأنهم سادة الملاحة فى البحار الشرقية. فمع أن قوة الزامورين لم تهزم، واستطاعت «قاليقوط» لمدة ٩٠ سنة تالية أن تتحدى سلطة البرتغاليين بمنطقة «مالابار» الساحلية، وخاضت معهم عدة معارك بنجاح إلا أن البرتغاليين أسسوا لأنفسهم فى أعالى البحار سيادة لا ينازعهم فيها منازع، جعلت تجارة البحار الهندية تحت رحمتهم مدة تزيد على قرن ونصف من الزمان. وكان الرجل الذى نظم هذه الامبراطورية البحرية وحملها بالفعل إلى المحيط الهادى نفسه، هو «ألبوكيرك» Albuquerque مشيد السيطرة البرتغالية.

كانت قلعة «كوتشين»، القائمة على جزيرة صغيرة، هى المستعمرة البرتغالية الوحيدة إلى ذلك الحين. وقد قرر «ألبوكيرك» أنها غير صالحة لمآربه. فوجه همه إلى «قاليقوط» وأرسل الملك

عمانويل شخصية رفيعة المقام هو «الدون فرناندو كوتينو»، المارشال الأعظم. على رأس حملة من أسطولين، الأول بقيادة المارشال الأعظم، والثانية بقيادة الحاكم البوكيرك، وأفلح الجند فى النزول إلى البر، ولكن الالتحام الذى حدث تمزقت فيه قوات البرتغاليين إربا، ولقى المارشال الأعظم مصرعه، وجرح البوكيرك نفسه.

وكان لهزيمة البرتغاليين تحت إمرة أعظم قوادهم عواقب بعيدة المدى، اذ لم يحاول بعد ذلك شعب أوروبى واحد لمدة مائتين وثلاثين عاما، أن يقوم بفتح عسكرى، أو يحاول إخضاع أى حاكم هندى. صحيح أن «جوا» Goa احتلت فعلا وحولت إلى قاعدة عظيمة، ولكن ذلك تم بمساعدة الهندوس الذين انحازوا إلى البرتغاليين لكى يضعفوا من قوة السلاطين الهنود المسلمين.

ففى ذلك الحين وحد العداء للإسلام بين الإمبراطورية الهندوكية والسلطات البرتغالية، الأمر الذى يفسر بقاء البرتغاليين «بجوا» بقوة عسكرية لا تذكر. وعلى ذلك فإن فتح جوا لم يؤد إلى تثبيت قدم البرتغاليين كقوة برية ببلاد الهند، بل أدى فقط إلى إنشاء مكان مناسب للعمليات الحربية فى المحيط الهندى.

وعلى كل حال، فقد قامت خطة «ألبوكيرك» على ضرورة السيطرة على بلاد الهند باحتلال المنافذ البحرية الموصلة إليها، أى احتلال مدخل البحر الأحمر من جهة، ومدخل الخليج الفارسى من

جهة أخرى. فاستولى على «سقطرى» Socotra مفتاح باب المندب، وحولها إلى قاعدة بحرية للتحكم فى مياه البحر الأحمر. ثم استولى على هرمز (سنة ١٥٠٧) فى الخليج العربى، وأرسل بعثه إلى ملك أثيوبيا.

وبعد أن سوى شئون البحر العربى، التفت إلى منطقة الملايو والحيط الهادى، لقطع الطريق على التجار العرب الذين كانوا يحملون شطرا ضخما من تجارة التوابل من الجزر الأندونيسية، بعد عبورها مضيق مَلَقًا Malacca، إلى موانى البحر الأحمر.

وكانت مَلَقًا فى ذلك الحين ميناء دوليا عظيما، ومفتاحا للمحيط الهادى، وهمزة وصل بين الصين والأقطار المجاورة جنوب آسيا وجنوبها الشرقى. فتوجه ألبوكيرك بأسطول كبير أقلع به من «كوتشين» ووصل أمام ملقا فى سنة ١٥١١م، وأحرق السفن التجارية التى يملكها العرب فى الميناء، وتم الهجوم على ملقًا يوم عيد القديس جيمس الذى يظل برعايته الجيش البرتغالى، بعد أن أكد «ألبوكيرك» لجنوده على «الخدمة العظيمة التى سنقدمها للرب بطردنا العرب من هذه البلاد، وباطفائنا شعلة شيعة محمد، بحيث لا يندلع لها هنا لهيب بعد ذلك»!

وبعد أن ذكر هذه الخدمة للرب، عقب على ذلك بخدمة مصالح البورجوازية! فقال: «وإنى لعلى يقين من أننا لو انتزعنا تجارة ملقًا هذه من أيديهم (المسلمين)، لأصبحت كل من القاهرة

ومكة أثرا بعد عين، ولامتنعت على البندقية كل تجارة التوابل مالم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها هناك».

وسقطت المدينة، وانتهبت، وبيع المسلمون الذين نجوا من السيف بيع الرقيق. وعندما أرسل حاكم «جاوة» أسطولا إلى مياه «ملقا» لمساعدة سلطان ملقا المخلوع، شتتت مدافع سفن البرتغاليين شمله.

وبهذا النصر أسس البرتغاليون سيادتهم البحرية على بحار جاوه. ومنذ تلك اللحظة صار فى استطاعتهم تأليب الحكام بعضهم على بعض فى الحروب الدينية التى كانت منتشرة آنذاك بجزيرة جاوة. ولكنهم لم يحرزوا أى تقدم يعتد به حتى دخلت الميناء – من الشرق – سفينة أوروبية فى ربيع سنة ١٥٢١م هى: «فكتوريا» سفينة ماجلان التى عبرت المحيط الهادى من أمريكا، وانزعج البرتغاليون لمقدمها فسارعوا إلى تثبيت مركزهم السياسى بعقد المعاهدات مع القواد المحليين.

وبتقدم البرتغاليين البطىء فى الجزر واحدة بعد أخرى، وظهورهم أمام الساحل الصينى، انتهت الفترة الأولى لتفوق البرتغاليين بالمياه الآسيوية، وصار احتكارهم لتجارة التوابل راسخا وطيدا.

ويهمنا عند هذه المرحلة أن نوضح نتائج هذا التوسع البرتغالى فى آسيا. لقد كان العمل الرئيسى الذى قاموا به هو

إجلاء التجار العرب من البحر، والقضاء الفعلى على الاحتكار الذى ظلوا يستمتعون به أمدا طويلا. ولم يكن فى ذلك شئ لا يرحب به الهندوكيون.

ولذلك لانعدو الصواب إذا قلنا إن البرتغاليين لم يجدوا عداوة فى بلاطات الحكام الهندوكيين إلا بقاليقوط، التى تعتبر حالة خاصة لأنها كانت الدولة البحرية الضخمة الوحيدة على الساحل، وكانت مدعيات البرتغاليين فى السيادة على البحر لاتتفق مع سيادتها، فضلا عن أن رفاهية قاليقوط ظلت مدة تتجاوز أربعمائة عام مرتبطة بنشاط تجار التوابل العرب. ومن ذلك نستطيع أن نفهم دوافع عداء الزاموريين.

النقطة الثانية، أن البرتغاليين بعد إحدى الهزائم الحاسمة التى منوا بها فى قاليقوط، جردوا أنفسهم فيما يبدو من كل أطماع كانت تخامرهم نحو امتلاك الأراضى ببلاد الهند الأصلية. فإن محصلة الأملاك التى امتلكوها هناك لاتعدو جزيرتى «ديو» و «بومباى» ومراكز تجارية بأماكن مختلفة على الشاطئ. فضلا عن «جوا» مقر نائب الملك، وقلعة «كوتشين». وفى الفترة التالية، وطدوا سلطانهم على الخطوط الساحلية بسيلان، ومدوا آفاق تجارتهم فى جزر أندونيسيا، وأسسوا شيئا من العلاقة مع الصين واليابان.

ثالثا، منذ أن استتب الأمر للبرتغاليين، عكفوا فى الفترة التالية على استنزاف أقصى ما يستطيعون استنزافه من المنافع من

احتكارهم التجارى، فقد ظلت سفنهم ستين عاما تعود فى كل آن - إلى البرتغال محملة بتوابل الشرق وجواهره وحريره.

على أن انتشار المذهب البروتستنتى فى أوروبا كانت له نتائج مؤثرة على الاستعمار البرتغالى. فان ذلك الانتشار أبطل، فيما يتعلق بالأمم البروتستنتية، منحة البابا للبرتغال باحتكار التجارة بالشرق. كما تغير ميزان القوى فى أوروبا رويدا رويدا. فبعد هزيمة الأرمادا التى ظن أنها لا تقهر، وتشتيت شملها، صار فى إمكان دول أوروبا البحرية اقتحام المياه الهندية، كما أن مركز تجارة التوابل أخذ ينتقل من لشبونة إلى الموانى العظيمة بالأراضى المنخفضة فى أثناء القرن السادس عشر، حيث كان الاقبال على التوابل أعظم فى مناطق أوروبا الشمالية. وفى الواقع أن أهمية لشبونة كانت ترجع بصفة رئيسية إلى أنها المستودع لتلك البضائع الضرورية.

ولكن التجارة فى أوروبا كانت بأيدى تجار «انتورب» -ANT WERP التى كانت منذ البداية مركزا لتلك التجارة. فنلاحظ أن هؤلاء التجار عندما أدركوا الانقلاب الهائل الذى أحدثته الاستكشافات الجغرافية بالتجارة، سارعوا إلى مد الحكومة البرتغالية بالعون المالى لإتمام هذه الكشوف. فيقال إن آل «ويسلر» قد أسهموا فى نفقات البعثات البرتغالية التى تمت فى ١٥٠٥م، ووجدت الحكومة البرتغالية أن الضرورة تقضى عليها منذ سنة ١٥٠٣م أن تفتح مستودعا للتوابل بمدينة «أنتورب».

وإلى خطة التعزيز المتواصل هذه من جانب تجار انتورب للملك عمانويل، يجب أن ينسب النجاح الذى أحرزته الأساطيل البرتغالية بالبحار الشرقية.

على أن التجار الهولنديين لم يلبثوا أن أخذوا يتمردون على أسعار الاحتكار التى كان يطلبها البرتغاليون، خاصة بعد أن اتضح لهم أن تحدى قوة البرتغاليين فى البحار الشرقية كان من السهولة بمكان.

وفى سنة ١٥٩٢م عقد كبار التجار الهولنديين بأمستردام اجتماعا قرروا فيه إنشاء شركة الهند الشرقية المتحدة-The East India Company of the United Netherlands، وبدأ بذلك دور الاستعمار الهولندى.

على كل حال، ففى الوقت الذى كان البرتغاليون يمدون إمبراطوريتهم فى آسيا على النحو الذى مر بنا، كانوا يفعلون نفس الشىء فى أفريقيا مع بعض الاختلاف، وهو ما نوضحه فى الآتى.

بدأ النشاط الاستعمارى البرتغالى فى غرب أفريقيا حين تأسست بتشجيع هنرى الملاح شركة برتغالية للتجارة فى العبيد والذهب على ساحل غانة. وفى عام ١٤٦٩م بعد أن أصبحت تجارة غانة موردا مهماً من موارد الحكومة، منحت أحد البرتغاليين واسمه GOMES حق مزاولة التجارة فى هذه البلاد مدة خمس سنوات، مقابل ضريبة يدفعها للحكومة، ومقابل اكتشاف جزء من الشاطئ الأفريقى لا يقل عن مائة فرسخ (الفرسخ ثلاثة أميال).

وفي عـام ١٤٨٢م قـام البـرتغـاليـون ببناء قلعـة على سـاحل الذهب لحماية تجارتهم، وعرف هذا المركز الاستراتيجى المهم باسم «سـاو جورج دامينا» Sao Jorge da Mina.

وفى نفس العـام الذى تم فـيـه بناء هذا المركـز، وفى العـام التـالى، وصـل دييـجـو كـام إلى مـصب نهـر الكونغـو. وقـد سـجلت الوثائق البـرتغالية أن ملك الكونغو رحب بهؤلاء البرتغـاليين الأوائل، وأمر شعبه باعتناق المسيحية ففعلوا.

(ولم يكن ذلك غـريبـا، فقـد فـعل المجر ذلك فى القـرن التـاسـع عندما استوطنوا ضفاف الدانوب قادمين من الشرق)

ومع الكونغـو انتـقل النفـوذ البـرتغـالى إلى أنجـولا. وكـان البـرتغاليون قد اكتشـفوا سـاحل أنجولا سنة ١٤٩٠م، ولكنهم لم يسـتـقروا بهـا إلا بعد ٦٠ عـامـا، أى فى عام ١٥٤٧م، بناء على طلب الرئيس المحلى.

على أنهم بعد أن اضطروا إلى التورط فى عديد من النزاعات القبليـة التى لم يسـتفيدوا منهـا شيئـا، عـادوا فقرروا العمل بصـفة مستقلة دون الارتباط بأى رياسة محلية.

وعلى ذلك عـادت القوة البـرتغاليـة المتبـقية إلى بلادها. وفى سنة ١٥٧٤ وتنفيذا للسـياسـة الجـديدة، أرسلت حملة جديدة بقيادة باولو دياز Paulo Diaz، الذى كان على رأس الحـملة السـابقة، فعاد الآن بوصـفه فاتحـا للمنـاطق الأفـريقيـة وحـاكمـا عليـهـا، ومـعـه ٧٠٠ جندى. وقد احتل جزيرة صـغيرة أمـام الخليج المسـمى الآن «سـاو

باولو دى لواندا»، ثم بنى على الساحل الأفريقى قلعة، وأسس مدينة «ساو باولو» Sao Paulo التى أصبحت فيما بعد عاصمة الممتلكات البرتغالية فى غرب أفريقية. ولم تأت السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، حتى نجح البرتغاليون فى مد سيطرتهم على مناطق واسعة.

على أن هذا الوجود البرتغالى فى أنجولا لم يلبث أن تعرض لخطرين فى خلال النصف الأول من القرن السابع عشر:

الخطر الأول : ثورة زعماء القبائل بقيادة امرأة تنتمى للأسرة الحاكمة فى الكونغو تدعى «جينا باندى» Gina Bandi، واستمرت هذه المرأة تقاوم البرتغاليين لمدة ثلاثين سنة، حتى استطاعت أن تطردهم من عديد من المراكز التى كانوا قد أسسوها.

أما الخطر الثانى: فهو من جانب القوة البحرية الجديدة فى أوروبا التى رفضت احتكار البرتغاليين لمكاسب ما وراء البحار، وهى قوة الهولنديين. فقد حاول هؤلاء السيطرة على أنجولا، واستطاعوا احتلال ساو باولو بالفعل سنة ١٦٤١م.

على أن البرتغاليين لم يلبثوا أن عادوا فتمكنوا من طرد الهولنديين. وأعقب ذلك امتداد نفوذهم فى أنجولا، حتى إذا كان عام ١٧٥٨م، استطاعوا مد نفوذهم شمالا من ساو باولو، وفى الجنوب منها حتى خط عرض ١٥، مما خلق أخيرا مستعمرة البرتغال الكبرى فى غرب القارة والمعروفة باسم أنجولا.

أما على ساحل غينيا، فإن مركز البرتغاليين قد تزعزع. فإن القلاع التى بنوها على ساحل الذهب لم يسيطروا عليها طويلا، إذ انتزعها منهم الهولنديون فى بداية القرن السابع عشر، وانحصرت سيطرتهم على المنطقة الممتدة بين «جامبيا» و «سيراليون»، والتى عرفت باسم غينيا البرتغالية، واتخذ البرتغاليون الإجراءات الكفيلة بتحويل مراكزهم المتناثرة فى هذه المنطقة إلى منطقة سيطرة فعلية.

هذا فيما يختص بالاستعمار البرتغالى فى غرب أفريقيا. أما فى شرق أفريقيا، فقد أدت الرغبة فى إقامة محطات فى الطريق إلى الهند إلى استيلاء البرتغاليين على جملة مراكز على الساحل الشرقى لأفريقية. وبطبيعة الحال فقد لقوا فى هذا الشأن متاعب أكبر نظرا لسيطرة العرب على أغلب هذه المراكز، ولكن المدافع الحديثة كانت لها الكلمة الأخيرة.

. وعلى هذا النحو لم تأت سنة ١٥٢٠م حتى كان البرتغاليون قد استولوا على «كلوة» Kilwa، و «زنزبار» Zanzibar، و«مومباسا» Mombasa، و «مالندى» Malindi، و«مقديشيو»، Mag-adiscio «بمبا» Pemba. بل كل مايقع شمال نهر «روفوما» Rovuma ولكنهم لم يحتلوا موزمبيق إلا فى سنة ١٥٣٠م، وأنشئوا بها حصوناً حربية، ثم تحولوا إلى سوفالا.

وكانت سوفالا Sofala ثغرا عربيا ومركزا لسلطنة ظلت لخمسمائة عام أهم مراكز شرق أفريقيا، بسبب وجود الذهب فى

مناجم «مونوموتابا» فى روديسيا الجنوبية. وكان ذهبها يحمل إلى البحر الأحمر والخليج الفارسى. وسمى هذا المركز سوفالا، ولكن أهمية موزمبيق تقدمت حتى أعطت اسمها للمنطقة كلها.

وفى سنة ١٥٤٤م أسس البرتغاليون مركزا لهم فى «كيليمانى» Quelimane وهناك سمعوا عن مملكة مونوموتابا، وما فيها من ذهب وفير، فعولوا على الدخول إليها عن طريق نهر «زمبيزى» Zambezi، لأنهم وجدوا الوصول إليها عن طريق سوفالا مستحيلا بسبب عداء الأهالى، وجهزت لذلك حملة سنة ١٥٦٩م، ولكن الذباب أخذ يفتك بخيولها، كما أرغمتها هجمات الأهالى على العودة بعد أن أبيد معظمها.

ولم تلبث أن تحالفت ثورات القوى الوطنية مع المحاولات العربية لاستعادة النفوذ العربى، مع منافسة القوى الاستعمارية الأخرى، على حصر النفوذ البرتغالى على الساحل، وتحطيم السيطرة البرتغالية فى شرق أفريقيا فى النهاية.

فقد قاومت القبائل المحلية التغلغل البرتغالى إلى الداخل فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس عشر. وفى نهاية هذا القرن تحولت هذه المقاومة إلى ثورات انتشرت فى أغلب مناطق السيطرة البرتغالية. وكان أقواها تلك التى قادها «ماكوا» Makua فى منتصف القرن الثامن عشر، وأجبرت البرتغاليين على إخلاء قلاع بلاد مناجم الذهب فى أعالى الزمبيزى، وسقوط القلاع المواجهة لموزمبيق فى أيدى الثوار.

ومن ناحية أخرى، فقد ظهر الهولنديون، الذين كانوا قد بدءوا نشاطهم فى المياه الهندية منذ سنة ١٦٠٩م، وهاجموا موزمبيق، الأمر الذى دفع البرتغاليين إلى فصل أملاكهم الأفريقية عن إمبراطورية الهند، وتعيين حاكم عام عليها.

ولم يلبث البريطانيون أن ظهروا فى المياه الهندية سنة ١٦٤٩، وتبعهم الهولنديون الذين أسسوا مستعمرة جنوب أفريقية. كما ظهر الفرنسيون فى مدغشقر. فى حين استولى العرب على أملاك البرتغاليين فى مسقط، ثم أخذوا فى مهاجمة هذه الأملاك على ساحل زنزبار، وأخذت هذه الهجمات تشتد خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر.

حتى اذا كانت سنة ١٦٩٨م، كان البرتغاليون قد فقدوا كل قلاعهم شمال موزمبيق، حتى كادت تسقط موزمبيق نفسها، ولم يبق فى يد البرتغاليين على الساحل الزنزبارى سوى «ممباسة»، التى أخليت بدورها سنة ١٧٣٠م بمقتضى اتفاق مع إمام مسقط الذى أسس دولة زنزبار الحديثة.

وهكذا تقلص النفوذ البرتغالى فى شرق أفريقيا، وأصبح محصورا فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم مستعمرة موزمبيق البرتغالية، التى تحددت بنهر «روفوما» فى الشمال وبحيرة «نياسا» فى الغرب و «سوازى لاند» فى الجنوب.

ويهمنا هنا أن نوضح نتائج الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا:

أولاً : لم يزد هذا الاستعمار فى الحقيقة على نقط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل، ولم يمتد أبدا على مساحات واسعة من اليابس. وكان نمطه أقرب ما يكون إلى نوع الاستعمار الاغريقى، فيما عدا انه لم يعرف الاستعمار السكنى. وفى الحقيقة انه لم يكن لدى البرتغال - حتى لو أرادت - المقدرة على الاستعمار السكنى، لسبب بسيط هو أن عدد سكانها فى عصرها البطولى هذا لم يكن يزيد على المليون نسمة. لذلك ظل الاستعمار البرتغالى استعمارا تجاريا بالدرجة الأولى، فهو فى آسيا استعمار التوابل، وهو فى أفريقيا استعمار الذهب والعبيد.

ثانياً : كان الغرض من إقامة المراكز العسكرية على السواحل فى أفريقيا، الاتجار بالعبيد. فقد كانت هذه المراكز التجارية مجمعا للعبيد الذين يجلبون من مختلف الأجزاء الداخلية، ريثما تصل المراكب لتحملهم إلى البلاد التى تطلبهم. وكانت الأمريكتان أكبر عميل لهم. وقد اعتمد هؤلاء التجار البرتغاليون على زعماء القبائل الموجودة فى الداخل، فعقدوا معهم الاتفاقات لتموينهم بالعبيد، أو مساعدتهم للإغارة على أعدائهم واصطياد العبيد منهم. وكانت هذه المراكز التجارية تحرس بواسطة الجندى البرتغالى.

ثالثاً: على الرغم من أن أفريقيا كانت تعرف الرق منذ قرون سابقة، فإن اشتراك البرتغاليين فيه على نطاق واسع، فضلا عن

استغلالهم الخلافات المحلية بين القبائل، قد أدى إلى دمار المجتمعات الأفريقية، فانتشر البؤس والخراب، ودفعت المجاعات والانحلال الخلقى الناس إلى اتباع عادة أكل لحوم البشر، الأمر الذى تجمع المصادر على أنه لم يكن أبدا من مظاهر النظام القبلى الأفريقى أو عاداتهم القبلية.

رابعاً: ركز البرتغاليون همهم فى جمع الرقيق، ولم يتحولوا إلى العاج أو النحاس إلا فيما بعد. ولكن هذه المعادن لم تكن وفيرة، فظلت تجارة العبيد تجارتهم الرئيسية، فقد كان الطلب عليها لاينتهى، للعمل فى المناجم ومزارع قصب السكر فى جزر الهند الغربية وجيانا البرتغالية فى أمريكا الجنوبية.

وقد سجلت الوثائق أن عدد العبيد الذى صدر من سنة ١٤٨٦م إلى سنة ١٦٤١م كان يصل إلى ٩ آلاف كل عام، ثم زاد بعد ذلك حتى وصل فى القرن الثامن عشر إلى ٢٥ ألفًا كل عام، ثم إلى ٣٠ ألفًا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر.

خامساً: تشهد الوثائق أيضا بأن هؤلاء العبيد كانوا فى مستوى اجتماعى واقتصادى أعلى من الهنود الحمر، بل لعله كان من بعض النواحى أعلى من المستعمرين البيض.

وكان الدور الذى لعبه هؤلاء العبيد فى خلق البرازيل عظيما، على الرغم من الظروف السيئة التى عاشوا فيها، فقد كان هذا

الدور أعظم بكثير من دور الوطنيين، بل أعظم من دور البرتغاليين أنفسهم، اذ كانوا اليد اليمنى التى اعتمدوا عليها فى خلق المجتمع الزراعى فى البرازيل، فى حين كان الهنود بل البرتغاليون اليد اليسرى. فضلا عن ذلك، فقد كانوا السبب فى إدخال زراعة الكاكاو والفلفل والدخان والأرز هناك.

سادساً : على الرغم من الصبغة الدينية التى اتسمت بها أعمال الاستعمار البرتغالى، وعلى الرغم من دور البابا نيقولاس فى تشجيع الاستكشافات، وتحديده مناطق التوسع بين البرتغال وأسبانيا ببركته الأبوية فى معاهدة «توردوسيلاس Tordosellas»، فإن الكنيسة لم تتدخل فى تجارة العبيد الهمجية، قانعة بالأسلاب، وكل ما كانت تطلبه هو تعميد العبيد المرسلين إلى الأمريكتين أولا، حتى يتيسر إنقاذ أرواحهم!

هذا على كل حال فيما يتصل بالاستعمار البرتغالى فى آسيا وأفريقيا، أما ما يتصل بالاستعمار البرتغالى فى أمريكا اللاتينية، فهو يختلف من جميع الوجوه عن استعمار آسيا وأفريقيا. فاستعمار آسيا وأفريقيا، كما رأينا، هو استعمار بحرى ساحلى يقوم على التجارة، ويرجع السبب فى ذلك إلى كثافة السكان فى العالم القديم. أما بالنسبة لاستعمار البرازيل، فهو استعمار قارى استيطانى أساسه الزراعة.

وقد رأينا كيف أن كبرال البرتغالى قد تمكن من كشف البرازيل مصادفة وهو فى طريقه إلى الهند، فصارت تلك البلاد من

نصيب البرتغال تبعا لمعاهدة «توردوسيلاس» بين البرتغال وأسبانيا سنة ١٤٩٤م ،التى تقرر فيها أن تكون كل الأراضى التى تكتشف شرق خط يبعد عن الرأس الأخضر ب ٢٧٠ فرسخا (الفرسخ ثلاثة أميال) من نصيب البرتغال، وأما التى تقع غربه، فتكون من نصيب أسبانيا (وكان الاتفاق السابق فى سنة ١٤٩٢م ينص على ١٠٠ فرسخ فقط).

وفى السنة التالية لكشف كابرال البرازيل، أرسلت البرتغال أمريجو فسبوتشى Amerigo Vispucci، وهو فلورنسى ترك خدمة الأسبان ودخل خدمة البرتغال، إلى البرازيل، فتمكن من السير بجوار ساحل البرازيل من رأس «سانت روك» إلى «ريودى جانيرو»، ثم إلى نهر «لابلاتا»، وكتب إلى صديق له فى فلورنسا رسالة بعد عودته إلى «لشبونة» تكلم فيها عن العثور على عالم جديد. ولذلك اطلق اسمه على القارة.

وقد ظلت البرازيل فى البداية، أى بعد اكتشافها على يد أمريجو فسبوتشى، مجرد نقطة تموين للبرتغاليين فى الطريق إلى الهند لا أكثر، فقد كان لديهم عمل آخر يعود بربح أكبر هو تجارة الشرق. ولذلك مضى وقت طويل قبل أن تُضم البرازيل إلى مجال مشروعات البرتغال فيما وراء البحار، خصوصا عندما أخذت تفقد إمبراطوريتها فى الشرق.

على أن البلاد لم يكن بها ثروة الا الزراعة المدارية التى تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة وابعاديات واسعة. وفى الوقت نفسه لم

يكن هناك عـدد مـتـوفـر من البـرتـغـاليين كـافـيـا لفـتح البـلاد واستعمارها. فقد كان عدد سكان البرتغال لا يزيد على مليون - كما ذكرنا - كما أن المغامرات الشرقية استنفدت عدداً كبيراً من سكانها، ولذلك كان عليها أن تبحث عن موارد أخرى من الأيدى العاملة. غير أنه لما كان الهنود الحمر لا يصلحون، لعدم ميلهم للعمل المنظم، فمن هنا بدأ جلب الرقيق الأفريقى بأعداد ضخمة، حتى تضاءل إلى جوارهم عدد البرتغاليين كثيرا.

وبالاختلاط المفرط بين دم البرتغاليين أنفسهم ودم كل من الهنود والزنوج، شارك البرتغاليون فى حل مشكلة السكان فى البرازيل. وعلى هذا النحو تكونت البيئة الاجتماعية للبرازيل.

وقد أدخل البرتغاليون زراعة القصب فى البلاد حتى أصبح فى وقت مبكر أساسا مهما فى اقتصادها، وذلك إلى جانب محصولين ثانويين مهمين، هما: الطباق والقطن.

وعلى الرغم من أن القبائل البرازيلية كانت قبائل مقاتلة، فإنها عجزت عن تكوين جبهة متحدة ضد البرتغاليين، وقد حدث بعض القتال المتقطع، ولكن البرتغاليين الذين جاءوا مستعمرين، تجنبوا العداوات الصريحة ما استطاعوا.

وقد قامت الحياة الاقتصادية فى البرازيل على الأبعاديات (المزارع الكبيرة) التى كان يملكها أفراد الطبقة الأرستقراطية البرتغالية، ويعمل فيها الرقيق، وظلت الزراعة المدارية هى أساس الاستعمار البرتغالى هناك.

(٢) الاستعمار الأسـبانى

كـان اتجـاه أسـبانيـا فـى الكشف الجـغـرافى عكس اتجـاه البرتغـال. لقد كان اتجـاه البرتغال إلى الشرق، أما اتجـاه أسبانيا فكان إلى الغـرب. وكـان الهـدف واحـداً، وهـو الوصـول إلى جـزر التوابل، ولكن فى هذه المرة عن طريق الغرب.

فقد كانت فكرة كريستوفر كولومبس Columbus، وهو إيطالى من جنوة، أنه مـادامت الأرض كروية، فإنه فى الإمكان الوصـول إلى الهند بالسير فى المحيط غربا.

وعلى هـذا النحـو، عندمـا وصـل إلى جـزر «بـهـامـا» Bahama وشـواطئ «كـوبـا» وجـزيرة «هـاييـتـى» Haiti التى أسـمـاهـا «اسبانولا» Espanola، كان يظن أنه قد وصل فعلا إلى طرف العالم الشرقى. بل إنه لم يـعـرف أنه اكتشف عالماً جديدا عندما اكتشف فى رحلاته التالية جزيرة «جمايكا» Jamaica وبعض جزر «الأنتيل» سنة ١٤٩٣م، ثم سـاحـل «فنزويلا» Venezuelaسنة ١٤٩٨م، ثم ساحل «هوندوراس» بأمريكا الوسطى.

وقد قام كولومبوس بأربع رحلات:

الأولى فى أغسطس ١٤٩٢م، وقد وصل - كمـا ذكرنا - إلى جزر بهاما وشواطئ كوبا وجزيرة هاييتى، وعاد إلى أسبانيا فى مارس ١٤٩٣م.

والثانية فى سبتمبر من نفس العام (١٤٩٣م)، وقد اكتشف جمايكا وبعض جزر الأنتيل، وعاد فى يونيه ١٤٩٦م.

والثالثة فى مايو ١٤٩٨م ـ وهى السنة التى وصل فيها ڤاسكو داجاما Da Gama إلى الهند ـ وقد اكتشف ساحل فينزويلا.

والرابعة فى مايو ١٥٠٢م، وقد اكتشف ساحل هندوراس بأمريكا الوسطى.

وقد أعقب رحلات كولومبوس استعمار هذه الجهات من قبل ملكى أسبانيا. فمنذ الرحلة الأولى، حصل الملكان الكاثوليكيان من البابا اسكندر السادس فى عام ١٤٩٢م على حق امتلاك الأراضى التى يتم كشفها، ورسمت القرارات خطا وهميا يمتد شمالا وجنوبا بمقدار مائة فرسخ إلى الغرب من جزر أزور .Azores Is أو «الرأس الأخضر» فلا يجوز تجاوز هذا الخط دون تصريح أسبانيا.

ولما كان هذا الخط يعوق جهود البرتغال فى الكشف فى المحيط الأطلنطى، فقد جرت مفاوضات بينها وبين أسبانيا، وتم الاتفاق فى معاهدة «توردوسيلاس» ـ كما ذكرنا ـ على أن يمتد خط التقسيم إلى ٣٧٠ فرسخا من جزر الرأس الأخضر، بحيث يصبح كل ما يقع شرقه من نصيب البرتغال، وما بقى غربه من نصيب أسبانيا.

وفى السنوات التالية، تمكن المستكشفون الأسبان من اكتشاف واستعمار مناطق أخرى، فتمكن «بنزون» من النزول فى

رأس «سـان أوغـسطين»، في الطرف الشـمـالى من البـرازيل، ثم اكتشف المنطقة الواقعة من تلك النقطة إلى «فنيزويلا» شمالا. كما تمكن «ليون» أحد المستعمرين فى اسبانولا من كشف شبه جزيرة فلوريدا، وكذلك تمكن «بالباو Balbao» من عبور برزخ دارين Darien فى بنما، ورؤية المحيط الذى عرف فيما بعد بالمحيط الهادى، وذلك لأول مرة قبل أن يكتشفه ماجلان.

وفى سـبـتـمـبـر سنة ١٥١٩م أبحـر مـاجـلان Magellan من أسبانيا، ومعه أوامر من الإمبراطور شارل الخامس بالبحث عن الطريق الغربى إلى الهند تمهيدا للوصول إلى «مولوقوس» Mo-loccos (جزر التوابل) والنضال مع البرتغال فى الهند الشرقية.

وقد وصل ماجلان إلى شاطئ البرازيل عند «ريو دى جانيرو» ثم إلى مصب نهر «لابلاتا» La Plata ثم دار حول أمريكا الجنوبية، ثم دخل فى نوفمبر سنة ١٥٢٠م المحيط الذى أسماه بالباسيفيكى. وبلغ «الفليبين» بعد ثلاثة أشهر، أى فى مارس ١٥٢١م، التى أعطيت اسم الملك الأسبانى فيما بعد.

وعندما قتل ماجلان فى معركة مع الوطنيين هناك فى إبريل من نفس السنة، تمكن احد رجاله وهو «سباستيان ديلكانو» Se-bastian del Cano من إتمام الرحلة والوصول إلى أسبانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح فى ٦ سبتمبر سنة ١٥٢٢م، وبذلك تكون قد تمت الرحلة حول الأرض، ومنذ ذلك الحين دخلت الفليبين فلك الإمبراطورية الأسبانية.

وقد كان من أثر نجاح رحلة ماجلان أن صار شارل الخامس يرغب فى دعم ادعاءات أسبانيا فى «المولوقوس» الشرقية ذات الأرباح والإيرادات الوفيرة، وطمع الأسبان بعدذلك فى امتلاك سومطرة، فأرسل الإمبراطور إلى الهند الشرقية حملتين فى ١٥٢٥م، ١٥٢٦م.

ولكن فشل الحملة الأخيرة، بالاضافة إلى زواج الإمبراطور من إيزابيللا شقيقة يوحنا الثالث ملك البرتغال، جعلاه يخصص جهوده للكشف والاستعمار فى العالم الجديد. وبهذا تكونت الإمبراطورية الأسبانية فى أمريكا.

ويمكن القول إن أهم الفتوح الأولى قد تمت على يد أفراد تحملوا نفقات فتوحهم، وبدوافع من أنفسهم أو باسم التاج او بمقتضى مراسيم ملكية، رجاء الحصول على إيرادات الأرض المفتوحة أو منحهم إدارتها وحكمها. وعلى هذا النحو تم فتح المكسيك على يد «كورتيز» Cortes و«جواتيمالا» على يد «ألفارادو»، وبيرو على يد «بيزارو» Pizzaro.

وقد كانت جزر الهند الغربية أول ما وطأ الاسبان. فكانت لصغرها وتفتتها فريسة سهلة لهم. فاستعمروا جزر الانتيل «وكوبا» و «هاييتى» (إسبانولا) و «بويرتوريكو»، ولكنهم وجدوا فى تلك الأماكن مقدارا صغيرا من الذهب، فاستخدموا هذه الجزر كنقطة قفز على القارة. وكانت سانتو دومينجو Santo Domingo فى هاييتى أول مقر للحكومة الاسبانية فى أمريكا اللاتينية.

كانت أكثر فتوح الأسبان الأولى، فى المكسيك، التى سكنتها قبائل «الأزتك» Aztec، ذات الحضارة القديمة فى العصور الوسطى، وكانت حكومتها بالغة مبلغا كبيرا من النظام، كما أن مدنها كانت منظمة لدرجة فاقت بعض المدن الأسبانية. وقد فتحها «كورتيز» بعد أن تغلب على ملك الأزتك «مينتيزوما» Mentezuma بمعاونة بعض القبائل الخاضعة لحكم الأزتك. وأقسم العاهل الهندى وكبار رجاله يمين الولاء لملك قشتالة..

ولكن الحكم الاسبانى الصارم أثار ثورة الازتك على الأسبان ومينتزوما، فاضطر كورتيز إلى الانسحاب سنة ١٥٢٠م بعد خسائر فادحة. ومات مينتيزوما، إما على يد رعاياه أو على يد الأسبان.

ولكن كورتيز أعاد تنظيم قواته، واستطاع بمعونة جيش من الأهالى الأصليين محاصرة عاصمة الأزتيك (تينوشتيتلن) وفتحها. وقد هدمت العاصمة تماما، وأقيمت عليها مدينة مكسيكو Mexico، التى أصبحت مقرا لحكومة ولاية المكسيك الجديدة التى أنشئت فيما بعد.

وعلى كل حال، فقد وطد الأسبان دعائم سيطرتهم على الأراضى المجاورة، وامتدت فتوحاتهم بسرعة، فاستولوا على جواتيمالا Guatemala سنة ١٥٢٣م، والسلفادور Salvador سنة ١٥٢٥م، وهندوراس ونيكاراجوا سنة ١٥٢٤م، كما أسسوا جملة مدن جديدة فى أمريكا الوسطى.

كذلك اتجه الأسبان صوب أمريكا الشمالية فى الوقت الذى كانوا يؤسسون فيه مستعمراتهم فى أمريكا الوسطى والجنوبية، فدخلوا الأقاليم المعروفة الآن باسم الولايات المتحدة الأمريكية. فقد نزل «بونسى دى ليون» فى فلوريدا كما ذكرنا، وحاول عبثا تأسيس مستعمرة بها سنة ١٥٢١م. وسار «دى فاكا» فى إقليم تكساس المطل على الخليج من الشمال الغربى حتى وصل إلى كاليفورنيا.

وفى سنة ١٥٤١م استكشف «دى سوتو» نهر المسيسبى Mississippi. كذلك ذهب «كورنادو» إلى الإقليم المعروف اليوم باسم كنساس Kensas للبحث عن الذهب.

وفى سنة ١٥٦٥م أسس الاسبان أول مستعمرة استيطانية فى سانت أوغسطين St. Augustine فى فلوريدا، وبنوا قلعة كبيرة لحمايتهم من إغارات الهنود عليها وكذا إغارات المغامرين الأوروبيين.

وفى أمريكا الجنوبية، قامت حملات الأسبان من بناما، التى أسسوها عام ١٥١٩م، للتوغل جنوبا فى الأقاليم التى كانت تقطنها شعوب «الاينكا» Inca القديمة التى أسست إمبراطورية كبيرة غنية بمناجم الذهب، والفضة، تشمل هضبة «بيرو» Peru، وكل إقليم شيلى Chile، وجزءا من بوليفيا Bolivia. وقد قاد هذه الحملات بيزارو، وانتصر على الإنكا، واحتل «كوزكو» Cuzco عاصمتهم، وأسس «ليما» Lima التى أصبحت عاصمة بيرو، وانتهب أسلابا كبيرة من الذهب والفضة.

وفى أثناء هذه الفتوحات الأسبانية على يد بيزارو. انتشرت الفتوح الأسبانية فى شيلى، وأسس «دى فالديفيا» سنتياجو San-tiago عام ١٥٤١م. وكان وجود مناجم الفضة جنوب بحيرة تيتيكاكا Titicaca حافزا فى توجيه الأنظار نحو جهات منابع نهرى «الأمازون» Amazon و «الباراجواى» Paraguay، أى فى «بوليفيا» Bolivia وسميت بوليفيا فى بادئ الأمر «بيرو العليا».

وفى سنة ١٥٤٥م اكتشف أحد الهنود الفضة فى جبل بوتوسى Potosi. ثم امتدت سيطرة الأسبان على فينيزويلا، وغرناطة الجديدة (كولومبيا) كما استطاعوا استعمار الأرجنتين، وأسسوا «بوينوس إيرس» Buenos Aires.

على كل حال يهمنا أن نستعرض النتائج الآتية للاستعمار الأسبانى فى أمريكا:

أولا: اختلف هذا الاستعمار عن الاستعمار الاستراتيجى الساحلى البرتغالى فى أفريقيا وآسيا، فى أنه كان استعمارا قاريا استيطانيا، أقرب فى طبيعته إلى الاستعمار الرومانى العسكرى القديم.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا وآسيا قد دخل مناطق مأهولة بالسكان، كثيفة ومدارية، فلم يكن بوسعه أن يكون استعمارا استيطانيا. هذا بالإضافة إلى أن البرتغال – كما ذكرنا – لم يكن لديها القوة البشرية لمثله.

أما في حالة الاستعمار الأسباني، فقد حدث في مناطق مخلخلة قليلة السكان، يصلح كثير منها بحكم ارتفاعه لتوطن البيض. كما أن أسبانيا كانت قوتها البشرية أكبر نسبيا ، ولذلك فقد اتخذ هذا الاستعمار نمطا استيطانيا أخذ يشتد حتى تحول إلى خليط جنسي لم يسبق له مثيل.

ثانياً: إذا كان اتجاه الأسبان في البداية موجها نحو تجارة التوابل، إلا أن هذا الاتجاه قد تغير بعد سيطرة البرتغال على هذه التجارة. فضلا عن طول الطريق الغربي، الذي أثبت فشله تجاريا، لأنه أطول بكثير من طريق البرتغال. هذا إلى جانب فشل الحملة التي أرسلت إلى جزر الهند الشرقية لانتزاعها من يد البرتغاليين. كما أن المناطق التي دخلها الأسبان لم يكن بها توابل أو تجارة تستغل، وإنما كانت توابل هذه المناطق هي المعادن النفيسة، الذهب والفضة.

ولهذا اندفعوا في أمريكا اللاتينية مباشرة إلى المرتفعات الغربية، الغنية جيولوجيا بهذه الثروات، في المكسيك وبيرو. وسرعان ما أخذت السفن الأسبانية تذهب وتعود محملة بالفضة من المستعمرات. وقد ازداد تدفق هذا المعدن على الموانى الأسبانية في عهد فيليب الثاني (١٥٥٦م ـ ١٥٧١م) لاسيما بعد أن اكتشفت مناجم الفضة في «بوتوسي» في بوليفيا سنة ١٥٤٥م.

وقد حاولت أسبانيا في أول الأمر الاحتفاظ بهذا المعدن النفيس داخل بلادها، ولكن عجز المصانع الأسبانية عن سد حاجة

البلاد من المصنوعات، اضطرها إلى شراء حاجتها من ذلك كله من المنطقة الشمالية الغربية الصناعية فى أوروبا.

وانتهى الأمر بأن أصبحت أسبانيا هى القناة التى تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا، ومن هذا الحين بدأ عصر الفضة فى أوروبا، وبقى هذا المعين خلال الخمسين سنة التالية يسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها.

أما بالنسبة لجزر الهند الغربية وشرق القارة وشيلى، حيث لم تكن بها ثروة الا الزراعة المدارية، فقد تطلب الامر الاستعانة بالأيدى العاملة.

ولما كانت الحروب والأمراض والاسترقاق قد قضت على العدد الكبير من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، فقد اجتلب الاسبان الرقيق الأسود من أفريقيا منذ سنة ١٥٠١م، لفلاحة الأرض والعمل فى المناجم.

وقد عمد الأسبان إلى تقسيم الأراضى إلى إقطاعيات وزعت بين الأسبان، وإرغام الهنود والرقيق الذين يعيشون عليها على العمل فيها دون أجر، وتسمى هذه الإقطاعيات الموزعة بما عليها من أيد عاملة «ريبارتيمينتس إنكوميندوس» Repartimientos Encomiendos. وعلى هذا النحو كانت البيئة الاجتماعية للمستعمرات الأسبانية تتكون من سادة ورقيق.

ثالثاً : اتسمت الفتوح والاستعمار الأسبانى بقسوة بالغة، واستغلال الأهالى استغلالا شائنا لا يعرف الرحمة. وكانت هذه

القسوة محل تنديد شديد من بعض الأسبان أنفسهم ضد مواطنيهم، فكتبوا عن غرائز هؤلاء فى التلذذ بممارسة القسوة مع الأهالى. وعلى رأس هؤلاء المنددين «لاس كاساس» الذى كتب كتابه «تدمير الهنود».

على كل حال، فيتضح مما ذكرناه عن الاستعمار الأسبانى والاستعمار البرتغالى قبله، أنهما قد حدثا فى وقت واحد تقريبا، وهو القرن السادس عشر. لقد خرجت أسبانيا والبرتغال من الوطن، وقد أعطى كل منهما للآخر ظهره، وقد وجدا نفسيهما فى نهاية المطاف وجها لوجه فى الشرق الأقصى: أسبانيا فى الفلبين، والبرتغال فى جزر الهند الشرقية، أى بعكس موقعيهما فى أوروبا، وعلى عكس موقعهما فى أمريكا اللاتينية. وبهذا أغلقت الدائرة الاستعمارية حول محيط الكرة الأرضية.

على أن الإمبراطورية البرتغالية لم تعمر طويلا، بسبب ضعف البرتغال نفسها. فبالإضافة إلى قلة تعداد سكان البرتغال، فإن الفلاحين صاروا يتركون أراضيهم للاشتراك فى الرحلات والحملات والحروب، حتى أهملت الزراعة وكثرت الأراضى البور وعم البؤس غالبية السكان.

وما لبثت مملكة البرتغال أن انتقلت بالوراثة إلى التاج الأسبانى عام ١٥٨٠م، بعد أن مات ملكها دون وريث، مما أدى إلى إهمال الإمبراطورية البرتغالية، لأن فيليب لم يهتم بها. وسرعان ما اهتبلت هولندا ـ القوة البحرية الصاعدة ـ فرصة تحطيم البرتغال على يد أسبانيا لترث دورها وتجارتها، بل ومستعمراتها.

(٣) الاستعمار الهولندى

إذا كان القرن السادس عشر هو قرن البرتغال وأسبانيا، فإن القرن السابع عشر هو قرن هولندا. وكانت الأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) خاضعة لأسبانيا، وفى العقد الأول من القرن السابع عشر استطاعت هولندا أن تنتزع استقلالها من أسبانيا فى حروب الإصلاح الدينى، فى حين ظلت بلجيكا أسبانية.

ومنذ ذلك الحين بدأت تجارة التوابل والشرق تنصب فى هولندا التى ورثت دور البرتغال بمثل ما ورثت أنتورب دور لشبونة، فصارت أكبر مركز تجارى فى أوروبا. وفى الحقيقة أن موقع البرتغال (أيبريا بعامة) وإن أعطاها الأسبقية إلى الشرق، إلا أنه لم يكن الأمثل بالنسبة لتجارة الشرق مع أوروبا، لأن أيبريا كانت منعزلة عن القارة وعن مواصلاتها البرية بالحائط الجبلى. أما الأراضى المنخفضة فكانت تقع فى نهاية الشارع الرئيسى للحركة فى قلب أوروبا. وهو «الراين»، الذى كان وحده من بين أنهار غرب القارة متوغلا فى قلبها.

وقد سنحت الفرصة لهولندا لترث الإمبراطورية البرتغالية، حين حطمت أسبانيا قوة البرتغال، ثم تحطمت قوة الأرمادا على يد إنجلترا، فبدأت هولندا انقضاضها على المستعمرات البرتغالية، ولم تزل تختطف من البرتغال مواقعها ومستعمراتها فى الهند والهند

الشرقية واحدا بعد الآخر، حتى تقلصت إلى جيوب صغيرة متخلفة تتمثل فى «داماو» Damao و«جوا» فى الهند، و«تيمور» Timor فى الهند الشرقية.

وفى الطريق إلى الهند أقاموا المستعمرات الساحلية فى ساحل غانة سنة ١٥٩٥م، وكانوا أول من نزل فى «الكاب» Cape بموقعه الحيوى، بعد أن أخطأه البرتغاليون بصورة محيرة وغير مفهومة، وأسسوا مدينة الرأس سنة ١٦٥٢م، ثم بعدها امتلكوا جزيرة «موريشيوس» Mauritius التى أعطوها اسم أميرهم موريس. وأخيرا احتلوا جزيرة «سيلان»، بل احتلوا «فورموزا».

أكثر من هذا، فقد انحدروا من جزر الهند الشرقية جنوبا، حتى كشفوا ساحل شمال استراليا فى بداية القرن السابع عشر، كما كشفوا «تازمانيا» Tasmania و«نيوزيلاندا» (نسبة إلى زيلند بهولندا) فى النصف الأول من نفس القرن. وإن كانت الكشوف الاخيرة لم تؤد إلى دور استعمارى ما.

ولم تقتصر الإمبراطورية الهولندية على العالم القديم، بل أسسوا المستعمرات فى «جيانا» Guiana فى أمريكا الجنوبية، وفى البرازيل رسمت شركة الهند الغربية الهولندية خططا طموحة للحصول على أرض شاسعة ثبتت فيها أقدامها أبديا، فاستولت على «بائيا» Baia سنة ١٦٢٤م، وأخذت «اولندا» وحصنتها فى «ريسيف» Recife – وان اضطروا لمغادرة البلاد سنة ١٦٥٤م.

كذلك امتلكوا نيو أمستردام Nieu Amsterdam (نيويورك فيما بعد). وعدا هذا فقد تسيدوا تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحرى لكل أوروبا، حتى سموا أنفسهم «نقلة البحر».

ويهمنا هنا أن نرسم بعض ملامح الاستعمار الهولندى:

أولاً : قام الاستعمار الهولندى بصفة خاصة على أيدى التجار الهولنديين. فقد رأينا كيف تمرد التجار الهولنديون على أسعار الاحتكار التى كان يطلبها البرتغاليون للتوابل، وكيف قرروا فى سنة ١٥٩٢م بأمستردام انشاء شركة للتجارة مع الهند.

وقد تأسست شركة الهند الشرقية المتحدة بمقتضى مرسوم صدر فى ٢٠ مارس سنة ١٦٠٢م بمنح الشركة، ليس فقط احتكار التجارة، بل وخولها سلطات سيادة عُليا واسعة لعقد المعاهدات والمحالفات، ولفتح ما تشاء من الأراضى، وبناء الحصون، إلى غير ذلك.

وكانت أول محاولة بذلتها الشركة للحلول محل البرتغاليين فى جزر اندونيسيا، التى كانت قبضة البرتغاليين عليها لا تزال ضعيفة. على أن مركز الشركة لم يتوطد تماما إلا بعد فتح جاكرتا واحتلالها فى ٣٠ مايو سنة ١٦١٩ على يد «جان بيترز كوين». وفى سنة ١٦٤١م انتزع «أنطونى فان ديمين»، الذى عين حاكما عام ١٦٣٣م، «ملقا» Malacca مظهر عظمة البرتغاليين فى الشرق.

وفى سنة ١٦٥٤م تمكن «هايدن» من احتلال كولومبو Colombo وإقصاء سلطان البرتغاليين من سيلان. وما لبثت «كوتشين»، مؤسستهم الأولى فى الهند، ان احتلت فى سنة ١٦٦٠م، ثم سقطت المحطات التجارية الأخرى تباعا.

وأخذ الهولنديون يقومون من «كولمبو» بحملة منتظمة للقضاء على كل أثر للبرتغاليين فى تجارة الهند البحرية، وانتقلت تجارة الهند الشرقية فعلا إلى يد الهولنديين، ولم يبق بعد جوا وجزيرتى «أندامان» Andaman و «ديو» الصغيرتين أى أثر لذلك الصرح العظيم الذى اقامه البوكيرك.

ثانياً : على الرغم من أن الشركة حصلت لنفسها على النفوذ الأعلى فى شئون التجارة، فإنها لم تمارس شئون الحكم والسيادة. فقد كان الغرض الأساسى هو التجارة لا الحكم، ولذلك فقد عارض مجلس مديرى الشركة «فان جوين» عندما اقترح تولى الشركة السيادة على جزيرة سيلان، وقال له بصراحة : «إن مثل ذلك العمل قد يكون عمل ملك عظيم وطموح، ولكنه ليس عمل تجار لا يبحثون إلا عن الأرباح».

ومع ذلك، فإن تغييرا أساسيا قد طرأ فيما بعد على هذه السياسة عندما وجد الهولنديون أن الاستغلال أنفع لهم من التجارة. فقد اتبعت الشركة نظام دفع الأموال مقدما على المحصولات إلى المزارعين، فتهيأ لها بذلك أن تنتزع الأراضى من أيدى ملاكها فى جزر «باندا» Banda و «أمبوينا» Amboina و«ملوكا» Moluccas ،، واحتكرت بيع الحبوب لهم باسعار فاحشة، مما حطم اقتصاد هذه البلاد وأذاق الأهلين الفقر.

ثالثاً : ظل الحكم الهولندى فى أندونيسيا حتى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٣م) مقصوراً على إدارة مؤسسات وحصون متناثرة من نقطة مركزية هى «جاكرتا»، التى أطلق عليها اسم «باتافيا» Batavia.

وفى سنة ١٧٤٣م بدأ الهولنديون سياسة الاستيلاء المباشر على الأراضى والتنقيص من الاستقلال السياسى للسلطنات. ففى تلك السنة استولت الشركة على السواحل الشمالية «لجاوة» Java. كما نقلت إلى يدها نهائيا الهيمنة المطلقة على جميع الموانى البحرية. وفى سنة ١٧٥٥م قسمت جاوة إلى خمس دويلات صغيرة، ووضع عليها حكام تابعون، وبذلك تقوى مركز الهولنديين فى جاوة عند حلول سنة ١٧٦٠م.

ولكن اهتمام الشركة ومصلحتها ظلا فى سومطرة والأقاليم الخارجية مقصورين على التجارة وحدها. ولكن لم تنقض سنوات قليلة حتى لم يصبح الهولنديون فقط المحتكرين الوحيدين للتجارة الهولندية، بل هم السادة لجميع أقاليم هذه الجزر.

ولكنهم لم يتحملوا مسئولية مباشرة عن الحكم، بل اتبعوا نظام الحكم غير المباشر الذى يعود عليهم بالارباح الطائلة دون أن يتحملوا متاعب الحكم وهمومه.

رابعاً: اتسم الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا بالتدمير والجرائم والانتقامات. فقد أحلوا العمال الأرقاء محل الفلاحين الأحرار فى المزارع، وعندما وجدوا أن إنتاج القرنفل فى أمبوينا، ومولوكا، وبإندا، يزيد على ما يحتاجه العالم، فرضوا تحويل بساتين القرنفل إلى حقول أرز، وإلى مزارع لزراعة أشجار «الساجو»، وهو غذاء أضعف قيمة من الأرز، ثم بيع الأرز بسعر فاحش، وقطعوا عن «جاوة» مئونتها من الأرز، مما اضطر الناس

إلى التخلى عن غذاء الأرز وتناول الساجو، فمات الكثيرون من تناول هذا الطعام، واقتضى الأمر استيراد عدد أكبر من الأرقاء.

وعندما اصبح مشروب البن شائعا فى أوروبا، وصار سعره غاليا فى أسواق العالم، فرضوا الاستغلال على المزارعين، فكان المنتجون يسلمون من ٢٤٠ إلى ٢٧٠ رطلا للشركة مقابل ثمن ١٢٥ رطلا فقط. وبعد إجراء تخفيضات لأسباب وذرائع مختلفة، لا يصل إلى جيوب المزارعين الاندونيسيين إلا ثمن ١٤ رطلا فقط.

ولما عزف الفلاحون عن زراعة البن، أرغمهم الهولنديون على زراعته وبيعه لهم بسعر محدد، حتى أصبحت جاوة مزرعة ضخمة للبن يملكها الهولنديون.

وقد وضع «كوين» مؤسس باتافيا، المبدأ الذى أقيمت على أسسه السياسة الهولندية، بقوله : «ألا يستطيع أى رجل فى أوروبا أن يفعل ما يشاء بماشيته؟ هكذا يفعل السيد هنا برجاله الذين يعتبرون، بكل ما يملكون، ملكا خاصا للسيد، شأنهم فى ذلك شأن البهائم فى الأراضى المنخفضة».

وقد أصبح مذهب «كوين» هذا هو الدعامة النظرية التى تقوم عليها علاقة الشركة بالأجير الاندونيسى، الذى كان يسميه الأوروبيون «الكولى».

خامساً: أحدث نظام الضياع أو الأبعاديات الكبيرة ثورة صامتة فى علاقة الهولنديين بالاندونيسيين، فقبل ذلك لم يكن الهولنديون الا تجارا يحتكرون التوابل والأرز، دون أن يتجاوز نشاط الشركة التجارى هذا الحد إلى التدخل فى حياة الأهلين.

على أن التحول من الاستعمار التجارى إلى الاستعمار الاستثمارى، ومن التجارة إلى نظام الضياع الكبرى، كان ينطوى على الاستغلال الفعلى للعمال والتحكم الشديد فى اقتصاد الأهلين، والإشراف الفعال عليهم. بل ينطوى على تحقيق نظام إدارة الضياع الكبرى على قطر بأكمله. وفى العلاقة بين الشركة صاحبة العمل والأجراء، لم تكن لهؤلاء الأجراء أية حقوق على صاحب العمل حتى ولو كانت حقوقا اسمية.

ويقرر بعض الباحثين أنه ليس هناك نظير فى التاريخ لتلك الحالة التى ابتدعها الاستعمار الهولندى، وهى تحويل أمة بأسرها إلى عمال بالضياع الكبرى، وتحويل الطبقة الأرستقراطية منها إلى مجرد رؤساء عمال ومشرفين، يفرض عن طريقهم العمل قهراً فى هذه المزارع.

صحيح أن قبائل الإنكا فى بيرو كانت على هذا النحو من انعدام الرحمة فى استغلالهم للأهالى، ولكنهم كانوا - على الأقل - يعيشون فى البلاد، وينفقون مكاسبهم فيها.

أما فى حالة الاستعمار الهولندى، فكانت المكاسب ترسل إلى بلاد بعيدة لتتمتع بها بورجوازية تلك البلاد بعيدا عن مناظر الكدح والشقاء. فالهولنديون من بين جميع الأمم الأوروبية فى ذلك العصر الاستعمارى الأول، هم وحدهم الذين اتبعوا سياسة إنزال شعب بأسره بصورة منظمة إلى منزلة عمال الضياع الكبرى، دون أن يعترفوا قبلهم بأى التزام أخلاقى أو قانونى.

وقد فعلوا ذلك بالشعب الذى يستمدون منه أعظم الغنم، فى حين كانوا ببلاد الصين يتذللون ويخرون على الأرض ساجدين، وكانوا فى اليابان يتواضعون ويظهرون التوقير العظيم أمام الموظفين اليابانيين.

وفى الوقت الذى أعوزتهم حماسة البرتغاليين الدينية، التى كانوا يغلفون بها أطماعهم المادية، أو الشعور بالرسالة الثقافية التى كان يدعيها الفرنسيون لأنفسهم، أو الإهتمام الإنسانى العريض الذى ادعاه البريطانيون لأنفسهم فى المناطق التى لهم فيها السلطة السياسية المباشرة ـ فإنهم استمسكوا بشدة بنظرية الامتلاك والاستغلال، حتى إذا اضطروا إبان القرن التالى إلى تغيير سياستهم، لم يكن ذلك نتيجة اقتناع، وإنما جرفتهم فى ذلك قوة الحركات التى حدثت خارج هولندا واندونيسيا Indonesia.

سادساً : لم ينقذ شعب جاوه من وهدة الإذلال التى تردى فيها، إلا إلهام الإسلام وروحه المنطبعة بطابع القوة والفداء.

لقد دخل الاسلام فى الأصل إلى تلك الجزيرة على يد التجار الهنود. وعند وصول البرتغاليين لم يكن قد استقر بعد إلا فى المراكز التجارية الكبرى، وفى بعض بلاطات الحكام. حتى إذا قارب القرن السادس عشر على نهايته، كان معظم جاوة وسومطرة قد رضى بالإسلام دينا.

وقد شهدت فترة اشتداد الدعوة الإسلامية التى بدأت سنة ١٦٣٠م، قوة المبادئ الإسلامية تشتد وتقوى، كما شهدت بدء تكوين سلطة الزعماء الدينيين واقتراب الأهالى بوجه عام من تلك النظرة الإسلامية إلى الحياة.

أما من الناحية السياسية، فإن الحركة كانت تمثل روح المقاومة ضد الاستعمار. فقد أدى اشتداد قوة الإسلام إلى ازدياد عظيم فى شدة المقاومة الشعبية للاستعمار الهولندى بالجزر. واقتنع كبار موظفى الشركة فى ذلك الزمان، مثل «فان جوينز»، بأن الدين كان من أكبر أسباب الحروب المتواصلة ضد الهولنديين بالأرخبيل. تلك الحروب التى تمثل ظاهرة ملحوظة فى التاريخ الاندونيسى خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر.

على كل حال، فإن الإمبراطورية الهولندية لم تلبث أن شاطرت الإمبراطورية البرتغالية مصيرها، فكل منهما كان إمبراطورية بحرية ساحلية تتألف من رقع متناثرة، وكل منهما بدأت تجارة لا توطنا، وكل منهما توهج كقوة بحرية لفترة قصيرة. فهى مثل البرتغال تعانى قاعدة أرضية محدودة، وكل منهما لم تكن أكثر من موقع جغرافى، وكل منهما كان يعانى من نقص فى القوة البشرية، وكل منهما له حدود برية مشتركة مع قوة ضخمة سيكون على يديها مصرعها (البرتغال على يد أسبانيا، وهولندا على يد فرنسا).

وكما انتهزت هولندا الفرصة لترث البرتغال، فستنتهز قوة بحرية أخرى هى بريطانيا الفرصة لترث هولندا. بل إن وضع هولندا كان أسوأ، لأنها وقعت بين شقى رحى فرنسا التى تشترك معها فى الحدود، وبريطانيا فى البحر، وعلى ذلك فلم تلبث هولندا أن فقدت معظم تجارتها وخسرت كل قواتها البحرية، وأصبحت بمثابة برتغال الشمال!

(٤) الاستعمار الفرنسى

على الرغم من أن فرنسا مع نهاية القرن الخامس عشر كانت قد استكملت وحدتها القومية حول باريس، فإنها لم تكن مستعدة للخروج إلى العالم الخارجى، سواء فى القارة أو عبر البحار، إلا مع مطلع القرن السابع عشر. وذلك بسبب حروبها مع جيرانها لتدعيم حدودها الشرقية البرية، وحروب الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر.

وقد قامت السياسة الفرنسية فى القرن السابع عشر على أساسين:

الأول : التوسع القارى شرقا وصولا إلى الحدود الطبيعية.

الثانى : بناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار.

ولكن توزيع اهتمامها بين البحر والقارة سلب أغلب مشاريعها البحرية كثيرا من إمكاناتها، كما أن وجودها على بحرين كان من شأنه أن يعوق وحدة أسطولها البحرى. وفى هذا كله تكرر فرنسا دور أسبانيا وتوسعاتها.

والحقيقة أنها ورثت أسبانيا استراتيجيا مثلما ورثت هولندا البرتغال. وكما كان على أسبانيا أن تواجه البرتغال، كان على فرنسا أن تتصدى لقوة هولندا.

وكانت فرنسا قد بدأت بانتزاع الأراضى المنخفضة (بلجيكا) من أسبانيا المتداعية فى منتصف القرن السابع عشر، ثم بدأت حروبها مع هولندا حتى تداعت قوة هولندا على يدها فى نهاية القرن.

على أن فرنسا رغم قوتها البحرية الضخمة، لم تكن تسيطر على التجارة المربحة إلا لحد ضئيل، فظلت بحريا قوة عسكرية أكثر منها قوة تجارية. ولذلك فقد كانت إنجلترا هى التى ورثت دور هولندا التجارى، رغم أن فرنسا هى التى حطمت قوتها عسكريا، تماما كما كانت أسبانيا هى التى حطمت البرتغال، ولكن التى ورثتها هى هولندا!

ومن الممكن أن نعد القرن الثامن عشر قرن فرنسا، فقد كانت تفوق بريطانيا على القارة، ولا تقل عنها بحرا. حتى إذا كانت الثورة الفرنسية ونابليون، وصلت السيادة الفرنسية إلى أقصى اتساعها فى أوروبا.

أما فيما وراء البحار فينقسم التوسع الفرنسى إلى قسمين :

الأول : فى العالم الجديد، والثانى فى العالم القديم.

وبالنسبة للتوسع الفرنسى فى العالم الجديد، فهو يبدأ بالكشوف الجغرافية الفرنسية فى الربع الثانى من القرن السادس عشر، بوصول الرحالة الفرنسى «كارتييه» Cartier إلى مصب نهر سانت لورانس، وتوغله داخل كل الأراضى الأمريكية. وبلغ عدد الرحلات الكشفية التى قام بها فى هذه المنطقة أربع رحلات، واستطاع، ومن بعده «دى روبير فال»، الوصول حتى موقع

«مونتريال». ولكن هذه المحاولة لاستعمار كندا اخفقت بسبب عداء الهنود والبرد القارس، فتعطل الاستعمار الفرنسى فى كندا أكثر من خمسين عاما.

وفى النصف الأول من القرن التالى (السابع عشر) استأنف الفرنسيون نشاطهم فى كندا، حيث أسسوا فى سنة ١٦٠٤م أول مستعمرة فرنسية فى شبه جزيرة أطلق عليها فيما بعد اسم «نوفا سكوشيا» Nov Scotia.

وفى سنة ١٦٠٨م أسس الرحالة «صمويل دى شامبلان» مدينة «كيبيك» Quebec كنواة لـ «فرنسا الجديدة» أو «كندا». وقد بدأت هذه كحقل صيد للفراء ثم حقل توطن وزراعة. ومن البحيرات امتدت فرنسا تلقائيا إلى قلب القارة.

ففى سنة سنة ١٦٨٢م نجح «لاسال» فى كشف نهر المسيسبى وتتبعه إلى خليج المكسيك، وعلى محور نهرى مرة أخرى أنشأ مستعمرة «لويزيانا» (نسبة إلى لويس الرابع عشر) التى تشمل القطاع الأكبر من سهول وسط القارة. وبذلك تكون فرنسا خير من استفاد من الأنهار فى التوسع السياسى واتخذتها عمودا فقريا لإمبراطوريتها فى العالم الجديد.

وفيما عدا ذلك فقد اتجهت فرنسا إلى جزر الهند الغربية، حيث استطاعت أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من أسبانيا، أهمها «جواديلوب» Guadeloup و«المارتينيك» Martinique، كما قفزت إلى الساحل المقابل فى أمريكا الجنوبية لتبحث لها عن موطئ قدم فى «جيانا الفرنسية» Guiana.

على أنه لسوء حظ فرنسا، فإنها انتشرت فى مساحات هائلة لم تكن تتناسب مع عدد المستعمرين من أبنائها، فأصبح وجودها كله عبارة عن مساحة لا كثافة.

وفى الوقت نفسه فإن مصالح فرنسا فى القارة الأوروبية كانت متشعبة بشكل يحتم وجود جيش قوى فيها لحماية هذه المصالح، ولذلك فان سلطانها على تلك المناطق المستعمرة كان ضعيفا، الأمر الذى سهل على الانجليز التغلب عليها فيما بعد وانتزاع كندا منها.

فلقد بنت فرنسا الحصون والمحطات العسكرية لتصل بين لويزيانا وكندا، فأحس أهالى المستعمرات الإنجليزية الممتدة على الساحل الشرقى بأنهم سوف يصبحون محصورين بين المحيط الأطلنطى وجبال الأبلاش Appalachians، فلم يكن بد من وقوع الصدام بين الفريقين فى سنة ١٧٥٤م، وانتهى الصراع بتغلب الإنجليز عليهم وانتزاع كندا من أيديهم فى صلح باريس سنة ١٧٦٣م.

هذا بالنسبة للتوسع الفرنسى فى العالم الجديد، أما بالنسبة للتوسع فى العالم القديم، فقد اتجهت فرنسا إلى الهند، وأنشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحلها الشرقية والغربية تتكون من «شاندرناجور» chandernagore، ويانون Yanaon، وبوند شيرى Pondichery وكاريكال Karical وماهى Mahe وتوغلت سيادتها لحد كبير فى بلاد الدكن والكرنات، وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا فى القرن السابع عشر.

أما فى أفريقيا، فقد غزا الفرنسيون المراكز الهولندية فى السنغال سنة ١٦٧٧م، وفى سنة ١٦٩٧م أكملوا غزو الإقليم، وبعد قرن آخر احتلوا هولندا نفسها!

على أن أغلب مساحة الإمبراطورية الفرنسية التى تكونت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، سواء فى العالم الجديد أو القديم، لم تلبث أن ضاعت قبل أن تبدأ الموجة الثانية فى القرن التاسع عشر، بل يمكن القول إن بقايا الإمبراطورية التى خرجت بها فرنسا من هذه الموجة الأولى من الاستعمار، كانت أقل اتساعا وغنى عما خرجت به البرتغال أو أسبانيا أو هولندا. ولعل فرنسا وحدها التى تنفرد بهذه الحقيقة الغريبة بين القوى الاستعمارية فى العصر الاستعمارى الأول، أما القوة التى ضاعت على يدها الإمبراطورية الفرنسية فكانت أساسا بريطانيا.

(٥) الاستعمار البريطانى

كانت بريطانيا أولى دول أوروبا التى حققت وحدتها القومية فى العصور الحديثة قبل عصر الكشوف، بفضل عزلتها عن القارة.

ومنذ الكشوف تطور موقع بريطانيا تطورا جذريا، فقبلها كانت على حافة العالم وكانت بالضبط كما قيل: «استراليا العصور الوسطى». فلقد كانت كل ثروتها تتمثل فى الصوف الذى تصدره إلى القارة، خاصة إلى هولندا وإيطاليا. ولكن الكشوف الجغرافية حولت هذا القطب السالب المتطوح إلى قطب موجب فى قلب المعمورة.

فمع انها لم تكن مهيأة وقت الكشوف أو بعدها لتخرج إلى البحار، حين كانت السيادة للبرتغال وأسبانيا ثم لهولندا وفرنسا، إلا أنها أخذت تحاول خلال القرن السادس عشر التقاط بعض المكاسب التجارية المحيطية بعيدا عن النفوذ الأسبانى أو مغافلة له:

بعيدا عنه بالاتجاه، إلى العالم الجديد عن طريق متطوح شمالى، حيث اكتشفت فى أواخر القرن الخامس عشر (١٤٩٧ ـ ١٤٩٨م) نيوفوندلاند Newfoundland ولابرادور Labrador على يد «جون كابوت» Cabot الإيطالى. ومغافلة له، بالتسلل إلى

المستعمرات الأسبانية الاحتكارية للتجارة معها سرا، مما أدى إلى حروب القرصان البحرية المشهورة الإنجليزية الأسبانية فى البحار العليا والدافئة، والتى تمركزت خاصة فى الكاريبىCaribbean .

إلى أن حاولت أسبانيا غزو بريطانيا بالأرمادا Armada سنة ١٥٨٨م ثم فشلت فى ذلك، ففتحت هزيمة الأرمادا الباب على مصراعيه أمام بريطانيا لتدخل الميدان البحرى والتجارى الجديد مع افتتاح القرن السابع عشر. ولكن فى هذا القرن كان على بريطانيا أن تواجه قوة هولندا التجارية، وقوة فرنسا الحربية.

ولما كانت هولندا هى المحتكر الحقيقى للتجارة المحيطية، ففى الصراع الذى كان يدور بين هولندا وفرنسا كانت بريطانيا غالبا تنضم إلى فرنسا فى صراعها لتحطيم هولندا، أو تترك الأخيرة تواجه فرنسا وحدها.

وفى خلال ذلك كله كانت كل خسائر هولندا وفرنسا تتحول لحساب بريطانيا مكاسب وأرباحا. فكانت التجارة عبر البحار تنتقل إليها بالتدريج، حتى إذا ما حطمت فرنسا قوة هولندا نهائيا فى أواخر القرن الثامن عشر، كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دورها التجارى، وكانت لندن وبريستول Bristol قد ورثت أنتويرب وأمستردام. وكانت بريطانيا على وجه العموم قد ورثت موقع ودور هولندا.

بدأ الإنجليز الكشف الجغرافى متأخرين عن البرتغال وأسبانيا. ففى عام ١٤٩٦م أثار «جيوفانى كابوتو» (جون كابوت)، وهو إيطالى من جنوة، اهتمام تجار بريستول Bristol وهنرى تيودور ملك انجلترا بمشروعه لعبور الأطنطى واستكشاف طريق شمالى إلى الشرق.

وفى ٢ مايو ١٤٩٧م خرج كابوت من بريستول برحلة أذن بها ملك إنجلترا وتكفل تجار بريستول بنفقاتها، فوصل إلى «نيوفوندلاند» Newfoundland واكتفى برفع بعض الأعلام الإنجليزية على الشاطئ، وعاد إلى إنجلترا.

وفى العام الثانى أبحر مرة أخرى فوصل إلى «لابرادور» Lob-rador وارتاد الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية حتى «نيو انجلندا» جنوبا.

على أنه لما كان الاتجار مع هذه الجهات لم يأت بالثمرة المرجوة، وفى الوقت نفسه لم يبد هنرى الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧م) اهتماما بالكشف، فقد خمدت فكرة الكشف والاستعمار مدة قرن من الزمان.

وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر، وفى عهد اليزابيث Elizabeth (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣م) وجه الإنجليز اهتمامهم إلى القرصنة بالسطو على مراكب الأسبان التى تأتى محملة بالذهب والفضة من أملاكهم فى العالم الجديد.

وفيما بين ١٥٨٤ و ١٥٨٦م بدأت أولى محاولات الإنجليز الاستعمارية الحقيقية حين أسس السير «والتر رالى» Walter Raleigh مستعمرة على جزيرة «رونوك» Roanoke بفرجينيا، Virginia بعد أن نقل إليها عددا من الإنجليز من الأزواج والزوجات والأمهات والأطفال. ولكن هذه المستعمرة لم تعش طويلا.

ولم تلبث محاولات الإنجليز أن توقفت حين برزت الخلافات بين أسبانيا وإنجلترا بسبب القرصنة، على نحو أدى إلى محاولة أسبانيا غزو إنجلترا بالأرمادا Armada المشهورة عام ١٥٨٨م.

ولكن المحاولة فشلت وتحطم الأسطول الأسبانى، ففتح هذا الانتصار لبريطانيا الباب ـ كما ذكرنا ـ للدخول فى الميدان الاستعمارى ولكنها لم تستأنف نشاطها فى هذا المجال إلا بعد عشرين عاما.

ففى عام ١٦٠٦م تأسست بإنجلترا شركتان تجاريتان بإذن من حكومة جيمس الأول، James هما: «شركة لندن»، التى كان حملة أسهمها من لندن، وشركة «بليموث» Plymouth التى يقيم حملة اسهمها فى «بليموث» وبريستول وغيرهما، على أن تقتسم الشركتان الشاطئ الأمريكى من «نوفاسكوشيا» Nova Scotia إلى فلوريدا، فتستعمر شركة لندن الجزء الجنوبى، وتستعمر شركة بليموث الجزء الشمالى.

وفى عام ١٦٠٧م أرسلت شركة لندن جماعة من المستوطنين أسست مدينة «جيمستون» Jamestown فى فرجينيا. كما أقامت

شركة «بليموث» عدة مستعمرات صغيرة فى الشمال ومراكز لصيد الأسماك.

وفى عـــام ١٦٢٠م وصلت إلى شـــاطئ نيـــو إنجلند (ماساتشوستس) Massachusettes فى الشمال، والذى يقع فى منطقة شركة بليموث، سفينة الحجاج المشهورة «ماى فلاور» May-flower التى كانت تقل عددا من أتباع المصلح الدينى «كلفن». ثم تبعتها فيما بين ١٦٢٨ ـ ١٦٤٠م هجرة إنجليزية واسعة المدى من طائفة «البيوريتان» Puritans التى تعرضت للاضطهاد.

وقد بلغ حجم هذه الهجرة الجماعية خمس مستعمرات هى: ماساتشوسيتس، Massachusettes وكونيكتيكات، Connecticut وورود أيلند، Rhode Island ومين، Maine ونيوهامبشير. New Hampshire وعرفت جميعها بمستعمرات نيو إنجلند.

وفى عام ١٦٣٤م استعمر الإنجليز الكاثوليك بقيادة اللورد بلتيمور Boltimore إقليم ميريلاند Maryland. وفى عام ١٦٦٥م حصل جماعة من كبار الملاك الإنجليز على ترخيص باستعمار «كارولينا» Carolina .

على أنه فى تلك الأثناء كان الهولنديون قد بسطوا نفوذهم على إقليم نهر «هدسون» Hudsonعلى أثر رحلة «هنرى هدسون» فى عام ١٦٠٩م، وبنوا قلعة أمستردام (نيويورك فيما بعد)، كما اشتروا

جـزيرة مـانـهـاتن Manhattan المشـهـورة من الـهنود، ولـم يحل عـام ١٦٢٦م حتى كانوا قد أقاموا فى قلب أمريكا البريطانية مستعمرة نيونيذرلاند (هولندا الجديدة).

وفى نفس الوقت كانت السويد قد استعمرت منذ عام ١٦٣٦م حـوض نـهـر «ديلاوير» Delaware بعـد أن نزل المسـتـوطنون السـويديون فى عـام ١٦٣٦ ـ ١٦٣٨م على الشـاطئ الغربى لخليج «دولاوير»، واشـتـروا من الـهنود الأراضـى المجـاورة لمدينتى «نيوكاسـل» و «ويلمينجتون» Wilmington الحـاليتين، وأطلقوا على المستعمرة الجديدة اسم «السـويد الجديدة»، وهى المستعمرة التى استولى عليها الـهولنديون عام ١٦٥٥م.

وبذلك أحس الإنجليـز بالخطر الذى يهـدد المسـتـعـمـرات الإنجليزية من وجود هذه الأملاك الهولندية حاجزا بينها، فأرسلت الحكومـة الإنجليـزية عـام ١٦٦٤م حـملة اسـتـولت على ممتلكات الـهولنديين، وبذلك اتصلت المستعمرات الإنجليزية بعضها ببعض.

وفى سنة ١٦٨٢م وهب الملك شـارل الثـانى جـمـاعـة «الكويكرز Quakers» بزعـامــة «ولـم بين» William Penn السـويد الجـديدة لاستعمـارها، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم «بنسلفانيا» Penn-sylvania .

ولم تـأت سنة ١٧٣٣م حـتى كانت قد تـأسست على الشـاطئ الشرقى لأمريكا الشمـالية ثلاث عشرة مستعمرة إنجليزية تمتد حـوالى ألف مـيل، ويقطنهـا حـوالى مليـونين من السكان. وهذه

المستعمرات هي: فرجينيا Virginig ١٦٠٧م، ونيوهامبشير New Hampshire ١٦٢٣م، وماساتشوستس ١٦٢٩م، وميريلاند ١٦٣٤م، ورودايلند Roade Island ١٦٣٦م، وكارولينا الشمالية ١٦٥٣م، وكونيكتيكت ١٦٦٢م، ونيوجيرزى New Jersey ١٦٦٤م، ونيويورك ١٦٦٤م، وكارولينا الجنوبية ١٦٧٠م، وديلاوير ١٦٧٤م، وبنسلفانيا ١٦٨٢م، وجورجيا Georgia ١٧٣٣م.

وقد توافرت لهذه المستعمرات أسباب الحضارة والعمران، ولكن صحبتها فى نموها نقائص ومساوئ كثيرة، أولها: أنه لما شعر المستعمرون بقلة عددهم اجتلبوا الكثيرين من المذنبين السياسيين والمجرمين ممن امتلأت بهم سجون انجلترا، مما كان له تأثير خلقى واجتماعىّ سئ،

ثانياً: أنه لهذا السبب نفسه، أخذ المستوطنون يجلبون العبيد الذين يقتنصون من أفريقيا، حتى غصت بهم فرجينيا وما جاورها من الولايات الجنوبية. وقد زادت هذه التجارة زيادة ضخمة عقب معاهدة «أوترخت» Utrecht سنة ١٧١٣م، فقد احتكرت إنجلترا جلب الرقيق إلى أمريكا.

وقد أدى جلب هذا العدد الهائل من العبيد إلى مشاكل عظيمة نظراً لإساءة معاملة هؤلاء العبيد وتسخيرهم كالحيوانات، مما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية الأمريكية المعروفة (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) حول مشكلة تحرير العبيد، فضلاً عن مشاكل التفرقة العنصرية التى مازالت فى الولايات المتحدة حتى الآن.

ثالثاً: اضطهاد الهنود الحمر سكان البلاد الاصليين، على الرغم مما كان بين الفريقين من وئام فى البداية عندما كان المستعمرون مستضعفين. وقد أدى هذا الاضطهاد إلى إبادة معظم هؤلاء الهنود الحمر وفرار الباقين إلى الجهات القاصية، وكانت بداية الفتك بهم فى عام ١٦٢٢م عندما نشبت الحرب بين الفريقين، واستمرت عمليات الإبادة بعد ذلك حتى لم يبق من هؤلاء السكان الأصليين سوى القليل.

وفى الوقت الذى كان يتم فيه استعمار أمريكا الشمالية على يد الإنجليز، كان يجرى استعمار آسيا وأفريقيا.

وفيما يتصل بآسيا فقد استغرق استعمار الهند قرنين ونصف، وينقسم إلى مرحلتين: الأولى من ١٦٠٠ ـ ١٧٥٠م، والثانية من ١٧٥٠ ـ ١٨٥٨م.

ويرجع الفضل فى استعمارها إلى شركة الهند الشرقية البريطانية التى تأسست فى سنة ١٦٠١م لمنافسة الهولنديين فى تجارة التوابل فى الشرق. وكان الهولنديون فى ذلك الحين وسطاء تلك التجارة فى أوروبا. ولكنهم عندما رفعوا فى عام ١٥٩٩م سعر الفلفل من ثلاثة إلى ثمانية شلنات للرطل الواحد، صمم التجار البريطانيون على دخول غمار تجارة الشرق.

وقد اتجهت الشركة فى البداية إلى إنشاء مركز تجارى لها فى الهند لشراء المنسوجات وبيعها فى ملقا، لتمويل تجارة التوابل من الأرباح، نظرا لأنه لم يكن لدى إنجلترا شئ تبيعه بدلا مما تأخذ،

فى حين كان «المركانتيليون» ـ كما ذكرنا ـ يكرهون تصدير الذهب والفضة أشد الكراهية. وكان المكان الذى اختير لهذا الغرض هو «سورات» سنة ١٦١٢م.

ولكن بعد أن طرد الإنجليز من اندونيسيا، تركز اهتمامهم التجارى بأرض الهند الرئيسية. وهنا عادت مشكلة دفع أثمان التجارة الهندية، فبدا أن طريق التجارة بالبحر الأحمر منفذ مربح، وهنا شرعت الشركة تتخذ سياسة زيادة عدد مراكزها التجارية بحذر، حتى إذا وافت سنة ١٦٤٧م صار لهم ثلاثة وعشرون مركزا تجاريا.

وتغير الموقف قليلا بوقوع بومباى، التى كان فى إمكان مدافع الأسطول الدفاع عنها بسهولة، فى حوزة الشركة فى سنة ١٦٦١م، ومنح شارل الثانى الشركة حق الولاية الكاملة التى كانت ترغب فيه داخل هذه المستعمرة.

فقد نقلت الشركة مقرها من سورات إلى بومباى، وتوسعت أعمالها بعد ذلك فى البنغال، حتى تجرأت وأعلنت الحرب على الإمبراطورية المغولية محاولة الاستيلاء على «تشيتا جونج»، Chit-agong.

وكانت نتيجة هذا العمل الأحمق أن احتلت قوات الإمبراطورية المغولية مؤسسات الشركة، وضاع بضربة واحدة ما اقتنته الشركة

بالجهد، واضطرت إلى أن تطلب السلم بذلة، فوافق الإمبراطور «أورانجزيب» Aurangzeb، بعد أن تعهد الإنجليز بألا يسلكوا مستقبلا مثل هذا المسلك المخجل.

فلما عاد وكلاء الشركة إلى البنغال، استقروا فى كلكتا سنة ١٦٩٠، حيث سمح لهم بتحصينها بعد ذلك بست سنوات، وهكذا ظهرت إلى عالم الوجود عند نهاية القرن كل من بومباى، ومدراس Madras، وكلكتا، وهذه المراكز الثلاثة هى التى نفذت منها السلطات البريطانية إلى داخل الهند بعد ذلك بمائة سنة.

مع ذلك، فحتى منتصف القرن الثامن عشر، وبمعنى آخر حتى معركة «بلاسى» Plassey (١٧٥٧م)، لم تكن السيطرة البريطانية على الهند قد تجاوزت مستعمراتهم فى «سورات» ومدراس وكلكتا، وماسوليباتام Masulipatam. فضلا عن محطات تجارية صغيرة فى «البنغال»، و«جزيرة بومباى» التى أصبحت تحت سيادة الشركة، إذ نقلها البرتغاليون إلى ملك إنجلترا، ونقلها هذا بدوره إلى شركة الهند الشرقية، «فى حالة ملكية حرة ومشتركة مثل مقاطعة جرينتش الشرقية Greenwich مقابل إيجار قدرة عشرة جنيهات ذهبا فى اليوم العاشر من سبتمبر من كل سنة».

ولم يكن للشركة أى سيادة أخرى على أى منطقة أرضية خارج جزيرة بومباى، كما أن قلعة سانت جورج بمدراس كانت قاصرة على الشواطئ فقط، وإلى جوارها خمس قرى منحتها حكومة دلهى

للشركة. وفيما عدا ذلك لم يكن يخامر الشركة أى حلم من أحلام السلطة السياسية أو إنشاء الإمبراطورية، وإنما اقتصر نشاطها على الأعمال التجارية فقط.

بل لقد كانت الشركة تخاطب نائب الملك فى البنغال بأشد آيات الخضوع والتذلل، فقد وصف أحد رؤساء الشركة نفسه وهو يخاطب الإمبراطور (المغولى) بأنه: «جون راسل، الذى هو أصغر من حبة الرمل، ورئيس شركة الهند الشرقية، وجبهته طوع الأمر تتمرغ فى تراب الأرض».

فما الذى مكن شركة الهند الشرقية الإنجليزية إذن من أن تحرز القوة العسكرية فى مدى خمسين عاما بصورة مكنتها من مقاتلة قوة امبراطورية «الماراثا» Maratha وسحقها فى معركة «أساى» Assaye سنة ١٨٠٣م؟.

وما الذى مكنها من فتح الهند عسكريا لتتخذ منها مرتكزا لفتح أبواب الصين قهرا، والمساعدة على تحويل آسيا بأسرها إلى منطقة تابعة لأوروبا، ثم إبراز قوتها السياسية والاقتصادية على المحيط الهادى؟

يمكن تلخيص أسباب ذلك فى عاملين أساسيين: الأول: استغلال الخلافات الداخلية بين الزعامات الوطنية. والثانى: ظهور طبقة من «الكومبرادور» الهنود، أى من الرأسماليين الهنود الذين

يرتبطون أشد الإرتباط بالتجار الأجانب، ويحصلون على مكاسب عظيمة من الاتجار معهم. ونمو قوة هذه الطبقة من الناحية السياسية، وانتقال السلطة الفعالة من أيدى النبلاء المغول إلى أيديهم.

وكان نشوء هذه الطبقة القوية التى ترتبط مصالحها الاقتصادية بمصالح الرأسمالية الأوروبية، عاملا ذا اهمية جوهرية فى تاريخ الهند خاصة وآسيا بوجه عام، وكانت معركة «بلاسى» سنة ١٧٥٧م فى حقيقتها عبارة عن صفقة تجارية بين وسطاء التجارة الهنود بالبنغال والشركة.

ذلك أنه لم يقدم القواد العسكريون على أى قتال جدى بعد أن قبضوا الثمن. وتلا ذلك أن اضطر البلاط المغولى فى «دلهى» سنة ١٧٦٤م إلى منح الشركة حق التصرف الإدارى فى الإيرادات فى مناطق البنغال «وبيهار، وأوريسا» Orissa، حيث جرى النهب المنظم من قبل الشركة للولاية.

لم تكن معركة «بلاسى» نقطة تحول فى تطور مركز إنجلترا فى الهند فحسب، بل وفى المنافسة الإنجليزية ـ الفرنسية فى الهند أيضا. وكانت هذه المنافسة قد نشأت بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١٦٦٤م، وبعد استقرار أعداد كبيرة من الفرنسيين فى «بونديشرى»، وعند اقتراب القرن الثامن عشر من منتصفه، كان النفوذ الفرنسى فى الهند يجرى تدعيمه بهمة على يد

فـرنسى جـاذق هـو «دوبليـه Dupleix» وهو صـاحب مـدرسـة استعمارية استفاد منها الإنجليز لحد كبير.

فقد ابتدع الخطوات العسكرية والسياسية اللازمة لبسط هذا النفوذ السياسى الفرنسى بطريقة منظمة. ففى ذلك الحين، ولما كانت الهند منقسمة إلى عدد كبير من الإمارات المستقلة وشبه المستقلة، فقد اتبع دوبليه سياسة استغلال الخلافات بين الأمراء المحليين وإحداث الوقيعة بينهم، كما لجأ إلى تكوين جيوش من الوطنيين الهنود بقيادة ضباط فرنسيين، واستطاع بفضل هذه القوة العسكرية أن يتغلب على المعارضين ويستولى على مدراس Madras من أيدى الإنجليز سنة ١٧٤٦م، ويمد سيادته الفعلية على بلاد الدكن Deccanوالكارنات سنة ١٧٥١م ليبلغ النفوذ الفرنسى بذلك اقصاه.

على أنه لم يلبث أن انبرى لمواجهة دوبليه قطب آخر من أقطاب الاستعمار الإنجليزى، هو روبرت كلايف Robert Clive أحد مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية، ومنشئ أكبر دولة لصوص على ظهر البسيطة فى ذلك الحين – كما يصفها بعض الباحثين – وقد استفاد «كلايف» من مدرسة «دوبليه» الاستعمارية التى ابتدعها، وسار على نهج الخطوات العسكرية والسياسية التى وضعها. فأخذ يعمل على تشتيت قوى الفرنسيين والهنود حتى لا تتجمع هذه القوى ضد البريطانيين فى الهند، وكان استيلاؤه الباهر على

«أركوت» Arcot في منطقة «كارنات» Carnatic في ١٢ سبتمبر سنة ١٧٥١م ما أوقف السيادة الفرنسية عند حدها.

وفي سنة ١٧٥٤م استدعى دوبليه إلى فرنسا، مما أدى إلى تقوية مركز بريطانيا تماما. وفي سنة ١٧٥٧م استعاد الإنجليز كلكتا، وعادوا إلى الحرب مرة ثانية مع فرنسا، واستولوا على شاندرناجور Chandernagore، واستطاعوا التغلب على الفرنسيين والهنود حلفائهم في معركة «بلاسي» في ٢٢ يونية ١٧٥٧م، وهي المعركة التي قضت فعلا على مطالب الفرنسيين في الهند.

وفي سنة ١٧٦١م سقط المعقل الفرنسي الرئيسي في بونديشيري Pondichery في يد الإنجليز. ومع أن معاهدة باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣م)، ردت إلى الفرنسيين بوندشيري وبعض المراكز التجارية الأخرى، إلا أن بريطانيا أصبحت منذ ذلك الحين القوة الأوروبية الوحيدة التي تملك اليد العليا في الهند، وبدأت منذ ذلك الحين في بسط نفوذها في شبه الجزيرة الهندية على حساب القوة المحلية من الأمراء الهنود. وانحلت شركة الهند الشرقية الفرنسية في عام ١٧٦٩م.

وفي الفترة من ١٧٧٣م أقام وارن هيستنجز Warren Hastings إدارة في البنغال قدر لها في بضع سنوات أن تحول دولة اللصوص والنهب المنظم في عهد كلايف إلى حكومة قوية منظمة. وأدى انسحاب البحرية الفرنسية نهائيا من المحيط الهندي إلى منح

البريطانيين فى نهاية القرن الثامن عشر تفوقا عسكريا كافيا لإعطائهم نفوذا وتسلطا فى الولايات الصغرى فى الهند. فانتقلت منطقة الكارناتيك Carnatic إلى دائرة نفوذهم.

ولم يبق فى نهاية القرن إلاّ قوى ثلاث تواجه الانجليز فى الهند، وهى: إمبراطورية الماراثا Maratha (التى تمَلك الأجزاء الغربية والوسطى). ونظام حيدر أباد (فى هضبة الدكن). وسلطان تيبو الذى كان يحكم ميسور Mysore فى الجنوب الغربى.

وقد استطاع ولسلى، الذى سمى فيما بعد باسم المركيز ولسلى Wellesley, Marquess، والذى عين حاكما عاما فى سنة ١٧٩٨م بعد حملة قصيرة ـ أن يدمر قوة سلطان ميسور، بالإستعانة بأعوان الأسرة المالكة الهندوكية التى اغتصب السلطان عرشها بميسور. فدفع بذلك بقوات الشركة إلى مسافة قريبة جدا، من إمبراطورية الماراثا.

ثم دبر لنظام حيدر أباد the Nizam of Hyderabad انقلابا تمخض عن تسريح قوات «النظام» التى يهيمن عليها الفرنسيون، وتحويل «النظام» نفسه إلى مرتبة أمير تابع. وبذلك تفرغ لمواجهة إمبراطورية المارثا.

وفى الحرب التى أعقبت ذلك تمكن أخوه آرثر ولسلى، الذى سمى فيما بعد دوق ولنجتون Wellington من هزيمة «المأراثا» فى معركة «أساى» بمنطقة الدكن سنة ١٨٠٣م. ولكن الإنجليز لم

يستطيعوا التخلص من الماراثا تماما إلا بعد اثنتى عشرة سنة حين تمكنت الشركة من تدمير قوة الماراثا عند بونا Poona، ثم انتزعت إمارات الراجبوت Rajput وبقيت مملكة السيخ Sikhs أو البنجاب Punjab القوية فى الشمال. ولم تستطع الشركة التغلب عليها إلا فى سنة ١٨٤٨م. ففى عام ١٨٤٤م فتحت ولاية السند، وبعد حملتين دمويتين قهرت آخر مملكة هندية وضُمت إلى البريطانيين.

وهكذا استطاع البريطانيون فى مدى مائة عام أن يؤسسوا سلطانهم بحد السيف من «السند» إلى «البراهمابوترا»، ومن «الهملايا» إلى «رأس كومورين».

أما الممالك التى سمح لها بالبقاء، مثل «كشمير»، و«حيدر أباد»، و«ولايات الراجبوت» - فضلا عن إمارات صغرى أقيمت اقتطاعا من الولايات الكبرى أوفصلت عنها، فقد حولت إلى أقاليم تابعة مفتتة معزولة إحداها عن الأخرى.

وقد قامت محاولة من الطبقات الحاكمة القديمة: «الماراثا» و«المغول» لطرد البريطانيين من البلاد، فاشتعلت الثورة فى ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨م، ولكن الشركة أخضعتها بعنف شديد بعد قتال متقطع دام ١٨ شهرا.

ولم تلبث شركة الهند الشرقية التى كونت إمبراطورية الهند أن توقفت عن الوجود رسميا فى سنة ١٨٥٨م، وفى تلك السنة

اضطلعت الحكومة البريطانية بالإدارة المباشرة فى الهند، ولم تلبث الهند أن اتخذت قاعدة لإمبراطورية بريطانية ضخمة تمتد من عدن إلى هونج كونج، وتضم سيلان وبورما.

***

هذا على كل حال فيما يتصل بالتوسع البريطانى فى الهند. أما فيما يتصل بالصين، فقد كان على نطاق أقل بكثير.

فقد رأينا أن تجارة الصين، وآسيا على وجه العموم، كانت تجارة من جانب واحد، حيث يشترى التجار الأوروبيون مقادير ضخمة من الحرير والشاى، ولايبيعون مقابل ذلك إلا القليل.

وكانت الصعوبة هى فى العثور على شئ يقبل الناس عليه فى الصين، وكانت موازنة الميزان التجارى تتم فى الماضى عن طريق تصدير السبائك إلى الصين، ثم اكتشفت طريقة جديدة للموازنة، هى «الأفيون» الذى زاد إقبال الناس عليه، وكان الفضل فى هذا الاكتشاف للبرتغاليين.

ففى سنة ١٧٧٣م جعل «وارن هيستنجز» بيع الأفيون احتكارا للشركة ببلاد الهند. وفى سنة ١٧٩٧م احتكرت الشركة نفسها صنع الأفيون، وبذلك أصبحت للشركة مصلحة ضخمة فى توسيع هذه التجارة لغرضين. الأول: ملء خزائنها فى الهند بالذهب، والثانى: دفع أثمان تجارتها مع الصين.

وفى الربع الأول من القرن التاسع عشر أصبح الأفيون أعظم الصادرات ازدهارا فى الصين. وفى الفترة من ١٨١٨ - ١٨٣٣م قفز الأفيون من ١٧٪ إلى ٧٠٪ من مجموع الصادرات البريطانية إلى الصين.

على أنه لما كانت هذه التجارة محرمة بحكم القانون فى الصين، فلذلك سرعان ماوقع النزاع بين الحكومة الصينية والتجار البريطانيين. ولماكانت الحكومة البريطانية مشتركة فى هذه التجارة المنحطة، كما أن لجان مجلس اللوردات والعموم كانت قد انتهت إلى أنها «لاترى من المصلحة التخلى عن مصدر للإيراد له مثل تلك الدرجة من الأهمية»، فسرعان ما وقع الصدام بين الحكومتين الإنجليزية والصينية، انتهى بحرب الأفيون الأولى سنة ١٨٤٢م.

وقد أسفرت هذه الحرب عن معاهدة «نانكينج» Nanking فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٤٢م، التى ضمت هونج كونج بمقتضاها إلى بريطانيا، ومنحت خمسة مرافئ للتجارة.

ثم عقدت معاهدات مماثلة مع الأمريكيين فى يوليو سنة ١٨٤٤م، ومع الفرنسيين فى أكتوبر ١٨٤٤م.

على أن التجار البريطانيين لم يلبثوا أن طمعوا فى مد التجارة إلى مايجاوز موانى المعاهدة، وعندئذ اقتضى الأمر تذرع بريطانيا ببعض الذرائع لشن حرب الأفيون الثانية التى اشتركت فيها

فرنسا، واستطاع الفريقان الاستعماريان الإستيلاء على كانتون Canton سنة ١٨٥٧م ثم الإستيلاء على قلاع تاكو التى تحمى «تيان تسين». ولم يجد الإمبراطور بدا من التفاوض، فأبرمت معاهدة «تيان تسين» Tientsinالتى أضافت ١١ ميناء آخر للتجار الأجانب، وكذا الحق فى الملاحة فى نهر اليانجتسى.

ولكن الحليفين الإنجليزى والفرنسى لم يلبثا أن فتحا باب الأعمال العدائية من جديد فى العام التالى، وأعدا حملة استولت على بكين Peking، وأبرمت بعدها معاهدة بيكين فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٦٧م. وبمقتضاها أضيفت «تيان تسين» إلى قائمة موانى المعاهدات، وحملت بريطانيا الصين للمرة الثانية على امتياز التقاضى الذى أخرج التجار الأجانب من نطاق اختصاص المحاكم الصينية. وعلى هذا النحو خضعت الصين بعد الهند للنفوذ والهيمنة البريطانية.

هذا فيما يتصل بآسيا، أما فيما يتصل بأفريقيا، فحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان النفوذ البريطانى فيما عدا مستعمرة الرأس التى انتزعها البريطانيون من هولندا سنة ١٨٠٦م فى أثناء الحروب النابليونية، يقتصر على بعض المحطات التجارية الساحلية، كما حدث فى ساحل الذهب (الذى أطلق عليه اسم غانة بعد الاستقلال)، حيث جاء البرتغاليون أولا وأنشئوا الحصون، ثم تلاهم البريطانيون والهولنديون.

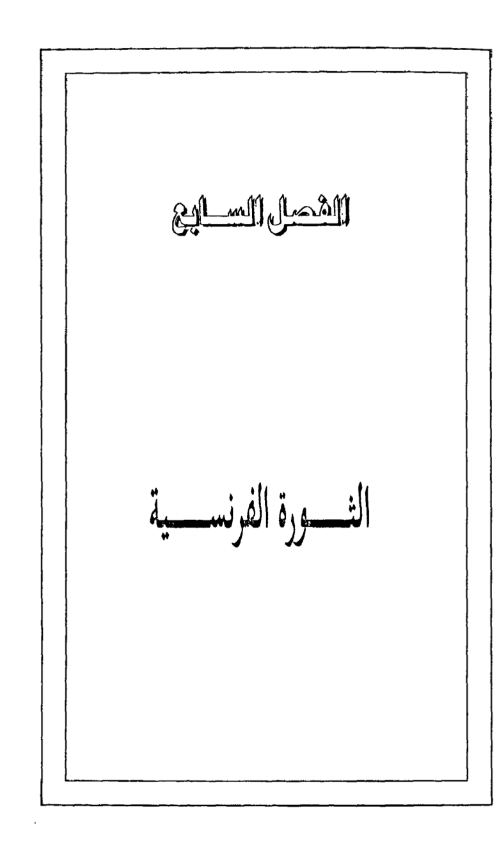
ولكن قبل اختتام القرن الثامن عشر كان التفوق من نصيب البريطانيين. وكان الذهب والرقيق أهم موارد هذه التجارة.

وفى «جامبيا» أيضا وصل البريطانيون بعد البرتغاليين وتاجروا فى الرقيق. وتألفت بها شركة المخاطرين البريطانيين فى سنة ١٧٢٣م، فكانت أول شركة تتكون فى ذلك الحين.

وكذلك الحال فى نيجيريا حيث وصل البريطانيون بعد البرتغاليين والهولنديين، فبنت شركة تجار لندن حصنها على جزيرة فى نهر «جامبيا» عرف باسم «حصن جيمس».

وفى صلح «أوترخت» سنة ١٧١٣ ـ ١٧١٤م حصل الإنجليز من أسبانيا على حق احتكار توريد الرقيق للمستعمرات الأسبانية. ومنذ هذه السنة أخذ الإنجليز دور القائد فى تجارة الرقيق فى غرب أفريقية.

كذلك انتزعت بريطانيا جزيرة موريشيوس من فرنسا، كما انتزعت مستعمرة الرأس من هولندا سنة ١٨٠٦م، فى أثناء الحروب النابوليونية. وكان سكانها من البوير، وهم سلالة الهولنديين الذين اختلطوا بالوطنيين فى أثناء الحكم الهولندى فى القرن التاسع عشر، وكانوا يستغلون الأراضى ويستعبدون السكان الأصليين الأفريقيين.



الفصل السابع

الثورة الفرنسية

(١) تمهيد

القرنان السابع عشر والثامن عشر

قامت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، وقد سبقها قرنان يهمنا أن نبرز معالمهما وخصائصهما، وهما القرن السابع عشر، والقرن الثامن عشر.

وبالنسبة للقرن السابع عشر فيعد عصر الملكيات المطلقة فى أغلب الممالك الأوروبية، وعصر السيطرة الفرنسية. فقد خرجت الدول القومية من الصراع الدينى العنيف فى القرن السابق تسودها الانقسامات الدينية، لذلك صارت تتطلع لتأسيس نظام من الحكم القومى يقضى على الفوضى والانقسام، ووجدت السبيل لذلك فى تثبيت دعائم الحكم الملكى فى الدولة الحديثة، ومنحه السلطات المطلقة.

فظهر فى فرنسا ملوك البوربون Bourbon العظام، وتمتعت أسبانيا بحكومة مركزية موحدة.

وفى ألمانيا حاولت أسرة الهابسبيرج Habsburgs القضاء على الانقسام الدينى بين رعاياها من الكاثوليك والبروتستانت، عن طريق القضاء على البروتسنت، فتسببت هذه المحاولة فى اشتعال حروب الثلاثين سنة من ١٦١٨ ـ ١٦٤٨م، والتى انتهت بمعاهدة وستفاليا المشهورة سنة ١٦٤٨م، التى أصبحت الأساس الذى استندت عليه الدول الأوروبية فى علاقاتها القانونية حتى قيام الثورة الفرنسية.

وفى هذه الحرب تدخلت الدول الأوروبية تحدوها مصالحها الذاتية، فمثلا السويد كانت تخشى من امتداد نفوذ أسرة الهابسيرج فى بحر البلطيق، الذى كانت تحاول أن تجعل منه بحيرة سويدية. وفرنسا كانت تسير على القاعدة الفرنسية الدبلوماسية العريقة – قاعدة العداء للهابسبيرج، واعتبار أملاكها التى تقع فى شرق فرنسا ميدانا للتوسع الفرنسى.

وقد انتهت الحرب ـ كما ذكرنا ـ بصلح وستفاليا سنة ١٦٤٨م الذى يعتبر بداية مرحلة جديدة فى تكوين أوروبا الحديثة.

فبالنسبة لألمانيا، فلم تظفر بالوحدة المنشودة، بل خرجت منها مفككة أكثر من ذى قبل. وبالنسبة للصراع الدينى فقد أنهى الصلح هذا الصراع.

وبالنسبة للدول الأخرى، فقد مهد السبيل لظهور دول جديدة عندما أخرجت سويسره من الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وأنشئت فى هولنده دولة مستقلة لم تلبث أن صارت مبرزة فى ميدان الاستعمار الأوروبى. ثم وضعت الأسس التى مكنت إمارة براندبرج Brandenburg الألمانية من النمو المطرد، حتى أصبحت مملكة بروسيا الحديثة.

وكذلك تدعمت حدود فرنسا الطبيعية الشرقية مما مكنها من إحراز التفوق السياسى فى أوروبا، حتى إن التاريخ الأوروبى بعد صلح وستفاليا أصبح يدور حول حروب ملوك فرنسا العظام، وخصوصا حروب لويس الرابع عشر (١٦٦٧ ـ ١٧١٤م).

على أنه يلاحظ أن الانقسام الدينى فى اوروبا بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد أثر فى انقسام أوروبا إلى نوعين من الملكيات: الملكيات المطلقة والملكيات الدستورية، وهو الانقسام الذى ظهر فى القرن السابع عشر.

فقد مهدت الكاثوليكية، بما انطوت عليه من عناصر النظام والطاعة الفرصة لتدعيم الملكيات المطلقة، فى حين ساعدت البروتستنتية، بما تضمنته من احترام الفرد والفردية على ظهور الديمقراطية المحدودة.

وفى مقدمة الدول الاستبدادية فرنسا لويس الرابع عشر، وبروسيا، وروسيا، ودول البلطيق، وأسبانيا، وأما الدول الدستورية فهما إنجلترا وهولندا.

وبالنسبة لإنجلترا بالذات، فقد ظلت بمنجاة من نظام الملكيات المطلقة بسبب عزلتها وبسبب تقاليدها الموروثة، وقد قامت محاولة

لإقامة الحكومة المطلقة كان نصيبها الفشل. فأعدم الملك شارل الأول (١٦٤٩م)، وأقيمت الجمهورية فى ١٩ مايو ١٦٤٩م، ثم أعيدت الملكية فى أول مايو ١٦٦٠م، ولكن قامت ثورة بيضاء سنة ١٦٨٨م، انتهت بإقصاء جيمس الثانى عن العرش، وبهذا الإجراء قضى البرلمان على نظرية الحق الإلهى للملوك، وأصبح الملك يحكم باختيار الشعب والبرلمان، وصدر قانون الحقوق Bill of Rights، وبمقتضاه أعلن خضوع الملك للقانون، وبذلك ينتهى النزاع الدستورى الطويل فى انجلترا بانتصار البرلمان، وينتهى الصراع الدينى أيضا بصدور قانون التسامح Toleration Act، الذى يمنح الجميع حق العبادة العلنية.

أما القرن الثامن عشر، فيعرف باسم عصر الملكيات المستبدة المستنيرة Benevolent Despotism، والفرق بين القرنين السابع عشر والثامن عشر فى هذا المجال هو أن بعض الملكيات التى كانت مستبدة مطلقة فى القرن ١٧ قد تميزت بطابع الاستنارة فى القرن ١٨ - أى صارت تعتبر نفسها خادمة للشعب، بعد أن كانت سيدته، وبالتالى صارت تعمل لصالح الشعوب المحكومة ولصالح الدولة قبل أى اعتبار آخر.

وقد عرف هذا الطراز من الملكيات فى روسيا على يد أسرة رومانوف Romanoff التى بدأت تظهر على مسرح السياسة الأوروبية كدولة حديثة منذ أخذت تهاجم الأتراك العثمانيين فى القرن السابق، وتحاول أن تجد لها منافذ تساعد على خروجها من عزلتها الأسيوية إلى ميدان «الأوروبية». ويعرف هذا بالاتجاه نحو الغرب.

كما يعرف هذا الطراز أيضا فى بروسيا على يد أسرة هوهنزلرن Hohenzollern التى عنيت بالجيش والإدارة، فألف فردريك وليم الأول (١٧١٣ ـ ١٧٤٠م) جيشا من ٨٠ ألف جندى، ارتفعت به بروسيا، الدولة الصغيرة، إلى صفوف الدول الكبرى من الناحية العسكرية، كما ارتفع بالجهاز الإدارى، حتى أصبحت الإدارة المدنية لا تقل فى دقتها وتنظيمها عن الجيش.

وفى النمسا وسع الهابسبيرج أملاكهم، وإزدادت قوتهم فى بداية هذا القرن، وبذل الأباطرة جهودا كبيرة لتوحيد البلاد، وأحدثوا انقلابا فى نظم الإدارة والحكم فى النمسا للقضاء على نفوذ النبلاء ورجال الدين، متخذين بروسيا كنموذج فى الإصلاح والبناء.

وأما إنجلترا، فقد تدعمت الديمقراطية فى عهد أسرة هانوفر Hanover باختيار الملك وزراءه من بين حزب الأغلبية فى مجلس العموم، وبذلك وصل الدستور الإنجليزى إلى مرحلته التى ميزته عن غيره من الدساتير حتى الوقت الحاضر، ووقع التوافق الضرورى بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية بما له من تأثير على الصالح العام.

ولم يبق ثمة من الدول العظمى من تنفرد بنظام الحكم الملكى المطلق سوى فرنسا، مما كان له تأثيره فى قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م.

(٢) الثــورة الفرنســية

أولاً : المجتمع الفرنسى عشية الثورة الفرنسية

المجـتـمـع الفـرنـسى قـبل الثـورة الفـرنسـيـة كـان حـافـلا بالتناقضات الطبقية والصراع الطبقى. ولم يكن التناقض واقعا فقط بين كل طبقة وغيرها من الطبقات الأخرى، بل كان واقعا داخل كل طبـقة بين أجنحـتـهـا المخـتلفـة. ويمكن تحـديد هذه التـنـاقـضـات فى أربعة تناقضات أساسية:

١ـ التناقض بين البرجوازيين والإقطاعيين.

٢ـ التناقض بين الإقطاعيين والفلاحين.

٣ـ التناقض داخل الكنيسة وبينها وبين الفلاحين.

٤ـ التناقض بين الإقطاعيين والملكية.

وبدون فـهم هذه التنـاقـضـات لايمكن فـهم تطورات الثـورة الفرنسية.

(١) التناقض بين الإقطاعين والبورجوازيين :

كان أهم فارق اجتماعى فى فرنسا قبل الثورة هو الفارق بين الإقطاعـيـين (الذين يطلق عليـهم اسم النبـلاء Noblesse) وبين البورجوازيين وغيرهم من الطبقات الأخرى.

وقد حاول منظرو الطبقة الإقطاعية تبرير هذا الفارق بنظرية الدم. فقد برر بولانفييه Boulainvilliers هذا الفارق بنظرية مؤداها أن النبلاء أخلاف الغزاة الفرنجة، وأن العامة (يقصد بهم الطبقة البرجوازية والطبقات الأخرى) ورثة الأهالى الكلت ـ الرومان. وقد لقيت هذه النظرية هجوم فولتير الذى وصف هؤلاء الأسلاف الفرنجة بأنهم «أشبه بالوحوش تطلب المرعى والمأوى والثياب القليلة تتقى بها الثلج»

مع ذلك فهناك جانب من الحقيقة فى النظرية. فمن المعروف أن النظام الاقطاعى قد قام فى أوروبا على أثر انهيار الامبراطورية الرومانية تحت جحافل البرابرة الجرمان، وتأسسيهم ممالك جديدة داخل حدود الإمبراطورية. فقد كان تأسيس هذه الممالك على أنقاض العالم الرومانى أوضح اشارة لانتهاء العصور القديمة وبداية العصور الوسطى، أو بداية عصر الإقطاع.

وترتب على الحروب الداخلية التى نشبت فى أعقاب هذه الغزوات بين الغزاة أنفسهم، أن أخذت السلطة المركزية فى التدهور، وظهرت طبقة جديدة من النبلاء من أتباع الملك سرعان ما ازدادت قوتها بسبب الامتيازات التى حصلت عليها، وأصبحت فى

يدها جميع السلطات، كالقضاء وتجنيد الجيش وجمع الضرائب وغيرها. وكانت هذه الطبقة هى التى توارثت الحكم فى فرنسا حتى بعد قيام الدولة القومية فى أوائل العصور الحديثة، التى قامت على أساس الولاء للملك الذى يمثل شخصية الأمة.

على أن نظرية الدم – من جـانب آخـر ـ لم تكن تمثل كل الحقيقة، لأن الملكية كانت قد أطاحت بهذا المفهوم ببيعها ألقاب الشرف لأفراد من الطبقة البرجوازية ممن يحيون حياة النبل، وذلك تحت افتقارها وحاجتها إلى المال. كما أن الأسر الإقطاعية نفسها قد أفسدت دمها النبيل بـ «تسميد أراضيهم» ـ على حد تعبيرهم الأنيق ـ بالزواج غير المتكافئ من وارثات برجوازيات.

وعلى ذلك فقد كان من المحال أن يزعم زاعم فى أواخر القرن الثامن عشر أن النبلاء – نقصد بهم أفراد الطبقة الإقطاعية – يتميزون بيولوجيا عن بقية السكان.

وقد انقسمت طبقة النبلاء إلى عدة أجنحة تتناقض مصالحها تناقضا بينا. فإلى جانب الانقسام العرقى السالف الذكر، كان هناك انقسام حسب الوظيفة الاجتماعية.

فقد كانت الأسر الحربية Noblesse d'épée تحتقر الموظفين الحكوميين وأعضاء البرلمان الذين رفعوا إلى مرتبة النبلاء. وهؤلاء يحتقرون نبلاء المدن من سراة البورجوازيين الذين اشتروا وظائف شرفية تضفى على شاغلها نبلا شخصيا أو وراثيا.

كذلك كان هناك انقسام بين نبلاء البلاط ونبلاء الأقاليم، نتيجة مباشرة لسياسة المركزية التى اتبعها لويس الرابع عشر.

ذلك أن المعاشات والمنح والوظائف كانت وقفا على أفراد أسر البلاط والمقيمة فى فرساى فى الغالب، وهم قلة يتراوح عددهم بين ٤ آلاف و ٢٠ ألف من بين مجموع النبلاء، البالغ عددهم ٤٠٠ ألف. وكان هؤلاء يختارون من أسر نبلاء السيف العريقة. وكانت هذه الطبقة من نبلاء البلاط تبدى الاحتقار لجلافة نبلاء الريف!. أما هؤلاء فكانوا يكنون الاحتقار الصريح لنبلاء البلاط الذين يسمونهم «المتحذلقين من ذوى الحلل المذهبة الذين يحيطون بالملك».

يضاف إلى ذلك أن ثراء طبقة النبلاء، وموارد دخلها، وعاداتها وتقاليدها المقررة، كانت تتفاوت من إقليم لآخر تفاوتا هائلا. فلم يكن ثمة شبه بين صورة النبيل الريفى الخامل فى Brit-tany وبين مزارعى سهل تولوز الأثرياء، أو نبلاء إقليم بوردو Bor-deaux المشتغلين بزراعة الكروم، أو أرستقراطيى ليون ذوى العقلية الصناعية. كما كان إلى جانب الدوق أورليان Orlean، الذى كان من أغنى أغنياء فرنسا، نبلاء أقاليم يحرثون أرضهم الصغيرة الرقعة بأنفسهم.

على أن النبلاء، رغم هذا الاختلاف والتناقضات الكبيرة داخل صفوفهم، كانوا سواء فى التمتع بمركز ممتاز فى المجتمع، قائم على زعم أنهم طبقة ملاك إقطاعية، تشارك فى الحكومة الملكية، وتخدم الملك فى الحرب، وتحفظ النظام فى الريف.

وكانت هذه الطبقة فى مجملها تملك خمس الأراضى فى فرنسا. وكانوا معفون من ضريبة التاى Taille العقارية، وهى أقدم الضرائب المباشرة، ومن السخرة الملكية لبناء الطرق وصيانتها التى عممت فى القرن الثامن عشر.

وقد حاول الملك لويس الرابع عشر وخلفاؤه فرض الضرائب على النبلاء، ولم تنجح محاولاتهم الا نجاحا يسيرا. فقد فرضت ضريبتان: هما ضريبة الرءوس Capitation والضريبة العشرينية أو ضريبة الدخل Vigntieme على جميع الرعايا نظريا، ولكن الاقطاعى كان يعفى منها على جزء من أرضه المزروعة إذا زرعها بنفسه، وعلى مروجة وبساتينه وكرومه.

يضاف إلى ذلك أن مناصب الحكم المهمة كانت مخصصة للنبلاء الإقطاعيين، كمناصب القيادة فى القوات المسلحة، ومناصب السفراء، والمناصب العليا فى الكنيسة. ففى هذه المجالات جميعها كانت أعلى المراكز حكرا للأسر الإقطاعية الكبرى بفرساى، فى حين كانت وظائف الدرجة الثانية منها حكرا على نبلاء الريف.

على هذا النحو كانت الطبقة الإقطاعية تشترك فى الحكم، فى حين كانت الطبقة البرجوازية، التى لم تكن تقل ثراء عنها، وإن كانت ثروتها تتركز فى التجارة والصناعة ـ محرومة منه. ومن ثم فقد كان من الضرورى أن يقوم الصراع بين الطبقتين.

وفيما يتصل بالطبقة البورجوازية، فقد استطاعت استغلال حاجة الملكية المتزايدة للمال فى شراء بعض الوظائف المدنية والعسكرية فى الدولة، وحرمان الإقطاعيين، الذين عجزوا عن

المزايدة عليها منها. وبلغ سلطان المال مبلغا لم يكن معه بد - حتى فى فرساى نفسها - من السماح للبورجوازيين بالجلوس على مائدة القمار الملكية، للاحتفاظ بعدد اللاعبين!

• وقد أقيمت فى حكم لويس السادس عشر - على الأخص - سلسلة من السدود لصد التيار البورجوازى الداهم. ولكن الصعوبات لم تكن هينة، لأن النبلاء المدينين للبورجوازيين أرادوا استخدام نفوذهم لخدمة دائنيهم البرجوازيين.

وفى الحقيقة أن دخول البورجوازيين فى صفوف النبلاء كان يتزايد من قبل الثورة الفرنسية بقرنين من الزمان. فقد أسفرت الأبحاث التى أجريت فى ذلك الحين عن تأييد ما قدره نيكير Necker من أن نصف النبلاء تقريبا فى عام ١٧٨٩م كانوا قد حصلوا على ألقاب النبل خلال القرنين السابقين!

وهنا يجدر ملاحظة أن هذين القرنين قد شهدا نمو البورجوازية الأوروبية فى ظل الدولة القومية، وأن البورجوازية فى ذلك الحين كانت أكبر عون للملكية فى مواجهة أمراء الإقطاع. وفى خلال القرن الثامن عشر الميلادى كان دخول أفراد من الطبقة البورجوازية فى صفوف الطبقة الإقطاعية الفرنسية يسير بخطى حثيثة بسبب ثراء هذه الطبقة البورجوازية وافتقار التاج.

ويمكن القول إن البورجوازية كانت تتكون من ثلاثة أجنحة:

الجناح الأول، جناح أصحاب المهن الحرة.

والجناح الثانى، جناح رجال المال والأعمال.

وأما الجناح الثالث فجناح أصحاب السفن والتجارة.

وفيما يتصل بالجناح الأول، فإن الملكية الفرنسية كانت قد أعانت على تطوير الطبقة الوسطى من المشتغلين بالقانون والإدارة، تحقيقا لأهدافها. وكثيرا ما كانت هذه الطبقة فى الماضى حليفا لها ضد أشراف الإقطاع. وقد أتاح النظام القديم بمحاكمه التى لا حصر لها وبيروقراطيته الواسعة، العمل وفرصة الثراء لأمثال هؤلاء الرجال، والدخول فى صفوف طبقة النبلاء فى النهاية.

ويمكن القول بوجه عام إن موقف المحامين والموظفين الملكيين من الطبقة الإقطاعية كان موقف التطلع لا الخصومة! ولم يتبدل هذا الموقف إلى الخصومة إلا حين أخذت أبواب الدخول فى الطبقة الاقطاعية تغلق فى وجوههم واحدا وراء الآخر. وقد غير اثنان من هؤلاء المحامين اسميهما من Derobespierre, Danton إلى De Robespierre, d'Anton وهما يجهلان ما يخبئه القدر! والأمثلة المشابهة كثيرة.

أما رجال المال والأعمال فقد شقوا طريقهم فى الحياة، تعينهم حينا الإنعامات أو الترخيصات أو الاحتكارات، ولكن بوجه الإجمال خارج إطار الإقطاع، أى إطار الملك والحكومة، والنبلاء، والفلاحين.

ومع ذلك فإن أرفع فئات رجال المال والأعمال، وهم المصرفيون، ساقتهم الظروف إلى اتصال أوثق بالحكومة الملكية، وانتهى الأمر بالحكومة إلى الاعتماد على معونتهم.

فقد استؤنف تأجير التزام جمع الضرائب فى سنة ١٧٢٦م، وبالتدريج أصبح الملتزمون العموميون Fermiers generaux الذين تعاقدوا لجمع هذه الضرائب فرعا من الحكومة ذاتها تقريبا.

وعندما عجز التاج ابتداء من عام ١٧٥٠م عن رد التأمين للملتزمين عند نهاية عقدهم، بات هؤلاء دائنين للحكومة باستمرار، واستغلوا ضعف التاج فى شراء حق توريث وظائفهم لأبنائهم، الأمر الذى جعل هذه الفئة طبقة منغلقة تقريبا، وثيقة الصلة بالحكومة، تزوج بناتها لأرقى النبلاء.

فلما ساء المركز المالى للحكومة، أضيف إلى مواردها من الملتزمين العموميين قروض من السوق المالية الدولية، فأفضى هذا إلى اتصال نفر من المصرفيين الدوليين بالتاج، وأبرز هؤلاء نيكير Jaques Necker.

ويلى هؤلاء الماليين، الذين كانوا وثيقى الصلة بالحكومة، أصحاب السفن والتجار. ولم يكن هؤلاء بأقل امتناعا على الإغراء، الذى زين لهم اعتزال أعمالهم وبناء البيوت الريفية والحياة على طريقة النبلاء!. وإن كانوا أقل من المحامين ميلا إلى اعتبار الوصول إلى مراتب الشرف والنبل، النهاية الممكنة الوحيدة لحياتهم المهنية الناجحة.

ومع ذلك فإن إقبال أثريائهم على شراء ألقاب الشرف قد جعل نيكير يأسف قائلا: «إننى لا أتردد فى تأكيد القول بأن هذه النزعة تعطل نمو التجارة الفرنسية بأسرها، فالتجارة هى من أهم الأسباب التى ساعدت كثيرا من الأمم، التى لا تلحظ فيها فوارق المركز الاجتماعى بمثل هذه الحدة، على التفوق على فرنسا فى كثير من الميادين».

على أن نيكير قد نسى أن تطلع هذه الطبقة إلى ألقاب النبل، والدخول فى طبقة النبلاء كان له ما يبرره، وهو ارتباط وظائف الحكم المهمة بالنبالة!

فهذه الطبقة حين كانت تشترى ألقاب النبل، كانت فى الوقت نفسه تدفع بنفسها إلى مراكز السلطة. لذلك نلاحظ أن اهتمام هذه الطبقة لم يقتصر على المركز الاجتماعى وحده، بل تعداه إلى الحرية المدنية والتحرر من نير الحكومة المستبدة.

على أنه لما كانت الحكومة النيابية فى النظام القديم ترتكز على «البرلمانات» (المحاكم العليا) ومجالس الطبقات الإقليمية، التى كانت معاقل للرجعية الإقطاعية، فقد وجدت الطبقة البرجوازية نفسها فى حيرة: فمهاجمة الحكم المطلق معناها اطلاق يد الطبقة الإقطاعية التى تتناقض مصالحها معها وتفردها. ولذلك كان الحل هو محاولة الدخول فى صفوف الطبقة الإقطاعية ومشاركتها فى الحكم!

على كل حال فقد لقى هذا الهجوم البرجوازى مقاومة عنيدة من الطبقة الإقطاعية. وقد بلغت هذه المقاومة أشدها فى عهد لويس السادس عشر. فقد نجحت جهود هذه الطبقة والحكومة الملكية متضافرة، وشيئا فشيئاً، فى سد معظم الثغرات التى تنفذ منها البرجوازية إلى الحكم.

وكانت الملكية قد فطنت إلى المفهوم الذى تحمله الطبقة البرجوازية عن الديموقراطية أو الحكومة النيابية، وهو مفهوم

يستهدف سلطات الملك وسلطات النبلاء معا، لا سلطان النبلاء فقط، لذلك فسرعان ما أخذ الملك يتجه أكثر فأكثر إلى صفوف النبلاء ليملأ منهم كراسى الأسقفيات الشاغرة، كما قرر أن تكون جميع الترقيات إلى مناصب الكنيسة، من أبسط الأديرة إلى أغناها، وقفا على النبلاء، وما وافت سنة ١٧٨٩م حتى كان جميع الأساقفة بالتأكيد من النبلاء.

على أن أروع انتصار للطبقة الإقطاعية على البرجوازية كان «قرار سيجور Segur» سنة ١٧٨٦م، الذى قصر تعيين نبلاء الجيش ـ فيما عدا استثناءات قليلة ـ على من يثبتون انحدارهم من أربعة أجيال من النبلاء!

ولما كان نبلاء البلاط بصفة خاصة يختارون من أسر نبلاء السيف العريقة كما ذكرنا، فقد كانوا وحدهم الذين استفادوا من هذا القرار على حساب النبلاء الجدد البورجوازيين ونبلاء الأقاليم المغمورين، وسرعان ما غزا أبناء أسر البلاط الكليات الحربية الخمس التى أنشئت فى سنة ١٧٧٧ لينتفع بها نبلاء الأقاليم. وفى سنة ١٧٨٨م تقرر أن تكون قيادة الفرق العسكرية (من الناحية الفعلية) وقفا على نبلاء البلاط.

وبذلك قضى على آمال النبلاء الجدد من البورجوازيين تماما، فإن انغلاق الطبقة الإقطاعية على هذا النحو قد حرمهم من منافع عملية بالغة الأهمية، كان مركزهم من قبل يتيحها لهم. فنشأ نتيجة

لذلك تناقض حاد فى المصالح بين الفريقين، وزادت حدة التناقض بين نظام المراتب الاجتماعى والبناء الاقتصادى للبلاد.

ثم زاد الأمر أن التجار والصناع على السواء، كانوا يعانون من المكوس والحواجز الجمركية الداخلية، التى كان النبلاء مسئولين عن بعضها مسئولية مباشرة، والتى دافعت عنها البرلمانات ومجالس الطبقات الإقليمية أمام محاولات الملكية لفرض الوحدة فى جميع أرجاء فرنسا، هذا فضلا عن نظام طوائف الحرف الفاسد الذى يعوق سوق العمل. وبذلك أصبح النظام الحكومى والإقطاعى يقف عقبة أكيدة فى طريق تقدم هذه الطبقة وباتت تتوق لقلبه والتخلص منه.

(٢) التناقض بين الطبقة الإقطاعية والفلاحين :

بعد أن انتهينا فى إيجاز من عرض التناقض بين الطبقة الإقطاعية والطبقة البورجوازية، ننتقل لعرض التناقض بين الطبقة الإقطاعية والفلاحين.

كان أكثر من عشرين مليونا من السكان الفرنسيين، البالغ عددهم ٢٦ مليونا، يعيشون على الأرض الزراعية فى أواخر القرن الثامن عشر. وكانت المسألة الزراعية فيها على جانب كبير من التعقيد.

فقد تفردت فرنسا عن غيرها من دول أوربا بوجود الامتيازات الإقطاعية جنبا إلى جنب مع طبقة من الفلاحين الذين يعتبرون ملاكا لأراضيهم إلى حد كبير. وكان قلة منهم فقط هى التى ملكت من الأرض ما يكفى لإعالة أسرهم على مدار السنة، أما الغالبية الكبرى فكانوا من الفلاحين الإجراء، أى الذين يملكون مساحة من الأرض لا تكفيهم غلتها ويضطرون إلى العمل أجراء – جزءاً من السنة، وكانت نسبة منهم قادرة على استئجار مساحة من الأرض إذا أضيفت إلى الأرض التى يملكونها كفتهم غلتها.

أى كان هناك ثلاث فئات: مالك تكفيه غلة أرضه، ومالك قادر على استئجار أرض إلى جانب أرضه، ومالك مضطر إلى تأجير عمله.

وكان إطعام أسرة واحدة يقتضى زرع عشرين فدانا من الأرض الجيدة، ولما كانت غالبية الفلاحين أفقر من أن تستطيع استئجار أراض إلى جانب الأراضى التى تملكها، وعاجزة عن اقتناء البهائم والأدوات الزراعية، فقد أصبح معظمهم مشاركين للمالك يعملون بطريقة المزارعة metayers، أى يزودهم بالبهائم والأدوات مقابل نصف المحصول وقدر من الخدمة فى أرضه عادة.

وكان على الفلاحين أن يؤدوا كثيرا من الواجبات ذات الأصل الإقطاعى، التى كانت تمثل فى وقت من الأوقات العلاقة القائمة بينهم وبين سادتهم الإقطاعيين، ولكنها أصبحت الآن، بعد أن فقدت كل معناها الاجتماعى، مجرد أعباء مثيرة للسخط.

وكانت الامتيازات الإقطاعية نوعين: نوع يتعلق بالأرض، ونوع يتعلق بالأشخاص.

أما النوع الذى يتعلق بالأرض فيتمثل فى الرسوم التى تدفع عند بيع قطعة أرض، أو التى تدفع عند تعيين حدود كل مزرعة، أو الرسوم المحصلة عينيا على مختلف المحصولات وقت الحصاد.

أما النوع الثانى الذى يتعلق بالأشخاص، فيتمثل فى احتكار الشريف للطاحون ومعصرة النبيذ والمخبز، ومنع الغير من ذلك، وفى المحاكم الإقطاعية التى تعزز سلطة الشريف، فضلا عن مده بمورد للدخل، وفى حق برج الحمام الذى يخول للشريف إطعام حمامه على حساب الفلاح، ثم حقوق الصيد التى كانت أهميتها تتمثل فى إتلاف أرض الفلاح. هذا فضلا عن جباية المكوس عند عبور الجسور أو السير فى الطرق، والخدمات العسكرية والمدنية وأنواع الخدمات التى كان مكلفا بها أهل الإقطاعية.

ولقد كانت هذه الامتيازات الإقطاعية تمثل بالنسبة للشريف الإقطاعى مورد دخل إضافى، ووسيلة للهيمنة على الجماعات الفلاحية، وسلاحا لنزع أملاك الفلاحين الذين أغرقتهم متأخرات الإيجار المتراكمة عليهم فى الديون لسادتهم الإقطاعيين.

وكانت لوائح الأطيان Terries التى تعدد حقوق السيد، تجدد باستمرار منعا لسقوط الحقوق القديمة بالتقادم، وأحيانا لتحويل التقليد إلى سابقة قانونية! وتمكن بعض الاقطاعيين الذين استعانوا

بمحامين تخصصوا فى القضاء الإقطاعى من اكتشاف حقوق لم تنفذ منذ سنوات كثيرة، فاستطاعوا أن يطالبوا بمتأخراتها.

وقد أسفر هذا الضغط «الإقطاعى» المتزايد عن سيل من الاتهام والقضايا، وأعمال العنف من جانب الفلاحين، فتفاقمت بذلك التوترات الاجتماعية فى الريف.

هذا على كل حال يمثل جانبا واحدا من التناقض بين الفلاحين والنبلاء، وهو الحقوق الإقطاعية. أما الجانب الآخر فيتمثل فى عدم المساواة فى الحقوق والواجبات أمام القانون.

فقد أشرنا إلى أن النبلاء كانوا يعفون من ضريبة التاى Taille، وهى الضريبة العقارية المفروضة على الأراضى والمسكن، ومن السخرة الملكية لبناء الطرق وصيانتها، وضريبة الرءوس Cap-itation وضريبة الدخل Vigntieme. وبذلك تعدى سخط الفلاحين النبلاء إلى النظام نفسه: نظام العلاقة الإنتاجية الذى يسند مصالح هؤلاء النبلاء.

فإذا ما بلغنا سنة ١٧٨٩م وجدنا جانبا كبيرا من الريف قد تهيأ للثورة. لقد كان العدو الحقيقى لأغلب الفلاحين هو مالك الأرض الكبير، نبيلا كان أو بورجوازيا أو مزارعا حرا، الذى يهددهم جشعه بانتزاع أراضيهم.

ولكن أهم مالك فى القرية هو الشريف الإقطاعى، الذى كان مسئولا عن عبء الرسوم الإقطاعية المتزايد. وكان إعفاؤه من

الضرائب الملكية وعدم دفع نصيبه الكامل منها، سببا فى زيادة وطأتها وثقلها على كاهل الفلاحين.

وكانت المحاكم الإقطاعية تسند الشريف، الذى كان استغلاله للامتيازات الطبقية استغلال المحترفين، عبئا ثقيلا على كواهل الفلاحين، فى حين لم تكن الإدارة الملكية تعير تظلمات الفلاحين إلا أذنا صماء. وهكذا تهيأ الريف للثورة.

(٣) التناقض داخل الكنيسة وبينها وبين الفلاحين:

كانت الكنيسة الفرنسية فى القرن الثامن عشر هيئة شبه مستقلة استقلالا ذاتيا، تتدخل فى حياة المجتمع السياسى والاجتماعى والاقتصادى على جميع المستويات، وتفلت فى الوقت نفسه من هيمنة الدولة.

ومع أن الكهنة لم يتجاوز عددهم ١٠٠ ألف، فإنهم ملكوا عشر الأرض، فضلا عن التمتع بدخل لايستهان به من العشور المفروضة على الفلاحين، وكانوا يحكمون أنفسهم بمجامع تجتمع مرة كل خمس سنوات.

وكان للكنيسة إدارتها الخاصة، وهى مسئولة عن ماليتها. وكانت معفاة من الضرائب. ولكنها قدمت منحة للتاج استطاعت بها أن تفرض الضغط المالى على الحكومة، عن طريق التهديد بقطع هذه المعونة للخزانة أو خفضها

ولم تكن الكنيسة مستقلة ذاتيا وحسب، بل إنها مارست كثيرا من السلطة التى طالبت بها الحكومات المدنية فيما بعد. فقد كانت تهيمن على التعليم هيمنة تكاد تكون تامة، وكان الإعلام فى قبضتها جزئيا، لأن منبر الكنيسة كان الوسيلة الوحيدة لنشر الدعوة لسياسات الحكومة على جمهور كبير معظمه من الأميين. أضف إلى ذلك أن الكنيسة كانت فى استطاعتها منع المطبوعات التى ترى فيها خطرا على الدين أو الأخلاق.

ولم تكن الكنيسة مالكة كبيرة للأرض فحسب، بل مصدرا للعمالة فى المدن، وعلى سبيل المثال فقد كانت الطوائف والطرق الدينية تمد معظم المستشفيات بموظفيها.

وكان النبلاء والبورجوازيون قد تربوا فى مدارسها، والسكان جميعا يحتفلون بأعيادها الدينية، وكانت أملاكها تشغل أجزاء كبيرة من المدن، ففى تولوز Toulouse فى الجنوب وأنجيه Angers شغلت المبانى الكنسية وحدائقها نحو نصف المدينة.

وكان نظام الكنيسة الفرنسية مرآة تعكس نظام المجتمع العلمانى! فقد فرق هذا النظام تفرقة حادة بين القيادة الكهنوتية الحاكمة والقاعدة من رجال الدين المعسرين. وكانت هذه التفرقة تقوم أساسا على شرف المولد.

فقد كان الأساقفة كلهم من النبلاء، كذلك كانت رئاسة كثير من المجامع الكهنوتية «والبيوت الدينية» للرجال والنساء، حكرا

للطبقة الإقطاعية دون غيرها، بل كثيرا ماكان رؤساء الأديرة ورئيساتها ونظار الكنائس يعينون وهم بعد أحداث! وشاع الجمع بين المناصب، وكفلت الرواتب الكنسية السخية والمنافع المتجمعة رزقا مربحا لرجال الدين النبلاء.

وقد عين بعض كهنة المجامع الصغيرة فى مناصبهم بفضل أسراتهم البورجوازية القوية، ولكن الغنائم الكبرى ظلت بعيدة عنهم. فقد كانت العشور تنقل لصالح الأديرة أو كهنة الكاتدرائيات، ويترك للخورى Curé إعانة بسيطة، مما دعا الكثيرين منهم إلى استكمالها عن طريق القيام بعمل إضافى متواضع.

أما القساوسة الوكلاء Vicaires الذين لم يتيسر لهم هذا العمل الإضافى فكانوا يعيشون فى فقر مدقع.

وإلى جانب التناقض الداخلى داخل الكنيسة بين الأساقفة النبلاء ورجال الدين من المراتب الصغرى، فقد قام التناقض بينها وبين الفلاحين. فقد شاركت الكنيسة - بوصفها مالكة كبرى للأرض، ومالكة ملكية إقطاعية - فى إدارة أملاكها إدارة غلبت عليها روح الكسب، الأمر الذى رأى فيه الفلاحون جشعا وبخلا قبيحا.

وقبل الثورة الفرنسية كان رجال الطبقة الدنيا من الكهنة قد أخذوا يهاجمون ماسموه «بتسلط النبلاء الأرستقراطى داخل الكهنوت»، ويطالبون بالمزيد من النفوذ داخل المجامع الخمسية. وقد أفضى تمرد« الخوارنة» عام ١٧٨٠م، الذى طالبوا فيه بتمثيل أكبر فى مكاتب الأسقفيات، إلى إعلان ملكى حرم عليهم «تشكيل أى

اتحاد أو حلف» (وهو مثال آخر لاستعداد الملك تسخير اهتمامه بالدين لمصالح الطبقة الأرستقراطية!). ولما كان قسس الأبرشيات يسيطرون فى الغالب على مسامع جمهور كنائسهم، متمتعين بعطف الناقدين المثقفين لكبار رجال الدين، فقد ضاعف هذا التصدع فى صفوف الكنيسة من الخطر على رؤساء الدين.

وقد أتيح لكهنة أنجيه Angers فيما بعد الحصول للقساوسة على كل المقاعد الأربعة فى مجلس طبقات الأمة فى ١٧٨٩م.

وقد بلغت التوترات الكامنة داخل الكنيسة ذورتها فى عام ١٧٨٨م حين خرج المجمع الكهنوتى على تحالفه التقليدى مع التاج، وانضم إلى النبلاء فى الهجوم على الملكية. فقد أسفرت هذه المحاولة السياسية التى قام بها رجال الدين عن تفاقم الصراعات الداخلية وتحريض القساوسة على التحالف بدورهم مع البورجوازية.

(٤) التناقض بين الإقطاعيين والملكية :

تمتد جذور التناقض بين الإقطاع والملكية إلى العصور الوسطى، حين أخذت السلطة المركزية فى التدهور نتيجة للحروب الداخلية التى نشبت بين الممالك الجرمانية التى تأسست على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، وظهرت طبقة جديدة من النبلاء من أتباع الملك حصلت على امتيازات واسعة، واستجمعت فى يدها جميع السلطات كالقضاء وجمع الضرائب. وقد سارع كثير من

صغار الملاك إلى التنازل لها عن أملاكهم حتى يعيشوا فى حمايتها.

ومنذ ذلك الحين كان النزاع يدب بين الملكية وأمراء الإقطاع، كلما ظهر ملك قوى الشخصية يرغب فى تقوية سلطة التاج على حساب أمراء الإقطاع.

ولكن لما كان الإقطاع مرتبطا وقائما على أوضاع أقتصادية معينة وعلاقات اقتصادية معينة، فلم يكن من الممكن تحطيم سلطة أمراء الإقطاع إلا بعد تغيير هذه الأوضاع الإقتصادية وتغير العلاقات الاقتصادية معها.

وهو ماحدث بعد ظهور الطبقة البورجوازية، التى قامت على أساس التجارة والصناعة بدلا من الزراعة، وما صحب نشأة هذه الطبقة من قيام المدن التجارية التى اتسع نشاطها وازدهرت ازدهارا كبيرا. فقد وقع التناقض بين هذه الطبقة والطبقة الإقطاعية بسبب القيود والحواجز الإقطاعية التى تعرقل حركة التجارة.

ولذلك فقد تحالفت الطبقة البورجوازية مع الملوك ضد الأمراء الإقطاعيين الذين أخذ نفوذهم فى التدهور منذ الحروب الصليبية، وهكذا راحت سلطات الأمراء الإقطاعيين تتجمع فى يد الملك، وبدأت الملكيات تقوى وتتركز فى الحدود التى تجمعها فى معظم الأحيان لغة واحدة وجنس واحد ومذهب دينى واحد.

منذ ذلك الحين أخذ التناقض المزدوج بين الملكية وأمراء الإقطاع عن جهة، وبين البورجوازية وأمراء الإقطاع من جهة أخرى، يفعل فعله فى حركة التاريخ.

ففيما يختص بالصراع بين الملكية وأمراء الإقطاع، فقد رفع أمراء الإقطاع شعار الديمقراطية فى مواجهة الأوتوقراطية، أو شعار مشاركة الشعب فى الحكم فى مواجهة الحكم المطلق. ولكن الحكم الديمقراطى كان يعنى فى نظرهم حكم طبقة النبلاء وحدها.

وفيما يختص بالصراع بين البورجوازية والإقطاع، فقد رفعت البورجوازية أيضا شعار الحكم الديمقراطى فى مواجهة الحكم المطلق وحكم أمراء الاقطاع، ولكن الحكم الديموقراطى كان فى نظرهم يعنى حكم طبقتهم وحدها دون غيرها من طبقات الشعب الأدنى مرتبة.

وقد شهد القرن السابع عشر صراعا داميا بين الملكية والإقطاع فى عهد ريشيليو Richelieu ومازاران Mazarin، ولكن فى القرن الثامن عشر كان الحكم المطلق فى فرنسا يسير فى طريق الاضمحلال. صحيح أن الجهاز الإدارى المركز الذى أنشأه ريشيليوومازاران ولويس الرابع عشر ظل يحكم الدولة من فرساى، وأن «الإرادة الملكية» أو «الخطابات الممهورة» Lettre de Cachet ظلت أهم عامل فى تقرير كل ناحية تقريبا من نواحى السياسة الخارجية والاقتصادية والدينية، ولكن نبلاء البلاط لم يلبثوا أن تسللوا إلى الحكم وأخذوا يحتكرون المناصب الوزارية. وما وافى عام ١٧٨٩م حتى كان جميع الوزراء من النبلاء، الا فردا واحدا هو نيكير المصرفى السويسرى.

وفى الوقت نفسه أخذت الأجهزة التى استخدمتها الملكية للسيطرة على الطبقة الأرستقراطية تتحول هى ذاتها إلى أجهزة أرستقراطية.

ولعل «البرلمانات» أبرز مثال على هذا التحول. فهذه المحاكم الثلاث عشرة، التى كان من المهام الموكولة إليها أيضا تسجيل أوامر الملك، لم تلبث أن تطلعت إلى حق النقض (الفيتو)، وأخذت المناصب الرئيسية فى برلمان باريس، حتى فى حكم لويس الرابع عشر، تتركز شيئا فشيئا فى بعض الأسر القضائية العريقة كأسرة لاموانيون La Moignon وغيرها.

ومن جهة أخرى فقد خلع التاج ألقاب النبل القابل للنقل على جميع مستشارى برلمان باريس سنة ١٦٤٤م. وقوى هذا الاتجاه فى القرن الثامن عشر، وامتد حتى هبط إلى الموظفين القضائيين المختصين بنظر العرائض، وهم موظفو التاج الذين كانت تختار من بين صفوفهم الكثرة الغالبة من النظار أو المفتشين الملكيين In-tendants. ونتيجة لذلك، فإن هؤلاء الموظفين الذين أوجدتهم الملكية وكلاء لها فى السيطرة على نبلاء الأقاليم، أصبحوا أنفسهم نبلاء!

على أن طبقة النبلاء لم ترض عن وضعها، رغم الانتصارات المحدودة التى أحرزتها، لأن أداة الحكم المركزى المطلق ظلت سليمة لم يمسها سوء. فمجالس الطبقات التى ماتت فى القرن السابع

عشر لم تبعث من قبرها، ونبلاء الأقاليم لم يزد نفوذهم السياسى. وقد يكون المتصرف فى سياسة الحكومة نبيلا كالدوق دى شوازيل، ولكن أساليب الحكومة ظلت تعسفية شأنها من قبل. وكانت الإرادة الملكية أو الخطابات المختومة Lettre de Cachet مايزال فى وسعها الزج بالنبيل فى سجن الباستيل. ولم يكن لنبلاء البلاط أنفسهم سيطرة جماعية على سياسة الدولة.

ومن ثم فقد شهد القرن الثامن عشر محاولة متزايدة من مختلف صفوف النبلاء لتحدى الحكومة الملكية، فقد ندد نبلاء الأسر الكبيرة الموجودون فى فرساى «بالاستبداد الوزارى»، وزعمت البرلمانات أن لها حق نقض القوانين «غير الدستورية». أما نبلاء الأقاليم فطالبوا برد مجالس طبقاتهم الإقليمية.

يتضح إذن أن من أهم ألوان الصراع السياسى الذى ساد فرنسا فى القرن الثامن عشر، هو كفاح النبلاء الإقطاعيين ضد سلطة الحكم الملكى. وفى الواقع إن هذا الصراع كان هو الذى فجر الثورة الفرنسية. كما سوف نرى.

ثانياً : النظرية الثورية (الأيديولوجية)

أوضحنا فى دراستنا السابقة توافر الخسائر الثورية فى المجتمع الفرنسى فى التناقضات بين الطبقات. أما النظرية الثورية فقد توافرت بشكل مافى صورة الأفكار والنظريات التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على يد بعض الفلاسفة والمفكريين.

ويهمنا توضيح الظروف الاقتصادية التى أفرزت هذه النظريات. فقد رأينا كيف تكونت الدولة الفرنسية على أنقاض النظام الإقطاعى، وكيف قامت هذه الدولة على أساس ولاء الفرد وولاء الأمة للملك الذى يمثل شخصية هذه الأمة. كما رأينا كيف لعبت البورجوازية التجارية دورا كبيرا فى هدم النظام الإقطاعى وإقامة الدولة القومية.

ولكن بعد حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار، أخذت كميات من الذهب والفضة تتدفق على أوروبا تدفقا مستمرا، الأمر الذى أدى إلى ازدياد ثراء الطبقة البورجوازية ثراء فاحشا، واتساعها اتساعا كبيرا. وقد أدى هذا بدوره إلى تضاعف حاجة هذه الطبقة إلى المزيد من الحريات. وكان لابد أن يكون ذلك على حساب سلطات الملك.

فبدأ من ثم معنى جديد للدولة القومية، يلغى المعنى الأول الذى يقوم على وجوب الولاء المطلق للملك، ويحل محله الولاء

للحكومة التى تمنح الحريات للشعب. وكان هذا المعنى الجديد هو الذى عبرت عنه مجموعة الفلاسفة الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، والذين تمثل أراؤهم ونظرياتهم فى مجملها هجوما على الحكم المطلق، وعلى المؤسسات السياسية والدينية التى تلتف حول هذا النظام.

ففى عام ١٧٤٨م ظهر كتاب مونتسكيو Montesquieu المسمى «روح القوانين» Esprit des Loits، وهو بحث عام فى أشكال الحكومة. وقد صار هذا الكتاب المعين الذى يتزود منه بالأفكار السياسيون الذين ألقيت على عاتقهم مهمة البناء السياسى لبلادهم. وقد تأثر به دستور الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد بعيد، وإن كان الكتاب بدوره متأثراً لحد بعيد بالدستور الإنجليزى. وقد أثار فيه مونتسكيو نظرية فصل السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية، ضمانا للعدالة وصونا للحرية، وقد أشاد فيه بالحكومة المقيدة التى تخضع فى تصرفاتها لمجموعة من الضوابط.

وفى عام ١٧٦٤م نشر جان جاك روسو Rousseau، وهو فرنسى من أصل سويسرى من مدينة جنيف، كتاب العقد الاجتماعى "Le Contrat Social" وقد حاول فيه البرهنة على أن الصلة بين الفرد والدولة قد نشأت نتيجة تطور نقل الإنسان من نظام طبيعى Etat Naturel تغلبت فيه رغبات الفرد الذاتية، إلى نظام اجتماعى Etat Social تنازل فيه الفرد عن رغباته وإرادته إلى المجتمع.

وقد ترتب على نزول جميع الأفراد عن رغباتهم وإراداتهم الخاصة إلى المجتمع أن أصبح هذا المجتمع نفسه الطرف الثانى فى العقد الاجتماعى، فى حين بقى الأفراد أنفسهم الطرف الأول فى هذا العقد. ولأن الأفراد تنازلوا عن إراداتهم للمجتمع وليس لفرد أو لهيئة معينة، فانهم يكونون متمتعين بكامل حريتهم، لأن التنازل تم بمحض اختيارهم وارادتهم. فالعقد يكفل من هذه الناحية تحقيق الحالة الطبيعية الأولى.

وفى الوقت نفسه، تنشأ عن نزول كل فرد عن إرادته الخاصة ورغباته الخاصة، إرادة عامة Volonté general هى التى يتمتع بها المجتمع وحده، ويصبح المجتمع هو وحده صاحب القوة والسلطان المطلق ومقر السيادة العليا Souveraintè – أى تبقى القوة والسلطة العامة التى هى قوة وسلطة الإرادة العامة.

وقد نشأ عن وجود هذا العقد الاجتماعى قيام الجمـ ة السياسية، وتكوين الجثمان السياسى الذى هو دعامة الدولة Etat، والذى تستند عليه الدولة فى تكوينها. ولما كانت الإرادة العامة هى القوة العامة، فللشعب أن يغير حكومته متى شاء، لأن كلمة الشعب فى هذه الحالة إنما تعبر عن رغبته وارادته العامة.

ومن ذلك يتضح أن نظرية روسو قامت على افتراض العقد، والحق فى الثورة، وسيادة الشعب. وهذه النظرية تهدم نظرية الحق الإلهى للملوك فى الحكم، وكل الحقوق التى استندت عليها الملكية.

وقد كانت تعاليم روسو الثورية الجارفة، شعار الطبقة البورجوازية، وأصبحت إلهام كل الطبقات فى أثناء الثورة الفرنسية.

وفى ١٧٥١ نشر الفلاسفة أو الأنسيكلوبيديون Diderot - D'Almbert - Helvetius - D'Holbach أول أجزاء موسوعتهم التى بلغت بين عامى ١٧٥١ ـ ١٧٦٥ سبعة عشر جزءا. وقد بحثوا فيها موضوعات مهمة مثل : الأرستقراطية، والسلطة Autorité والديمقراطية، والقانون، والحكومة، والرق، والملكية، والسياسة، والسيادة العليا Souveraint وغير ذلك. وكانت أكثر بحوثهم مستقاه من كتاب مونتسكيوروح القوانين. وعندما تحدث الانسيكلوبيديون عن «السلطة» هاجموا مبدأ حق الملوك الإلهى، واشترطوا لشرعية السلطة الملكية موافقة الشعب عليها، وهذه الموافقة الشعبية حتمية ولا سبيل إلى نبذها!

وفى عام ١٧٧٣م نشر البارون دولباخ D'Holbach كتابه "النظام الاجتماعى" Systeme Sociale، وقد تحدث فيه عن نظرية العقد الاجتماعى كما فعل روسو، وكان مما قاله إن هناك عقدا بين الشعوب وقادتها أو رؤسائها، على أساس أن يتعهد هؤلاء القادة بحكم الشعب حكما طيبا، فإذا لم يفعلوا تحرر الشعب من ارتباطه وتعهده، وصار هذا الارتباط والعهد باطلا. ثم هاجم دولباخ الملكية، وحمل حملة عنيفة على رجال الدين الذين اتحدوا مع الملوك الطغاة يستجدون منهم العطايا.

وفى عام ١٧٦٥م نشر فولتير Voltaire كتيبا بعنوان : «آراء جمهورية»، وصف فيه المجتمعات التى تخضع لاستبداد فرد واحد أو عدد من الأفراد، بأنها فقدت الشجاعة أو القدرة على حكم نفسها بنفسها (ومعنى ذلك حث المجتمعات على إظهار الشجاعة للتحرر من الاستبداد) وعرف الحكومة المدنية بأنها «إرادة الكل يقوم بتنفيذها شخص واحد أو جملة أشخاص تبعا لقوانين يدين الجميع بالخضوع لها». وعرف المساواة فى كتابه «عن الطبائع» Es-sai Sur Les Moeurs بأنها «تمتع الأفراد جميعهم-على قدم المساواة بحقهم فى الحرية، وفى الملك، وفى حماية القانون لهم».

وإلى جانب هؤلاء الفلاسفة السياسيين قام فلاسفة اقتصاديون عرفوا فى وقتهم باسم الاقتصاديين Economists وأطلق عليهم بعد ذلك بزمن طويل اسم الفزيوقراط Physiocrats أو الطبيعيون. وعلى رأس هؤلاء فرنسواكسناى Francois Quesnay مؤسس هذه المدرسة. ثم مرسييه دى لاريفييه Merciers de la Riviers الذى وضع مذهب الفزيوكرات فى أسلوب علمى واضح. ثم الماركيزدى ميرابو Marquis de Mirabeau أبو خطيب الثورة المشهور.

ويعتقد الطبيعيون أن القوانين الاقتصادية ماهى إلا قوانين طبيعية. فالقوانين التى تتحكم فى الإنتاج والاستهلاك والتوزيع والأجور، تماثل القوانين التى تحكم التفاعلات الكيميائية وقوانين الجاذبية الأرضية وما إليه. وعلى ذلك يجب أن يقل تدخل الحكومة فى الحياة الاقتصادية إلى أدنى حد ممكن.

وقد اعتبر الطبيعيون أن الأرض هى أساس الثروة، أما الصناعة فهى مجرد تحويل المادة الأولية التى تنتجها الأرض، وبدونها لا توجد الصناعة. وكذلك التجارة، فماهى الا عملية نقل السلعة من مكان لآخر.

وبنوا على ذلك أن الطبقة الوحيدة المنتجة فى الدولة هى طبقة الفلاحين، وبما أن أصحاب الأراضى هم الطبقة التى تحصل على الناتج الصافى للزراعة، فيجب أن تتحمل هذه الطبقة وحدها عبء دفع الضرائب للحكومة.

ولما كان الإنتاج الزراعى هو أساس الثروة، فيجب على الحكومة تشجيع هذا الإنتاج عن طريق فتح الأسواق للمنتجات الزراعية، وإزالة جميع العراقيل التى تقف فى وجه التجارة الداخلية، وأهمها إزالة الحواجز الجمركية وضرائب المرور بين المقاطعات. ولذلك كان شعار الطبيعيين هو «دع التجارة تمر» Lais-sez passer.

كما طالب الفيزيوقراط بإلغاء النقابات الطائفية، التى تحصر العمل فى فئة معينة هى أهل الحرفة أو الطائفة، واطلاق حرية العمل، مطلقين بذلك الشعار الثانى «دعه يعمل» Laissez faire.

وفى رأيهم أن الحقوق الطبيعية للأفراد، التى تتعلق بالتملك أو الملكية، هى: (أولا) حق الفرد فى امتلاكه نفسه، بمعنى حرية الإنسان فى استخدام كل مواهبه وكفاءاته والتصرف فيها.

ويستتبع هذا الحق حق آخر هو «حق العمل»، أى حق الفرد فى أن يعمل. (ثانيا) حق الفرد فى المِلْكية، أى مِلْكية الأشياء التى أنتجها عمله وكانت ثمرة هذا العمل. (ثالثا) حق الفرد فى المِلْكية العقارية Proprieté Fonciere أى مِلْكية الأرض.

ولذا كان «تيرجو» Turgot أحد الذين اعتبروا من مدرسة الاقتصاديين أو الطبيعيين، (ولو أنه كان صاحب آراء أكثر اتصالا بمبادئ آدم سميث فى كتابه «ثروة الأمم» الذى اعتبر أن الأرض ليست وحدها مصدر الثروة، بل إن العمل Labour ورأس المال Cap-ital من مصادر الثروة كذلك). وقد تولى وظيفة مفتش فى الأقاليم Intendant ثم مراقبا عاما للمالية (وزيرا) سنة ١٧٧٤م. وقد اقترح إطلاق حرية تجارة الغلال، وإلغاء المكوس الداخلية بين مختلف المقاطعات، والغاء السخرة (تسخير الفلاحين فى إصلاح الطرق)، وإلغاء نقابات الطوائف والحرف.

ولكن برلمان باريس (الذى كان قد عطله لويس الخامس عشر بسبب شدة نضاله ضده، ونفى جميع قضاته، ثم أعاده لويس السادس عشر والبرلمانات الاقليمية فى أغسطس ١٧٧٤م) ـ رفض تسجيل هذه القوانين، واستخدم الملك حقه المعروف باسم (سرير العدل Lit de Justice) فى إرغام البرلمان على تسجيل هذه الأوامر والمراسيم، وذلك بالذهاب بنفسه إلى البرلمان، واعلان رئيس المجلس بحضوره رغبة الملك فى أن تصبح الأوامر قوانين.

على أن عصبة من البلاط، أسهمت فيها مارى أنطوانيت، تآمرت على تيرجو، ولم يكن للويس السادس عشر من قوة الشخصية ما يسمح له بمساندة وزيره بعد أن فقد محبة البلاط، فأعفاه من منصبه وعين نيكير» مراقبا للمالية بدلا منه فى ١٧٧٦م.

ولقد كان إلى جانب هؤلاء الفلاسفة والمصلحين الليبراليين مفكرون آخرون اشتراكيون مثل آبيه دى مابلى L'Abbé de Mably وموريللى Morelly ممن اعتبروا الملكية الفردية وخصوصا ملكية الأرض، أساس كل الشرور الاجتماعية والسياسية، وقد أدى بهم البحث إلى اقتراح أنظمة شيوعية واشتراكيه لعلاج هذه المساوئ.

وقد تأثر مابلى «بجمهورية» أفلاطون»، ثم بكتابه الآخر «عن القوانين» ودعا إلى شيوعيه الملك على أساس أن تصبح الدولة وحدها هى المالكة الفعلية لكل شيء، فتقوم بتوزيع ما تملكه على الأفراد، على قاعدة: «لكل حسب حاجته»، دون نظر إلى مواهبه أو كفاءته أو طاقته.

وكان عن طريق مابلى ومابسطه من آراء ونظريات أن صار لأفلاطون تأثير مباشر على الثورة الفرنسية ذاتها، ذلك أن «نادى اليعاقبة» كان يتخذ كتابات «مابلى» مرجعا أساسياً يعتمد عليه فى دعم آرائه وتأييد نشاطه، وبخاصة عندما كانت عقيدة اليعاقبة المهمة إلزام الدولة بإنشاء نوع من الحكم تسود فيه «الفضيلة»، وكانت آراء اليعاقبة الإشتراكية هى اعتبار الملكية الفردية أساس الشرور التى يعانى منها المجتمع.

أمـا رينال Raynal فلم يكن ذا آراء اشـتـراكـيـة بارزة، ولكنه هاجم عدم المساواة فى توزيع الثروة، واعتبره منشأ البلاء فى كتابه الذى نشـره ١٧٧٠م عن «التـاريخ الفلسـفى والسـيـاسى لمراكـز التجارة الأوروبية فـى الهند الشرقية والغربيـة». كما هاجم رجال الدين والنبـلاء والنظام الملكى فى فـرنسـا، وطالب بتطويع الدين للدولة.

وكان أهم ما تأثر به معاصرو «رينال» آراؤه عن الحرية، التى قسمها إلى طبيعية ومدنية وسياسية، واعتبرها أفضل نعم الله على الإنسـان. كما هاجم فكرة الحق الالهى للملوك، التى أذاعـها رجال الدين، وقـال إن هذا الزعم ليس سـوى «قـيـود من حـديد تربط أمـة بأسرها بقدمى رجل واحد، وفى وسـعـها أن تفرض الذل والهوان على أى شعب إذا سمينا أحد الطغاة «أبا» لهذا الشعب، ودعمنا بفضل هذا اللقب استبداده به».

على كل حـال فإن قيمـة هذه الكتابات للمفكرين أنها قدمت ـ كما ذكرنا ـ للثورة الفرنسية النظرية التى تهتدى بها فى عملها، والتى بدونها كان من المحتم أن تضل طريقها وتفقد هدفها. فضلا عن ذلك فقـد كان لهذه الكتابات دور آخر لا تقل أهميتـه، هو أنها أحيت روح النقد فى الشعب الفرنسى، فأخذت الأوضاع والتقاليد التى كـان ينظر إليـهـا نظرة احـتـرام وتقـديس تفـقـد احـتـرامـهـا وقدسيتها لديه، حتى إذا نبذ الناس التقاليد المرعيـة إنهار البناء الاجتماعى دفعة واحدة.

ولقد كان أخطر تأثير لهذه الأفكار على النبلاء أنفسهم، الذين كانوا، رغم الامتيازات الهائلة التى يستحوزون عليها، يعتبرون أنفسهم محرومين من السلطة التى هى فى يد الملك.

فصارت هذه الطبقة تشجع البحوث والدراسات الخاصة بنظريات العقد الاجتماعى وحقوق الانسان، كما تشجع التمثيليات التى تظهر مساوئ المجتمع، وتنقد الامتيازات، وتحمل على السلطان المطلق، وتسخر من عجز رجال الحكم والدين على السواء.

وعندما حانت ساعة التغيير الثورى، بلورت الثورة أهدافها فى الشعار الثلاثى: الحرية، المساواة، الإخاء.

وكانت الثورة تقصد بالحرية بادئ الأمر، تأمين الفرد إزاء تصرفات الدولة. وبالمساواة فى الحقوق المدنية أمام القانون وإلغاء الامتيازات الخاصة. أما الإخاء فقد تمثل فى نظرهم فى الإخاء بين الأفراد والطبقات.

ثالثاً : المفجــر الثـــورى

انتصار الطبقة الإقطاعية

من أول أغسطس ١٧٨٦ - مايو ١٧٨٩م

سوف يدهش الكثيرون حين يعرفون أن أول من فجر الثورة الفرنسية لم يكن الصراع بين الطبقتين البورجوازية والملكية، وإنما الصراع بين الطبقتين الإقطاعية والملكية، وبمعنى آخر لم تكن الطبقة البورجوازية هى التى فجرت الثورة أولا وإنما الطبقة الإقطاعية.

وكانت نقطة البداية هى إفلاس الملَكية وحاجتها إلى المال. وكانت المالية الملَكية، التى ظلت تعانى من النقص منذ حكم لويس الرابع عشر، قد انهارت فى النهاية تحت عبء حرب الاستقلال الأمريكية. ومن ثم فلم يعد مفر من زيادة الضرائب على الطبقتين المميزتين (النبلاء ورجال الكنيسة). وأتاح هذا لهما فرصة ذهبية لتحقيق انتصار نهائى على البقية الباقية من الحكم المطلق، باستعمال قوة المال لإكراه الملك على قبول ضرب من الحكم الدستورى يتيح لهما المشاركة بنصيب أوفر فى الحكم.

ففى أغسطس ١٧٨٦م قدم كالون Calonne، الذى كان قد عين مراقباً عاما للمالية فى نوفمبر ١٧٨٣م، خططا خطيرة إلى لويس السادس عشر تستعيد بها الحكومة الملكية كفايتها المالية من جهة، وتسترجع بها السلطة التى كانت تتسلل من بين أيديها من جهة أخرى.

فقد اقترح كالون إلغاء الحواجز الجمركية الداخلية، وإطلاق الحرية التامة لتجارة الحبوب، وأداء المال بديلا من السخرة، وخفض وتعميم ضريبة الملح. وكان القصد من ذلك اجتذاب تأييد الاقتصاديين والرأى العام عموماً.

على أن أخطر مافى خطة كالون محاولة أن يستبدل بالضريبة العشرينية التى يقتضى تجديدها تسجيل البرلمانات لها، ضريبة دائمة على الأرض يدفعها كل المالكين العقاريين دون نظر لمركز أصحابها، وكان غرضه من هذه الخطة الماكرة سد حاجة الملكية، فقد قدر أنها ستغل ٥٠ مليون ليرة فى عام ١٧٨٧م، قابلة للازدياد حسب ارتفاع قيمة الأرض. حيث كانت الضريبة من ٢ ـ ٥٪ حسب قيمة الأرض).

وبذلك يفقد نبلاء الرداء ماكان لهم من هيمنة على فرض الضرائب، وعلى السياسة الملكية تبعا لذلك، ومتى اطمأن الوزراء من ناحية المال، أصبحوا أحرارا فى إغفال احتياجات البرلمانيين.

كذلك تضمنت خطة كالون أن يتم تقدير الضرائب بمعرفة مجالس إقليمية جديدة بحيث تتناسب فيها قيمة الضريبة مع ملكية الأرض لامع المركز الاجتماعى. وبذلك تصبح الثروة هى مصدر النفوذ، أما النبالة فلا تضفى على صاحبها أى امتياز. وكان قصده من ذلك إرضاء البورجوازية واشعارها بأنها تشترك فى الإدارة.

وقد كان من الطبيعى أن تثير هذه المقترحات الطبقة الإقطاعية، وأن تتنبه مجالس الطبقات الإقليمة والبرلمانات إلى خطر هذه المقترحات. فلو ألغيت التفرقة المالية بين أراضى النبلاء والأراضى العادية، لفتح هذا الإلغاء الباب لانقراض امتيازات الإقطاعين بكل ألوانها تدريجيا. ومن ناحية رجال الدين فلو قبلت خطة ضريبة الأرض لتَعَّين عليهم أن يدفعوا مزيدا من المال، ولأحدث غرس هذا الاسفين المالى صدعا فى استقلالهم الجماعى كطبقة.

وعلى وجه الإجمال فقد أدرك النبلاء ورجال الدين أن الموافقة على ضريبة الأرض والمجالس الجديدة سوف يترتب عليها تعزيز سلطة الحكومة المالية والإدارية. وإدخال مفهوم جديد فى النظام الاجتماعى تكون فيه الثروة العقارية وحدها، وليس النبل، هى معيار الحقوق المدنية والالتزام المالى (مفهوم بورجوازى!) وهكذا شعرت البرلمانات أن الأرستقراطية المميزة هى آخر حصن ضد الحكم الملكى المطلق.

وقد جرت الأحداث على النحو الآتى: فقد فكر كالون فى دعوة مجلس من الأعيان ـ أى من كبار رجال الدين، ونبلاء الرداء، ونبلاء البلاط ـ لاستشارته فى مقترحاته، والحصول على موافقته، ليستخدمها أمام البرلمان دليلا على قبول ممثلى الأرستقراطية لسياسته.

ولكن مجلس الأعيان الذى انعقد فى ٢٢/فبراير ١٧٨٧م - خذل كالون، وانهال عليه بالنقد بتحريض من لومنى دى بريين Lomenie de Brienne رئيس أساقفة تولوز الطامع فى الحلول محل كالون.

ورأى كالون أن يلجأ إلى الرأى العام فى نداء وزع مجانا فى جميع أنحاء فرنسا، وقرئ على منابر الكنائس تضمن «تشهيرا رهيبا برجال الدين والنبلاء». ولكن هذا الإجراء أفقده عطف الملكة مارى أنطوانيت التى وإن كانت تعى مايهدد السلطة الملكية من خطر، إلا أنها لم تكن تعطف على سياسة ترى الإستعانة بالرأى العام. فأقيل كالون فى ٨ إبريل ١٧٨٧م، وحل محله دى برين منافسه.

وعلى هذا النحو حققت الطبقة الأرستقراطية أول انتصاراتها فى صراعها مع الحكومة الملكية، فالأعيان الذين دعوا لتقديم المشورة لكالون أطاحوا به.

ولقد كان على بريين بعد تعيينه فى المنصب الجديد أن يواجه برلمان باريس، ولكن البرلمان كان قد شجعه فوز الأعيان، الذين كان بعضهم أعضاء فيه، فاتخذ موقفا راديكاليا لإحباط مشروع ضريبة الأرض، بأن قرر أنه غير مختص بالإذن بفرض ضرائب جديدة، وأن الإذن بهذه الضريبة يقتضى موافقة مجلس طبقات الأمة، وهو هيئة استشارية لم تجتمع منذ ١٦١٤م Etats Generaux.

ولم يكن برلمان باريس برلمانا تمثيليا مثل البرلمانات الحديثة، وإنما كان عبارة عن هيئة محكمة قضائية مختصة بتسجيل أوامر الملك، ولكنه فى عام ١٦٤٤م فى عهد لويس الرابع عشر ووزيره مازاران، رفض تسجيل بعض الضرائب، وفى عام ١٧٤٨م رفض تسجيل عدد من الأوامر الملكية، وقدم مطالب إلى البلاط بفرض الإشراف على الضرائب وإلغاء وظائف المأمورين Intendants، وضمان حرية الأفراد ضد الحبس من غير محاكمة بطريق الخطابات المهورة Lettres de Cashet.

و إزاء رفض برلمان باريس الموافقة على فرض الضرائب الجديدة، أقدم لويس السادس عشر يوم ٦ أغسطس ١٧٨٧م على استخدام حقه المعروف باسم سرير العدل Lit de Justice. ولكن البرلمان أعلن بطلان قيد هذه القوانين، ثم أصدر أمرا بمقاضاة كالون، مما اضطره إلى الهرب إلى إنجلترا. وإزاء ذلك، عاقب الملك أعضاء البرلمان بنفيهم إلى تروای Troyes يوم ١٤ أغسطس١٧٨٧م، ولكن المحاكم الأخرى ذات السيادة أيدتهم.

وهنا اضطر بريين إلى التراجع، وقدم مشروعا جديدا بعقد قرض قيمته ١٢٠ مليونا من الليرات على خمس سنوات، على أن يجتمع مجلس طبقات الأمة فى عام ١٧٩٢م. ثم جعل الملك يقدم بسرعة هذا المشروع فى جلسة ملكية (أى باستخدام حق سرير العدل) يوم ١٨ نوفمبر ١٧٨٧م، دون أن يتخذ الإجراءات الشكلية التقليدية الخاصة بالدعوة لمثل هذا الاجتماع.

على أن هذا الاجراء أثار احتجاج دوق دور ليان Duc d'Orleans، وأعلن الأعضاء بطلان قيد المشروع، فرد لويس بنفى دورليان واثنين من البرلمانيين، فدافع عنهم البرلمان، وهاجم الخطابات المختومة lettres de Cachet، وطالب بالحرية الفردية لرعايا الملك.

وعندئذ أخذ بريين يستعد لاتخاذ إجراء عنيف ضد البرلمان، ولكن البرلمان قطع الطريق عليه بالاتجاه إلى الرأى العام ليكتسب عطفه، ونشر إعلانا حدد فيه الحقوق المفروض أن يتضمنها دستور الملكية المتوارث، وهى أن فرض الضرائب كلها يجب أن يصوت عليها مجلس طبقات الأمة، وأن من حق الرعايا الفرنسيين كلهم ألا يقع القبض عليهم واحتجازهم بطريقة تعسفية، وأنه لايجوز عزل القضاة أو القبض عليهم دون إجراء قانونى صحيح، وأنه لايجوز التعدى على امتيازات الأقاليم الفرنسية.

وإزاء ذلك عمدت الحكومة إلى استخدام القوة. ففى ٥ مايو حاصرت قوة مسلحة قصر العدالة (مكان البرلمان) للقبض على اثنين من القضاة كانا وراء فكرة إصدار الحقوق السالفة الذكر، وقد تحدى أعضاء البرلمان الجنود لمدة ثلاث وعشرين ساعة استسلم بعدها الرجلان.

وفى ٨ مايو ١٧٨٨م أصدر لويس السادس عشر ستة مراسيم تقضى بتعديل النظام القضائى بأسره تعديلا راديكاليا، وبموجبها تقرر أن يعهد بتسجيل المراسيم الملكية إلى محكمة كلية

Cour Pleniere تتألف من أمراء البيت المالك وأشراف فرنسا Pairs de France (وهى هيئة أضيق كثيرا من هيئة اللوردات الإنجليز) وكبار موظفى التاج، فضلا عن القضاة.

كذلك تقرر أن تفقد البرلمانات جانبا كبيرا من عملها القضائى الخالص، وذلك بإنشاء ٤٧ محكمة استئنافية تصدر أحكاما نهائية فى جميع القضايا، عدا أكثرها خطورة. وتقرر أن يفقد السادة الإقطاعيون الذين لايحتفظون بمحاكم مستوفية للشروط، وسجون وموظفين قانونيين مدربين - حقهم فى إجراء القضاء. ثم عطلت دورة برلمان باريس. وبذلك حققت الملكية الانتصار على البرلمان.

حققت الملكية انتصارها على البرلمان. ولكن هذا الانتصار لم يكن له قيمة من الناحية الفعلية، فما دامت الحكومة عاجزة عن جمع القروض أو فرض الضرائب الجديدة، فإن انتصارها سوف يكلفها غاليا كالهزيمة!

وقد عقدت الحكومة الأمل على اجتماع غير عادى للمجلس الكهنوتى أن يمدها بإعانة قدرها ٨ ملايين ليرة، ولكنه أبدى احتجاجه على المحكمة الكلية، وأيد حجة البرلمان بأن مجلس طبقات الأمة هو مصدر السلطة المختصة بتقرير الضرائب الجديدة، ولم يتبرع للملك إلا بمبلغ ١٨٠٠٠٠٠ ليرة، توزع على سنتين.

وإزاء ذلك قال بريين : «مادام النبلاء ورجال الدين تخلوا عن الملك، حاميهم الطبيعى، فلابد من الارتماء فى أحضان العامة» (يقصد البورجوازية).

ولكن مقاومة النبلاء ورجال الدين كانت قد أخذت تتخذ أشكالا خطيرة، وقد ظهرت حالات تمرد في باريس، ثم تفجرت المعارضة في الأقاليم. وبذلك أبدت الطبقتان الميزتان استعدادهما للالتجاء إلى العنف. ولما كان مركز هاتين الطبقتين في الجيش والإدارة معروفا، فقد كان معنى ذلك أن التاج لن يستطيع الاعتماد على ولاء خدامه!

وتتضح صورة ماحدث فيما كتبه القائم بالأعمال في السفارة البريطانية في أغسطس ١٧٨٨م، فقد كتب يقول: «لايمكن أن تجمع أية ضرائب في دوفنييه Dauphiné ولا في غيرها من الأقاليم، وفي كل يوم ترد الأنباء عن وقوع حركة جديدة من حركات التمرد والعصيان في مختلف أرجاء الملكة».

وما لبثت مقاطعات عديدة أن اشتركت في المطالبة بدعوة مجلس طبقات الأمة القديم الذي له وحده حق الموافقة على فرض الضرائب، كما أخذت بعض الأقاليم، التي كانت لها في الماضي مجالس طبقات خاصة بها، تطالب الحكومة بإحياء هذه الهيئات أيضا. وطالب نبلاء الأقاليم، لاسيما في الأطراف، باللامركزية، وبهيمنة الطبقات صاحبة الامتيازات على الأقاليم.

وفي بريتاني Bretagne كان موقف نبلائها عنيفا ضد مراسيم ٨ مايو ١٧٨٨م، فقد أعلن أحدهم (الكونت بوتريل) نيابة عن النبلاء أن ارتباط بريتاني بالتاج الفرنسي ليس الا ارتباط تعاقد، يبطل إذا

انتهك الملك شروط الاتحاد الذى تم فى القرن السادس عشر. وبالطبع رفض البرلمان تسجيل المراسيم، وطلب دعوة مجلس الطبقات المحلى، واضطر الملك إلى الموافقة على دعوة مجلس الطبقات المحلى.

وقد أظهر برلمان بيارن Béarn نزعة انفصالية. فقد رفض تسجيل المراسيم الجديدة، ولما فُض البرلمان، هاجم الزراع والرعاة التابعون للنبلاء، الناظر الملكى وقائد الجيش، وأعادوا عقد البرلمان، الذى أصدر تصريحا احتج فيه على تطبيق مراسيم على منطقة «لم تصبح إقليما فرنسيا على الإطلاق!».

ويهمنا الوقوف قليلا عند تمرد بريتانى الذى أشرنا إليه، إذ نرى فيه إرهاصات بما وقع فيما بعد.

لقد كان الصراع إلى ذلك الحين يدور بين السلطة الملكية من جهة، وبين البرلمان ونبلاء السيف من جهة أخرى، فلما قبل الملك، إزاء الأحداث التى وقعت، دعوة مجلس الطبقات المحلى للانعقاد، وهو مجلس قوى كان مشتبكاً مع الإدارة الملكية خلال معظم القرن الثامن عشر، بدأت الطبقة البورجوازية فى التدخل.

وبدأت الخطوة الأولى من ثغر (نانت) التجارى الغنى، فقد وضعت الطبقة البورجوازية برنامجا ثورياً لمجلس الطبقات المحلى، كان إرهاصا بالمطالب التى تقدم بها فيما بعد النواب البورجوازيون

فى مجلس طبقات الأمة. وتتلخص فى: ضرورة مساواة ممثلى الطبقة الثالثة فى العدد مع مجموع ممثلى رجال الدين والنبلاء، وأن يصوت الكل مجتمعين معا.

فلما اجتمع مجلس الطبقات المحلى، كان الجانبان منقسمين انقساما حادا، فقد رفض ممثلو العامة المشاركة فى أعمال المجلس إلا إذا منحوا تمثيلا أوسع، وحق التصويت المشترك، وموافقة أصحاب الامتيازات على دفع نصيبهم فى الضرائب كاملا.

وتعطل التفاهم بعد هذا، ونشبت حوادث عنف متكررة، وزحف ٤٠٠ بورجوازى من «نانت» للدفاع عن زملائهم فى رين Rennes، وهناك حوصر النبلاء ثلاثة أيام فى مكان اجتماعاتهم فلما استأنف مجلس الطبقات اجتماعه فى فبراير بعد أن عطل فترة، أذنت الحكومة بزيادة ممثلى العامة إلى ثلاثة أمثالهم، وألف أعضاء هذه الطبقة «اتحادا بلديا» يربط بين مدن بريتانى. وقد لجأ النبلاء إلى الريف طلبا لتأييده ضد سكان المدن، ولكن دون جدوى.

ويتضح من ذلك أن ثورة بريتانى التى بدأت بعمل مشترك بين البرلمان والنبلاء دفاعا عن الامتيازات، أحدثت رد فعل قوى عند فريق من الطبقة البورجوازية فى المدن. وسنرى أن هذا الصراع، الذى يعتبر دليلا على عمق التناقضات الاجتماعية فى ١٧٨٨م – ١٧٨٩م سيكون له أيضاً أثر مهم فى سير مجلس طبقات الأمة.

على كل حال فإن هذه الحوادث فى الأقاليم، كانت فى حد ذاتها برهانا على انهيار سلطة الملكية انهيارا غير عادى. ذلك أن الوزراء لم تبد منهم معارضة فعالة، وربما كان هذا راجعا لحد ما إلى أنهم لم يعودوا يملكون الأداة لفرض الطاعة لأوامرهم، وأنهم لم يكونوا يضمنون ولاء جنودهم.

وفى يوليو ١٧٨٨م اضطر بريين إلى التسليم بالفشل، ووافق على دعوة مجلس طبقات الأمة فى ١٧٨٩م. وما وافى أغسطس حتى كانت الحكومة على شفا الإفلاس.

وفى أواخر ذلك الشهر قدم بريين استقالته للملك، وحل محله نيكير. ولم يلبث هذا أن بدأ بإلغاء مراسيم ٨ مايو ١٧٨٨م، ودعوة البرلمان للانعقاد من جديد، استعدادا لعقد مجلس طبقات الأمة، الذى تقرر موعد اجتماعه فى أول مايو ١٧٨٩م. وكان هذا التنازل الأخير آخر ما سجلته الطبقة الإقطاعية من انتصارات إلى ذلك الحين.

رابعاً : انتصار البورجوازية

مجلس طبقات الأمة

انتصرت الطبقة الإقطاعية انتصارا حاسما على الملكية بحملها إياها على دعوة مجلس طبقات الأمة للانعقاد. ولم تدر أنها بهذا النصر قد حفرت قبرها.

وللحقيقة أن برلمان باريس كان قد وضع الضمانات الكافية لينعقد مجلس طبقات الأمة على النحو الذى يتفق مع مصلحة الطبقة الإقطاعية. فأضاف عند تسجيل المرسوم بدعوة مجلس طبقات الأمة هذه العبارة: «طبقا للنظام الذى اتبع فى عام ١٦١٤م»!

ومعنى ذلك أن يكون لكل طبقة من الطبقات الثلاث: النبلاء، ورجال الدين، والعامة، عدد متساو من الممثلين، وتصوت كل طبقة على حدة، ويكون لكل منها حق نقض قرارات الطبقتين الأخريين.

ولكن هذا القرار كان اشارة إلى انتهاء الحرب بين الطبقتين الإقطاعية والملكية، وابتدائها بين الطبقة الإقطاعية والطبقة البورجوازية فقد بادرت الطبقة البرجوازية. إلى قبول التحدى فى باريس، ومنها سرت حملتها إلى الأقاليم فى شتاء ١٧٨٨م - ١٧٨٩م.

وقد قامت حملة الطبقة البورجوازية على محورين:

الأول، مهاجمة امتيازات الطبقتين الأوليين، والمطالبة بأن تحل الكفاءة محل النسب.

والثانى، مهاجمة الأساس الذى ينعقد عليه مجلس طبقات الأمة السالف الذكر، والمطالبة بالتمثيل الضعفى double Representations (أى يكون عدد نوابها مساويا لعدد نواب الطبقتين الأخريين معا)، وفرض التصويت المشترك (أى اجتماع الطبقات الثلاث معا)، والأخذ بالتصويت الفردى لا حسب الطبقة (Deleberation par tête).

وقد أزعجت هذه المطالب الطبقة الإقطاعية، وخصوصا أمراء البيت المالك، الذين قدموا مذكرة إلى الملك يوم ١٢ ديسمبر ١٧٨٨م، أوضحوا فيها أن «الدولة فى خطر»، وأن هناك ثورة تستعد للقيام ضد نظام الحكم، وأن الطبقة الثالثة (يقصدون البورجوازية) قدمت بالفعل اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية. فهل يمكن لجلالتكم الموافقة على إذلال نبلائكم البواسل العريقين المحترمين الذين بذلوا الدماء فى سبيل وطنهم ومليكهم؟» ثم قالت المذكرة: «لتكف الطبقة الثالثة عن مهاجمة حقوق الطبقتين الأوليين، ولتقتصر على المطالبة بتقليل الضرائب التى قد تكون ثقيلة عليها».

ومن هذه المذكرة يتضح أن تكتيك الطبقة الاقطاعية هو إظهار مطالب البورجوازية بمظهر الهجوم على الملكية، وإظهار النبلاء بمظهر «المدافعين الطبيعيين عن العرش»، وذلك لإغراء الملك على قبول الدعوة للتحالف على أساس تسليم سلطته للنبلاء، وعندئذ فإن هذه الطبقة تتمكن من تعبئة موارد الحكومة المركزية، لاسيما الجيش - ضد المنافسين الجدد.

على أن خطة نيكير قامت على استخدام الطبقة الثالثة لكبح جماح الطبقتين المميزتين، لذلك فقد قدم تقريرا لمجلس الوزراء، أيد فيه مبدأ «التمثيل الضعفى»، كما أيد بعض المسائل الأخرى مثل أن يكون عدد النواب متناسبا مع عدد سكان ومساحة كل قسم إدارى، وإطلاق الحرية لكل طبقة لتختار ممثليها من بين أهل الطبقات الأخرى إذا شاءت ذلك.

ولكنه لم يذهب فى تأييد الطبقة الثالثة (البورجوازية) إلى حد الموافقة على وجهة نظرها فى طريقة التصويت، فلم يتعرض لذلك بشئ. وكان إغفال هذه المسألة من جانبه، وعجز الملكية بعد ذلك عن حسمها لصالح الطبقة الثالثة، مما فجر الموقف وأشعل الثورة.

وعلى كل حال فقد وافق مجلس الوزراء على تقرير نيكير، وصدر به مرسوم فى ٢٧ ديسمبر ١٧٨٨م، وجرت الانتخابات لمجلس طبقات الأمة على هذا الأساس.

اجتمع مجلس طبقات الأمة فى ٥ مايو ١٧٨٩م وهو يحمل كل التناقضات الاجتماعية التى سلف بيانها.

فالإكليروس كانوا منقسمين على أنفسهم، وكانت الأغلبية فيهم من قساوسة الأبروشيات الذين ينتمون إلى الطبقة الثالثة، ولم ينتخبوا فى حالات كثيرة أساقفتهم النبلاء. وكان عدد هؤلاء الآخرين قليلا بالنسبة لعدد القساوسة، فقد بلغ عددهم ٨٣ نائبا من مجموع ٢٩١.

أما الطبقة الثانية، النبلاء، فقد انقسموا بين نبلاء متحررين، وهم قلة لا يتجاوز عددهم ٥٠ من ٢٧٠، وأغلبية لم تكن متفقة على رأى. وإن كان أعضاء البرلمانات منهم قد أدركوا أن انعقاد مجلس الأمة سيشكل خطرا مميتا على البرلمانات، وغدوا تواقين لفض هذا المجلس الذى بذلوا فى عقده الكثير من الجهد والتعب، على وجه السرعة. كما أدركت طبقة النبلاء على وجه العموم أنها لاتستطيع الاعتماد على تأييد الإكليروس لها تأييدا غير مشروط.

أما الطبقة الثالثة، فكان ثلثاها من رجال القانون والإدارة، وكانت نسبة النواب من رجال الأعمال والمصارف لاتتجاوز ١٣٪، أما نسبة ملاك الأراضى والزراع والأعيان فقد بلغت ١٠٪. وكان ممثلو الطبقة الثالثة - مع ذلك - متجانسين تجانسا نسبيا، بمعنى أنه لم يكن بينهم ممثلين للبروليتاريا فى المدن والريف أو للحرفيين الصغار.

فقد اتجهت عملية الانتخاب إلى حرمان هؤلاء فى المدن والريف من التمثيل النهائى، واستبعاد المطالب التى تقدموا بها فى الكراسة العامة للدائرة التى تتضمن مطالب الناخبين. فضلا عن ذلك فإن الفلاحين، الذين كانوا أكبر عددا، انتخبوا عنهم أعضاء من طبقة البورجوازية نظرا لقلة تعليمهم وعدم قدرتهم على الحديث وكتابة العرائض.

ومعنى ذلك أن ممثلى العامة كانوا ينتمون إلى الطبقة البورجوازية وحدها، وبالتالى كانت نظرتهم إلى الأهداف الكلية نظرة متشابهة فى مجملها فقد كانوا يريدون أن يستبدلوا بالمجتمع

القائم مجتمعا يقوم على أفكار «التنوير» السياسية والاقتصادية وعلى تجربة الحكم الدستورى فى بريطانيا، والغاء جميع الإمتيازات التى يضيفها شرف المولد، ويتطلعون إلى نصيب من السلطة السياسية لأنفسهم. وان كان الخلاف مع ذلك كان قائما بين ممثلى هذه الطبقة (البورجوازية) حول وسائل تحقيق هذه الأهداف، أى حول التكتيك.

فقد كان هناك دعاة التوفيق، الذين رأوا أن الاكتفاء بحل وسط لتحقيق الأهداف الأساسية، خير من الضغط لإحراز نصر نهائى يجلب الفرقة والفوضى.

فى حين كان هناك المتطرفون، الذين رأوا أن الاشتباك مع النبلاء إن لم يكن مع الملك نفسه، أمر لا مفر منه، ولذا كان همهم الاحتفاظ باتصالاتهم بالجماهير، التى سيحتاجون لتأييدها إذا تطلب الأمر الالتجاء إلى امتحان القوة.

ولقد كان مونييه Mounier و مالويه Malouet، أكبر أنصار التوفيق، فى حين كان الأسقف سييس Sieyes يتزعم فريق المتطرفين. ولقد كان ميرابو Mirabeau، الذى اختارته الطبقة الثالثة ليكون من بين نوابها، متطرفا بطبعه، ولكنه كان يميل للتوفيق بحكم اقتناعه.

وعلى كل حال ففى ذلك الوقت كان الخطر فى مواجهة الطبقتين المميزتين قد وحد ممثلى العامة فى جبهة واحدة.

فقد اجتمع مجلس طبقات الأمة ـ كما ذكرنا ـ يوم ٥ مايو ١٧٨٩م. وكانت الخطوة الأولى قبل البدء فى العمل هى أن ينظر فى صحة انتخاب أعضائه. وقد أعلن نواب الطبقة الثالثة معارضتهم فى أن تقوم كل طبقة من الطبقات على حدة بعملية الفحص. على أن الطبقتين المميزتين لم توافقا، وأخذتا فى فحص صحة نيابة أعضاء كل طبقة على حدة، فامتنع ممثلو الطبقة الثالثة. وبذلك أصبح مجلس طبقات الأمة مشلولا. وظلت الحكومة على الحياد.

وأرادت طبقة النبلاء وضع الطبقة الثالثة أمام الأمر الواقع، فأعلنت يوم ١١ مايو ١٧٨٩م أنها قد أتمت تشكيلها. على أن طبقة الاكليروس انقسمت على نفسها، فقد أيدت نسبة كبيرة منها الطبقة الثالثة.

وفى يوم ١٠ يونيو ١٧٨٩م، وطبقا لاقتراح سييس قام ممثلو الطبقة الثالثة بتوجيه دعوة أخيرة للطبقتين المميزتين، للانضمام إليهم فى عملية فحص صحة نيابة الأعضاء فى مجلس واحد، وإلا فإنهم لن يقروا بصحة تمثيل من لا يحضر، وفى يوم ١٢ يونيه بدأت عملية الفحص بالمناداة على أسماء النواب من الطبقات الثلاث. وتبين فى يوم ١٦ يونية أن ستة عشر نائبا من رجال الدين قد انضموا إلى العامة. ولكن طبقة النبلاء ظلت صامدة.

وعندئذ قرر نواب الطبقة الثالثة أن المجلس صار يضم أكثرية نواب الأمة، وأنه لذلك يعتبر «مجلسا شرعيا وقانونيا»، ولا يتفق فى

وضعه هذا مع تسميته بمجلس طبقات الأمة، بل يجب تسميته بالجمعية الوطنية» Assemblée Nationale، وكان الغرض من ذلك أن يكون ذلك إعلانا لحقهم فى التكلم باسم الأمة والتصرف باسمها. وقد قررت التسمية فى ١٧ يونية ١٧٨٩م. وفى ١٩ يونية قرر رجال الدين بأكثرية ١٤٩ ضد ١٣٧ الانضمام إلى العامة والاجتماع معهم فى مجلس واحد. وبذلك بدا أن الطبقة البورجوازية قد حققت نصرها على طبقة النبلاء.

على أن الطبقة البورجوازية بعملها هذا، قد قدمت فى نفس الوقت خدمة للنبلاء، ذلك أن اتخاذها اسم «الجمعية الوطنية» كان يتضمن إنكارا لحق الملك فى تحديد الشكل الذى يجب أن يتخذه مجلس الطبقات.

فلما أعطت الجمعية الوطنية لنفسها فى اليوم التالى حق الموافقة على فرض الضرائب كذلك، أصبح فى إمكان النبلاء التوجه إلى الملك منتحلين صفة المدافع عن سلطته ضد الطبقة الثالثة المتمردة. وقد أفلح النبلاء فى كسب الملكة مارى أنطوانيت أولا، ثم لويس السادس عشر.

ويبدى بعض المؤرخين حيرتهم لهذا الموقف من جانب الملكة مارى أنطوانيت ولويس السادس عشر، نظرا لأن المعركة كانت قائمة أساسا بين النبلاء والملكية. وفى اعتقادنا أن الموقف الراديكالى للطبقة الثالثة باعتبار أنفسهم ممثلين عن الأمة جمعاء،

والمضى فى ذلك قُدماً، قد هدد بقلب النظام القديم، خصوصا اذا راعينا مطالب هذه الطبقة التى عبرت عنها فى كراسات المطالب - أو العـــرائض - لكل دائرة Les Cahiers de Doléances du Tiers - Etat، والتى تتضمن إحداث تغييرات ثورية فى الميدان السياسى والاجتماعى.

فقد اتفقت هذه الكراسات على أن تكون الملكية دستورية، يكون فيها وزراء الملك مسئولين أمام مجلس منتخب يهيمن على مالية الدولة، والقضاء على الحواجز الطبقية، والمساواة فى حق التعيينات فى الوظائف الملكية فى الجيش والبحرية، وإلغاء الأعباء الإقطاعية والقضاء الإقطاعى، والمطالبة ببيع أراضى الكنيسة، والكف عن دفع المال لكنيسة روما.. إلى آخر هذه المطالب التى تقلب النظام القديم رأسا على عقب.

ولقد كانت الملكية تأمل، إذا عقد مجلس طبقات الأمة على النظام القديم المعدل، أن تتمكن الطبقة البورجوازية من إحداث التوازن المطلوب مع المطالب الإقطاعية، وتبقى للملكية سيطرتها ونفوذها. ولكن الإجراء الذى اتخذته الطبقة الثالثة بانتحالها لنفسها حق التصرف باسم الأمة، رغم أنف الملك والطبقتين المميزتين - أكثر من ذلك انتحالها لنفسها حق الموافقة على الضرائب، كان معناه أن السيادة قد أصبحت للطبقة الثالثة باسم الأمة. لذلك رأى لويس السادس عشر أن استعانته بهذه الطبقة ضد النبلاء أشبه بالمستجير من الرمضاء بالنار.

لذلك أمر فى ٢٠ يونية ١٧٨٩م بأن تعقد جلسة ملكية Seance Royale يحضرها نواب الطبقات الثلاث مجتمعين يوم ٢٣ يونية ١٧٨٩م ليظهر مشيئته فى هذه الجلسة.

وخوفا من تطورات مفاجئة قبل الاجتماع، أغلقت صالة اجتماع البورجوازية بحجة إعدادها للجلسة الملكية.

وهنا أدرك النواب البورجوازيون أن الخطر يهددهم، فعقدوا اجتماعهم فى اليوم نفسه (٢٠ يونية ١٧٨٩م) فى ملعب التنس Jeu de Pomme، وشرعوا فور اجتماعهم يحلفون يمينا وضع صيغته مونييه، بأنهم سوف يستمرون فى الاجتماع، فى أى مكان تختاره الظروف لهم، ولن يتفرقوا حتى يضعوا دستورا للمملكة على أسس متينة. ووقع الحاضرون على هذا التعهد أو الميثاق، الذى صار يعرف باسم «ميثاق ملعب التنس» Le Serment، وكان بين الموقعين تسعة من القساوسة.

وفى اليوم التالى اجتمعوا فى كنيسة سانت لوى Saint louis حيث انضم إليهم ١٤٤ من القساوسة، و ٤ من كبار رجال الدين، واثنان من النبلاء.

وفى يوم ٢٣ يونيه ١٧٨٩م انعقدت الجلسة الملكية، ثم أعلن لويس السادس عشر استعداده ليصبح ملكا دستوريا حقيقيا، فلا تجمع القروض ولا الضرائب دون موافقة مجلس طبقات الأمة، كما

أبدى اسـتـعـداده للبـحث فى إلغـاء الخطابات المـهـورة، واتخـاذ الخطوات لرفع الرقـابة عن الـصـحف. ومعنى ذلك النهاية الحقيقية لحكم البوربون المطلق فى فرنسا.

على أن أهم الفقـرات من وجـهة نظر الطبقـتين الميزتين، أن لويس أعلن أيضا بطلان قرارات «الجمعية الوطنية» السالفة الذكر، وقـال إنه «يريد أن يظل التمـيـيز القـديم بين طبقـات الدولة الثـلاث كامـلا، لأنه مرتبط ارتباطا أساسيا بدستور مملكته» – ومعنى ذلك اجتماع كل طبقة على حدة!.

ومع أنه أجاز حدوث مناقشة مشتركة فى بعض الشئون ذات المصلحة العامة، إلا أنه استثنى من تلك الشئون مايلى: (١) حقوق الطبقات الثلاث الدستورية التى لها من قديم الزمن. (٢) الدستور الذى سوف يعين مجلس طبقـات الأمة التالى شكله. (٣) الملكيات الإقطاعية. (٤) حـقوق الطبقـتين الميزتين المادية وامتيـازاتهمـا الشرفية.

كمـا أعلن الملك أن الملْكيـة فى جـمـيع صـورها دون اسـتـثناء ستحترم على الدوام، وخص بالذكر تحت اسم الملْكيـة: العشـور، والخـراج، والحـقـوق والفـروض الإقطاعيـة، وعلى العـمـوم جـمـيع الحـقـوق والامـتيـازات المادية أو الشـرفـيـة المتـصلة بالأراضى أو الإقطاعيات أو الأشخاص.

بل إن الملك وافق على اسـتـشـارة مـجلس طبقـات الأمـة فى التـعـيينات التى قـد تخلع النبـالة الشـخـصـيـة أو الـوراثيـة على

أصحابها!. وهكذا تستطيع الطبقتان المميزتان أن تؤملا فى سد كثير من الأبواب التى تتمكن بها البورجوازية من بلوغ مراتب الشرف!

على هذا النحو اختار لويس السادس عشر أن يكون استسلامه للطبقة الإقطاعية وليس للطبقة البورجوازية. ومعنى ذلك أنه لم يعد للبورجوازية من سبيل للمساواة فى الحقوق سوى طريق الثورة.

لذلك حين طلب الملك إلى ممثلى الطبقات بعد ذلك أن ينفصلوا عن بعض، وأفهمهم أنه سيفض المجلس إذا لم يخضعوا، انسحب النبلاء وغالبية رجال الدين، ولكن نواب البورجوازية رفضوا الإنسحاب!

ومن الطريف أنهم استفادوا من ثورة برلمان باريس الاقطاعى فى مرحلة صراع النبلاء ضد الملك، فحين جاء كبير أمناء القصر يذكرهم بأمر الملك، رد عليه بايبى Bailly (عالم فلكى) قائلا: لايمكن للأمة المجتمعة هنا أن تصدر اليها أوامر!». وعلق سييس قائلا: «أيها السادة انكم اليوم كما كنتم بالأمس، لقد اجتمعنا على أن نحصل للشعب الفرنسى على حقوقه. فلنمض فى مباحثاتنا»!

وهكذا اعتبر ممثلو البورجوازية ـ كما حدث من قبل فى البرلمان ـ أن الجلسة برئاسة الملك كانت باطلة.

ثم وقف ميرابو وقال لكبير الأمناء كلمته المشهورة «اذهب ياسيدى، وبلغ مولاك أننا لن نغادر هذا المكان إلا على أسنة الحراب»! ثم اتخذ المجتمعون قرارا، اقترحه ميرابو، يقضى بأن يعلن النواب حصانتهم ضد المحاكمة، بأغلبية ٤٩٣ صوتا ضد ٣٤.

وإزاء هذا الموقف الذى كان يهدد بتطورات لم تكن الملكية مستعدة لها، فضل لويس السادس عشر عدم تنفيذ تهديده بفض المجلس بالقوة.

وفى اليوم التالى (٢٤ يونيه ١٧٨٩م) انضمت غالبية رجال الدين و ٤٧ من النبلاء إلى ممثلى البورجوازية، وعلى رأسهم الدوق دورليان d' Orleans. وفى يوم ٢٧ نصح لويس السادس عشر رجال الدين والنبلاء بالخروج على أوامره السابقة والانضمام إلى العامة! وبذلك بدا أن الثورة البورجوازية القانونية والسليمة، التى حققها رجال القانون البورجوازيون بطرق استعاروها من البرلمان الاقطاعى، قد نجحت! وفى يوم ٧ يوليو اختار المجلس لجنة للدستور.

وفى يوم ٩ يوليو ١٧٨٩م غيرت الجمعية اسمها للمرة الثانية إلى «الجمعية التأسيسية» Assemblée Constituante.

وفى يوم ١١ يوليو قدم لافاييت La Fayette مشروعه الخاص بإعلان حقوق الإنسان.

٢ ـ ثورة الصان كيلوت والطبقة الفلاحية

بعد انتصار البورجوازية على الملكية فى يوم ٢٧ يونية ١٧٨٩م، اعتقد الكثيرون أن الثورة قد انتهت دون أن تراق نقطة دم واحدة. ولكن فرنسا كانت على أعتاب ثورة من أكثر الثورات دموية فى التاريخ.

ذلك أن الملكية لم تتراجع إلا خوفا من أعمال العنف التى قد تحدث فى باريس، ولم تذعن إلا لكسب الوقت. وكانت السياسة التى تدور فى دهاليز فرساى أن لويس سيحل الجمعية التأسيسية، وأن الجيش كفيل بتنفيذ الأوامر الملكية.

وبالفعل فإن تحركات القوات المسلحة كانت توحى بأن الملكية ستقوم بانقلاب، فقد استدعيت ست فرق من الجيش فى ٢٦ يونيو ١٧٨٩م، وعشر فرق أخرى فى أول يوليو، وكان معظمها من الجنود الألمان والسويسريين المحصنين نسبيا ضد الدعاية الثورية. وكان من المتوقع أن تتخذ هذه القوات مراكزها قرب باريس بين ٥ و ١٨ يوليو ١٧٨٩م. أما كيفية الاستعانة بها فكانت رهنا بنتيجة الصراع على الرأى داخل القصر.

وهنا أحس النواب أنهم فى خطر يهدد بالعصف بآمالهم، وشعروا بأن حريتهم، بل حياتهم فى خطر. وكان اتحاد الطبقات

الثلاث قد غير ميزان القوى داخل الجمعية، فإن سمعة «المعتدلين» من النبلاء وكبار رجال الدين أتاحت لهم تولى بعض المراكز القيادية داخل الجمعية، فقد انتخب رئيس أساقفة فيين (Bishop of Vienne)، بأغلبية ٧٠٠ صوت من ٧٩٣ وكان ثلاثة من السكرتيرين الستة المنتخبين أيضا من المعتدلين. ومعنى ذلك أن روح الاعتدال كانت قد أخذت تتغلب على الجمعية.

وفى يوم ٨ يوليو ١٧٩٨م التمست الجمعية من الملك إعادة الجنود، الذين بدءوا يظهرون فى المناطق المجاورة لباريس، من حيث أتوا. ولكن الملك أجاب فى يوم ١١ يوليو بالرفض.

وفى المساء ذاته من يوم ١١ يوليه ١٧٨٩م، قام الملك بطرد نيكير وأمره بمغادرة فرنسا، كما طرد جميع الوزراء ماعدا اثنين، وشكل مجلس وزراء رجعيا برئاسة البارون دى بريتوى Bretéuil، وهو من المعروفين بعدائهم الشديد للثورة. وقد أحسن توقيت الحركة، لأن يوم ١٢ يوليو التالى كان يوم أحد لا تجتمع فيه الجمعية.

وتوقع الجميع أن يعقب ذلك حل الجمعية التأسيسية وغزو الجيش للعاصمة، لولا أن الثورة البروليتارية انفجرت فى ذلك الوقت بالذات لتنقذ الجمعية التأسيسية وتنقذ معها الثورة البورجوازية.

ففي ذلك الحين كانت خمائر الثورة تتجمع داخل الطبقة البروليتارية (العمالية) بسبب سوء الحالة الاقتصادية الذى بلغ ذروته فى عام ١٧٨٩م.

فيجمع المؤرخون على أن الفتنة والاضطراب كانا لابد واقعين فى فرنسا خلال صيف ١٧٨٩م، حتى ولو لم تقع هذه الأحداث السياسية. ذلك أن محصول عام ١٧٨٨م كان قد أفناه البرد المتساقط، فارتفع ثمن الخبز طوال الشتاء، وعندما حل الربيع كانت المؤن قد نفدت وانتشرت المجاعة، ونهبت قوافل الطعام وهى تحاول اختراق القرى الجائعة ونشبت الفتن فى الأسواق.

وازدادت الحالة سوءاً فى الفترة الحرجة السابقة للمحصول الجديد، وكثر القتال على الخبز، وفرغت الورش من عمالها، وكان العمال والصناع يضيعون الوقت الطويل فى الكفاح للحصول على نصيب ضئيل من الخبز، الأمر الذى فوت عليهم الأجر الذى يشترون به مئونة الغد!

وفى آخر أبريل قام سكان «سانت أنتوان» بمهاجمة مصانع ريفيون وهنريو Reveillon، وقد تصايح فيها المشتركون بالهتافات السياسية تأييدا للطبقة الثالثة، مما يدل على أن الأزمة السياسية والأزمة الاقتصادية قد أصبحتا مترابطتين فى عقول العمال الباريسيين.

وقد تلت فتنة ريفيون فترة هدوء نسبى فى باريس، ولكن خمائر الثورة البروليتارية كانت موجودة وتتزايد. وكانت الطبقة البورجوازية تعرف ذلك وتنوى الاستفادة منها عند اللزوم فى مواجهة الانقلاب الملكى الذى كان يدبر فى ذلك الحين ضد الجمعية التأسيسية.

وقد بدأت الطبقة البورجوازية تستعد للمعركة مع الملكية منذ أوائل يوليو ١٧٨٩م، مع توقع الانقلاب الملكى. فقد حشد الرأسماليون وأصحاب الدخول قواهم لتأييد الجمعية الوطنية، واستعانوا فى الدفاع عنها بجميع الأسلحة القوية من مال ونفوذ واتصالات.

وكان من الخطوات التى اتخذت اكتساب رجال الحرس الفرنسى، بإطعام المتحمسين منهم، وإيوائهم ودفع رواتبهم، فضلا عن رشوة المترددين

وكما استخدمت البورجوازية، المال، فقد اضطلعت بالتنظيم. ففى يوم ٤ يوليو كون الناخبون، الذين اختاروا نواب مجلس طبقات الأمة، من أنفسهم ناديا سياسيا لتجنيد جيش باريسى من المتطوعين، وكان هؤلاء الناخبون فى غالبيتهم من الطبقة البورجوازية، إذ كان هناك أربعة مصرفيين و ٢٦ تاجرا، ١٥٤ محاميا، و ١٣ طبيبا وجراحا، و ٤٣ تاجر تجزئة، و١٨ معلما من معلمى الحرف.

وفى ليلة ١١ - ١٢ يوليو ١٧٨٩م، مع ذيوع الشائعات عن قرب وقوع انقلاب حكومى، أخذت البورجوازية تحرك البروليتاريا لأعمال العنف. ففى تلك الليلة هوجم أربعون جمركا من الجمارك الأربعة والخمسين المحيطة بالمدينة، وأحرقت إحراقا تاما. وكان المسئولون عن هذه الحوادث صناعا وعمالا، ولكن الحركة دبرت من أعلى، كما يرجح الكثيرون.

وفى اليوم التالى ١٢ يوليو ١٧٨٩م وصلت الأنباء بطرد نيكير فى حين كانت باريس فى حالة من الهيجان وقريبة من الثورة، ولما كان العمال فى يوم عطلة، فقد أخذوا يتجمهرون فى الباليه رويال Palais Royal، وهو المكان الذى اعتاد الباريسيون وقتذاك الاجتماع فيه وقت الأزمات.

وهناك أخذ كاميل ديمولان Camille Desmoulins، وهو محام شاب وكاتب وخطيب قوى التأثير، يلهب، وغيره من الخطباء مشاعر الجماهير بالخطب النارية التى انتهت بالتحريض على حمل السلاح. وأخذت جموع عديدة تقتحم مخازن السلاح، بعد أن حملت تمثالين نصفيين لنكير وأورليان.

ثم بدا أن الحركة سوف تفلت من سيطرة البورجوازية حين اقتحم بوابات باريس فى نفس الليلة ١٢ ـ ١٣ يوليو ١٧٨٩م جيش من الشحاذين وقطاع الطرق، وأحرقوا البوابات، وتدفقوا على العاصمة ينهبون ويسلبون!

ولكن البورجوازية سارعت للسيطرة على الموقف. ففى نفس الليلة توجه الناخبون إلى دار البلدية Hotel de Ville للاستيلاء على السلطة المحلية، وكانوا ٣٧٩ ناخبا، وقاموا بتأليف لجنة دائمة Comite Permanante من ٢٤ عضوا، تسلمت الإدارة فى العاصمة.

وتقرر البدء فى إنشاء جيش من المتطوعين، حيث يقدم كل حى من أحياء المدينة، البالغ عددها ٦٠ حيا، مائتى متطوع، يسجلون ويسلحون.

وفى اليوم التالى ١٣ يوليو ١٧٨٩م، كان الناخبون قد بدءوا فعلا فى فرض شئ من النظام على الحركة الثورية للبروليتاريا، تعاونهم فى ذلك فرقة كاملة من الحرس الفرنسى وغيرهم من الجنود الذين تركوا الجيش وانضموا إلى الحرس الوطنى.

وفى مساء نفس اليوم تم وضع الخطط التفصيلية لإنشاء الحرس الوطنى من المدنيين ومن رجال الحرس الفرنسى الذين انضموا تحت لواء الثورة. وقد روعى أن يكون هذا الحرس حرسا بورجوازيا بحتا، بمعنى أنه كان مؤلفا من المواطنين المحترمين من ذوى المساكن الثابتة دون غيرهم، ومنهم خيرة مواطنى المدينة، وبورجوازيون كبار، وماليون، وقساوسة، ومحامون، ورهبان!

ولإبعاد الفقراء منه، تقرر أن يتخذ زيا عسكريا يكلف الرجل من رجاله خمسة جنيهات إنجليزية تقريبا! وألزم المتطوع منذ البدء

بالخدمة يوما من كل أربعة أيام، مما أبعد العمال الأجراء بطبيعة الحال!

ثم أخذت اللجنة التنفيذية للناخبين فى تسليح جيشها البورجوازى بالسلاح والبارود! وفى يوم ١٤ يوليو ١٧٨٩م (أى اليوم التالى) حين نفد السلاح والبارود، سار وفد كبير يقوده أحد أعضاء اللجنة قاصداً «الأنڤاليد Hotel des Invalides» (ملجأ مشوهى الحرب فى باريس) للمطالبة بالبنادق الموجودة فى الترسانة، وحاول المأمور إثناء عزمهم دون جدوى، فنهبوا ترسانته، وغنموا مابين ٢٨٠٠٠ و ٣٢٠٠٠ بندقية، و ٢٠ مدفعا، عززوا بها قوتهم.

ثم اتجهوا فى اليوم نفسه ١٤ يوليو ١٧٨٩م، إلى حصن «الباستيل» Bastille، الذى اشتهر فى أوروبا كلها بأنه معقل سجناء الدولة، وذلك للوصول إلى مخزن البارود فيه. ولو كان «دى لونيه» De Launey محافظ السجن، قد اقتدى بمأمور الأنفاليد، لما كان احتلال الباستيل أكثر من حدث آخر من أحداث الفتنة الجارية، ولكنه رفض أن يفتح أبوابه، وفتح النار على الجماهير، وبذلك تأزم الموقف، ولم يعد يرضى الجماهير سوى اقتحام الحصن والاستيلاء عليه عنوة.

وفى ذلك الوقت كان الموقف قد أفلت فعلا من الناخبين. فقد تعزز موقف المهاجمين، الذين كانوا فى معظمهم من الطبقة العاملة الساكنين فى ضاحية سانت أنطوان المجاورة، بفصائل من الحرس

الفرنسى المسلحة بمدفعية ضعيفة وقوات من الحرس الوطنى، وسلم دى لونى بعد مقاومة دامت خمس ساعات، رغم أن أهم حصونه ظلت مسلحة، ورغم أنه لم يفقد من قواته سوى قتيل واحد مقابل ٩٨ قتيلا و٧٣ جريحا فى صفوف المهاجمين.

وكان الاستيلاء على الباستيل له صدى العمل الحربى الضخم، وتجاويت به أرجاء أوروبا كلها، إذ تهاوى بسقوطه رمز الطغيان والأوتوقراطية الملكية تحت ضربات تحالف البورجوازية والبروليتاريا المظفرة.

وسرعان ماشكل الناخبون حكومة بلدية كاملة، واختير باييى Bailly، وهو عالم فلكى مرموق، عمدة للمدينة فى يوم ١٦ يوليو ١٧٨٩م، وأسند إلى لافاييت رئاسة الحرس الوطنى.

ولم يلبث تحالف البرولتياريا مع البورجوازية المصممة على تأييد الجمعية التأسيسية فى باريس، أن انتقل إلى المدن الأخرى. ففى رين Rennes، حين سمعت بطرد نيكير، نهبت الجماهير البروليتارية والبورجوازية الترسانة، ورفض الجنود إطلاق النار عليها. وفى كان Caen استولت حركة مماثلة على القلعة، وهاجمت محكمة الملح البغيضة. وفى الهافر استولت الجماهير على الترسانة البحرية، وسلمت قلعة بوردو للثوار. وفى كثير من المدن أزيحت الأوليجاركيات البلدية القديمة، وحل محلها لجان من بين ناخبى مجلس طبقات الأمة.

ولم تمض أسابيع حتى فقدت الحكومة الملكية سيطرتها على الأقاليم، وأخذت المدن تتلقى أوامرها فى الشئون المهمة من الجمعية التأسيسة دون غيرها. وفى معظم الحالات كانت أى حركة ثورية تقودها البورجوازية لا تلقى مقاومة من الجيش. وأمكن بفضل تشكيل الميليشيات البورجوازية Milices Bourgeoises حفظ النظام وخلق عسكرية.

ولم يلبث الفلاحون فى الريف أن فجروا الثورة الزراعية. وكانت الرسوم الإقطاعية التى يتقاضاها الإقطاعيون تشتد وطأتها على كواهل الريفيين فى أوقات المجاعة، فأفضت أنباء الثورة فى باريس إلى ثورات واسعة فى أواخر يوليو فى ريف نورماندى وفى فرانش كومتيه Franche Comté وفى الألزاس وغيرها، وهاجم الفلاحون قصور النبلاء وأحرقوا الوثائق الإقطاعية التى احتوت على الدليل القانونى على حقوق النبلاء. وفى كثير من الحالات أحرقوا معظم القصر نفسه. ورفض الفلاحون بصفة عامة دفع العشور والرسوم الإقطاعية، بل والإيجارات.

وقد ألقى النبلاء مسئولية إثارة هذه الثورة الفلاحية على البورجوازيين، الذين أنكروا دورهم فى هذه الثورة، واتهموا النبلاء بأنهم يحاولون تشويه الثورة بحمل الريف على العنف لكى يشلوا حركة الجمعية التأسيسة.

ومهما يكن من شأن هذا الخلاف، فالحقيقة أن البورجوازية كانت هى المستفيد الأول من الثورتين البروليتارية والفلاحية على النحو الاتى:

ففيما يتصل بالثورة البروليتارية التى قادتها البورجوازية، فقد أنقذت الجمعية التأسيسية من الانقلاب الذى كان يدبره القصر.

فقد سارع الملك لويس السادس عشر إلى الاستسلام فى اليوم التالى مباشرة لسقوط الباستيل، أى فى يوم ١٥ يوليو ١٧٨٩م، وذهب إلى الجمعية التأسيسية، وأعلن سحب قوات الجيش، وأعلن للنواب أن أشخاصهم مصونة بالرغم من كل ما حدث، وطلب منهم معاونته لتأمين سلامة الدولة.

وفى نفس اليوم أسقط الوزارة، وفى اليوم التالى ١٦ يوليو ١٧٨٩م، استدعى نيكير، وفى اليوم التالى ١٧ يوليو ذهب بنفسه إلى باريس فى عربة بسيطة تحيط به جماعات الحرس الوطنى البورجوازى، حتى وصل إلى دار البلدية، وهناك وافق على تعيين «بايى» عمدة لباريس، ولافاييت قائدا للحرس الوطنى.

وكان الملك مرتديا شارة الباريسيين ذات اللونين الأزرق والأحمر بجوار الشارة البيضاء «الجو كارد» Gocarde، فكان بذلك منشأ الشارة المثلثة الألوان. وكتب السفير الإنجليزى فى باريس يقول: «يستطيع المرء الآن أن يقول إن الملك قد أصبح ملكا دستوريا، وإن فرنسا من هذه اللحظة قد أصبحت بلدا متحررا».

هذا فيما يختص بنتائج الثورة البروليتارية. أما فيما يختص بالثورة الفلاحية، فإن نتيجتها المباشرة كانت سقوط النظام الإقطاعى. وكانت مشكلة إخماد هذه الثورة أمام الجمعية

التأسيسية عويصة، فإذا التمست استخدام الجيش النظامى من الملك، فسيتيح ذلك له فرصة استرداد بعض السلطة التى فقدها، وإذا لجأت إلى استخدام الحرس الوطنى، فقد يُحدث ذلك انشقاقا فى صفوف البورجوازية، فحين شدد المعتدلون فى ضرورة إعادة الأمن إلى نصابه، ذكَّر روبسبير وبعض نواب بريتانى الجمعية بأنها فى خطر التنكر للثورة الشعبية التى تدين لها بالفضل فى إنقاذها.

وكان الحل الذى فرض نفسه هو إرضاء الفلاحين. وذلك منشأ يوم ٤ أغسطس ١٧٨٩م التاريخى.

فقد قرر نادى بريتون Club Breton أن يقترح النبلاء المتحررون التخلى طوعا واختيارا عن بعض امتيازاتهم الإقطاعية. وفى مساء ٤ أغسطس ١٧٨٩م وقف النبلاء يتنازلون عن امتيازاتهم وحقوقهم الإقطاعية، وتدفقت التنازلات بسرعة تعذر معها على سكرتيرى الجلسة ملاحقتها! وبمقتضى هذه التنازلات تم إلغاء الحقوق الإقطاعية الشخصية، وإلغاء التقاضى الإقطاعى، وتحويل ضريبة العشور إلى ضريبة يمكن شراؤها، وافتداء الحقوق - أى إلغاء الحقوق الإقطاعية فى نظير تعويض يدفع لأصحابها - وتقرير المساواة فى دفع الضرائب وفى شغل الوظائف العامة.

وعلى هذا النحو أعلنت قرارات ٤ أغسطس ١٧٨٩م المساواة المدنية التى رفضها لويس السادس عشر فى ٢٣ يونيو ١٧٨٩م.

٣ ـ الجمعية الوطنية التأسيسية

على كل حال، فمما سبق يتضح أن قوى الثورة البورجوازية قد أصبحت تتمثل فى «الجمعية الوطنية التأسيسية» والبلديات البورجوازية Communes فى المدن، وعلى رأسها بلدية باريس. ولما كانت القيادة مع ذلك ظلت فى يد الجمعية التأسيسية، فمن المهم أن نلقى نظرة داخل هذه الجمعية لمعرفة إنجازاتها، والقوى المحركة فيها، وتحولاتها وفقا للأحداث.

وقد سبق أن بينا أن الجمعية التأسيسية كانت مكونة من ثلاث طبقات: رجال الدين، والنبلاء، والبورجوازيين. وكان من الطبيعى أن يمثل نواب كل طبقة فيها مصالح الطبقة التى ينتمون إليها، وإن كان هذا لا يمنع أنه وجد بين النبلاء ورجال الدين من انضموا إلى الطبقة البورجوازية فى نضالها، لتغيير صورة المجتمع الفرنسى بحيث يتفق مع الوضع الاقتصادى للطبقات أو العلاقات الانتاجية الفعلية.

وكان شعور الفزع قد ساور نواب الطبقة البورجوازية حين سمعوا بنبأ الثورة فى باريس، ولكن لم يلبث أن حل محله شعور الرضا حين أمكن التغلب بسرعة على أخطار أعمال العنف التى يقوم بها العمال والغوغاء بفضل الحرس الوطنى.

ولكن الشعور العام، بعد أن أدت هذه الثورة غرضها فى إنقاذ الجمعية من الانقلاب الملكى، هو أنها يجب أن تنتهى - أو كما عبر أحد النواب (ديكينوا Duquenoy) قائلا: «إننى شخصيا أرى أن فترة من الفوضى كانت ضرورية، ولكننى أيضا أرى أنها يجب أن تنتهى»!

على أن رضا النواب البورجوازيين سرعان ما أفسدته ثورة الفلاحين فى الريف، ذلك أنهم كانوا فى ذلك الحين ـ بعد أن ابتعد شبح الانقلاب الملكى ـ قد عكفوا على وضع الدستور الذى كانوا يعتبرونه علة وجودهم الأولى، فإذا بثورة الفلاحين تقوم، بما فيها من تهديد محتمل للملكية.

وقد عبرت الصيحات التى انطلقت فى الجمعية عن مشاعر النواب تجاه هذه الثورة، فقد صاح أحدهم: إنها حرب الفقراء ضد الأغنياء»!. وصاح آخر: «إن المِلكية بشتى أنواعها فريسة لأشد ألوان اللصوصية إجراما». وانتهى الرأى إلى أن يتنازل الإقطاعيون عن امتيازاتهم طوعا لإخماد الثورة يوم ٤ أغسطس ١٧٨٩م.

وكان سقوط النظام الإقطاعى لصالح الفلاحين ولصالح البورجوازيين على السواء - كما ذكرنا، فقد أغدقت النظم والقوانين الجديدة مغانم عظيمة على الطبقة البورجوازية الثرية المتعلمة، التى كان أفرادها ـ دون غيرهم ـ هم الذين يحتمل أن يجنوا نفعا كبيرا من تيسير افتداء الحقوق الإقطاعية، ومن الحق - المخول إسما ـ لجميع المواطنين، فى شغل جمع الوظائف المدنية والعسكرية.

وفى نفس اليوم ٤ أغسطس ١٧٨٩م وافقت الجمعية الوطنية التأسيسية على استصدار «إعلان حقوق الإنسان والمواطن»، وفى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م اعتمد الإعلان فى صفته النهائية، وقد حمل ملامح الطبقة البورجوازية التى أصدرته، كما حمل ملامح الظروف السياسية التى صدر فيها.

فقد نص على أن «الناس يولدون أحراراً ومتساوين فى الحقوق، ويظلون كذلك». ولكن من جهة أخرى اعترف بوجود الفوارق أو المميزات الاجتماعية، التى ذكر أنها تقوم لمنفعة عامة».

كذلك حرص الإعلان على تقرير حماية المُلْكية الفردية، فنص على أنها «حق طبيعى» من حقوق الإنسان، وأنه «لايجوز حرمان أى فرد من المُلْكية التى هى حق مقدس لايمس إلا إذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة».

وبالإضافة إلى ذلك فقد اشتمل إعلان الحقوق على أهم المبادئ التى نادى بها فلاسفة الثورة: الحرية، المساواة، سيادة الأمة، فصل السلطات، الإرادة العامة» وقد وصفه لورد أكتون بأنه كان أقوى من كل جيوش نابليون!.

وقد كان إعلان حقوق الإنسان مقدمة للدستور الذى أخذت الجمعية الوطنية التأسيسية فى بحثه، والذى انقسم النواب حوله انقساما خطيرا.

فمع أنه كان هناك تسليم بأن الحكم سوف يكون ملكيا، الا أن الخلاف دار حول مقدار السلطة التى يملكها الملك فى الدستور، وحول مقدار السلطة التشريعية. فقد كان من رأى أنصار الملَكية الدستورية إقامة سلطة تنفيذية قوية للدفاع عن الأموال والأملاك وإخماد الاضطرابات، وذلك عن طريق إعطاء حق الفيتو المطلق للملك Veto-absolu على جميع قرارات السلطة التشريعية، وانقاص السلطة التشريعية ذاتها بإنشاء مجلس أعلى (مجلس شيوخ) يكون له حق الفيتو المطلق على القوانين. وكان على رأس هؤلاء مالويه، ومونيه، ولالى توليندال Lally - Tollendal.

أما الراديكاليون، وعلى رأسهم ديبور Duport ولا ميت Lameth وبارناف Barnave فكانوا على استعداد لقبول مجلس أعلى، ولكن بشرط ألا يخول حق الفيتو المطلق على القوانين، وإعطاء الملك حق الفيتو المطلق شرط ألا يخول سلطة حل المجلس.

وقد أدى فشل التوفيق بين الاتجاهين إلى انقسام الطبقة البورجوازية، فأخذ المعتدلون يتقربون إلى الطبقة الأرستقراطية، فى حين أخذ الراديكاليون يتجهون إلى الطبقات الثورية فى باريس ليرهبوا بها الجمعية التأسيسية. واستخدم ميرابو طائفة من المهيجين لتحريض جماهير باريس ضد تقرير حق الفيتو ومجلس الشيوخ.

وانتهى الأمر بانتصار الرأى الراديكالى، ورفضت الجمعية يوم ١١ سبتمبر ١٧٨٩م فكرة إنشاء المجلس الأعلى، كما أعطت

الملك حق الاعتراض Veto المؤقت، بحيث يسقط إذا أقر المجلس التشريعى القوانين دورتين من أدوار انعقاد المجلس.

وكما حدث فى يونيو ١٧٨٩م، فقد تمخض انتصار الراديكالين الآن عن صراع مع الملك. فقد رفض لويس السادس عشر إصدار إعلان حقوق الإنسان ومراسيم ٤ أغسطس ١٧٨٩م، وإزاء ذلك طالبت الجمعية بالإجماع أن يصدق الملك على مراسيمه تصديقا واضحا وتأزم الموقف.

وكما حدث فى يونيو ويوليو ١٧٨٩م، استدعى الملك الجيش، فأشعل وصوله الثورة فى باريس، فقد أولم البلاط بمناسبة وصول فرقة الفلاندر Flanders وليمة حضرتها الأسرة الملكية، وانحدر الاحتفال فيها إلى درك المظاهرات المخمورة المعلنة عن حماس الملكيين، فكانت هذه الحفلة بمثابة المهماز الذى دفع باريس إلى العمل.

فقد أخذ الصحفيون والكتاب والخطباء الشعبيون يطالبون بالزحف على فرساى لإبعاد الملك عن تأثير بلاطه الفاسد، وهو ماتم يوم ٥ أكتوبر ١٧٨٩م حين توجهت مظاهرة من النساء إلى فرساى تتبعهن فصيلة كبيرة من الحرس الوطنى يقودهم لافاييت.

وكانت أولى نتائج هذا الغزو الباريسى موافقة لويس السادس عشر على جميع المراسيم التى وافقت عليها الجمعية التأسيسية، وإعلانه قبول مواد الدستور وإعلان حقوق الإنسان.

وكان يصحب لافاييت ممثلان للبلدية تضمنت مطالبهما عودة الملك معهما إلى باريس. ولم يجد الملك مفرا من الإذعان بعد أن شق بعض الجمع المحتشد طريقه عنوة إلى داخل القصر وكاد يهدد حياة الملكة.

وفى الفترة التالية كان الخوف من استيلاء الجماهير الشعبية على الثورة يدفع الكثيرين من البورجوازيين الثوريين إلى التصالح مع الملك. وكان شعار هؤلاء أن الثورة لاتستطيع السير بأمان إلى أبعد مما كان الملك على استعداد للسير فيه.

وقد بدأ هؤلاء تحركهم منذ أغسطس ١٧٨٩م حين حض أنصار الملكية الدستورية الملك على مغادرة فرساى، وفى مايو ١٧٨٩م أصبح ميرابو، أكفأ خصوم البلاط، مستشارا ملكيا مأجورا للدفاع عن حقوق الملكية داخل الجمعية. وفى الشهر التالى تأسس نادى ١٧٨٩م المحافظ النزعة ـ والذى كان ردا على نادى اليعاقبة ـ وأصبح المأوى السياسى لأمثال لافاييت وبايى وسييس وتاليران.

بل إن راديكاليى ١٧٨٩م وهم: الاخوان لاميت وبارناف، وديبور دخلوا فى مفاوضات مع البلاط فى ربيع ١٧٩١م! فلما حل يونيو ١٧٩١م، لم يبق على موقف ١٧٨٩م المتشدد غير حفنة من النواب المتطرفين، وأصبح أكثر الراديكاليين السابقين مصممين على إنهاء الثورة والمصالحة مع الملك!

وفى الوقت نفسه كان ضرب الكنيسة، باعتبارها دعامة من دعامات النظام القديم، يؤدى إلى انقسام آخر. وكان من أعضاء الجمعية عدد كبير من الذين اعتنقوا آراء فولتير وأصحاب الموسوعة.

وقد أسفر الهجوم على الكنيسة عن إلغاء الأديرة وطوائف الرهبان، ومصادرة أموالهم فى نظير معاشات لأصحابها، وإصدار قانون الكنيسة المدنى فى ١٢ يوليو ١٧٩٠م، وبمقتضاه صار كل الأساقفة ينتخبون بواسطة الأمة، ولايعينهم البابا، وتعدل توزيع الأسقفيات حسب الوحدات الإدارية. ومن قبل ذلك فى ديسمبر ١٧٨٩م كان المجلس قد أصدر، تحت اقتراح تاليران، قرارا ببيع أملاك الكنيسة.

وقد أدت هذه القوانين إلى فصل رجال الدين عن الثورة، وتحالفهم مع أعدائها، وخصوصا عندما رفض الكثيرون حلف اليمين على اتباع القانون، وأعلن البابا استنكاره له، وأخذت الجمعية ترغم رجال الدين المخالفين أو المستنكرين على حلف يمين الطاعة للدستور كضمان لولائهم للثورة، مما أدى إلى اشتداد المعارضة للثورة بتأييد الفلاحين، الذين ساءهم تدخل الجمعية الوطنية فى شئون الدين والعبادة، وأدى ذلك إلى إشعال الحرب الأهلية الدينية فى البلاد من ١٧٩١م إلى اتفاق ١٨٠١م بين نابوليون والبابا.

وقد كانت نتيجة لهذه الانقسامات، أن انتقلت قيادة الحركة الثورية من الجمعية الوطنية والأوتيل دى فيل إلى منظمات شعبية جديدة.

فقد ألف قادة قسم الكورديلييه Cordelier (احد أحياء باريس) بزعامة «دانتون» ناديا شعاره «العين اليقظة»، تحدى البلدية وأعلن غيرته الثورية فى كل مناسبة. وتحول النادى البريتونى Club Breton إلى نادى اليعاقبة، وعلى رأسه مكسميليان روبسبير، وكانت كتابات ديمولان ومارا تعلن عن عدم ثقتهما فى السلطة، والتنديد بمؤامرات أعداء الثورة. وألف فوشيه حلقته الاجتماعية، التى كان يبشر فيها بخليط من الماسونية والمسيحية الاجتماعية، وانضم ألوف إلى هذه الحلقة. وبدأ قادة جدد يتحدثون إلى مجتمع جديد.

ومن ناحية أخرى فإن تحول الغالبية فى الجمعية الوطنية إلى جانب التعاون مع الملك للأسباب التى ذكرناها، قد جعل لويس السادس عشر يميل إلى الثقة فى استعادة سلطته فى النهاية، ولذلك فقد رفض الاشتراك فى المؤامرات التى كان يدبرها النبلاء المهاجرون لإشعال نيران الحرب الأهلية والاستعانة بالغزو الأجنبى للبلاد. وأهمها مؤامرة أغسطس ١٧٩٠م التى دبرها الكونت دارتوا أخو الملك.

على أنه فى خريف عام ١٧٩٠م كان يلوح أن لويس قد فقد الثقة فى قدرته على استعادة سيطرته على الثورة، خصوصا بعد أن اضطر إلى الموافقة على قانون الاكليروس المدنى فى ٢٤ أغسطس ١٧٩٠م. ولذلك قرر القضاء على الثورة بالقوة العسكرية

عن طريق الهرب من باريس إلى الحدود الشرقية، والاتصال بجيشه فى متز Metz، ليكره الإمبراطور النمسوى المتردد على التدخل لصالحه.

وفى يوم ٢٠ يونيه ١٧٩١م قام بتنفيذ خطته، ولكنه أوقف فى فارين Varennes، وأعيد وأسرته إلى باريس تحت الحراسة يوم ٢٥ يونية ١٧٩١م.

وقد قدر لهذه المحاولة الملكية الفاشلة أن تكون نقطة تحول فى تاريخ العلاقة بين قوى الثورة.

فحتى ذلك الحين لم تكن ثورية اليسار المتطرف قد ذهبت به إلى حد التفكير فى الجمهورية، وإنما كان الصراع يدور حول توزيع السلطة بين الملكية والبورجوازية، والقدر الذى يسمح به لهذا أو تلك. ولكن بعد كشف هرب لويس برزت فكرة خلع الملك لتقسم اليسار نفسه.

فمع أن الجمعية خولت لنفسها كل السلطات، وأمرت الوزراء بتنفيذ المراسيم دون تصديق الملك، وقررت إيقاف الملك ووضعه تحت الحراسة، وأن يستمر وقفه حتى تفرغ من الدستور. إلا أنه كان هناك إحجام عام تقريبا عن خلع الملك.

ولكن الجماهير الباريسية التى تحرضها الصحافة المتطرفة والنوادى الشعبية، والتى أطلق عليها خصوصًا اسم «الصان كيلوت» Sans - Culottes (أى الذين ليس لهم بنطلونات ركوب كتلك التى يرتديها النبلاء) طالبت بمحاكمة الملك وعقابه.

وكان من رأى زعماء نادى اليعاقبة، وهو موطن اليسار، أن الملك بهربه قد خسر تاجه، وطالبوا إما بتنصيب عاهل جديد وإما بأن تنشأ الجمهورية.

ولكن هذا الرأى فرق وحدة نادى اليعاقبة، فانشقت الغالبية الكبرى من أعضائه من النواب ليؤلفوا نادى الفويان Feuillants (نسبة إلى المكان الذى صاروا يجتمعون فيه وهو دير الوراقين (فويان). ولم يتركوا فى نادى اليعاقبة سوى خمسة أو ستة أعضاء، على رأسهم روبسير.

وبذلك أصبح اليمين هو المسيطر، ويمثل الغالبية العظمى. ولذلك حين أعد نادى الكورديلييه عريضة يطالب بخلع الملك ومحاكمته، ووضعها على مائدة فى ميدان «شان دى مارس» Chemps de Mars لجمع التوقيعات عليها من الصان كيلوت، يوم ١٧ يوليو ١٨٩١م، قام بايى ولافاييت، بتشجيع من الجمعية الوطنية، بحصد الجماهير على يد فصيلة من الحرس الوطنى البورجوازى.

وقد وضعت الدماء التى سالت فى شان دى مارس حدا فاصلا بين الملكيين الدستوريين والجمهوريين الثوريين. فمن ناحية فإن الملكيين الدستوريين أصبحوا الآن على استعداد للنزول للملك فى الدستور عما أبوا النزول عنه فى ١٧٨٩م .

وقد شرح بتيون Pétion دوافع هؤلاء بقوله: «إن البورجوازية تبتعد عن الشعب، وإنها لخوفها من انحدار الثورة إلى حرب بين المالكين والمحرومين تحاول أن تصل إلى اتفاق مع الأرستقراطية».

وفى ١٨ يوليو ١٧٩١م أصدرت الجمعية قانونًا وحشيًا لحفظ النظام، قـامت البلدية بتنفـيـذه. وظل الحكم العـرفى سـاريا ثلاثة أسـابيع، جرت المحـاولات أثناءه لإسكات زعمـاء الصـان كيلوت، وفر دانتون إلى إنجلترا، واختبأ ديمولان وسـانتير Santerre فى باريس، واستولت السلطة البورجوازية على مطابع مـارا الذى كان قد توفى فـجـأة فى ٢ أبريل ١٧٩١م، ففقدت الملكية بوفـاته أكبر نصير لهـا، وقبض على آخرين.

ومن ناحية أخرى فإن روبسبير وبتيون Pétion على رأس نادى اليعاقبة تزعما النضال ضد تنقيح الدستور، واستطاعا كسب تأييد غير مـعـهـود. فلم تنفذ الجـمـعـية غير شطر ضـئيل من مشروعات التعديل. وقد استطاع روبسبير الحصـول على قرار من الجمعية بمنع أعضـائها من أن يكونوا ناخبين أو نوابا فى الجمعية التالية التى تجرى الانتخابات لها على أسـاس الدستور الجديد، وفى يوم ١٣ سبتمبر ١٧٩١م صدق الملك على الدستور، الذى حرم من حق الانتخـاب أكثر من ٥/٤ سكان فرنسـا البـالغ عـددهم ٢٤ مليـونا، وأعيد الملك إلى وظائفه.

وفى ٣٠ سبتمبر ١٧٩١م أصدرت الجمعية الوطنية التأسيسية قرارا بانفضـاضـهـا واجراء الانتخـابات للجـمـعية التشـريعية As-semblée Legislative.

وعلى هذا النحـو أسـفـرت هذه المرحلة من مـراحل الثـورة البـورجـوازية عن نتيـجـتـين: الأولى : انقسـام الثورة بين يمـين دستورى ملكى، ويسار ثورى جمهورى، والثانى انتصار اليمين.

٤ ـ الجمعية التشريعية

عندما اجتمعت الجمعية التشريعية فى أول أكتوبر ١٧٩١م، كانت كتلة اليمين هى أكبر الكتل، فقد كان عدد من انتمى منهم إلى نادى الفويان Feuillants ٣٣٤ نائبا. وقد انضم إليهم الأخوان لاميت Lameth وبارناف Barnave وديبور Duport.

وفى اليسار كان يوجد (أولا) اليعاقبة وعلى رأسهم روبسبير الذين بدءوا بعدد لايزيد على ١٣٦ نائبا، (ثانيا) الجيروند Girondins الذين سموا بذلك لأن أصل نوابهم من إقليم الجيروند، وعلى رأسهم برسو Brissot، فيرينيو Vergniaud، وجاديه Guadet ورولان.

وكان الجيروند واليعاقبة ثوارا يتشابهون مزاجا وأصلا اجتماعيا (بورجوازية صغيرة) وعقيدة سياسية.

وإلى أقصى اليمين، كان يوجد لافاييت وإخوانه من مؤيدى الملكية.

وقد قامت فلسفة الجيروند على أن انقسام المجتمع الفرنسى قد أصبح أعمق من أن يتيح التوفيق بين عناصره، ومن ثم فإن سلامة قضية الثورة تقتضى سحق خصومها دون هوادة. وقد عبرت مدام رولان عن ذلك بقولها:

«إن الحرب الأهلية ستكون مدرسة عظمى للفضيلة العامة. إن فى السلام نكسة لنا».

ومن ثم فقد ركز الجيروند هجومهم على النبلاء المهاجرين، الذين كانوا قد أخذوا فى مغادرة فرنسا بعد انتقال لويس السادس عشر إلى باريس، فيما يعرف باسم «الهجرة الكبرى»، La grande Emegrante، إلى الإمارات الألمانية على نهر الراين فى ماينز Mainz وكوبلنز Coblentz، وكونوا جيشا عبر الحدود.

وقد حمل الجيروند الجمعية فى ٨ نوفمبر ١٧٩١م على اصدار مرسوم يقضى بالحكم بالإعدام على جميع المهاجرين الذين يظلون بالخارج بعد أول يناير ١٧٩٢م، وعلى وضع ممتلكاتهم تحت الحراسة.

وفى ٢٩ نوفمبر ١٧٩١م طلبوا إلى لويس السادس عشر أن يرسل إلى منتخب تريف Treves يطلب اليه تفريق تجمعات المهاجرين – رغم أن هذا الطلب قد يؤدى إلى إعلان الحرب على النمسا، حيث كان منتخب تريف Treves أميرا من أمراء الامبراطورية.

وكان «بريسو»، الذى تزعم الجيروند، يرى أن الحرب وسيلة للتعجيل ببلوغ الثورة إلى ذروتها، وإكراه الملك على التسليم للجيروند.

وقد التقى مع الجيروند فى نظرية الحرب هذه اليمين المتطرف الممثل فى لافايت وأعوانه والبلاط الملكى، ولكن لأهداف مختلفة

تماما. فقد اعتقد هؤلاء أن الحرب لن تؤدى إلى إلغاء سلطة الملك كما يأمل الجيروند، وانما ستؤدى إلى تدعيم سلطته، لأنهم سيتولون قيادة الجيوش، وستيح لهم ذلك فرصة استخدام القوات المسلحة التى تحت قيادتهم للقضاء على أعداء النظام. وهكذا اتحد الملكيون والثوار على شن الحرب كأداة لحل مشاكل السياسة الداخلية.

على أن اليعاقبة وقفوا موقف المعارضة للحرب، وعلى رأسهم روبسبير وديمولان ومارا وكوتون Couton، ودانتون، على أساس أنه من المستبعد أن تأتى نتيجة الحرب فى صالح الثورة، وأن سياسة الحرب ماهى إلا شرك ينصبه القصر. ولكن هذه الجماعة المعارضة التى أطلق عليها ـ فيما بعد ـ اسم «الجبليون» Montagnards، فشلت فى الحصول على تأييد الجمعية.

ولقد حققت نتيجة الحرب حدس الجيروند بالفعل، ولكن لأسباب مختلفة، أى لأسباب ترجع إلى هزيمة القوات الفرنسية وليس لانتصارها.

ذلك أن القوات الفرنسية كانت قد شلت حركتها فوضى الجنود وهرب كثير من ضباطهم، وبالتالى فلم تفشل فقط فى الهجوم على بلجيكا كما كان مقررا، بل عجزت عن صد الغزو.

ومن ثم اعتمد الدفاع عن البلاد على تجنيد الجيوش الشعبية، التى تألفت فى المراحل الأولى من مراحل الحرب من عمال المدن أى الصان كيلوت.

ولقد كانت قوة «الصان كيلوت» السياسية كبيرة كما رأينا، ولكن حد من تأثيرهم انصرافهم أكثر الوقت إلى كسب رزقهم، فلم يزد دورهم إلى ذلك الحين على دور الكورس فى مسرحية الثورة، كما حدث فى يوليو ١٧٨٩م وفى «الشان دى مارس» Chemps de Mars.

ولكن هذا الدور لم يلبث أن دخل مرحلة جديدة الآن بعد ازدياد الاعتماد عليهم فى الدفاع عن باريس من جهة، ثم بعد ذلك حين فَتحت إباحة التصويت للمواطنين السلبيين (الذين ليس لهم حق الانتخاب) فى ١٤ أغسطس ١٧٩٢م أمامهم أقسام باريس وغيرها من المدن المهمة، وأتاحت لهم فرصة الاجتماعات المحلية حيث يستطيعون التدخل فى الأحداث فى أرضهم، والضغط بقراراتهم على البلدية وعلى الجمعية.

وفى البداية لعب الجيروند دورهم المتطرف حين اعترض الملك علَى مشروعين: أحدهما موجه ضد الكهنة العصاة، والثانى بقرار انشاء معسكر قرب باريس من ٢٠ ألف من المتطوعين القادمين من الأقاليم (لدعم سيطرة الجيروند)، مما أدى إلى سقوط وزارة الجيروند يوم ١٥ يونيه ١٧٩٢م.

فقد تحالف الجيروند مع اليعاقبة، وأسفرت المحالفة عن مظاهرة يوم ٢٠ يونيو ١٧٩٢م التى غزت قصر التويلري وكادت تفتك بالأسرة المالكة.

على أن الجيروند سرعان ما تقاعسوا عن «إبلاغ الثورة قمتها» - حسب تعبيرهم - بالاطاحة بالملكية، حين وجه الدوق برونسفيك Brunswik، القائد الأعلى للجيش البروسى، بناء على طلب مارى أنطوانيت، إنذارا يوم ٢٥ يوليو ١٧٩٢م اعتبر فيه أهل باريس مسئولين عن سلامة الأسرة المالكة، مما أثار الهياج فى العاصمة.

ففى هذه اللحظات الحاسمة كان الجيروند يتفاوضون مع القصر لحمله على قبول وزارة جيروندية، ومن ثم فقد رأوا أن الأزمة الحربية ليست الوقت المناسب للإطاحة بالملكية أو لتغيير الدستور، وتحولوا فجأة إلى الدفاع عن العرش والوقوف ضد خلع الملك، بعد أن هيأت سياستهم الشعب لذلك!، وفى الوقت نفسه تردد الجبليون خوفا من فشل الثورة إذا قامت.

وهكذا انتقلت المبادرة إلى يد الصان كيلوت الباريسيين. ففى تلك الأثناء كانت الجمعية قد استدعت المتطوعين، الذين أطلق عليهم اسم الاتحاديين (الفدراليين) Fédérés من الأقاليم ليشهدوا احتفالات ١٤ يوليو ١٧٨٩م فى طريقهم إلى الجبهة. وقد حضر هؤلاء، وكان بينهم متطوعو مرسيليا الذين وصلوا وهم ينشدون المارسيليز Marseillaise، الذى ألفه أحد ضباط سلاح المهندسين (روجيه دى ليل Roujet de L'Isle تحت اسم نشيد حرب جيش الراين.

ولم يرض الاتحاديون بالرحيل عن باريس قبل أن يضربوا ضربتهم، ففى يوم ١٧، ٢٣ يوليو ١٧٩٢م تقدموا بطلبات إلى

الجمعية بوقف الملك، وكونوا لجنة مركزية ولجنة تنفيذية عليا سرية أدخلوا فيها عددا من قادة باريس لضمان الاتصال بأقسام باريس.

وفى ٣ أغسطس تألفت مظاهرة من أقسام باريس على رأسها بتيون عمدة العاصمة (من الجيروند) تطالب الجمعية التشريعية بخلع الملك، وفى ٦ أغسطس ١٧٩٢م كرر هذا الطلب وفد من المتطوعين، ومنح الجمعية مهلة إلى يوم ٩ أغسطس ١٧٩٢م، ولكن الجمعية التى تمثل البورجوازية رفضت الإذعان لدكتاتورية الصان كيلوت.

وعلى الفور عبأ الاتحاديون والحرس الوطنى، الذى كان قد فتح أبوابه لجميع المواطنين، وفقد لذلك صفته البورجوازية البحتة، صفوفهم، وأرسلت أقسام باريس مندوبين عنها إلى مقر الأوتيل دى فيل، حيث طردوا المجلس البلدى، ونصبوا أنفسهم كومونا ثوريا على رأسه دانتون، ثم استدعوا قائد حرس القصر واعتقلوه فور وصوله.

وعندما بدأ خطر الهجوم على قصر التويليرى يتجلى، ترك الملك وأسرته القصر ووضع نفسه تحت حماية الجمعية، وسرعان ماوقع الهجوم المشهور يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٢م على التويليرى على يد الصان كيلوت، والذى أسفر عن سقوطه، كما سقط الباستيل يوم ١٤ يوليو ١٧٨٩م على أيديهم أيضا.

وإذا كان سقوط الباستيل قد أنقذ الجمعية التأسيسة، فإن سقوط التويليرى قد أسقط الجمعية التشريعية، التى هرب أكثر من نصف أعضائها. ومنذ ذلك التاريخ اكتسب الكومون، أو المجلس البلدى الجديد، أهمية تفوق أهمية الجمعية التأسيسية والمؤتمر الوطنى بعدها.

فلقد تقدم الجيروند ليجنوا ثمار الثورة التى زرعها غيرهم، والتى وقفوا فى وجهها، فألفت الجمعية التشريعية وزارة جديدة منهم فيما عدا دانتون الذى عين وزيرا للعدل. وفى ظل غياب الأغلبية المحافظة وحق الفيتو الملكى، استصدر الجيروند قرارات بوقف الملك، وبانتخاب مؤتمر ذى سيادة فورا يختار أعضاؤه بالتصويت العام للذكور، ويكون له الفصل فى تنظيم الدولة فى المستقبل ومراجعة الدستور، وأصبح الجيروند أحرارا فى تنفيذ برنامجهم الراديكالى، فأصدروا لصالح الفلاحين عددا من القوانين على رأسها مرسوم ٢٥ أغسطس ١٧٩٢م الذى ألغى جميع المكوس المستحقة للاقطاعيين مالم يبرز المنتفعون حججهم الأصلية. فتم بذلك تحقيق مطالب الفلاحين كاملة.

ولكن «الكومون»، الذى أصبح على رأسه روبسبير، والذى كان يضم عمالا يبلغون ضعفى المحامين، والذى كان يستند إلى تأييد الصان كيلوت، ظلت له اليد العليا، فى حين أصبح لدانتون اليد العليا فى الوزارة. وقد أرغمت الجمعية التشريعية على إقرار

التغيير الذى حدث فى مجلس البلدية، وإقرار «الكومون» الثورى الذى رفع عدد أعضائه من ٦٠ إلى ٢٨٨.

وسرعان ما طالب «الكومون» بخلع الملك وعقاب من حاربوا فى صفه على يد محكمة خاصة، فألفت الجمعية هذه المحكمة على مضض بعد أن هدد روبسبير النواب باسم الكومون بأن الشعب ساكن ولكنه ليس نائماً!.

وفى نفس الأثناء تدخل الموقف الحربى، الذى ساء فجأة، ليدفع الثورة إلى منحنى آخر. فقد عبر الجيش البروسى الحدود الفرنسية بقيادة برونسڤيك Brunswik فى ١٦ أغسطس ١٧٩٢م، ولم ينقض الشهر حتى وصلوا إلى فردان Verdun، آخر حصن يسد الطريق إلى باريس، وبدا أن الحرب ستفضى بالثورة إلى كارثة.

وهنا أخذ الكومون ومجلس الوزراء تحت زعامة دانتون فى إعداد وسائل الدفاع المستميت عن باريس، ودفعت الهزائم المتلاحقة بالجيش الفرنسى، والشك فى وجود خيانة وراءها، إلى محاولة تأمين الثورة فى الداخل، عن طريق إرهاب الأعداء الداخليين.

وبينما كانت السجون تغص بالمسجونين، كان الكومون، الذى انتزع من الجمعية كل شئون الدفاع عن باريس، فى شغل بالحصول على جيش من المتطوعين. ومرة أخرى استجاب الصان

كيلوت، وزحف من باريس فى أسابيع ثلاثة ٢٠ ألفا دفاعا عن الثورة.

وفى أثناء ذلك راجت الإشاعات بأن أعداء الثورة المسجونين سوف ينتهزون فرصة غياب المحاربين من الصان كيلوت للهرب من السجن والاستيلاء على باريس حتى يصل البروسيون، وخلصت منشورات مارا إلى النتيجة المنطقية، وهى ذبح المسجونين!

وفى ٢ سبتمبر ١٧٩٢م أعيد تنظيم لجنة الخلاص العام التابعة للكومون لضم مارا إلى عضويتها، وبدأت فى عصر ذلك اليوم فرق الصان كيلوت تحاصر السجون وتذبح المسجونين، واستمرت المذابح أربعة أيام ذهب ضحيتها حوالى الألفين.

ولكن أهم نتائجها أنها عملت على التفرقة بين زعماء الثورة – أى بين الجيروند واليعاقبة ـ كما سممت العلاقات بين الجيروند والصان كيلوت، فبينما أصبح الصان كيلوت فى نظر الجيروند مرتبطين بالقتل والفوضى، اعتبر الجبليون مذبحة السجون «حادثا عارضا سيئا فى مسرحية عظيمة»! وأن وقف المذابح، حتى لو كان ممكنا، كان يتطلب تعبئة نفس قوى النظام التى ارتكبت حادث «الشان دى مارس» (البورجوازية)، ولو حدث ذلك لانهارت فى أثناء ذلك عملية الدفاع القومى التلقائية، ولشهدت باريس دخول الحراب الأجنبية وإعادة نظام ١٧٨٨م.

٥ ـ المؤتمــــر الوطنى

اجتمع المؤتمر فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢م، فى اليوم التالى لمعركة فالمى Valmy، التى أنقذت فرنسا، وذلك بعد انتخابات اعتبر فيها كل فرنسى بلغ الـ ٢١ عاما مواطنا عاملا Citoyen Active.

قد صار الجيروند هم حزب اليمين المتطرف، وكانوا قد حصلوا على الغالبية بسبب سيطرتهم على الأقاليم التى كانت تعارض سيطرة باريس.

وفى أقصى اليسار كان يجلس نواب باريس: روبسبير، ودانتون، وكاميل ديمولان، ومارا، وفيليب المساواة، وكولو ديربوا Collot d'Herbois، مع حوالى ثلاثين عضوا آخرين عرفوا بسبب ارتفاع المكان الذى جلسوا فيه باسم الجبل Montagnards.

أما المستقلون فأطلق عليهم اسم السهل Plain أو المستنقع Le Marais.

ولقد كان الجيروند والجبليون على اتفاق تام تقريبا فى مسائل السياسة، وتعلقهما المخلص بالثورة، والجمهورية، وكراهة الامتيازات، والعداء للاكليروس. ولكن الشكوك كانت تقوم بينهما، فبينما اعتقد الجبليون أن الجيروند على استعداد لأية تسوية مع

القوى المحافظة، بل الملكية، فى سبيل الحكم، كان الجيروند مؤمنين بأن روبسبير وأصحابه يتطلعون إلى دكتاتورية دموية.

وقد أدى العداء المرير بينهما إلى شلل المؤتمر، وفى النهاية حمل كل من الفريقين على قبول حلفاء خطرين: فقد قبل الجيروند محالفة الملكيين، وقبل الجبليون محالفة الصان كيلوت.

وكانت المحالفة الأخيرة على وجه الخصوص قاضية على الخصمين، فينسب إلى دانتون قوله: «هؤلاء الجيروند هم الذين أكرهونا على أن نرتمى فى أحضان الصان كيلوتية التى التهمتهم، والتى ستلتهمنا جميعا، والتى ستلتهم نفسها».

وكان الجيروند هم الذين بدءوا المعركة حينما شنوا هجوما مريرا على خصومهم الجبليين، بسبب دورهم فى مذابح سبتمبر١٧٩٢م، وطالبوا بنصب المشانق للشناقين والمحرضين، وهاجموا بصفة خاصة دانتون وروبسبير ومارا «كثلاثى» ذى أطماع خطيرة يريد تأسيس حكم دكتاتورى.

ولكن دانتون وروبسبير ومارا استطاعوا تدحيض الاتهامات ضدهم، وعمدوا إلى خطة يكشفون بها خصومهم لإسقاطهم، وهى المطالبة بمحاكمة الملك كعدو للأمة، وإعدامه، حتى إذا حاول هؤلاء الدفاع عن الملك اتهمهم الجبليون بأنهم ملكيون.

وبالفعل، فمع أن «الجيرونديين» جميعا كانوا يعتبرون الملك خائنا للثورة، إلا أنهم انقسموا فى موضوع محاكمته. ومعظم

المعارضين فى إعدامه إنما عارضوا لأسباب تقوم على المصلحة لا على العدالة، ولكنهم جلبوا بمعارضتهم الشبهات فى ميولهم الملكية دون أن يستطيعوا إنقاذ لويس!. وكانت النتيجة هى هزيمتهم فى المؤتمر.

وقد أقنعت هذه الهزيمة الأولى الكبرى محترفى السياسة الطموحين من أمثال «فوشيه» Fouché بنقل ولائهم إلى اليعاقبة، ومن قبل كان نواب أكفاء، مثل كارنو Carno وبارير Barere وغيرهم، قد أخذوا ينجذبون إلى الجبليين واحداً وراء الآخر، وأما زعماء الصان كيلوت فى أقسام باريس الذين غاظتهم اتهامات الجيروند العلنية المتكررة لباريس بأنها وكر الفوضى، فقد انقلبوا مهاجمين لنوابهم الذين حاولوا إنقاذ الملك.

وفى أثناء ذلك كان الجبليون يطالبون بإعدام الملك دون أى محاكمة، وكان يقود هذا الطلب روبسبير وسان جوست Saint just، وقد بررا ذلك بأن الملك المخلوع هو مصدر خطر على أى نظام جمهورى.

وأخيرا تمت محاكمة الملك أمام المؤتمر ابتداء من ١٣ ديسمبر ١٧٩٢م، وانتهت بإدانته بالإجماع تقريبا. وعند أخذ الرأى بالمناداة على الأسماء، وأمام إرهاب جماهير الصان كيلوت المحتشدة فى القاعة على نوع العقوبة، اقترع ٤٣٣ من ٧٢١ إلى جانب الإعدام، ومن هؤلاء فيليب دورليان (أو فيليب المساواة) وفيرنيو الجيروندى رئيس المجلس، وتم بالفعل تنفيذ الحكم يوم ٢٠ يناير ١٧٩٣م.

على أن موافقة الجيروند على إعدام الملك لم تنقذهم، فقد تزايد عداء الجبليين وكومون باريس لهم، وصار للمتطرفين من الجبليين، خصوصا شوميت Chaumette وايبير Heber نفوذ عظيم فى «الكومون»، فى حين أخذ روبسبير ومارا يحركان الصان كيلوت للتخلص من الجيروند.

وحانت الفرصة لطعن الجيروند حين انهزم «ديمورييه» Du-mouriez أمام النمساويين والبروسيين فى موقعة نيرويندن Near-winden فى ١٨ مارس ١٧٩٣م، ثم فى لوفان Louvin فى ٢١ مارس ١٧٩٣م، ووقع هدنة مع القائد النمساوى يخلى بموجبها بلجيكا فى مقابل تعهد النمساويين بعدم اختراق الحدود الفرنسية، وعندما قدم إليه وزير الحربية الفرنسية وأربعة مندوبين للتحقيق معه فى هذه الخيانة، سلمهم إلى العدو، وحاول الزحف على باريس وضرب المؤتمر، ولكن قواته رفضت، فانضم إلى الأعداء فى ٥ ابريل١٧٩٣م.

فلما كان ديموريه dumouriez شديد الصلة بالجيروند، فقد اشتد هجوم الجبليين على هؤلاء بسبب خيانته.

وفى الحقيقه لقد آمن الجبليون فى ذلك الحين بأن المؤتمر لن يستطيع قيادة سفينة الثورة إلا بالتخلص من زعماء الجيروند، وأن الأمن العام يتطلب قيام حكومة دكتاتورية، ولما كان أعداؤهم يهددونهم، ويمكنهم أن يتهموهم فى أى وقت، فإن أمنهم الشخصى كان فى خطر. وكان الترابط فى ذلك الحين قد تزايد بين الصان كيلوت وأقسام الكورديلييه.

ولكن الجيروند من جانبهم تحالفوا مع حزب الوسط (السهل)، ووجه الحزبان الاتهام ضد مارا، الذى كان قد أعد عرائض شعبية فى نادى اليعاقبة تطلب القبض على ٢٢ عضوا من الجيروند، ولكن محكمة الثورة برأت مارا يوم ٢٤ إبريل ١٧٩٣م، فاقترح جاديه (من الجيروند) إلغاء كومون باريس، وإحلال رؤساء الأقسام محل الكومون، ولكن بارير Barére اقترح حلا وسطا بتأليف لجنة من اثنى عشر من الجيروند لفحص مسلك الكومون وفحص حوادث مذابح سبتمبر ١٧٩٢م، وقبضت هذه اللجنة فى ٢٤ ـ ٢٦ مايو ١٧٩٣ على إيبير وفارليه Varlet وأربعة آخرين.

ولكن القبض على هذه العناصر الشعبية أثار جماهير الصان كيلوت، فحاصرت التويليرى حيث ينعقد المؤتمر، وأرغم على إطلاق سراح المعتقلين، وإلغاء لجنة الاثنى عشر. ولكن الجيروند أعادوا تأليف اللجنة فى اليوم التالى.

وكانت النتيجة حركة ٣١ مايو ـ ٢ يونية ١٧٩٣م الثورية، وهى ثالث حركات التمرد الباريسى، وآخر ما نجح منها (والأوليان ١٤ يوليو ١٧٨٩م سقوط الباستيل و ١٠ أغسطس ١٧٩٢م سقوط التويليرى)، فقد ألفت أقسام باريس لجنة تنفيذية من تسعة، معظم أفرادها مغمورون من الصان كيلوت، ومنهم فارليه، وعينت هانريو Hanrio لقيادة الحرس الوطنى، وأوقفت الكومون، ثم أعادت اليه السلطة فورا، وانضمت إليه، وحركت مظاهرة انتهت بإلغاء المؤتمر لجنة الإثنى عشر للمرة الثانية.

وفى مساء اليوم التالى قدمت اللجنة للمؤتمر طلبا بالقبض على زعماء الجيروند، وعددهم ٢٩ زعيما، فاكتفى المؤتمر بإحالة الطلب إلى لجنة الخلاص العام Cometé de Salut Publique التى تأسست فى ٦ أبريل ١٧٩٣م ولكن الكومون أصر على طرد الجيروند.

وفى يوم ٢ يونية ١٧٩٣م حاصرت المؤتمر فرق مختارة من الحرس الوطنى تحت قيادة هانريو، وطلبت القبض على أعضاء لجنة الاثنى عشر، وعلى زعماء الجيروند، وانتهز مارا الفرصة فأعد قائمة بأسماء النواب الذين يراد حبسهم، وضم أعضاء لجنة الاثنى عشر، ثم اثنين آخرين، ومن بينهم فرينيو، وجاديه، وجنسونيه Gensonné، ويريسو، وبتيون، وغيرهم، وواصل المؤتمر مطالبة الكومون بمحاكمة الجيروند.

وأخيرا تقرر، بناء على اقتراح كوتون التحفظ على ٢٩ من زعماء الجيروند فى منازلهم، واستطاع آخرون الهرب، وبذلك أصبح حكم البلاد فى يد الجبليين، وإن استمر المؤتمر فى عمله.

انتقل الحكم إلى يد الجبليين، وفى الأيام الستة التالية كانوا قد استطاعوا إنجاز مشروع الدستور، الذى كانت قد بدأت فيه اللجنة التى ألفها المؤتمر لهذا الغرض من قبل، والتى كانت مؤلفة فى غالبيتها من الجيروند، واعتمد المؤتمر هذا الدستور فى ٢٤ يونيو ١٧٩٣م، وعرف باسم دستور السنة الثانية.

وكان غرض الجبليين الأساسى من الإسراع بإصدار الدستور، نفى تهمة الطغيان عن أنفسهم التى ألصقها بهم الجيروند، ولذلك فما كاد يتحقق هذا الغرض حتى اكتفى الجبليون بذلك. فلم يوضع هذا الدستور موضع التنفيذ أبدا، وإن كان مبدأ التصويت العام للذكور، الذى أخذبه، أصبح منذ ذلك التاريخ جزءا من التقاليد الراديكالية الفرنسية.

وفى الفترة التالية كان الصراع الاجتماعى يحتدم فى فرنسا، وصدرت فى عهد الجبليين التشريعات الاجتماعية المهمة فى هذا المجال.

ففى ١٠ يونيو ١٧٩٣م صدر الأمر بتقسيم الأراضى المشاعة بالتساوى اذا طلب ذلك ثلث أهل القرية. وفى ١٧ يوليو ١٧٩٣م صدر قانون ينص على إلغاء جميع الرسوم والحقوق الإقطاعية دون تعويض وتدمير جميع حجج الملكية الإقطاعية. وفى ٢٥ فبراير ١٧٩٤م صدر قرار تفسيرى لقانون ١٧ يوليو ١٧٩٣م السالف الذكر بإلغاء جميع الالتزامات، التى تشوب العقد فيها فى الأصل «أقل شائبة إقطاعية». فنزع بناء على ذلك ملكية كثير من البورجوازيين الذين تشبهوا بالإقطاعيين عند التعاقد! وقد وصف هذا القانون بأنه «ثورة داخل ثورة».

ويمكن الاستشهاد بنص مشروع «لوبيلليتييه» Le Pelletier وهو نائب جبلى قتله ملكى وقت إعدام الملك، مثالا على الأفكار الجبلية «التقدمية» فى النصف الأول من ١٧٩٣م.

فقد ذكر فيه «أن ثورات السنوات الثلاث الماضية صنعت كل شئ لطبقات المواطنين الأخرى، ولم تصنع شيئاً تقريبا لطبقة ربما كانت هى أهم الطبقات، وهم المواطنون من طبقة البروليتاريا، الذين لا يملكون سوى كدهم. لقد قضى على الإقطاع، ولكن لغير مصلحتهم، لأنهم لا يملكون شيئاً من هذه الحقول المحررة، وقد أعيدت المساواة المدنية، ولكنهم لم يعطوا تعليما ولا تدريبا».

مع ذلك فلم يتردد الجبليون فى مهاجمة جاك رو Roux عضو الكومون وعضو نادى الكورديلييه المتطرف اجتماعيا، والذى يسيطر على الصان كيلوت، عندما اتهم نواب الجبل بأنهم يشرعون القوانين لصالح الأغنياء، ويتغاضون عن المساوئ «التى كان يندى لهاجبين الحكم المطلق لو وقعت فى آخر أيام سلطانه الهمجى»، ولا تحرك قلوبهم الدموع والآهات التى تنبعث من الفقراء» – ففى ٢٠ يونيو ١٧٩٣م ذهب وفد من اثنى عشر رجلا من كبار الساسة، منهم روبسبير وبيوفارين Billaud-Varenne، وكوللو ديربوا Collotd Her-bois، وإيبر Hebert، وتوريو Thuriot من نادى اليعاقبة، وأقنعوا الكورديليين بطرده.

فى ذلك الحين كانت فرنسا تهددها الثورات من الداخل، والغزو من الخارج. فقد انتشرت الثورات ضد المؤتمر الوطنى فى ليون ومارسيليا وطولون ونيم Mimes، وتسلحت فى الشمال مقاطعة كالفادوس Calvados لإعادة الملكية، وهاجمت جيوش فندية Vendée مدينة نانت للسيطرة على نهر اللوار وإنشاء اتصالات مع إنجلترا.

ومن الناحية الأخرى، فقد انهزمت جيوش الثورة فى كل مكان، فسقطتماينز فى ٢٣ يوليو ١٧٩٣م، واجتاز الجيش النمسوى الحدود زاحفا على كونديه Condé وفالنسيين Valencienne فسقطتا يومى ١٥، ٢٨ يوليو١٧٩٣م، وانفتح بذلك الطريق للمرة الثانية إلى باريس.

وفى الوقت نفسه كان الجيش الإنجليزى يزحف على دنكرك، والبروسيون على فيسنبورج Wissenbourg ولانداو، كما هزم الاسبان الفرنسيين فى البرانس، وغزا ٢٠ ألفاً من البدمونتيين (البيمونتيين) فرنسا من ناحية الألب، وأعلنت الحكومة الإنجليزية الحصار على القوات الفرنسية، وباتت العاصمة مهددة بالمجاعة.

ثم وقعت كارثة كبرى، هى تسليم طولون المتمردة المدينة والترسانة والأسطول فى ٢٧ أغسطس ١٧٩٣م للأسطول الانجليزى بقيادة هود Hood، ومناداتها بلويس السابع عشر ملكا، وهكذا انتقل إلى أيدى العدو بضربة واحدة ودون إطلاق رصاصة واحدة ٢٦ بارجة من ٦٥ بارجة للجمهورية، و ١٦ فرقاطة من مجموع الفرقاطات البالغة ٦١.

وفى الوقت نفسه وقع حادث قتل مارا، معبود الصان كيلوت، على يد شارلوت كورداى Charlott Corday، ليقنع الجبليين أن خصومهم تخلوا عن كل ضوابط السلوك المتحضر.

وكانت النتيجة العامة لهذه السلسة الطويلة من الخيانة والاغتيال والهزيمة، أن أقتنع الجبليون بعدة أمور:

(الأول)، أن على الجمهورية أن تخشى خيانة قوادها القدامى أكثر من خشيتها من نقص الكفاءة المحتمل فى قوادها الوطنيين.

(ثانيا) أن وطنيى عام ١٧٨٩م من الطبقة البورجوازية قد سئموا الثورة، وتحالفوا الآن مع النبلاء ضد الثورة، وأصبح الدفاع عن فرنسا هنا بتصميم عدد قليل من الجبليين، بمعاونة جماهير الصان كيلوت فى المدن التى لم يبق غيرها من القوى الثورية التى يمكن الركون إليها.

(ثالثا) أن الدفاع الوطنى يجب أن يقترن بتحسين الأحوال الاجتماعية للصان كيلوت، الذين يجب أن تصان حياتهم وأقواتهم بالقوة من نشاط المضاربين.

(رابعا) ضرورة الضرب على يد الخونة والمضاربين فى الأقوات والقواد الخونة. ومن ثم فالنصر، وإرضاء الصان كيلوت، والإرهاب، هذه الثلاثة جوانب لمضمون واحد.

فى ذلك الحين كانت لجنة الخلاص العام Comité de Salut Publique هى أهم أجهزة الحكم فى فرنسا، وقد أنشئت فى ١٦ أبريل ١٧٩٣م بعد أن عجزت لجنة الدفاع العام عن الوفاء بالغرض الذى أنشئت لأجله، وقد ظل يسيطر عليها دانتون، الذى وقف نشاطه على تجنيد المواطنين، وتجهيز الجيش، واتخاذ التدابير الدبلوماسية التى يأذن بها المؤتمر.

وبعد انقلاب ٢ يونيه ١٧٩٣م، الذى أسقط الجيروند، تغير ميزان القوى فى هذه اللجنة، بإقصاء دانتون ودعاة التوفيق. فقد سقطت عنه عضوية اللجنة حين عرضت الأسماء على المؤتمر فى ١٠ يوليو ١٧٩٣م ليصدر قراره بإعادة تشكيل اللجنة وفقا للعرف المتبع، بعد أن تقرر إنقاص أعضائها من ١٦ عضوا إلى ٩ أعضاء فقط، زيدوا إلى ١٢.

وبذلك أصبحت اللجنة تتألف من هذا التاريخ من غلاة الجبليين، مثل روبسبير، وسان جوست، وكوتون، وبيوفارين، وكوللو ديربوا وبارير Barere وكارنو Carnot. وسيطرت على شئون الحكم فى فرنسا، وحكمت البلاد حكما دكتاتوريا مدة سنة من يوليو ١٧٩٣م إلى يوليو ١٧٩٤م.

وقد انقسمت هذه اللجنة إلى هيئتين: هيئة حاكمة من روبسبير وسان جوست وكوتون (الثالوث) وكوللو ديربوا وبيوفارين – والأخيران أكثر تطرفا. ثم هيئة تنفيذية يهمنا فيها كارنو، الذى أسند إليه تنظيم الجيش وتدبير النصر، وبارير.

وقد واصلت لجنة الخلاص العام دعم سلطتها فى المؤتمر وفى البلاد طوال خريف ١٧٩٣م. وفى ١٠ أكتوبر ١٧٩٣م أصدر المؤتمر مرسوماً يفوض فيه اللجنة فى الإشراف على الوزراء والقواد والهيئات الإدارية، وأرجأ تطبيق الدستور الجديد حتى يعود السلام إلى ربوع البلاد.

ولم يكن فى نية الحكومة الثورية أن يشاطرها السلطة أى طبقة من طبقات المجتمع، ولذلك لم يستطع الصان كيلوت منذ الآن أن يباشروا السلطة المحلية، ولا بوصفهم وكلاء أو عملاء مطيعين للحكومة المركزية. ولما حاول شوميت فى أول ديسمبر أن يؤكد إشراف كومون باريس على اللجان الثورية للأقسام، نُبه بحدة إلى التزام النظام، ومنذ ذلك الحين اتخذ الكومون موقف الدفاع. وتركزت القوة السياسية للصان كيلوت فى الهيئات نصف المستقلة، وهى الأقسام والنوادى.

وفى ظل هذا التركيز للسلطة لليعاقبة، تمكنوا من التحول من مركز الدفاع إلى الهجوم، وإحراز الانتصارات. فقد أخمدوا الثورة فى ليون، واسترجعوا طولون على يد بونابرت، وهزموا النمسويين، وأعادوا فتح بلجيكا، وغزوا هولندا، وحرروا كل بقعة فى الوطن من الغزاة.

أما فى الحقل الداخلى فقد بدأ عهد الإرهاب الثانى بقانون المشبوهين فى ١٧ سبتمبر ١٧٩٣م، لتعقب ومطاردة أعداء الثورة والمشتبه فى أمرهم، فغصت السجون بأكثر من خمسة آلاف مشتبه فى أمره، وبدأت محكمة الثورة، التى تألفت فى ١٠ مارس ١٧٩٣، عملها فى ظل فلسفة بارا Barras القائلة بأن تبدأ بقتل خصومك على المقصلة حتى لا يقتلك بها هؤلاء.

فأعدم نواب الجيروند، الذين طردوا من المؤتمر فى ٣١ مايو ١٧٩٣م، ومنهم فرينيو وبريسو، كما أعدم بايى، وبارناف، وجاديه، ومدام رولان، ثم فيليب دورليان d'Orléan، أو فيليب المساواة.

وجاءت أعنف حركات القمع فى تاريخ الثورة بعد انتصار قوات الحكومة فى الحرب الأهلية فى ليون وطولون وحول مصب نهر اللوار.

ففى ليون Lyon استخدم فوشيه Fouché وكوللو ديربوا المدافع لحصد الضحايا بعد أن وجدا أن المقصلة أبطأ مما ينبغى! وبلغ عدد القتلى فوق الألفين.

وفى نانت Nantes قتل كاريه Carrer بالرصاص ثلاثة آلاف، وأغرق ١٥ ألفا فى اللوار Loire عمدا، عدا ثلاثة آلاف تركوا فى السجون يموتون بوباء.

وعقب استرداد طولون، وكان مساعد قائد القوات الحكومية هو نابوليون بونابرت، قتل بالرصاص بأمر بارا Barras وفريرون Freron ٨٠٠ فى الأسابيع الثلاثة الأولى.

على أنه بزوال خطر الغزو عن فرنسا، وبعد التخلص من أعداء الثورة الداخليين بإعدام الجيروند والقضاء على الثورات الداخلية ـ أخذ الإرهاب يفقد مبرراته تدريجيا، ولم يلبث أن أخذ يقسم الجبليين.

وفيما يختص بدانتون زعيم الجناح اليمينى اليعقوبى، فقد أخذ ينادى بالعودة إلى النظام وسياسة الرحمة بأعداء الثورة المهزومين، وقد أيده فى ذلك كاميل ديمولان، زعيم الهجوم على

الباستيل (وهو يعقوبى بمعنى كذلك)، وذلك على منبر المؤتمر الوطنى، وعلى صفحات صحيفة أنشأها باسم «الكورديلييه القديم». ولقيا تأييدا من البورجوازية. ولكنهما فقدا سمعتهما بسبب الانحلال والبذخ الذى تميزت به حياتهما الشخصية.

وفى الوقت نفسه وقف حزب مارا، الذى فقد رئيسه فى ١٣ يوليو ١٧٩٣م، موقف التطرف بزعامة ايبير، وملأ أنصار هذا الحزب نادى الكورديلييه، وسيطروا على الكومون، ونشرت آراءهم صحيفة إيبير المشهورة: الأب دوشين Pere Duchêne ذات التأثير على الصان كيلوت.

ووقف روبسبير موقف الوسط على رأس نادى اليعاقبة، ومعه سان جوست وكوتون وبيو فارين وكوللوديربوا، وصمم على القضاء على الحزبين، على أساس أنهما يهددان بوجودهما الجمهورية والثورة.

وقد تحالف روبسبير مع حزب دانتون اليمينى للقضاء على ايبير وحزبه المتطرف أولا. وفى ١٣ مارس ١٧٩٤م قبض على قادة الإيبيريين بعد أن قرأ سان جوست اتهاما ضدهم فى المؤتمر، وفى ٢٤ مارس ١٧٩٤م أعدموا، وكانوا تسعة عشر، على رأسهم إيبير.

وبعد أسبوع واحد استدار روبسبير الى اليمين، فاعتقل دانتون وكاميل ديمولان فى ٣١ مارس ١٧٩٤م، وفى ٥ أبريل

١٧٩٤م أعدم دانتون وديمولان ومعهما ١٢ آخرون. وفى ١٣ منه تبعهم شوميت Chaumette وأرملتا ديمولان وإيبير.

وبذلك دانت السلطة لروبسبير دون منازع، وخضع له الكومون، ولم يجسر المؤتمر على مناقشة سلطانه. وفى خلال ربيع ١٧٩٤م زادت سرعة القمع السياسى واتسعت بمقتضى قرارات المؤتمر الوطنى فى ٢٢ بريريال Prairial (المراعى) الموافق ١٠ يونية١٧٩٤م فئات أعداء الشعب التى ينطبق عليها تعريف المشبوهين.

على هذا النحو بلغت لجنة الخلاص العام أوج قوتها. وحينئذ لاحت بوادر الصراع فى داخلها. وينسب البعض هذا الصراع إلى تضارب السياسات، فيرى أن روبسبير بعد أن حققت الثورة أغراضها، رأى أنه من الواجب إنهاء عهد الإرهاب، حتى يبدأ حكم الفضيلة الذى أراده روبسبير وصار يدعو له، فتألفت المعارضة ضده من اتحاد جميع المتطرفين ضده من أنصار: بيوفارين وكوللوديربوا، ومن بقايا أنصار دانتون.

وهنا عول روبسبير على التخلص من معارضيه، فاستصدر «كوتون» من المؤتمر الوطنى فى ١٠ يونيو ١٧٩٤م قرارات ٢٢ بريريال السالف الذكر، وتتضمن حق لجنة الخلاص العام فى تقديم أى نائب من نواب المؤتمر الوطنى يكون مشتبها فى أمره إلى المحاكمة، بدلا من الإجراء السابق الذى يقضى بأن يصدر أولا قرار الاتهام من المؤتمر نفسه. وفى ٢٢ يوليو ١٧٩٤م اقترح سان جوست فى المؤتمر إنشاء دكتاتورية برئاسة روبسبير.

وفى ٢٦ يوليو ١٧٩٤م ألقى روبسبير خطابا عنيفا فى المؤتمر الوطنى حمل فيه على معارضيه حملة شديدة، فوصفهم بأنهم خونة ولصوص وملحدون ومتهتكون، ولكنه لم يحدد أحدا بالإسم. فاعتبر أعضاء المؤتمر هذا الخطاب تهديدا لكل منهم.

وفى اليوم التالى حين وقف سان جوست يدافع عن خطاب روبسـبـيـر، طغى صـيـاح النواب على صـوته، وكـان على رأس المقاطعين كوللوديربوا وبيوفارين وتاليان Tallien، وصاح بيوفارين بالمؤتمر أن عليه إما أن يترك أعضاءه يقتلون، وإما أن يقتل ويحطم روبسبير.

ولما كان روبسبير وأنصاره لم يتخذوا العدة بالاتفاق على تدبيرات خاصة مع الكومون ضد خصومهم، فقد أسقط فى أيديهم. وبعد مناقشة سادتها الفوضى، وافق المؤتمر على القبض على روبسبير وسان جوست وكوتون. فانضم إلى هؤلاء باختيارهما «أوجستين»، شقيق روبسبير الأصغر، وليبا LEBAS صديقه، فنقل الخمسة إلى السجن.

ولكن كومون باريس سرعان ما تحرك وحرض أقسام باريس على التمرد، وأصدر الأمر بإطلاق سراح روبسبير وزملائه، ونقل هؤلاء فى مظاهرة كبيرة إلى دار البلدية.

ولكن المؤتمر قرر الالتجاء إلى القوة المسلحة، وأصدر قرارا بوضع روبسبير وهانريو وأقسام باريس خارج القانون، وبتسلم

بارا قيادة قوات المؤتمر المسلحة (الجيش) وتولى هنريو HANRIOT الدفاع عن دار البلدية فى وجه الهجوم، فى حين انقسمت أقسام باريس على نفسها، وهدأ أكثرها.

وانتهت المعركة بانتصار قوات المؤتمر، وأعدم روبسبير وأخوه أوجسطين وسان جوست وهانريو وكوتون وغيرهم يوم ٢٨ يوليو ١٧٩٤م. وبذلك انتهى عهد الإرهاب.

هذه هى النقطة التى يختم بها كثير من المؤرخين قصة الثورة. لقد بدأت المعركة كما رأينا داخل اليسار نفسه، حين انقسم إلى يمين (دانتون) ووسط (روبسبير) ويسار (ايبير) واستطاع روبسبير أن يضرب اليسار واليمين، فأضعف معسكر اليسار كله. ومالبثت بقايا اليمين واليسار اليسارى أن تحالفت مع «السهل» على إغراق الوسط اليسارى، وبذلك أكل اليسار نفسه.

وهذا يفسر ماحدث بعد سقوط روبسبير، فمع أن العنصر الفعال الذى أسقط روبسبير هو اليمين واليسار اليسارى، إلا أن اليمين هو الذى تقدم ليجنى ثمار انقلاب ٩ تيرميدور (٢٧ يوليو ١٧٩٤م). وقد ساعد على ذلك أن سقوط روبسبير قد تم على جثة الكومون – ومعنى ذلك انتصار المؤتمر على القوى الثورية التى تؤيد الكومون، قوى الصان كيلوت، فهى ضربة مزدوجة.

ولما كان السهل (أو الوسط) فى المؤتمر قد أصبح يمثل أكبر قوة بعد ضعف اليسار، وتصفية اليمين من قبل، ولما كان قد عانى

من إرهاب اليسار الذى اضطره إلى التصويت إلى جانبه تحت ضغط قوى الكومون، حتى تهدد الإرهاب فى عهد روبسبير حياة النواب بالخطر، فلذلك سرعان ما رأى طريق النجاة فى التحالف مع اليمين.

وفى ذلك الحين كان تحسن الموقف الحربى يساعد الوسط على الاستغناء عن هيئة خلقها آسفا وأطال فى أجلها بدافع الخوف، وهى لجنة الخلاص العام، ولذلك فقد اختزلت فى اليوم التالى على الفور اختصاصات هذه اللجنة، وقصرت سلطتها على الحرب والدبلوماسية، وأمر ثلاثة من أعضائها بالاستقالة كل شهر، وحظر إعادة انتخابهم فورا، ونزع من اللجنة سلطة تقديم النواب مباشرة للمحاكمة أمام المحكمة الثورية، فأمن النواب على حياتهم، وطرد جان بون أندريه Jean Bon André وبريور Prieur(دى لامارن).

أما الباقون من أعضاء اللجنة القديمة فقد استقال من الهيئة الحاكمة بيوڤارين وكوللوديربوا، وبارير، فى أول سبتمبر ١٧٩٤م، واستقال من الهيئة التنفيذية كل من كارنو، وبريور، ولنديه Lindet فى ١٠ أكتوبر١٩٧٤م، تاركين أعداءهم فى مكان القيادة. وفى ٥، ١٠ أغسطس ١٧٩٤م صدر قراران بإطلاق سراح المقبوض عليهم بنص قانون المشبوهين، وباستبدال جميع المحلفين وكل قضاة المحكمة الثورية تقريبا، وبلغ عدد المطلق سراحهم فى باريس وحدها عشرة آلاف!

وعلى ذلك فقد بدا أن عقارب الساعة أخذت تدور إلى الوراء، ولو إلى الماضى الدانتونى، ولكن أفراداً من التيرميدوريين، ومنهم

إرهابيون سابقون مثل فريرون Freron وبارا Barras ـ بطلا مذبحة طولون ـ وتاليان Tallien، ساروا إلى أبعد من ذلك، فاعتنقوا سياسة رجعية إلى حد عدوانى، وبدءوا يهاجمون حلفاءهم السابقين.

فظهرت تحت رعاية فريرون حركة الشبيبة الذهبية Jeuness do-rée من أبناء البورجوازيين الكبار لتعقب اليعاقبة والاقتصاص منهم، وسيطر اليمين على جميع أقسام باريس تقريبا خلال الخريف بفضل عنف الشبيبة الذهبية. وفى ٩ نوفمبر ١٧٩٤م قام هؤلاء بهجوم على نادى اليعاقبة، واستطاع اليعاقبة صد الهجوم بعد نضال شديد، ولكن الحكومة أمرت بإغلاق نادى اليعاقبة محتجة بالنظام العام.

وفى ٨ ديسمبر ١٧٩٤م قرر المؤتمر إعادة النواب الذين اعتقلوا لاحتجاجهم على القبض على الجيروند. وقد زاد عودة ضحايا الإرهاب هؤلاء من الضغط فى طلب توقيع العقوبات على الإرهابيين. وفى ٨ مارس ١٧٩٥م قرر المؤتمر إعادة الجيروند الباقين على قيد الحياه، والذين اعتبروا من قبل خارجين على القانون، كما قرر إلغاء الاحتفال بذكرى ٣١ مايو ١٧٩٣م. وقد اتخذ هذا القرار بعد أسبوع من القبض على كوللوديربوا وبيوفارين وبارير وفادييه Vadier وفوكييه تانفيل Fouquier Tinville النائب العام، وحوكم تاتفيل فى ٢٨ مارس ١٧٩٥م وأعدم، كما أعدم ١٥ من زملائه فى محكمة الثورة.

أما الاتجاه فى الأقاليم فكان شبيها بالاتجاه فى باريس، من حيث بدء حركة الانتقاض فى الخريف واشتدادها. وكان الصان كيلوت فى كل مكان يجلون عن مناصب السلطة التى شغلوها فى العام السالف، ويحل محلهم مبعوثون جدد.

ازداد إهمال المؤتمر لحاجات الصان كيلوت فى سياسته، حتى بلغ اليأس بجماهير الصان كيلوت خلال ربيع ١٧٩٥م حدا لم يعد عنده مندوحة عن القيام بعمل عنيف، ولكن المهيجين من الصان كيلوت حُرموا من وسيلة العمل الثورى الفعال، إذ أعوزتهم القيادة البورجوازية، وأعوزهم الكومون الذى ينسق نشاطهم، بل أعوزتهم السيطرة على الأقسام.

ولذلك حين غزا جمع منهم المؤتمر فى أول أبريل ١٧٩٥م (حركة ١٢ جيرمينال Germinal (أى النبت) مطالبين بالخبز وتطبيق دستور ١٧٩٣م، وإطلاق سراح كوللوديربوا وزملائه، وتسريح الشبيبة الذهبية، تم طرد الثوار من التويلرى دون عناء، بتعاون الشبيبة الذهبية وجنود الأقسام بقيادة الجنرال بيشيجرو Pichegru.

وكانت نتيجة التمرد ازدياد الرجعية السياسية بسرعة فوق سرعتها، فوافق المؤتمر على نفى كوللو، وبيو، وبارير، إلى غيانا، وقبض على ثمانية من الجبليين البارزين.

وكان قرار لوكوانتر Cointre وتوريو Thuriot، وهما من قدامى زعماء حركة الانتقاض التيرميدورية، إشارة إلى المدى الذى صمم

المؤتمر على أن يذهب إليه فى نقضه للماضى. وكان القمع أثقل وطأة على الصان كيلوت، فأعلنت حالة الحصار فى باريس، وقبض على زعماء حركة ١٢جرمينال (أول أبريل ١٧٩٥م).

على أن حركة القمع لم توقف هياج الصان كيلوت نظرا لتدهور الموقف فى التموين، ولما أطار الجوع صواب الصان كيلوت قاموا بثورة أخرى. ففى ٢٠ مايو ١٧٩٥م (أول بريريال Prairial (المراعى) عبأ حى سانت انطوان Saint - Antoine قواته، وألفت كتائبه الثلاث من الحرس الوطنى القوة الرئيسية التى غزت المؤتمر مرة أخرى، ولكن الفرصة ضاعت هذه المرة أيضا للافتقار إلى القيادة.

وكانت حركة بريريال كحركة جرمينال أساساً حركة صان كيلوتية. وانهارت محاولة لتنظيم كومون متمرد جديد حين قرر المؤتمر اعتبار كل من يرفض مبارحة دار البلدية خارجا على القانون، وللمرة الأولى منذ ١٧٨٩م استعدت الحكومة القوات النظامية للهجوم على الثوار الباريسيين بقيادة مينو وموار Menou, Murat. وما أقبل عصر ٢٣ مايو ١٧٩٥م حتى كانت الحركة قد انهارت.

وقد قمع تمرد بريريال قمعا صارما، فتألف مجلس عسكرى - وهو أول مجلس يستخدم ضد الثوار الباريسيين - وحكم بالإعدام على ٣٦ من المتهمين، منهم ستة نواب.

وكان فى إعادة تنظيم الحرس الوطنى بطريقة تقصى عنهم جماهير الصان كيلوت، ما أكمل هزيمتها الساحقة، فلم تنشب فى باريس بعدها حركة شعبية كبرى حتى ١٨٤٨م!

على أن قتلة الملك مع ذلك لم يكونوا ليستطيعوا الذهاب بعيدا فى ردتهم الكبرى، إلى حد إعادة الملكية!، وفى الوقت نفسه فإن الملكية لم تكن لتضع يدها فى يد قتلة الملك، حتى لو أرادوا!

فحين نصب الكونت دى بروفانس de Provence أكبر أخوى الملك لويس السادس عشر نفسه ملكا بعد وفاة لويس السابع عشر الطفل فى ٨ يونيه ١٧٩٥م، أصدر فى ٢٤ يونيه ١٧٩٥م بيانا ضد الثورة توعد فيه بعقاب قتلة الملك، ورد الطبقات الثلاثة إلى سابق مكانها، وإعادة البرلمانات وسلطة الكنيسة. ثم تمت مؤامرة ملكية لإعادة الملكية عن طريق الغزو من الخارج، ولكن المؤامرة فشلت، وهزم الجيش الملكى.

وكان رد فعل المؤتمر استدارته من جديد نحو اليسار أمام تهديدات الملكيين، ولكنها عودة لم تذهب بعيدا، فقد قبض على الصحفيين الملكيين، وأعينت الصحافة الجمهورية، وبذلت محاولة للقبض على الشبيبة الذهبية، وجاء الآن دور الصان كيلوت ليسقوا الشبيبة الذهبية كئوس العذاب.

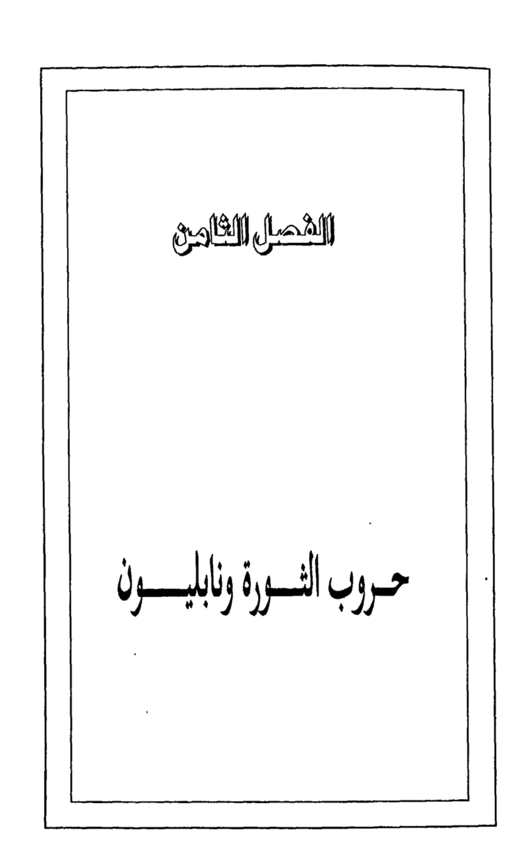
ولكن السلطات شددت فى الوقت نفسه جهودها لإقصاء البقية الباقية من الجبليين عن الانتخابات القادمة، وقبض على

عشرة منهم فى ٨ أغسطس ١٧٩٥م، وكان من بينهم حتى فوشيه الحذر.

ثم وضع مشروع دستور جديد يرمى للحد من سلطة الصان كيلوت، وحماية جمهورية محافظة من أن يهددها نظام ملكى أو دكتاتورية. ولم ينص الدستور على أن يكون على رأس الدولة ملك ولا رئيس جمهورية ولا قنصل، وإنما لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء تحل محل لجنة الخلاص العام، وتسقط عضوية واحد من أعضائها كل عام، وقد عرفت هذه اللجنة باسم حكومة الإدارة أو الديركتوار.

ولما كانت هزيمة الصان كيلوت والجبليين هزيمة نهائية، وفى الوقت نفسه كانت هزيمة اليمين الملكى الدستورى هزيمة نهائية أيضاً، فإن النتيجة التى أسفر عنها كل هذا الصراع الهائل، هى انتصار الوسط الجمهورى، وهو انتصار لم يقتصر على المجال السياسى بل والمجال الاقتصادى والاجتماعى أيضاً.

وفى ٢٤ أكتوبر ١٧٩٥م، اجتمع «المؤتمر الوطنى» للمرة الأخيرة فى قصر التويليرى، وأعلن انتهاء مهمته. وفى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٥م، انفض «المؤتمر الوطنى»، وأصبح الدستور الجديد، الذى يحرم الشعب من المشاركة فى إدارة شئونه، فى موضع التنفيذ، ودخلت الثورة الفرنسية فى طور جديد.



الفصل الثامن

حــروب الثــورة ونابليــون

حــروب الثورة ونابليون

حــروب الثــورة

شعرت أوروبا بالخطر من مبادئ الثورة الفرنسية، فأخذت تتهيأ لحربها بدعوى «الدفاع عن حق الملوك الإلهى وحق الأسرات فى الحكم. وفى الوقت نفسه أيقظت مبادئ الثورة الفرنسية فى الشعب الفرنسى روح الوطنية والعزة والتطلع إلى المجد، فأخذت الثورة بنظرية الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية، وهى التى كانت تنظر إلى فرنسا باعتبارها غالة القديمة، التى كانت تصل حدودها إلى نهر الراين وجبال الألب وجبال البرانس وشواطئ المحيط الأطلنطى. وبذلك تجمعت لدى الطرفين الرغبة فى الحرب.

ولم تلبث أن برزت الأسباب عندما قبضت الثورة على الملك لويس السادس عشر فى «فارين» Varennes، فسارع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا إلى الاجتماع فى بيلنيتز Pillnitz فى أغسطس ١٧٩١م، وأعلنا أنهما لن يترددا فى استخدام كل الوسائل لقمع الثورة وتعزيز سلطة الملكية.

وفى الوقت نفسه فإن الأمراء الألمان فى مقاطعة الألزاس الذين كانوا يتمتعون بامتيازاتهم الإقطاعية بمقتضى معاهدة وستفاليا

Westphalia، رفضوا الخضوع لقرار إلغاء الإقطاع الذى اتخذته الثورة الفرنسية، واعتبروا هذا القرار غير مقيد لهم وإنما هو مقيد فقط للأمراء الفرنسيين.

هذا فى الوقت الذى تجمعت فيه جيوش المهاجرين الفرنسيين بقيادة أمراء الإقطاع فى مقاطعات الراين، خاصة فى كوبلنز، تحت إمرة الكونت دارتوا أخى الملك، وفى ورمز worms تحت إشراف البرنس دى كونديه conde وفى تريف Treves استعدادا للهجوم على فرنسا.

وعلى ذلك أرسلت الجمعية التشريعية فى أكتوبر ١٧٩١م تحذيراتها إلى النمسا وإلى المهاجرين المتآمرين على سلامة البلاد، فأجابت النمسا بعقد تحالف مع بروسيا فى برلين فى ٧ فبراير ١٧٩٢م، وبإرسال تحذير إلى فرنسا بضرورة ضمان حقوق الأمراء الألمان، وإعادة مقاطعة أفينيون Avignon إلى البابا، واتخاذ الإجراءات السريعة لقمع الدعاية الثورية التى تهدد سلامة الدول المجاورة. وأرسل برونسويك Brunswik القائد البروسى بلاغا فى ٢٥ يولية ١٧٩٢م توعد فيه باريس بالدمار إذا أصيبت العائلة المالكة الفرنسية بسوء.

وعلى ذلك، وعلى الرغم من أن الجيش الفرنسى القديم كان قد انحل بسبب مهاجرة الكثيرين من الضباط النبلاء، فإن فرنسا اعتمدت على حماسة أبناء الثورة الفرنسية، وكونت جيشا أسرع

بالزحف على بلجيكا، ولكن هذا الجيش لم يلبث أن رد، وتبعته قوات «برونسويك» بعد فترة سمحت بإعادة تنظيمه فى ١٩ أغسطس ١٧٩٢م، فاستولت على كثير من المدن حتى وصلت إلى تلال فالمى Valmy، لكن الجيش الفرنسى ثبت فى مواقعه.

ولما كانت تصرفات روسيا فى الشرق فى ذلك الحين تثير قلق النمسا وبروسيا، فلذلك اتفق «برونسڤيك» مع قائد الجيش الفرنسى «ديمورييه» Dumoriez على أن ينسحب دون قتال. وبذلك دخلت «موقعة ڤالمى» التاريخ باعتبارها من أهم مواقع التاريخ على الرغم من صغرها، لما بثته فى الثورة الفرنسية من روح الثقة بالنفس التى دوخت أوروبا فيما بعد.

على أن تقدم قوات «برونسڤيك» فى الأراضى الفرنسية قبل موقعة فالمى كان قد أتاح الفرصة للثوار لاغتصاب السلطة من بلدية باريس فى ليلة ١٠ اغسطس، ولاعتقال الملك لويس السادس عشر وسجنه مع أسرته فى الهيكل القديم.

ولما وافت الأنباء بسقوط فردان، مفتاح باريس، قامت مذابح سبتمبر ١٧٩٢م التى قتل فيها ١٥٠٠ من الإقطاعيين، وانحلت الجمعية التشريعية، وقام المؤتمر الوطنى فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢م الذى أعلن إلغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢م، وإعلان الجمهورية فى ٢٥ سبتمبر ١٧٩٢م، وقرر إعدام الملك فى ١١ يناير ١٧٩٣م، ونفذ فيه الحكم فى ٢١ يناير ١٧٩٣م.

على أن إعدام لويس السادس عشر أفزع ملوك أوروبا، فأعلن البلاط الإنجليزى الحداد على وفاته، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا. فأعلن المؤتمر الوطنى الحرب على إنجلترا فى أول فبراير ١٧٩٣م، وفى اليوم نفسه أعلن الحرب على هولندا، وفى ٧ مارس أعلن الحرب على أسبانيا.

وقد مهد ذلك لتكوين التحالف الدولى الأول ضد فرنسا، فقد أعلنت الدولة البابوية الحرب على فرنسا، وتبعتها نابولى، وفلورنسا، والبندقية، ثم الإمارات الألمانية، وصارت إنجلترا هى الروح المحركة للتحالف الدولى، وأعلنت أن هدفها هو العودة بالحالة فى أوروبا إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وحرمان فرنسا من ثمرات انتصاراتها فى سنة ١٧٩٢م.

وعلى ذلك زحف جيش من النمساويين وحلفائهم قوامه مائة ألف بقيادة دوق كوبورج Cobourg النمساوى على بلجيكا وماينز، وهزم القوات الفرنسية بقيادة «ديمورييه» فى موقعة « نيرڤيندين» Neerwinden فى ١٨ مارس ١٧٩٣م، ثم فى «لوڤان» Louvin فى ٢١ مارس ١٧٩٣م. فوقع ديمورييه اتفاقا مع العدو يخلى به بلجيكا فى مقابل تعهد النمساويين بعدم اقتحام الحدود الفرنسية.

ولما كان قد ساءه ما فعله دانتون والمندوبون اليعاقبة فى بلجيكا من نهب البلاد باسم نشر المبادئ الجمهورية، كما ساءه إعدام الملك، فقد انقلب على الثورة، ووجه نداء إلى الجيش الفرنسى

بالزحف على باريس لتخليص فرنسا، ولكن الجيش رفض نداءه، واعتبره المؤتمر الوطنى خائنا للوطن.

على أنه فى ذلك الحين كانت الجيوش الفرنسية على خط الراين بقيادة كوستين Custine تلقى الهزيمة، فانسحبت من فرانكفورت، وويرمز Worms، وسبير، وارتد «كوستين» إلى «لانداو» فى أول أبريل، وتوقف البروسيون عند «ماينز».

وفى هذه الظروف اتفق زعماء التحالف الدولى الأول فى «أنتويرب» فى ٩ أبريل ١٧٩٣م على تقسيم الإمبراطورية الفرنسية، على أساس أن تحتفظ إنجلترا بدنكرك والمستعمرات الفرنسية، وتحتفظ النمسا بإقليم أرتوا والفلاندر الفرنسية، وتحتفظ بروسيا باسترجاع الألزاس واللورين، واستيلاء أسبانيا على نافار وروسيون Roussillon.

فسقطت «ماينز» فى يد البروسيين فى ٢٣ يوليو ١٧٩٣م، كما سقطت «كونديه» Condé وفالينسيين Valenciennes فى ١٥ و ٢٨ يوليو١٧٩٣م، فانفتح الطريق مرة ثانية إلى باريس، وزحف الإنجليز على دنكرك، ،والبروسيون على « ڤايسينبيرج» Weissenberg ولانداو، وهزم الأسبان الفرنسيين فى البرانس، وغزا جيش بيدمونت فرنسا من ناحية الألب، وأعلنت الحكومة الإنجليزية الحصار على كل الموانى الفرنسية، وباتت باريس مهددة بالمجاعة.

فى هذه الظروف أنشئت فى فرنسا تلك الحكومة التى دخلت التاريخ باسم حكومة «لجنة الخلاص العام» Comité du Salut Pub-lique التى فرضت دكتاتوريتها على البلاد مدة عام تقريبا من يوليو ١٧٩٣ إلى يوليو ١٧٩٤، وهى الدكتاتورية التى عرفت باسم «دكتاتورية حزب الجبل».

وقد خدمت الظروف هذه الحكومة عندما دب النزاع بين النمسا وبروسيا بعد استيلاء بروسيا على ماينز، فمنع هذا النزاع زحف بروسيا على باريس. كما دب النزاع بين القائد النمساوى «كوبورج» والقائد الإنجليزى «دوق يورك» الذى كان يحاصر بقواته دنكرك، فلم يقدم مساعدته للإنجليز، الأمر الذى اضطر معه الإنجليز إلى رفع الحصار عن دنكرك فى ٦ سبتمبر ١٧٩٣م. وانهزم الإنجليز وجيش هانوفر فى معركة كبيرة فى «هوندشوتين» Hondschoten فى ٨ سبتمبر ١٧٩٣م.

أما الفرنسيون فقد انتصروا على النمساويين فى « ڤاتيجنيز» Wattignies فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٣م، وكانوا قد تمكنوا من قبل بقيادة «هوش» Hoche من هزيمة جيش نمساوى – بروسى فى ٢٥ سبتمبر١٧٩٣م، وأرغم «بيشجرو» Pichegru النمساويين بقيادة « ڤيرمسر» Wurmser على الارتداد عبر الراين. واسترجعت جيوش هوش وبيشجرو ڤايسينبيرج. Weissenberg.

وقد استمرت انتصارات فرنسا على قوات التحالف الدولى الأول، فانتصر «جوردان» Jourdan على جيش الحلفاء فى موقعة

«فلوراس» Fleuras فى ٢٦ يونيو ١٧٩٤م، واتصل بجيش الشمال بقيادة «بيشيجرو»، فدخل الفرنسيون بروكسل فى ٩ يوليو، وتقهقر الحلفاء بقيادة الدوق يورك صوب هولندا، فاحتل الفرنسيون بلجيكا بأكملها، وتهيأ جيش «بيشيجرو» لغزو هولندا، فى حين طارد جوردان «النمساويين صوب الراين، وهزمهم هزيمة كبيرة فى «ريرموند» Ruremonde وأرغمهم على عبور الراين إلى الضفة الألمانية فى ٥ أكتوبر ١٧٩٤م، وسقطت كولن Koln وكوبلنز فى أيدى الفرنسيين، فى حين سلمت «تريف» لجيش الموزيل Moselle.

وقبل نهاية أكتوبر كان الفرنسيون قد سيطروا على مجرى الراين بأكمله من «ويرمز» إلى «نيمجوين» Nimeguen.

كذلك انتصر الفرنسيون على حدود سردينيا وأسبانيا، وعبر جيش «بيشيجرو» نهر الموز Meuse فى أواخر ١٧٩٤م، وفى ١١ يناير ١٧٩٥م هاجم الإنجليز والهولنديين فى نيمجوين ، وأرغمهم على الانسحاب بخسارة كبيرة، ودخل «بيشيجرو» أمستردام فى ٢٠ يناير ١٧٩٥م، وواصل الإنجليز تقهقرهم شرقا إلى «بريمين» Bremen حيث أبحروا منها إلى إنجلترا.

وبذلك تم غزو هولندا دون معارك، اذ رحب الهولنديون بالغزاة الفرنسيين، وجعلت فرنسا هولندا جمهورية باسم جمهورية باتافيا Batavia على نمط الجمهورية الفرنسية، وعقدت معها معاهدة فى مارس ١٧٩٥م.

فى خلال ذلك كانت النمسا وبروسيا قد اتفقتا فى ٣ يناير ١٧٩٥م على تقسيم بولندا (التقسيم الثالث). ومنذ مايو ١٧٩٤م تخلى ملك بروسيا فردريك الثانى عن حلفائه لتعويض خسارته عن طريق الاشتراك فى هذا التقسيم، وهو ماتم بالفعل. وحتي يمكنه التفرغ لهذه المسألة عقد صلح بال Basle مع فرنسا فى ٥ أبريل ١٧٩٥م، وأما أسبانيا فقد عقدت الصلح مع فرنسا كذلك فى ٢٢ يوليو ١٧٩٥م، ونالت فرنسا نصف جزيرة سان دومنجو Santo Domingo فى الهند الغربية، وعقدت توسكانيا الصلح مع فرنسا، كما عقدت معها «هس كاسل»، وهى إحدى الإمارات الألمانية، معاهدة فى أغسطس ١٧٩٥م.

وبذلك تحطم التحالف الدولى الأول الذى تشكل ضد فرنسا بعد إعدام لويس السادس عشر، ولم يبق فى حرب مع فرنسا سوى إنجلترا والنمسا وسردينيا.

حروب حكومة الإدارة

لم يكد ينفض المؤتمر الوطنى، وتتأسس حكومة الإدارة فى ٢٠ أكتوبر ١٧٩٥م على أساس دستور العام الثالث (١٧٩٥م) حتى قررت حكومة الإدارة الرجوع إلى الخطط العسكرية التى وضعتها لجنة الخلاص العام التى أعدها كارنو Carnot لمهاجمة النمسا.

فأعدت ثلاثة جيوش للزحف على فينا فى وقت واحد، الأول جيش السامبر والموز Sambre & Meuse بقيادة «جوردان»، والثانى جيش الراين والموزيل Moselle بقيادة «مورو» Moreau، وجيش إيطاليا بقيادة الجنرال بونابرت Bonaparte الذى تولى القيادة فى ٢ مارس ١٧٩٦م واتخذ مقر إقامة قيادته فى سافون Savon فى ١٠ أبريل ١٧٩٦م بعد أن تزوج من جوزيفين بوهارنيه فى ٩ مارس ١٧٩٦م.

على أن الجيش النمساوى بقيادة الأرشيدوق شارل Archduke Charles لم يلبث أن هزم جيش جوردان، وأرغمه على التقهقر إلى نهر الراين فى سبتمبر ١٧٩٦م، فاضطر مورو إلى التقهقر هو الآخر، بعد أن اخترق الغابة السوداء، وارتد إلى الألزاسAlsace فى ٢٥ أكتوبر ١٧٩٦م. وبذلك تعلقت أبصار فرنسا بالحملة الإيطالية بقيادة الجنرال بونابرت. وقد كانت هذه الحملة هى أساس مجد بونابرت.

فقد بنى خطته على مهاجمة جيش النمساويين المكون من ٤٠ ألفا مع ألفين من البيدمونتيين (جيش سردينيا) على أساس الالتحام مع كل جيش على حدة، وبدأ بإنزال الهزيمة بجيش سردينيا فى عدة مواقع، وفرض على سردينيا هدنة «شيراسكو» Cherasco فى ٢٨ أبريل ١٧٩٦م، التى تحولت إلى صلح باريس فى ١٥ مايو ١٧٩٦م، ونالت فرنسا بمقتضاه سافوى ونيس. Savoy & Nice.

ثم تفرغ لمهاجمة النمساويين، فهزمهم عند جسر لودى Lodi فى ١٠ مايو ١٧٩٦م، بعد أن هددهم بالالتفاف حول جيشهم. وكانوا قد انسحبوا تاركين إقليم الميلانيز Milanais يسقط من غير قتال، لملاقاة بونابرت عند نهر الأدا Adda، ولكنه هزمهم عند جسر لودى كما ذكرنا، ودخل ميلان فى ١٤ مايو، وأخذ فى محاصرة مانتوا Mantua.

ومن هذا الموقع عقد بونابرت المعاهدات مع بارما Parma و«مودينا Modena» (فى ١٧ مايو) وأملاك الدولة البابوية، التى نزلت لفرنسا عن بولونيا Bologna، وفرارا Ferrara، وأنكونا An-cona، فى ٢٣ يونية ١٧٩٦م، وجنوة فى ٩ أكتوبر ١٧٩٦م.

وأنشأ من كل هذه الأراضى جمهوريتين: «جمهورية ما وراء نهر البو Po» Cispadane فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٦م، وتتكون من بولونيا وفرارا ومودينا . ثم جمهورية «عبر نهر البو» Trans padane فى سهل لمباردى فى ٩ يوليو ١٧٩٧م. وقد انضمت الجمهوريتان فى جمهورية واحدة فى ١٥ يوليو ١٧٩٧م باسم جمهورية ماوراء جبال الالب Cisalpine.

وفى خلال ذلك انتصر بونابرت على النمساويين فى كاستيليونى Castiglione فى ١٥ أغسطس ١٧٩٦م، و«بسانو» -Bas sano فى ٨ سبتمبر ١٧٩٦م، وأركولا Arcola فى ١٧ نوفمبر ١٧٩٦م، وريفولى Rivoli فى يناير ١٧٩٧م.

واسـتطاع بـونابرت، فى تلك الأثناء، أن يمـد أهـل كـورسـيكا بالمساعدات التى مكنتهم من طرد الإنجليز من جزيرتهم فى نوفمبر ١٧٩٦م.

وقد كان بعد مـعـركة ريفولى أن سقطت مانتـوا فى ٢ فبراير ١٧٩٧م، وبعدها اتجه بونابرت إلى معاقبة البابا «بيوس السادس» Bius VI الذى أظهـر عـداء للفـرنسـيـين،و فـاضطر البـابا إلى عـقـد صلح تولينتينو Tolentino فى ١٩ فبراير ١٧٩٧م، وبمقتضـاه أرغم البابا على دفع خسائر الحرب الطائلة.

وقـد كـان بعـد ذلك أن عـبـر بونـابرت جـبـال الألب فى مـارس وأبريل ١٧٩٧م لكى يلتقى مع الأرشـيدوق شـارل، حـتى وصل إلى ليـوبين Leoben، ولكن نظرا لأن أهـالى البندقـيـة ثاروا ضـد الفرنسيين، وتهيأ أهالى التيرول لحمل السلاح، فقد خشى بونابرت من قطع خط الـرجـعـة عليـه، وقـبل الدخـول فى مـفـاوضـات مع النمساويين أدت إلى توقيعـهم على مـا عـرف باسم «مقدمـات صلح ليـوبين» فى ١٨ أبريل ١٧٩٧م The Preliminary Peace of Leoben وبمقتضاه نزل النمساويون لفرنسا عن بلجيكا ولباردى، واحتفظوا بمانتوا، ودلماشيـا، وإسـتريا Istria، والبندقـية. وترك أمـر الصلح مع الإمبراطورية.

فى تلك الأثناء كـان الموقف الداخلى فى فـرنسـا يهيئ لـظهـور الملكيـة. فـقـد أتـت انتـخـابات الهيـئـة التشـريعيـة المؤلفـة من مـجلس

الخمسمائة ومجلس الشيوخ، وهى التى فرضها دستور ١٧٩٥م الذى قضى بتغيير ثلث أعضاء الهيئة التشريعية كل عام، بأعضاء يمينيين يمثلون مصالح الطبقة البورجوازية والمهاجرين الملكيين الذين يريدون إنهاء الحرب وعقد السلام السريع.

وقد تألف من هؤلاء البورجوازيين والملكيين والكاثوليكيين المنضمين إليهم اتحاد أو حزب يطلق عليه اسم «حزب الكليشيان». Clichyens نسبة إلى شارع كليشى الذى كان به مقرهم، أخذ يسعى بموافقة دوق دى بروفنس (الملك لويس الثامن عشر) فى ١٠ مارس ١٧٩٧م، للحصول على الأغلبية فى الهيئة التشريعية.

وبالفعل نجح هؤلاء نجاحا ساحقا فى انتخابات المجالس الابتدائية فى ٢١ مارس ١٧٩٧م والمجالس الانتخابية فى ٩ أبريل، بتأييد كل من النمسا وإنجلترا، وانتخب «بيشيجرو» رئيسا لمجلس الخمسمائة.

وفى الوقت نفسه سعى هؤلاء للحصول على الأغلبية فى حكومة الإدارة باستغلال دستور ١٧٩٥م الذى يقضى بسقوط عضو واحد من الهيئة التنفيذية كل عام، ولكن الجمهوريين فى جكومة الإدارة تمكنوا من الاحتفاظ بالأغلبية، وكونوا ما عرف باسم «الثلاثية الدكتاتورية»، المؤلفة من «بارا Barras ولا ريفييه ليبو» La Révilliére - Lépeaux ورويل Reubell، فى مواجهة «كارنو» و«وبارتليمى» الملكيين.

وبذلك نشـأ تناقض بين المجلسـين المكونين من اليمـينيـين الملكيين، وحكومة الإدارة المكونة غالبيتها من الجمهوريين، وقد حاول المجلسان التخلص من الثلاثية الدكتاتورية عن طريق توجيه الاتهام ضد الثلاثة، ولكنهم تمكنوا من احتلال مكان المجلسين والقبض على بارتليمى فى حين هرب كارنو، واستصدروا من المجلسين قرارا بإلغاء انتخاب ١٤٥ نائبا، ونفى ٥٣ نائبا آخرين منهم كارنو، وبارتليمى، وبيشيجرو، ووضع الجيش تحت سلطان وإشراف بونابرت وأوجيرو Augereau قائد بونابرت وغيرهم من أصدقاء بارا.

عرف هذا الانقلاب الذى قضى على حزب الكليشيان والملكيين باسم «انقلاب فريكتيدور (Fructidor سنة ٥ (الثمر)» الموافق ٤ سبتمبر ١٧٩٧م) وتثبت وضع بونابرت بعد إعلان تأييده للثلاثية الدكتاتورية، ووصل إلى حد إبداء استعداده لعبور الألب والعودة إلى باريس لحماية الجمهورية، وإيفاده أحد قواده، وهو أوجيرو فى ٨ أغسطس ١٧٩٧م لقيادة الجنود بها.

فى ذلك الحين كان بونابرت بعد الانتصارات التى حصل عليها فى إيطاليا، يعيش فى ميلان بعد أن أنشأ بها بلاطا حقيقيا، فلما نجح الجمهوريون فى الاحتفاظ بالسلطة فى حكومة الإدارة بانقلاب فريكتيدور، وأصبح لبونابرت نفوذ ملموس فى باريس، سارع النمساويون بعقد الصلح وإبرام معاهدة كامبو - فورميو Campo

Formio مع حكومة الإدارة فى ١٧ أكتوبر ١٧٩٧م، الذى نزلت فيه النمسا لفرنسا عن الأقاليم البلجيكية، واتفق على انعقاد مؤتمر فى راشتات Rastadt لعقد الصلح مع الإمبراطورية (ألمانيا)، واحتفظت النمسا بأراضى البندقية حتى نهر أديج، Adige مع مدينة البندقية، واستيريا Istria ودالماشيا، واحتفظت فرنسا بجزر الأيونيان، واعترفت النمسا بجمهورية ماوراء الألب.

وتضمنت المعاهدة مواد سرية تنص على موافقة النمسا على التخلى عن الشاطئ الأيسر لنهر الراين من بال إلى اندرناخ An-dernach بما فيه «ماينز» لفرنسا، وبأن تكون الملاحة فى الراين مشتركة بين ألمانيا وفرنسا، وتعويض الأمراء الذين فقدوا إماراتهم بالتخلى عن الضفة الغربية للراين فى الأراضى الألمانية، وعلى أن تستخدم فرنسا نفوذها لتحفظ للنمسا سالزبورج والمنطقة من بافاريا Bavaria الواقعة بين سالزبورج والتيرول ونهر الإن The Inn وبين السالزا The salza. وضمان كل من فرنسا والنمسا بعدم حصول بروسيا على أية أراض فى مقابل الأراضى التى فقدتها بالتخلى عن الضفة اليسرى للراين.

وفيما يتعلق بالصلح مع الإمبراطورية، الذى تُرك لمؤتمر يعقد فى راشتات، فقد عقد هذا المؤتمر فى ١٦ ديسمبر ١٧٩٧م، ووافق فيه مندوبو الولايات الألمانية والنمسا فى ٩ مارس ١٨٩٨م على التنازل لفرنسا على كل الشاطئ الأيسر لنهر الراين باستثناءات

بسيطة. فربط هذا الصلح حدود فرنسا الطبيعية بالشاطئ الأيسر لنهر الراين.

على هذا النحو لم يبق من أعداء فرنسا بعد ذلك سوى إنجلترا، ومن هنا اتجهت أنظار حكومة الإدارة منذ عام ١٧٩٧م إلى غزو مصر وفتح قناة السويس لتحويل تجارة الهند من طريق رأس الرجاء الصالح إلى طريق البحر الأحمر، وهدم السيادة التجارية لبريطانيا، وإنشاء قاعدة لغزو ممتلكاتها في الشرق.

ومن هنا أصدرت حكومة الإدارة في يوم ١٢ أبريل ١٧٩٨م أمرها إلى الجنرال بونابرت بغزو مصر، وخرجت الحملة من طولون في يوم ١٩ مايو ١٧٩٨م، وبذلك غاب بونابرت عن الساحة الأوروبية.

في ذلك الحين تجمعت الأسباب لقيام التحالف الدولي الثاني، حين دخل القائد الفرنسي روما في ١٥ فبراير ١٧٩٨م وأنشأ الجمهورية الرومانية، الأمر الذي أثار حفيظة النمسا الكاثوليكية.

وفي الوقت نفسه انقلب ملك نابولي فردنند الرابع على فرنسا، وأخذ يبذل المساعدات للأسطول الإنجليزي بقيادة اللورد نلسون Nelson في البحر المتوسط، وفي ٨ نوفمبر ١٧٩٨م قام بالهجوم على الجمهورية الرومانية، وفي أول ديسمبر ١٧٩٨م تحالف مع إنجلترا.

وكانت تركيا فى ٩ سبتمبر ١٧٩٨م قد أعلنت الحرب على إنجلترا بسبب الحملة الفرنسية على مصر فى شهر يوليو السابق، وقرر القيصر بول الأول فى روسيا مؤازرة تركيا فى ٧ أكتوبر ١٧٩٨م، وأخذ يحث النمسا على قطع علاقاتها مع فرنسا.

وفى أكتوبر ١٧٩٨م غزت جيوش النمسا مقاطعة جريزون Gri-sons فى سويسرا (أو الجمهورية الهلفيتية). وفى ١٦ نوفمبر من نفس العام دخلت النمسا فى محالفة مع إنجلترا تقوم على أساس تحرير سويسرا، واسترجاع لمباردى للنمسا، واحتفاظ النمسا بالبندقية، وإعادة فرنسا إلى حدودها السابقة، وإنشاء دولة حاجزة قوية على حدود فرنسا الشمالية تتكون من بلجيكا وهولندا، وإعادة الحال فى ألمانيا إلى ما كانت عليه.

وهكذا تألف التحالف الدولى الثانى ضد فرنسا، وصارت جبهة القتال حينئذ ممتدة من هولندا إلى نابولى، وتواجه فرنسا بجيش قوامه ٤٠٠ ألف جندى.

وقد سارع الفرنسيون بالاستيلاء على توسكانيا، ثم على مملكة نابولى فى ٢٣ يناير ١٧٩٩م التى أنشئوا منها جمهورية لم تعمر، ولكن النمساويين بقيادة الأرشيدوق شارل انتصروا على جيش الجنرال جوردان Jourdan فى موقعة ستوكاش Stockach فى ٢١ مارس ١٧٩٩م، وأرغموه على الارتداد على نهر الراين، كما عجز جيش فرنسى بقيادة الجنرال شيريه Schérer عن عبور نهر الأديج فى لمباردى، واضطر إلى التقهقر حتى الأدا Adda.

وفى ١٧ أبريل ١٧٩٩م ألحق القائد الروسى الجنرال سوفوروف Suvorov الهزيمة بالفرنسيين بقيادة مورو، الذى خلف شيريه فى القيادة، عند كاسانو Cassano، وأخذ يواصل تقدمه فى شمال إيطاليا، فهزم الفرنسيين بقيادة ماكدونالد Macdonald فى تربيا Trebbia فى ١٧ ـ ١٩ يونيه ١٧٩٩م، كما هزم جيش جوبير Joubert فى نوفى Novi فى ١٥ أغسطس ١٧٩٩م. وقتل جوبير فى المعركة.

على أن الموقف فى سويسرا وفى الأراضى المنخفضة كان فى صالح الفرنسيين. فقد عبر الجنرال سوفوروف الألب عبر ممر سانت جوثارد St. Gothard، لكى يتحد مع الجيش الروسى الثانى بقيادة كورساكوف، الذى حل محل الأرشيدوق شارل فى سويسرا.

ولكن كورساكوف لقى الهزيمة على يد الجنرال ماسينا Mas-séna وطرد من زيورخ، وعجز الجنرال سوفوروف عن استعادة الوضع فى سويسرا، واضطر إلى التقهقر صوب اقليم Grisons بجيش فقد مدفعيته وعتاده ويكاد يتضور جوعا، وواصل ماسينا التقدم وتهديد جناح الأرشيدوق شارل الذى كان يتأهب لغزو فرنسا من الراين.

وكان جيش إنجليزى روسى بقيادة دوق يورك فى تلك الأثناء قد نزل على الشاطئ الهولندى فى سبتمبر ١٧٩٩م، ولكنه اضطر إلى الانسحاب لعدم التعاون بين الإنجليز والروس بشكل فعال،

ولهزيمته فى بيرجين Bergen أمام الفرنسيين بقيادة الجنرال برين Brune. وفى ١٨ أكتوبر ١٧٩٩م عقد اتفاق ألكمار Alkmar الذى سمح للبريطانيين فى هولاندا بالانسحاب إلى انجلترا فى سلام فى ٣٠ نوفمبر ١٧٩٩م. وبذلك تم إنقاذ فرنسا.

وقد كان بعد أربعة أيام من هذا الاتفاق أن انسحب الروس من التحالف الدولى الثانى فى ٢٢ أكتوبر ١٧٩٩م بسبب استيائهم من تصرف حلفائهم، خصوصا النمساويين.

ولكن فى خلال ذلك كان الأسطول التركى الروسى قد تمكن من انتزاع جزر أيونيان Ionian من يد الفرنسيين فى مايو ١٧٩٩م، وأعيد تنظيم الجزر فى جمهورية تحت اسم Septinsular تحت الحماية التركية والضمان الروسى. (ظل الروس يحتلون هذه الجزر حتى عام ١٨٠٧م).

كان بسبب الهزائم التى لقيها الجيش الفرنسى فى إيطاليا، تدهور مركز حكومة الإدارة، ووقوع الصدام بينها وبين الهيئة التشريعية، التى سرعان ما استعادت مكانها القوى الأول بعد نجاح عدد كبير من اليعاقبة ونجاح عدد آخر من الفريكتدوريين فى الانتخابات التى جرت فى مايو ١٧٩٩م، واستطاعت عزل بعض أعضاء حكومة الإدارة، التى أصبحت تتكون من بارا وسييس، وجوهييه Gohier، وروجيه ديكو Roger Ducos ومولان Moulins، فيما عرف باسم «إنقلاب بريريال سنة ٧(المراعى)» الموافق ١٨ يونيه ١٧٩٩م.

ولكن النزاع استمر بين السلطتين التشريعية والتنفيذية على نحو أصبح يقتضى وجود حكومة قوية قادرة على إعادة النظام والسلام إلى فرنسا.

فى ذلك الحين كان «سييس» عضوا فى حكومة الإدارة، وكان يشاركه الرأى روجيه ديكو وبارا وأكثر الوزراء، وأكثرية مجلس الشيوخ الذى كان من أعضائه جوزيف شقيق بونابرت، وكان لوسيان شقيق بونابرت الآخر هو رئيس مجلس الخمسمائة. وقد اتفق الجميع على تدبير إنقلاب يقضى على حكومة الإدارة وعلى دستور العام الثالث. بالاستعانة ببعض رجال الأعمال للإنفاق على الانقلاب، ونظرا للصلة بين سييس وبونابرت فقد اتجهت إليه أفكاره للمشاركة فى دعم الحركة بالقوة العسكرية، بعد أن أصبح بطلا قوميا بسبب الحملة الإيطالية.

وكان بونابرت قد غادر مصر فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩م وفى ١٣ أكتوبر وصل إلى باريس، فوجد الكمثرى ناضجة - كما قال - فقد اكتملت الاستعدادات لتنفيذ الانقلاب يوم ٨ نوفمبر. وفى صبيحة يوم ٩ نوفمبر اجتمع مجلس الشيوخ، الذى كانت الأغلبية فيه لحزب سييس، وقرر الانتقال بالهيئة التشريعية إلى سان كلو ST. Cloud لإحباط مؤامرة مزعومة، وعهد إلى بونابرت بقيادة القوات العسكرية بباريس وما حولها لدفع الخطر الموهوم.

وهناك أرغمت حكومة الإدارة على الاستقالة، وتولى بونابرت تطهير المجلسين من المعارضين بحجة أنهم صنائع الإنجليز، ودخل

الجنود بسلاحهم وعلى رأسهم الجنرال مورا Murat والجنرال لوكلير «ليطردوا هذه العصابة عن بكرة أبيهم» – كما طلب منهم بونابرت. ثم أصدر الباقون قرارا بتأليف حكومة مؤقتة لإدارة شئون البلاد ريثما يتم وضع دستور جديد، عهد أمره إلى لجنة من المجلسين تحت إشراف الحكومة المؤقتة.

وقد عرف هذا الانقلاب باسم «إنقلاب بريمير Brumair سنة ٨ (الضباب)» الموافق ١٠ نوفمبر ١٧٩٩، وبه تقرر إلغاء حكومة الإدارة، وإنشاء «لجنة قنصلية تنفيذية مؤلفة من سييس، وروجيه ديكو، وبونابرت، على أن يمارس هؤلاء الثلاثة سلطة الإدارة، وحلف القناصل الثلاثة يمين الولاء أمام مجلس الشيوخ للجمهورية التى لا تتجزأ وللحرية والمساواة وللنظام النيابى.

حروب عهد القنصلية

بذلك انتهى عهد حكومة الإدارة، وبدأ عهد القنصلية The Consulate، أو جمهورية القنصلية، التى كانت إنهاء للثورة الفرنسية. فوضع دستور جديد يقضى بوضع السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل ينتخبون بواسطة مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات، وتقرر أن تعهد هذه السلطة فى المدة الأولى إلى بونابرت، وكامباسيريه Cambacérés ولوبران Lebrun، على أن يكون بونابرت قنصلا أول، ويكون له حق إعلان الحرب، وإمضاء المعاهدات، وإبرام القوانين،

وانتخاب الوزراء وكبار الموظفين، ورياسة الجيش والإدارة بفروعها. وكان القنصلان الآخران بمثابة مساعدين له.

ولم يلبث بونابرت أن وجه همه لمحاربة النمسا وإنجلترا اللتين بقيتا، بعد انسحاب روسيا من الحلف الدولى الثانى، تناصبان فرنسا العداء.

وبالنسبة للنمسا، التى حلت محل الروس فى إيطاليا، فقد اجتاز بونابرت جبال الألب من سويسرا، وانحدر إلى سهول لومباردى، فهدد مواصلات النمساويين، واضطرهم إلى التراجع، ثم لاقاهم فى سهل مارينجو Marengo حيث دارت معركة من أكبر معارك التاريخ، انتهت بهزيمة النمساويين فى ١٤ يونية ١٨٠٠م، فارتدوا فى اليوم التالى إلى ما وراء المنشيو Mincio وأخلوا لومباردى وبيدمونت بمقتضى اتفاق ألكسندرا يوم ١٥ يونية ١٨٠٠م.

وأعاد بونابرت تأسيس جمهورية ما وراء الألب Cisalpine فى ١٧ يونيه ١٨٠٠م وهى التى اتسعت بضم إقليم نوفاريه Novarais. وعين الجنرال جوردان حاكما على بيدمونت. وفى ٨ أغسطس تمكن بونابرت من تأكيد سياسته السويسرية، فأمر بحل حكومة الإدارة فى الجمهورية الهلفتية وعين رينهارد Reinhard مندوبا ساميا.

وفى الوقت الذى زحف بونابرت بجيشه عبر جبال الألب ليحرز نصر مارينجو الحاسم، كان جيش آخر بقيادة الجنرال مورو Mo-reau، وهو جيش الراين، يعهد إليه بالتوغل فى ألمانيا والزحف بطريق نهر الدانوب إلى فينا. وقد قام بمناورات بارعة فى باڤاريا حتى وصل إلى أولم Ulm فى ١٩ يونية ١٨٠٠م، وتمكن من قطع خط الرجعة على الجيش النمساوى بقيادة الجنرال كراى Kray، الذى طلب مرغما فى ١٥ يولية ١٨٠٠م وقف العمليات العسكرية حتى يخلى باڤاريا، وعندئذ عرض الإمبراطور فرانسيس الثانى Francis II عقد مؤتمر للصلح تدعى إليه إنجلترا، وهوما وافق عليه الفرنسيون.

وقد عقد هذا المؤتمر فى لونيفيل Lunéville يوم ٢٤ أغسطس. وعندما طال أمد المفاوضات أمر بونابرت باستئناف العمليات العسكرية، فاستطاع الجنرال مورو إلحاق الهزيمة بالجيش النمساوى فى واقعة هوهينليندين Hohenlinden فى ٣ ديسمبر ١٨٠٠م، وعندئذ انفتح الطريق إلى فينا، وفى الوقت نفسه كان جيش الجنرال برين Brune (جيش ماوراء الألب) قد تقدم حتى تريفيزو Treviso فى إقليم البندقية فى ١٥ يناير ١٨٠١م، فى حين كان الجنرال مورا Murat يدعم قوات الاحتلال الفرنسى فى تسكانيا.

وفى يوم ٩ فبراير ١٨٠١م تم إبرام صلح لونيڤيل Lunéville، وبمقتضاه تنازلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة، (الجرمانية) عن

كل الشاطئ الأيسر لنهر الراين لفرنسا، وتعويض الأمراء عن أراضيهم فى أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا، وجدد الإمبراطور التنازل عن المقاطعات البلجيكية والأراضى حتى حد نهر الراين.

واعترف باستقلال جمهورية ما وراء الألب، التى ضمت إليها إقليمى ڤيرونيه Veronais وحوض البو Poiésine، وذلك بعد أن كانت قد ضمت إليها إقليم نوفاريه Novarais، الذى اقتطع من بيدمونت، حتى يفتح لجمهورية ماوراء الألب طريق ممر «سيمبلون» Simplone. كما ضمت إليها المقاطعات البابوية (أو الرسولية) Le-gations.

واعترفت النمسا باستقال جمهوريات Batavia باتاڤيا (هولندا) و«هلفتيا» Helvetia سويسرة، وليجوريا Liguria (جنوة)، وحصل دوق مودينا، الذى كان قد فقد دوقيته فى صلح كامبو فورميو، على برايسجاو Breisgau فى ألمانيا.

كما نص على أن ينال دوق توسكانيا تعويضا فى ألمانيا يتمثل فى مطرانية سالزبورج Salzbourg، بعد تحويلها إلى إمارة علمانية ذات صوت فى انتخاب الإمبراطور. وأما غراندوقية توسكانيا Tus-cany ذاتها فقد أنشئت منها مملكة إتروريا Etruria وأعطيت إلى لويس دوق بارما. ومن ناحية أخرى احتفظت النمسا بأملاكها القديمة فى البندقية حتى نهر الأديج.

ولم تذكر معاهدة «لونيفيل» شيئاً عن ملك نابولى، أو ملك سردينيا (بيدمونت) أو البابا، الأمر الذى جعل مصيرهم ومصير بلادهم فى يدبونابرت.

وعلى ذلك امتدت حدود فرنسا حتى نهر الراين، فأُنشئت مديريات أربع جديدة باسم مديريات الراين منذ ١٩ مارس ١٨٠١م، وهى مديريات: الرور Roer، والسار Saar، والراين – موزيل، Rhine - Moselle - ومونت تونير Mont - Tonnerre.

وكان بونابرت فى الوقت الذى كان يتهيأ فيه لمفاوضات الصلح فى لونيفيل قد عقد معاهدة مع أسبانيا فى سان إلديفونسو San Il-defonso، وتنازلت أسبانيا بمقتضاها لفرنسا عن لويزيان Lui-siana، فى أمريكا الشمالية، نظير أن ينال لويس دوق بارما، وهوابن شقيق ملكة أسبانيا ماريا لويزا، وعدا بإنشاء مملكة إيطالية له تتألف من توسكانيا والمقاطعات البابوية فى أول أكتوبر ١٨٠٠م.، وفى ٢٠ مارس ١٨٠١م بعد صلح لونيفيل، ابرم معاهدة أرانخويز Aranjuez مع ملك أسبانيا شارل الرابع، تأكدت بها شروط معاهدة إلديفونسو.

وفى ١٨ مارس ١٨٠١م أبرم فرديناند الأول ملك نابولى معاهدة فلورنسا Florance التى تنازل بمقتضاها عن الأقاليم التى كانت له فى تسكانيا وعن جزيرة إلبا Elba، ووافق على احتلال الفرنسيين لقلاعه، وعلى إغلاق موانيه فى وجه السفن الإنجليزية.

ونظرا لضعف الأسطول الفرنسي، وعدم قدرته على التغلب على الأسطول الإنجليزى، ألف بونابرت حلفا بحريا فى يناير ١٨٠١م مع روسيا والدنمارك والسويد وبروسيا، التى أحفظها توقيف إنجلترا لسفنها وتفتيشها بحثا عن مهربات إلى فرنسا، وقد عرف باسم الحلف الشمالى The Northern Convention. ولكن القيصر بول أغتيل فى ٢٣ مارس ١٨٠١م، وضرب الأسطول الإنجليزى مدينة كوبنهاجن فى ٣ أبريل، وحطم الأسطول الدنماركى، فانفرط عقد الحلف الشمالى على الأثر.

ولما كان التباطؤ فى إبرام الصلح مع فرنسا لا يخدم المصالح الإنجليزية فى العالم الجديد، بعد أن أعطت أسبانيا فرنسا لويزيانا لتتخذ منها قاعدة لمناوأة تجارة الإنجليز فى أمريكا، فلذلك وقعت إنجلترا مع فرنسا صلح أميان Amiens فى ٢٥ مارس ١٨٠٢م، وبه تنازلت إنجلترا عن كل فتوحاتها فى أثناء الحرب إلى فرنسا، وحلفائها، فيما عدا ترينيداد Trinidad التى تنازلت عنها اسبانيا، وسيلان التى تنازلت عنها باتافيا، واعترفت فرنسا بجمهورية الجزر السبعة الأيونية، ووعدت إنجلترا بعودة جزيرة مالطة إلى فرسان القديس يوحنا، وأن تضمن استقلال هذه الجزيرة كل من بريطانيا والنمسا وأسبانيا وروسيا وبروسيا. ثم حصل الاتفاق على أن تعود مصر إلى تركيا، وتعهدت فرنسا بإخلاء مملكة الصقليتين (أى نابولى)، وإعادة أملاك البرتغال.

وقد آثار صلح أميان سخط البرلمان الإنجليزى، فى الوقت الذى أرضى فرنسا، فاتخذ مجلس التريبيون قرارا جماعيا يوم ٦ مايو ١٨٠٢م، بتوجيه الشكر والتقدير للقنصل الأول، وفى ٨ مايو قرر مجلس الشيوخ (السناتو) مد قنصلية بونابرت عشر سنوات أخرى تبدأ مباشرة بعد انقضاء السنوات العشر الأولى، ولكن بونابرت أصر على أن يكون للأمة صوت فى تولية منصبه مدى الحياة، وهو ما تم الاستفتاء عليه وأعلن مجلس الشيوخ نتيجته يوم ٢ أغسطس ١٨٠٢م.

حروب الإمبراطور نابوليون

وقد كان ذلك مقدمة لتنصيب بونابرت إمبراطورا باسم نابوليون الأول Napoleon I ، وتتويجه يوم ٢ ديسمبر ١٨٠٤م، الأمر الذى أزعج أوروبا، خصوصا بعد التغييرات السياسية التى حصلت فى أيام القنصلية فى ألمانيا وإيطاليا وهولندا وسويسرا، والتى كان من المنتظر بعد تحول القنصلية إلى إمبراطورية أن تصبح تغييرات مشروعة تهدد بزوال العهد القديم كلية، بكل ما يشتمل عليه من حقوق وامتيازات للملوك الشرعيين.

وظهرت بوادر هذا الخوف والقلق عندما امتنع اصحاب التيجان الشرعية فى أوروبا عن تهنئة نابوليون بتتويجه إمبراطوراً، فيما عدا ملك أسبانيا وحده فرديناند السابع.

وقد تلى ذلك مباشرة تأليف التحالف الدولى الثالث The Third Coalition ضد فرنسا من إنجلترا وروسيا والنمسا والسويد.

فقد عقدت معاهدة بين روسيا وإنجلترا فى ١١ أبريل ١٨٠٥م عرفت باسم معاهدة سان بترسبورج، تقضى بوجوب عودة فرنسا إلى حدودها القديمة، وإنشاء دول حاجزة كثيرة على حدود فرنسا، هى هولندا بعد ضم بلجيكا، وبيدمونت بعد ضم ليجوريا، وبارما، ولمباردى، ثم بروسيا. وأن ينال القيصر تعويضا فى بولندا.

ولم تلبث النمسا أن لحقت بروسيا وإنجلترا، عندما وجدت نابوليون قد حول جمهورية ماوراء الألب بعد أشهر من تعيينه إلى مملكة سماها مملكة إيطاليا، وتوج نفسه على المملكة فى ميلان فى ٢٥ مايو ١٨٠٥م، وعين ابن زوجته جوزيفين، وهو يوجين بوهارنيه، نائبا للملك. ثم لم يلبث أن ضم إلى الأملاك الفرنسية جنوة فى ٤ يونيه ١٨٠٥م، وأعطى «بيومبينو» «ولوقا» Lucca إلى زوج شقيقته اليزا، وجعل من مملكة إيطاليا، وجمهورية ليجوريا، وجنوة، مديريات فرنسية، أدمجت فى فرنسا فى ٣٠ يونيه ١٨٠٥م.

ففى ذلك الحين كان نابليون يعد العدة لغزو إنجلترا، فأنشأ منذ عام ١٨٠٣م معسكرا عند بولونى، وأرسل السفن المعدة لنقل الجنود إلى الموانى الشمالية، وأعد سبعة جيوش للغزو، وكان على كل من هولندا وأسبانيا والبرتغال تزويد هذا الجيش بالإمدادات المالية وبالسفن. ولكى يخلى بحر المانش من الأسطول الإنجليزى

تظاهر نابليون بإرسال حملة إلى جزر الهند الغربية، وخرجت لهذا الغرض بالفعل السفن الفرنسية.

ولكن أمير البحر نلسون استطاع أن يلحق بالأسطول الفرنسى على مسافة عشرين ميلا من قاعدة الميناء الأسبانى قادش Cadiz بالقرب من الطرف الأغر، وألحق به الهزيمة يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥م، ولم يستطع نابوليون بعد هذه المعركة التى قضت على أسطوله أن يعيد بناء البحرية الفرنسية، فأصبحت إنجلترا صاحبة السيطرة فى البحار.

وقد انتهزت النمسا مشغولية نابوليون بهذه العمليات البحرية، لشن الحرب على فرنسا، فزحف إمبراطورها فرنسوا الثانى على بافاريا، وعبر نهر الإن Inn أحد فروع الدانوب فى ٧ سبتمبر ١٨٠٥م، وفى ٩ سبتمبر ١٨٠٥م استولى على ميونيخ.

على أن نابوليون استطاع تحويل قواته الضخمة من بحر المانش إلى نهر الراين، للزحف صوب الدانوب، وكان زحفا سريعا أوصل «الجيش الأعظم» بعد عشرين يوما إلى ماينز، ثم احتل أوجزبورج Augsburg، فقطع مواصلات النمساويين بعاصمتهم فيينا، وأحاط بهم، مما اضطرهم إلى التسليم فى «أولم» فى ٢٠ أكتوبر ١٨٠٥م، وبلغ عدد النمساويين الذين سلموا فى أولم ٢٩ ألف جندى. وفى يوم ١٣ نوفمبر ١٨٠٥م دخل نابوليون فيينا.

وهنا طلب الإمبراطور فرانسوا الثانى الهدنة، ولكن نابليون اشترط انسحاب القوات الروسية، التى قدمت لنجدته، من كل أراضى النمسا، وعندما رفض الروس الجلاء، شرع نابوليون فى مطاردتهم. وعندئذ اتجه القيصر إسكندر إلى بروسيا، التى كانت قد أذنت للقوات الروسية بالزحف عبر أراضيها فى سيليزيا لمساعدة النمسا.

ولكن نابوليون التقى بالقرب من قرية أوسترليتز Austerlitz فى صبيحة يوم ٢ ديسمبر ١٨٠٥م، بالقوات الروسية النمساوية، وأنزل بها هزيمة بالغة كانت كافية لإنهاء التحالف الدولى الثالث.

فقد طلبت النمسا الصلح، وتقهقر قيصر روسيا عبر بولندا، وشعرت إنجلترا - بالرغم من نصر الطرف الأغر - بالهزيمة، فقد قال وليم بيت رئيس وزرائها: «لقد لحقت الإصابة بى أنا كذلك فى أوسترليتز Austerlitz.

وفى المعاهدة التى عقدت بين النمسا وفرنسا فى برسبورج Pressburg وهى «معاهدة بريسبورج» فى ٢٦ ديسمبر ١٨٠٥م، نزلت النمسا لفرنسا عن دالماشيا وكل البندقية لتضم إلى مملكة إيطاليا، كما تنازلت عن إستريا ماعدا تريستا Triesta، وهذه الأقاليم تصل بالسيطرة الفرنسية إلى بحر الأدرياتيك. ثم أخذت فرنسا من النمسا كل الطرق المؤدية إلى نهر الراين، وهى أقاليم : التيرول، وفورالبيرج Vorarlberg (إلى الغرب من التيرول) وترينتان

(أو ترينت Trent). ولم تنل النمسا تعويضا عن ذلك غير سالزبورج. كما اعترفت النمسا بـ «بادن» Baden وبفيرتيمبيرج Wurttemberg كمملكتين.

وكان معنى ذلك أن أتمت معاهدة بريسبورج عملية انهيار الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والقضاء عليها نهائيا. وقد وقع فرانسوا الثانى على هذه المعاهدة بوصفه «إمبراطوراً لألمانيا والنمسا». ولكن لم تمض ستة أشهر حتى كان قد خسر لقب إمبراطور ألمانيا.

أما بالنسبة لبروسيا، فإن نابوليون كان قد عقد مع النمسا بعد موقعة أوسترليتز معاهدة شونبرون Schoenbrunn فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٥م، وبمقتضاها أعطيت هانوفر لبروسيا، فى مقابل تنازل هذه عن «أنسباخ Ansbach إلى بافاريا، وعن كليف Cleves، ونيوشاتيل Neufchâtel، إلى فرنسا.

ولكن لم يكد نابوليون يعود إلى فرنسا حتى رفض فريدريك وليم الثالث التنازل عن أنسباخ، وطالب بمدن إتحاد الهانسا: بريمين، وهمبورج، ولوبيك، وأعلن عزمه على البقاء فى احتلال هانوفر حتى وقت إقرار السلام العام. وعندئذ أخذ نابوليون يتهيأ لحملة جديدة، فاضطر فريدريك وليم إلى التصديق على نصوص معاهدة شونبرون فى باريس فى ١٥ فبراير ١٨٠٦م.

وبسبب هذه الانتصارات المدوية، قرر نابوليون فى ٢٦ فبراير ١٨٠٦م إقامة قوس نصر Arc de Triomphe تكريما «للجيش الأعظم» الذى جعل فرنسا تشعر بالفخار والمجد.

وفى تلك الأثناء كان نابوليون قد أنهى حكم البوربون فى نابولى منذ ٢٦ ديسمبر ١٨٠٥م، وعين أخاه الأكبر جوزيف بونابرت ملكا على نابولى، فانسحبت أسرة البوربون إلى صقلية تحت حماية الأسطول الإنجليزى، ولم يعد مستقلا فى أملاكه بإيطاليا غير البابا، ولكن نابوليون قيد استقلال رئيس الكنيسة الأعلى بأن أملى عليه السياسة الخارجية التى يتبعها.

أما ألمانيا، فقد عمل نابوليون على ربط الأسر الحاكمة فى ألمانيا الجنوبية بالأسرة الحاكمة فى فرنسا، فقد أنشأ على ضفة نهر الراين الأسفل غراندوقية برج Berg وكليف، التى أعطاها لمورا، زوج شقيقته كارولين، فى ١٥ مارس ١٨٠٦م. وزوج يوجين بوهارنيه ابن زوجته جوزيفين، من الأميرة أوجيستا Augusta إبنة مكسمليان الأول ملك بافاريا فى ١٤ يناير ١٨٠٦م. ثم زوج شقيقه جيروم بونابرت من كاترين ابنة ملك ڤيرتيمبرج فى ٢٣ أغسطس ١٨٠٧م. وفى ٢٦ مايو ١٨٠٦م نصب شقيقه لويس، زوج هورتنس ابنة الإمبراطورة جوزيفين، ملكا على هولندا.

وفى يوم ١٢ يوليو ١٨٠٦م وقع نابوليون المعاهدة التى تأسس بموجبها «اتحاد الراين»، وهو أجرأ تعديل إقليمى أحدثه نابوليون

فى ألمانيا، وقد تألف من ١٦ عضوا هم: ملكا بافاريا وڤيرتيمبرج، وغراندوقيات بادن، وهس Hesse ودرمشتات، وبرج، ثم كبير مستشارى الإمبراطورية الألمانية (الأمير كارل دالبرج) وعشرة أمراء آخرون من أصحاب الامارات الصغيرة.

وتبع ذلك انضمام جميع الأمراء الآخرين، فيما عدا النمسا وبروسيا وبرونسڤيك Brunswick وناخب هيس Hesse. وبذلك وقع جزء كبير من ألمانيا تحت السيطرة الفرنسية.

وقد اعتبرت بروسيا اتحاد الراين تهديدا مباشرا لسيطرتها ولنفوذ اسرة براندنبرج فى ألمانيا الشمالية، فقرر فردريك وليم الثالث فى ٩ أغسطس ١٨٠٦م التعبئة العامة، وفى ٢٦ سبتمبر بعث بانذار إلى نابوليون تنتهى مدته فى ٨ أكتوبر، وزحف الجيش البروسى عبر أراضى سكسونيا قاصدا إلى الراين.

وقد واجه نابوليون ذلك بوضع قواته فى مواجهة البروسيين فى خط يمتد من جوتا Gotha إلى يينا Jena التى قصد الاستيلاء عليها، وقطع مواصلات البروسيين ببرلين العاصمة عن طريق السيطرة على كبارى نهر السال، وعندما حاول البروسيون عبور النهر، منعتهم المدفعية الفرنسية التى أقامها الفرنسيون على المرتفعات الغربية.

وسرعان ما ألحق بهم الجيش الفرنسى بقيادة «دافو Davout هزيمة حاسمة عند يينا Jena، على الرغم من تفوق الجيش

البروسى، وذلك فى يوم ١٤ أكتوبر ١٨٠٦م، وكافأ نابليون دافو على هذا النصر بإعطائه لقب «دوق أورشتاد» Auerstadt – وهو الاسم الثانى للموقع الذى دارت فيه المعركة – وذلك فى ١٤ أكتوبر ١٨٠٦م.

لم تلحق الهزيمة فى موقعة يينا بالجيش البروسى وحده، بل لحقت بالأمة البروسية قاطبة، فبينما كان الجيش البروسى يلقى سلاحه أمام العدو الذى كان يطارده فى بوميرانيا Pomerania وميكليمبورج Mecklembourg، سلمت ستيتين Stettin فى ٢٨ أكتوبر ١٨٠٦م، ومجدبرج فى ٨ نوفمبر ١٨٠٦م، وكاسترين Cus-trin. وفى يوم ٢٧ أكتوبر ١٨٠٦م دخل نابليون برلين.

ولم يلبث نابليون أن أصدر فى برلين مراسيم برلين الشهيرة التى أعلن بها حصار الجزر الإنجليزية، وحرم على كل الدول الأوروبية الإتجار معها، كما حرم عليها فتح موانئها للسفن الإنجليزية، وقد صدرت هذه المراسيم يوم ٢١ نوفمبر ١٨٠٦م وعرفت باسم الحصار القارى أو Blocus Continental أو النظام القارى (Continental System).

فى تلك الأثناء كان فردريك وليم الثالث قد انسحب فى تقهقره إلى كونيجزبيرج Konigsberg فى انتظار ألكسندر الأول قيصر روسيا الذى كان يزحف بجيشه صوب نهر الفستيولا، وعندما علم نابليون باحتشاد الروس عند النهر، غادر برلين إلى بولندا فى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر ١٨٠٦م التى استقبل فيها استقبالا

حافلا، فأنشأ آلايا بولنديا من الفرسان البولنديين، واتخذ مقره فى وارسو التى وصل إليها فى ١٩ ديسمبر ١٨٠٦م، حيث تعرف على مارى فالفسكا Walweska، وأخذ يدير الإمبراطورية من وارسو.

وفى منتصف يناير ١٨٠٧م قام الجيش الروسى بهجومه، تحت قيادة الجنرال بينيجسين Pennigsen، وفى طريقه إلى كونيجزبيرج توقف عند «أيلو» Eylau، حيث دارت موقعة عظيمة وسط الثلوج المتساقطة فى ٨ فبراير ١٨٠٧م، وكاد يقضى على القوات الفرنسية بقيادة الجنرال أوجيرو Augereau، وكاد الفرسان الروس يأسرون نابليون لولا هجمات الجنرال مورا Murat الذى استطاع اختراق صفوف المشاة الروس، وكفل النصر وصول «دافو» و «ناى» Ney وبذلك تكون الجيش الأعظم.

ولما كانت دانزيج تشكل خطرا على ميسرة الجيش الأعظم، فقد أخذ نابليون فى حصارها منذ نهاية مارس١٨٠٧م، وفى يوم ٢٦ مايو ١٨٠٧م سلمت دانزج Danzig. ثم اتجه شرقا لمقابلة الروس.

وعند فريدلاند Friedland، وفى يوم ١٤ يونيه ١٨٠٧م، وهو يوم ذكرى واقعة مارنجو، أنزل هزيمة ساحقة بالروس، واضطر قائدهم بينيجسين Pennigsen إلى الفرار بفلول جيشه صوب نهر النيمين Niemen والتخلى عن كونيجزبرج Konigsberg، فدخلها جيش الجنرال سولت Soult فى ١٧ يونيه، واحتل الفرنسيون جميع اراضى القطر حتى نهر نييمين Niemen.

وقد سارعت كل من روسيا وبروسيا إلى عقد هدنة، وفى خلالها تقابل القيصر اسكندر ونابليون وسط نهر النيمين، واتفقا على شروط معاهدة تيلسيت Tilsit فى ٧ يولية ١٨٠٧م بين فرنسا وروسيا، وبين فرنسا وبروسيا، فى ٩ يوليو ١٨٠٧.

وفى هذا الصلح فقدت بروسيا كل أراضيها غرب نهر الإلب Elbe والولايات البولندية التى كانت قد ضمتها إليها فى تقسيم ١٧٩٣م(١)، ثم الجزء الجنوبى من بروسيا الغربية. فى حين حصلت سكسونيا على كوتبس Cottbus وصارت دانزج مدينة حرة تحت حماية سكسونيا وروسيا المشتركة.

وبقيت بروسيا مكونة من أربعة أقاليم فقط هى: دوقية براندنبرج ، ودوقية بوميرانيا، وسيليزيا Silesia العليا، وسيليزيا السفلى ـ أى بالمساحة التى كانت عليها مملكة بروسيا فى بداية سنة ١٧٧٢ . وهكذا فقدت بروسيا نحو نصف مساحتها ونصف عدد سكانها الذين أصبحوا أقل من خمسة ملايين نسمة.

وقد أضاف نابوليون إلى الأقاليم التى تنازلت عنها بروسيا غرب نهر الإلب الجزء الاكبر من هانوفر، وأسس من هذه الأراضى مملكة وستفاليا Westphalia ونصب عليها جيروم أخاه الأصغر،

---

(١) هو التقسيم الثانى. وكانت بولندا قد قسمت ثلاث مرات: التقسيم الأول فى أغسطس ١٧٧٢م بين روسيا وبروسيا والنمسا. والتقسيم الثانى فى يناير ١٧٩٣م بين روسيا وبروسيا، والتقسيم الثالث فى أكتوبر ١٧٩٥م بين الدول الثلاث.

كما ألف من ولايات بروسيا البولندية دوقية وارسو تحت حكم ناخب سكسونيا الذى صار ملكا. وأعطيت بياليستوك Bialystok لروسيا. وتعهد فريدريك وليم بإغلاق بلاده فى وجه السفن الإنجليزية.

وفى المعاهدة التى وقعت بين فرنسا وروسيا فى ٧ يولية ١٨٠٧م، اعترف القيصر اسكندر بهذه الأقاليم التى انتزعت من بروسيا، وذكر فيها أن نابوليون اقترح بالفعل إزالة بروسيا من الوجود كلية حتى يصبح نهر الفستيولا هو الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين الفرنسية والروسية، ولكن نابوليون احترم رغبة القيصر فى استبقاء بروسيا الولايات الأربع السالفة الذكر.

كما ذكرت المعاهدة الطريقة التى أراد بها نابوليون تقرير مصير الأراضى المأخوذة من بروسيا، وهى إنشاء مملكة وستفاليا، ودوقية وارسو، واعترف فيها القيصر بكل هذه الترتيبات، كما اعترف بتلك التى أجراها نابوليون فى ألمانيا وإيطاليا.

كما تخلى القيصر عن كتارو Cattaro على ساحل الأدرياتيك الشرقى جنوب دالماشيا وجزر الأيونيان السبع، ووعد بالاعتراف بجوزيف بونابرت ملكا على نابولى (الصقليتين) إذا حصل نابوليون على جزر البليار Balearic (وتشمل جزر : منوركا ومايوركا وياليا) من ملك أسبانيا وأعطاها لملكها فرديناند أو جزيرة كريت تعويضا له. وكان القيصر قد رفض التصديق على معاهدة

وقعها مندوبه الكونت دوبريل فى باريس فى يوليو من العام السابق بشأن كتارو والأيونيان والبليار.

ويعتبر صلح تيلسيت الحد الذى بلغت عنده الإمبراطورية الفرنسية فى عهد نابوليون أقصى اتساعها، فقد احتل الجنود الفرنسيون دانزج المدينة الحرة، وبروسيا حتى تدفع الغرامة المفروضة عليها، واعترف القيصر نفسه بالتغييرات الإقليمية التى أحدثها نابوليون فى ألمانيا بإنشاء اتحاد الراين، ومملكة وستفاليا، كما اعترف بمملكة هولندا وبشقيق نابوليون لويس بونابرت ملكا عليها، وبمملكة نابولى فى إيطاليا وملكها جوزيف بونابرت. وكتب الكونت دى سيجور (كبير الأمناء) فى مذكراته يقول:

«إن الإمبراطور فى خلال ثمانية عشر شهرا اشتبك فى مائة واقعة، وأربع معارك كبيرة، وحطم أربعة جيوش، وخلق ستة ملوك جدد هم: ملكا بافاريا وفرتمبيرج سنة ١٨٠٦م، وملك سكسونيا سنة ١٨٠٧م، وأصبح ثلاثة من أفراد أسرته ملوكا: جوزيف بونابرت، ملكا على نابولى، ولويس بونابرت ملكا على هولندا سنة ١٨٠٦م، وجيروم بونابرت ملكا على وستفاليا سنة ١٨٠٧م. وتحولت جميع الدول الكبرى فى القارة الأوروبية من بطرسبورج إلى نابولى، الذين تحالفوا ضده بمسعى إنجلترا، ضد هذه الدولة.

وقد اعترف نابوليون بأن أسعد أيام حياته كانت هى التى اقترنت بهذه الانتصارات السياسية والعسكرية التى توجتها معاهدات تيلسيت، فقد سئل فيما بعد، وهو بمنفاه فى سانت

هيلانه St. Helena عن أسعد الأوقات في حياته، فأجاب بأنها كانت في تيلسيت «فقد كنت متوجا بأكاليل النصر، أملى القرارات وأسن القوانين، ويحف بى الأباطرة والملوك كأنهم من رجال حاشيتى».

وتعتبر الفترة من عام ١٨٠٧م إلى عام ١٨١٤م هى سنوات الانحسار. ذلك أن استمرار الإمبراطورية الفرنسية التى أسسها نابوليون كان متوقفا على أمرين، الأول: نجاح الحصار القارى لإنجلترا، والثانى: استمرار التحالف الفرنسى الروسى. وهو ما لم يتحقق.

وبالنسبة للحصار القارى، فقد رأى نابوليون أنه ما دامت إنجلترا تجد منفذا فى ولايات البابا، وفى شبه الجزيرة الأيبيرية، خصوصا بعد معركة الطرف الأغر Trafalgar (٢١ أكتوبر ١٨٠٥م) التى أرست السيادة البريطانية فى البحار، فلا سبيل لنجاح هذا الحصار. ولكنه اصطدم فى محاولته التغلب على هاتين العقبتين بالشعور الدينى وبالكنيسة من جهة، وبالشعور القومى من جهة أخرى.

ففى يوم ١٢ ديسمبر ١٨٠٧م أصدر نابوليون مرسوم ميلان Milan الذى كان استكمالا لمراسيم برلين، وبه اعتبر أية سفينة أملاكا إنجليزية اذا خضعت لتفتيش السفن الإنجليزية أو أرغمت على الرحلة إلى إنجلترا أو دفعت إتاوة إلى الحكومة الإنجليزية، وتعامل على هذا الأساس مهما كانت جنسيتها.

وتنفذا لمراسيم برلين وميلان، ولتضييق الحصار القارى المضروب على إنجلترا، احتلت القوات الفرنسية روما فى ٢ فبراير ١٨٠٨م. ولم تمض أسابيع قليلة حتى كانت قد أدمجت فى مملكة ايطاليا مقاطعات: أنكونا وأوربينو Urbino التى انتزعت من املاك البابوية. وفى ١٧ مايو ١٨٠٩م أصدر نابليون من فيينا قرارا يقضى بأنه لم يعد ثمة مبرر لبقاء السلطة الزمنية للبابا، وقرر ضم الأملاك البابوية إلى الإمبراطورية الفرنسية، وأن تكون روما مدينة حرة وتابعة للإمبراطورية. وقد أجاب البابا على ذلك فى ١٠ يونيه ١٨٠٩م بحرمان نابليون من غفران الكنيسة. وفى يوم ٦ يوليو ١٩٠٩م ألقى القبض على البابا نفسه، ونقله إلى سافونا Savona (إلى الغرب من جنوة) وقد أثارت هذه الاستطالة على مقام البابوية ثائرة الأمم الكاثوليكية.

أما بالنسبة لشبه الجزيرة الأيبيرية، فقد عقد نابوليون اتفاقا مع أسبانيا على أن تشترك معه فى غزو البرتغال واقتسامها فيما بينهما، وقد تولى الجنرال جونو Junot مهمة احتلال البرتغال، فاحتل لشبونة فى ٣٠ نوفمبر ١٨٠٧م.

ولكن نابوليون لم يلبث أن عمل على احتلال أسبانيا بحجة منع الإنجليز من النزول فى أراضيها عن طريق جبل طارق، فاجتاز القائد مورا Murat جبال البرانس، واحتل المواقع الاستراتيجية والحصون فى أسبانيا الشمالية، وزحف على العاصمة مدريد واحتلها فى ٢٣ مارس ١٨٠٨م.

وعندما ثار الأسبانيون على ملكهم، وأجبروه على النزول عن العرش لابنه فرديناند السابع، أرغم نابوليون الأب والابن على النزول عن العرش فى ٥ ـ ١٠ مايو ١٨٠٨م، ونصب جوزيف بونابرت ملكا على أسبانيا، وأحل محله فى نابولى قائده مورا ملكا على الأخيرة.

على أن الشعب الأسبانى رفض الرضوخ للأمر الواقع والإذعان لما اعتبره إهانة لحقت بشرف الأمة، فقام بالثورة يوم ٢ مايو ١٨٠٨م، وهو اليوم الذى اشتهر فى تاريخ الثورة الاسبانية باسم «دوس مايو» Dos Mayo، وأعلن الحرب حتى الموت ضد الفرنسيين.

وتمكن الجيش الأسبانى من إنزال هزيمة ثقيلة بالفرنسيين فى «بايلين Baylen فى يولية ١٨٠٨م وفقد الجيش الفرنسى ثلاثة آلاف جندى ووقع ١٨ ألفا أسيرا، وقام بعدها جوزيف بونابرت بأيام قلائل على إخلاء اسبانيا حتى نهر الإبرو فى الشمال.

وقد شجعت هذه الهزيمة التى نزلت بالجيوش الفرنسية البرتغال على إعلان الثورة، الأمر الذى شجع بدوره الحكومة الإنجليزية على إرسال جيش بقيادة ويليسلى Wellesley نزل عند مصب نهر موندجو Mondego يوم ٢ أغسطس ١٨٠٨م، وانتصر على جيش «جونو» عند فيميرو Vimeiro فى ٢١ أغسطس ١٨٠٨م، فاضطر «جونو» الى عقد اتفاق كينترا Cintra فى ٣٠

أغسطس١٨٠٨م بإخلاء البرتغال، على أن تحمله السفن الإنجليزية مع جيشه إلى فرنسا. وفى ١٢ سبتمبر ١٨٠٨م احتل الانجليز لشبونة، وفى ٣٠ سبتمبر لم يبق ثمة جندى فرنسى فى البرتغال.

وقد واجه نابوليون هذه النكسة بأن جهز ثلاثة جيوش من خيرة جيوشه المدربة. ولكن قبل الذهاب إلى اسبانيا اجتمع بالقيصر إسكندر فى إيرفورت Erfurt فى سبتمبر ١٨٠٨م، وحضر الاجتماع أربعة ملوك و ٣٤ أميرا ، ووقع اتفاق ايرفورت الذى تناول الموقف فى بروسيا وبولندا وفقا لاتفاق تيلسيت، كما شمل مصير الإمبراطورية العثمانية.

وغادر نابوليون باريس يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٠٨م على رأس ١٧٠ ألف مقاتل، حيث أعاد فتح أسبانيا بعد أن أنزل عدة هزائم بالجيش الأسبانى، وفى يوم ٩ ديسمبر ١٨٠٨م دخل مدريد، وأعاد أخاه جوزيف على عرش أسبانيا مرة أخرى.

ومالبث أن أصدر عدة قرارات اصلاحية أنهى بها الحقوق الإقطاعية، وألغى محكمة التفتيش، وأغلق ثلثى الأديرة، ثم طارد النجدات الإنجليزية التى أرسلت بقيادة السيرجون مور Moor حتى كورونا Corunna فى شمال البرتغال.

على أن قيام الأسبانيين بالثورة كان له أثره فى تحريك روح المقاومة فى الشعوب الألمانية. وقد تصدت النمسا لإنقاذ الوطن

الألمانى، فأعادت تنظيم جيشها، وفى يوم ١٠ أبريل ١٨٠٩م دخل الجيش النمساوى أراضى اتحاد الراين واقتحم حدود بافاريا.

ولكن نابوليون خرج يوم ١٣ أبريل ١٨٠٩م على رأس جيش يكاد يكون بتمامه جيشا جديدا، يتألف ثلث قواته من فرق أجنبية (ألمانية)، واشتبك مع النمساويين فى سلسلة من المعارك دارت رحاها من ١٩ إلى ٢٣ أبريل ١٨٠٩م، كانت أهمها فى إيكموهل Eckmuhl فى ٢٢ أبريل، والثانية فى إيبيرزبرج Ebersberg فى ٣ مايو، ودخل نابوليون فيينا للمرة الثانية فى ١٣ مايو ١٨٠٩م.

ثم تعقب خصومه إلى واجرام Wagram بعد أن عبر الجيش الفرنسى نهر الدانوب يوم ٤ يوليو ١٨٠٩م، وقد بلغ عدده ١٥٠ ألف جندى، وهناك دارت المعركة الشهيرة عند «واجرام» يوم ٦ يولية ١٨٠٩م، وأسهم فيها نخبة من القواد الفرنسيين: دافو Davout، وماسينا Massina، وماكدونالد، ومارمون Marmont، وأودينو Ou-dinot وحقق فيها الجيش الفرنسى الانتصار بخسائر باهظة، واضطر فرانسوا الأول إمبراطور النمسا إلى توقيع الهدنة فى زنايم Znaim فى ١١ يوليو ١٨٠٩م.

ثم وقعت النمسا صلح «فيينا» فى ٤ أكتوبر ١٨٠٩م، وبه نزلت عن سالزبورج إلى بافاريا ، كما تخلت عن جزء من بوهيميا إلى ملك سكسونيا، وعن غاليسيا الغربية إلى دوق وارسو، وعن غاليسيا الشرقية إلى الروسيا. وأخذت فرنسا تريستا وما حولها

من الأراضى النمساوية فى شمال الأدرياتيك، وأصبحت النمسا بفضل هذه المعاهدة التى عرفت باسم معاهدة شونبرون Schon-brunn مجرد دولة ثانوية تخضع لسلطان نابوليون.

على أن مشكلة وراثة العرش وعدم إنجاب ابن لنابليون من زوجته جوزيفين، لم تلبث أن دفعته إلى الزواج من مارى لويز من أسرة هابسبورج، الأمر الذى كان له تأثيره فى إنهاء المحالفة مع روسيا بعد أن تحولت سياسة نابوليون إلى مصادقة النمسا.

وهنا قرر رأى القيصر وحكومته نقض معاهدة تيلسيت وفتح ثغور بلادهم للتجارة الإنجليزية فى سنة ١٨١٠م. وكان ذلك هو ما جعل نابوليون يتحول إلى مهاجمة روسيا. فقام بالحملة الروسية المشئومة على روسيا فى صيف عام ١٨١٢م، التى أوصلته إلى دخول موسكو فى ١٤ سبتمبر ١٨١٢م، ولكنه اضطر إلى الانسحاب منها بعد أن لم يبق من جيشه الذى يربو على ٦٠٠ ألف جندى سوى ١٠٠ ألف فقط.

وكانت هذه الهزيمة بداية الكارثة، فقد قام الشعب البروسى يطالب بالانضمام إلى روسيا حتى يأخذ بثأر يينا، ويهدم النظام القارى الذى عطل مصالحه، فأبرمت الحكومة البروسية مع روسيا معاهدة كاليش Kalisch فى ٢٨ فبراير ١٨١٣م، ثم اشتركت فى الحرب ضد فرنسا.

وقد واجه نابوليون ذلك بتجهيز جيش جديد يتألف من زهرة شبان فرنسا، وأسرع إلى مقابلة أعدائه فى ألمانيا بعد نهاية أبريل ١٨١٣م فى جيش يبلغ تعداده ١٨٠ ألفا، وقام بالانتصار عليهم فى «لوتزن» Lutzen فى ٢ مايو ١٨١٣م و «بوتزن» Bautzen فى ٢١ مايو ١٨١٣م، كما احتل دافو Davout هامبورج. وعقدت على أثر ذلك الهدنة فى بليزفيتز Pleswitz على أن تستمر من ٤ يونيه إلى ٢٦ يولية، ثم امتدت بعدها إلى ١٠ أغسطس ١٨١٣م.

وفى يوم ٦ يونية ١٨١٣م جرى لقاء نابوليون ووزير النمسا مترنيخ Metternich أدرك منه أن النمسا لا محالة منضمة إلى أعدائه، وعندها صاح صيحته المشهورة: «لقد كان من الحمق البالغ أن أتزوج أميرة نمساوية»!

وقد تحقق حدسه، فقد قامت مفاوضات بين النمسا والروسيا وبروسيا انتهت بعقد اتفاق رايشنباخ Reichenbach فى ٢٧ يونيه ١٨١٣م.

وفى يوم ١٢ أغسطس ١٨١٣م أعلنت النمسا الحرب على فرنسا، وكانت جيوش الحلفاء ثلاثة: جيش الشمال بقيادة برنادوت، وجيش سيليزيا بقيادة بلوخر Blucher، وجيش بوهيميا بقيادة شفارزنبرج، واشتبك الفريقان فى سلسلة من المعارك انتهت بهزيمة شفارزنبرج فى معركة درسدن فى ٢٧ أغسطس ١٨١٣م أمام نابوليون، ولكن الحلفاء سجلوا انتصارات على قواد نابوليون.

فانتصر برنادوت على جيش أودينو Oudinot فى جروس - بيرين Groos - Beeren فى ٢٣ أغسطس ١٨١٣م، وانتصر بلوخر على ماكدونالد فى كاتزباخ Katzbach فى ٢٦ أغسطس ١٨١٣م، وانتصر الروس على ڤاندام Vandamme فى كولم kulm فى ٢٩ - ٣٠ أغسطس ١٨١٣م، وانهزم ناى Ney فى دينڤيتز Dennewitz فى ٦ سبتمبر ١٨١٣م. وفى ٨ أكتوبر ١٨١٣م انضمت انجلترا إلى التحالف، وفى ٨ أكتوبر ١٨١٣م خرجت بافاريا من اتحاد الراين وانضمت إلى جيوش الحلفاء.

وما أن تلقى الحلفاء نجدات جديدة من روسيا، حتى حشدوا قواتهم فى سهول لايبزج Leipzig فى مؤخرة الفرنسيين، حتى يقطعوا عليهم خط الرجعة عند تقهقرهم إلى فرنسا، وعندما وصل نابوليون إلى لايبزج دارت معركة فيما بين ١٦ و ١٩ أكتوبر ١٨١٣م عرفت باسم «حرب الأمم»، فانهزم فيها نابوليون، واضطر إلى التراجع إلى ماوراء الراين.

عندئذ رأى نابوليون امبراطوريته الشامخة تتداعى، فقد نهضت ألمانيا وإيطاليا وفتحتا بلادهما للغزاة، وأسرعت هولندا إلى إعادة حكم بيت أورانج، وعقدت نابولى صلحا منفردا مع النمسا.

وانتهز ولنجتون Wellengton (ويليسلى) الفرصة، وكان قد سبق له أن انتصر على الفرنسيين فى أسبانيا فى سلامنكا Sal-amanca فى ٢٢ يوليو ١٨١٢م، وفى فبراير ١٨١٣م عندما اضطر

سولت إلى سحب جزء كبير من الجيش الفرنسى إلى ألمانيا، تقدم ولنجتون وهزم المارشال جوردان فى فتوريا Vittoria فى ٢١ يونية ١٨١٣م.

وقد عرض الحلفاء على نابوليون فى فرانكفورت فى أول نوفمبر ١٨١٣م عقد صلح على أساس عودة فرنسا إلى حدودها الطبيعية: الألب، والراين، والبرانس، واستقلال ألمانيا وهولندا وإيطاليا عن فرنسا، وإرجاع أسرة البوربون إلى أسبانيا. ولكنهم تذرعوا بعدم وصول رد نابوليون بالسرعة اللازمة للتراجع عن هذا العرض، وأعلنوا أنهم يحاربون نابوليون لا الشعب الفرنسى، وزحفوا على باريس بطريق المارن والسين والبرانس، وتعاهدوا فى شومون Chaumont فى ٩ مارس ١٨١٤م على مواصلة الحرب حتى يحققوا هدفهم، وأن يبقى هذا التحالف مدة عشرين عاما لحماية السلام فى أوروبا.

وفى يوم ٣١ مارس سنة ١٨١٤م سقطت باريس، وتنازل نابوليون عن العرش بدون قيد أو شرط، ومنحه الحلفاء جزيرة إلبا Elba، وأعطيت زوجته مارى لويز Marie Louise دوقية بارما، واحتفظ نابوليون بلقب امبراطور، ووصل إلى «إلبا» يوم ٤ أبريل ١٨١٤م. على أن نابوليون عندما علم بالاستياء فى فرنسا من عودة حكم البوربون، فر من إلبا، وعاد إلى فرنسا يوم أول مارس ١٨١٥م، ولكنه هزم فى ووترلو فى ١٨ يونية ١٨١٥م، وتنازل عن العرش، وسجن فى جزيرة سانت هيلانه St. Helena، واستمر بها حتى مات فى عام ١٨٢١م.

مراجع للاستزادة

(أولا) المراجع العربية والمترجمة

السيد رجب حراز، الدكتور: عصر النهضة (القاهرة١٩٧٤م).

بالمر، روبرت: تاريخ العالم الحديث، جزءان، ترجمة محمود حسن الأمين (الموصل ١٩٦٤م).

بانيكار، ك. م: آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (دار المعارف ١٩٦٢م).

برنو، ريجين: البورجوازية فى شتى مراحلها، ترجمة أنعام الجندى (بيروت).

بولز، تشستر : قضية السلام، ترجمة جورج عزيز (دار المعارف ١٩٥٧م).

بونوماريوف : موجز تاريخ الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى (موسكو ١٩٧٠م).

بين، تشستر: الشرق الأقصى، ترجمة حسين الحوت (سلسلة الألف كتاب ٥٩).

جرانت وتمبرلى: أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جزءان، الأول ترجمة بهاء فهمى، والثانى ترجمة محمد على أبو درة ولويس إسكندر (القاهرة ١٩٦٧م).

جمال حمدان، الدكتور: استراتيجية الاستعمار والتحرير (كتاب الهلال).

جوكوف وآخرون: العالم الثالث (موسكو ١٩٧١م).

رينوفان، بيير: تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤م، ترجمة دكتور جلال يحيى (دار المعارف).

زاهر رياض، الدكتور: استعمار القارة الأفريقية واستقلالها (دار المعرفة ١٩٦٦م).

ستيفه، فردريك : حقيقة الحرب العظمى، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقى.

صلاح العقاد، الدكتور: الحرب العالمية الثانية (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م).

عبدالحميد البطريق، الدكتور: التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ - ١٩٦٠ (القاهرة ١٩٨٠م).

عبدالكريم أحمد، الدكتور: القومية والمذاهب السياسية (القاهرة).

فرحات زيادة وإبراهيم فريجى: تاريخ الشعب الأمريكى (مطبعة جامعة برنستون ١٩٤٦م).

فيشر، هربرت: أصول التاريخ الأوروبى الحديث، ترجمة: الدكتورة زينت عصمت راشد، والدكتور عبد الرحيم مصطفى (دار المعارف ١٩٦٢م).

فيشر، هربرت : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع (دار المعارف ١٩٤٦م).

كـــار، أ. هــ : ثورة البلاشفة، جزءان، ترجمة عبدالكريم أحمد (القاهرة ١٩٧٠م).

كسنجـر، هنرى: مفهوم السياسة الخارجية الأمريكية، إعداد د. حسين شريف (القاهرة ١٩٧٤م).

كينـان، جـورج : روسيا تتخلى عن الحرب، ترجمة عادل شفيق (القاهرة ١٩٦٦م).

كنج، بولتن : الوحدة الإيطالية، ترجمة طه الهاشمى (القاهرة).

كــول، ج.هــ : تاريخ الفكر الاشتـراكى، الجـزء الأول من المجلد الرابع، ترجمة عبدالكريم أحمد (القاهرة).

كـــــول. ج. هـ : الاشتـراكية والفاشية، ترجمة عبدالحميد الإسلامبولى.

لودفـيـج، أمـيل : نابليون، ترجمة محـمـود إبراهيم الدسـوقى (القاهرة ١٩٤٠م).

لودندورف : مذكرات لودندورف (جزءان).

لينين : مذكرات لينين عن الحروب الأوربية، ماضيها وحاضرها، ترجمة أحمد رفعت.

لينين : موجز حياته زموسكو ١٩٦٩م).

محمد أنيس، الدكتور، والسيد رجب حـراز، الدكتور: مـدخل تاريخ الأمريكتين (دار النهضة العربية ١٩٦٤م).

محمد فؤاد شكرى، الدكتور : ومحمد أنيس، الدكتور، أوروبا فى العصور الحديثة، الجزء الأول (الأنجلو ١٩٦١م).

محمد فؤاد شكرى، الدكتور: الصراع بين البورجوازية والاقطاع ١٧٨٦ - ١٨٤٨) جزءان (دار الفكر العربى - ١٩٥٨م).

محمد فؤاد شكرى، الدكتور: ألمانيا النازية (دار الفكر العربى ١٩٤٨م).

نور الدين حاطوم، الدكتور: حركة القومية الألمانية (القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م).

نيفينز، آلان وكوميجر، هنرى ستيل: تاريخ الولايات المتحدة، ترجمة مصطفى كمال (مكتبة مصر).

هامبسون، نورمان : التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية، ترجمة فؤاد أندراوس (دار الكاتب العربى).

هاو ، سونيا : فى طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت (القاهرة، سلسلة الألف كتاب).

هربرت، كريستوفر : بنيتو موسولينى، تعريب خيرى حماد (دار المعارف ١٩٦٥م).

هوبسون، ج. أ : الامبريالية، ترجمة عبد الكريم أحمد (القاهرة).

وزارة الحربية المصرية : الحرب الباردة وأصولها ١٩١٧ - ١٩٦٠م (٥ أجزاء) ترجمته شعبة البحوث العسكرية ١٩٦٤ - ١٩٦٨م.

يبيبافانوف، وفيدوسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتى - ترجمة خيرى الضامن ونقولا طويل (موسكو).

يونان لبيب، الدكتور، ورعوف عباس، الدكتور، وعبدالعظيم رمضان، الدكتور: أوروبا فى عصر الرأسمالية (دار الثقافة العربية ١٩٩٠م).

يونان لبيب، الدكتور، ورؤف عباس، الدكتور، وعبد العظيم رمضان، الدكتور : أوروبا فى عصر الإمبريالية (دار الثقافة العربية ١٩٨٦م).

مجلة السياسة الدولية (١٩٦٤ - ١٩٨٥م).

Curtin, P.,D., Imperialism., U.S.A. 1971.

Davenport, Marcia, Garibaldi Father of Modern Italy, New York 1957.

Deutscher, Isaac, The Great Contest, Russa and the West, U.S.A. 1961.

Dolbeare, Kenneth and Edelman, Marray, American Palitics, U.S.A. 1974.

Duroselles, J.B., Histoire Diplomatique de 1919 á nos jours, Paris, 1953.

Faulkner, H.U., American Political and Social History; New York 1944.

Fisher, H.A.L., History of Europe, London 1942.

Fulbright, J.W., The Pentagon Propaganda Machine, New York 1970.

Garthoff, Raymond L., Soviet Strategy in the Nuclear Age, New York 1962.

Grant, A. J. and Temperley, Harold, Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (1789 - 1950), London 1953.

Hopkins, Harry, The White House Papers of Harry Hopkins. London 1949.

Howe, E., Sonia, In Quest of Spices, London 1946.

(ثانيا) المراجع الأجنبية

Adams, Sherman, First Hand Report, the Story of Eisenhower **Administration,** New York 1961.

Anderson, M.S., Europe in the Eighteenth Century, London 1961.

Andrews, G. M., The Colonial Period of American History, New Haven 1934.

Beloff, M., Europe and the Europeans, London 1957.

Burckhardt, Jacob, The Civilization of the Renaissance in Italy, U.S,A. 1970.

Carr, E. H. International Relations Since the Peace Treaties, 1940.

Carter, Herz and Ranney, Major Foreign Powers, U.S.A. 1957.

Churchill, Winston, The Second World War, (6 vols), U.S.A. 1948 - 1953.

Ciano, Ciano's Diaries, London 1947.

Club, Oliver E., The United States and the Sino - Soviet Bloc in Southeast Asia, Washington 1962.

Coombs, Philip, The Fourth Dimension of Foreign Policy, U.S.A. 1964.

Samsonov, A., a Short History of the USSR, 2 vols. Moscow 1965.

Schmidt, Helmut, Defence or Retaliation, Hamburg 1961.

Shirer, William, The Rise and Fall of the Third Reich, London 1962.

Smirnov S.R., A History of Africa 1918 - 1967, Translated from the Russian by Lempert L.O., Moscow 1968.

Spanier, John W., American Foreign Policy Since World War II, New York 1960. 1962.

Taylor, A.J.P., The Origins of the Second World War.

Taylor, Maxwell, The Uncertain Trumpt, New York 1959.

Tomson, David, World History 1914 - 1968, Oxford 1969.

Truman, Harry, 1945, Years of Decisions, Memoirs by Harry S. Truman, 2 vols., U.S.A. 1965.

Vermeil, Edmond, Germany's Reichs, translated by E.W. Dickes, London 1944.

Wilmot, Chester, The Struggle For Europe, London 1952.

Hughes, E.J., America The Vinciple, Penguin 1959.

Kennan, George F., American Diplomacy, 1900 - 1950, Chicago 1951.

Kennedy, John, To Turn The Tide, U.S.A. 1962.

Kirk, The Middle East in the War, London 1950.

Kissinger, Henry, White House Years, U.S.A. 1979.

Langer, William L., An Encyclopedia of world History, U.S.A. 1948.

Link, Arthur S., American Epoch, New York 1961.

Lippmann, Walter, The Cold War, New York 1947.

Mallin, Jay, Caribbean Crisis. U.S.A. 1965.

Mollenhoff, Clark R., The Pentagon, New York 1972.

Mosely, Philip, The Kremlin and World Politics, New York 1960.

Perkins, Dexter, The American Approach to Foreign Policy, Harvard 1952.

Roberts, P.E., History of British India, Oxford 1952.

Robertson, Charles, International Politics since World War II, U.S.A. 1966.

Rothstein, Andrew, Peaceful Coexistence, Penguin 1955.

الكشافات

أولاً : الأعــــلام .

ثـانياً: الأماكن والبلاد .

ثالثاً: الهيئات والمجتمعات .

رابعاً: الأحداث التاريخية .

★ قام بإعداد هذه الكشافات:

د. يواقيم رزق

أولاً: كشاف الأعلام

- ت -

- ح -

- د -

— ر —

— س —

— ش —

- ص -

- ع -

- ف -

— م —

- ن -

ثانياً: الأماكن والبلاد

- ح -

- خ -

- د -

- ل -

- ن -

- هـ -

- و -

ثالثاً: الهيئات والمجتمعات

- ن -

- هـ -

- ى -

رابعا: الأحداث التاريخية

- هـ -

- و -

من أهم الأعمال العلمية المنشورة للمؤلف

١ - تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ - ١٩٣٦) (القاهرة: دار الكاتب العربى ١٩٦٨) .

٢ - تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩٣٧ - ١٩٤٨) - مجلدات (بيروت : دار الوطن العربى ١٩٧٣) .

٣ - الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر من ثورة يوليو إلى أزمة مارس ١٩٥٤ . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٧٥) .

٤ - عبد الناصر وأزمة مارس . (القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٧٦) .

٥ - الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ - ١٩٣٦) (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧) .

٦ - صراع الطبقات فى مصر (١٨٣٧ - ١٩٥٢) . (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨) .

٧ - الصراع بين الوفد والعرش (١٩٣٦ - ١٩٣٩) . (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩) .

٨ - الفكر الثورى فى مصر ، قبل ثورة ٢٣ يوليو . (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨١) .

٩ – المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الأحمر (١٩٤٩ – ١٩٧٩) :

الطبعة الأولى (القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٨٢) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

١٠ – الاخوان المسلمون والتنظيم السرى . (القاهرة : دار روز. اليوسف يناير ١٩٨٣) .

١١ – الصراع بين العرب وأوروبا ، من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية . (القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣) .

١٢ – حرب أكتوبر فى محكمة التاريخ . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤).

١٣ – مذكرات السياسيين ، الزعماء فى مصر . (القاهرة : دار الوطن العربى ١٩٨٤) .

١٤ – تحطيم الآلهة ، حرب يونيو ١٩٦٧ . (جزءان) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤) .

١٥ – الغزوة الاستعمارية للعالم العربى ؛ وحركات المقاومة . (القاهرة : دار المعارف) .

١٦ – مصر فى عصر السادات (الجزء الأول) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٦) .

١٧ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الأول (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧) .

١٨ – مصطفى كامل فى محكمة التاريخ:

الطبعة الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١ سنة ١٩٨٧) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين سنة ١٩٩٤).

١٩ – أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان :

الطبعة الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣ سنة ١٩٨٨) .

الطبعة الثانية (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦).

٢٠ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثانى . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) .

٢١ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثالث . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩) .

٢٢ – مصر فى عصر السادات ، الجزء الثانى . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٩) .

٢٣ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الرابع . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠) .

٢٤ – الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى (القاهرة : الزهراء – ١٩٩٠) .

٢٥ – حرب الخليج فى محكمة التاريخ . (القاهرة : الزهراء– ١٩٩٠) .

٢٦ – العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ – ١٩٧٩) (القاهرة : سلسلة تاريخ المصريين ٤٩ سنة ١٩٩١) .

٢٧ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الخامس . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) .

٢٨ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .

٢٩ – تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، سلسلة تاريخ المصريين عدد ٦١).

٣٠ – تاريخ مصر والمزورون . (القاهرة : الزهراء – ١٩٩٣) .

٣١ – أوهام هيكل وحقائق حرب الخليج. (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٢ – قصة بناء المواطنة الخليجية. (القاهرة : مركز المنار للنشر والدراسات الاعلامية ١٩٩٣).

٣٣ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٤ – الإخوان المسلمون والتنظيم السرى، الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٥ – مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السادس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٣٦ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثالث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤)

٣٧ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الرابع، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤).

٣٨ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الخامس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٣٩ – جماعات التكفير فى مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٠ – مصر قبل عبدالناصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤١ - أوراق فى تاريخ مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٢ - هيكل والكهف الناصرى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٣ - مصر فى عصر مبارك «الجزء السادس» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٤ - مصر فى عصر مبارك «الجزء السابع» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٥ - رحلات مؤرخ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٦ - مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السابع (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٧ - تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الأول» من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الثورة الفرنسية [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٨ - تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الثانى» من تسوية مؤتمر ڤيينا إلى تسوية مؤتمر ڤرساى [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٩ - تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الثالث» من من قيام النازية فى ألمانيا إلى الحرب الباردة [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

مع آخرين :

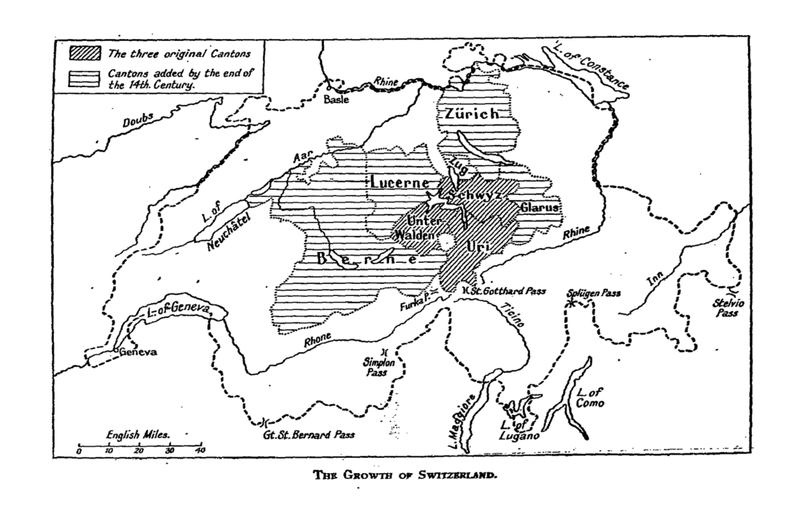
١ – مصر والحرب العالمية الثانية ، مع الدكتور جمال الدين المسدى والدكتور يونان لبيب رزق (القاهرة : مؤسسة الأهرام ١٩٧٨) .

٢ – تاريخ أوروبا فى عصر الرأسمالية ، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود . رءوف عباس . (القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢) .

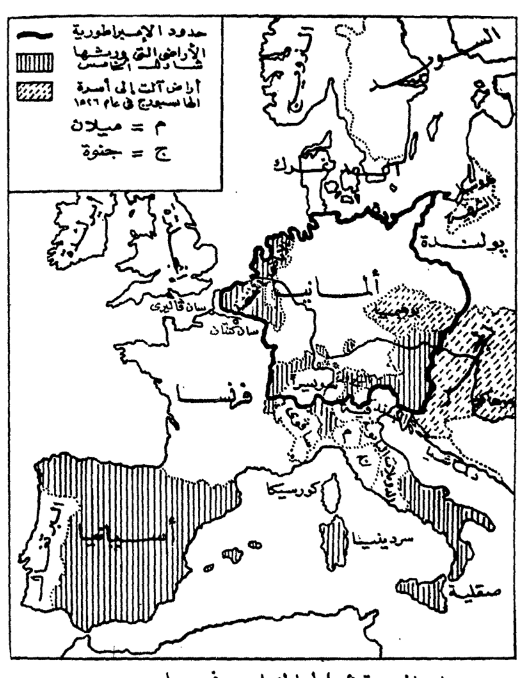
٣ – تاريخ أوروبا فى عصر الامبريالية ، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود.رءوف عباس . (القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

كتب مترجمة :

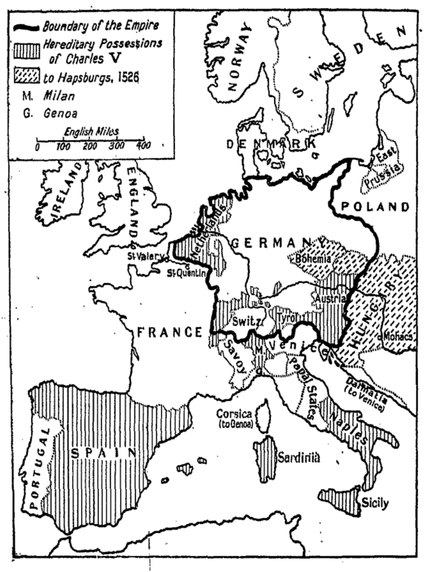
١ – تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ، (١٧٩٨ – ١٨٨٢) تأليف جون مارلو . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦)



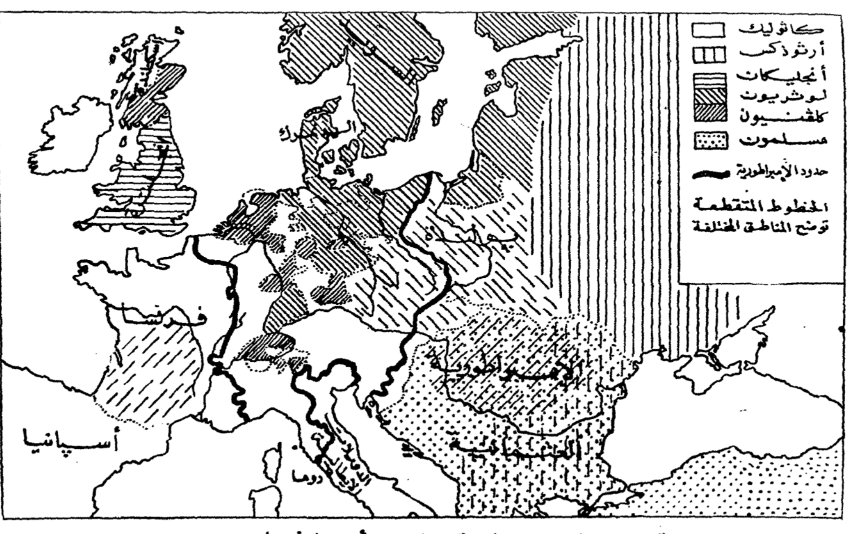
The Growth of Switzerland.



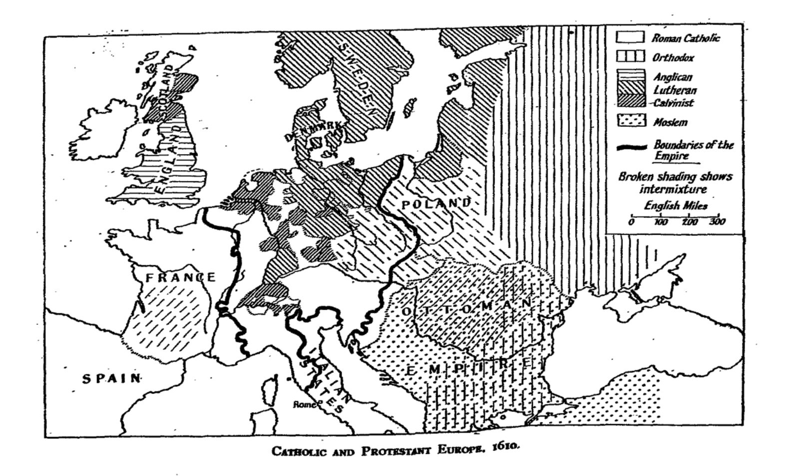
إمبراطورية شارل الخامس في عام ١٥٢٥



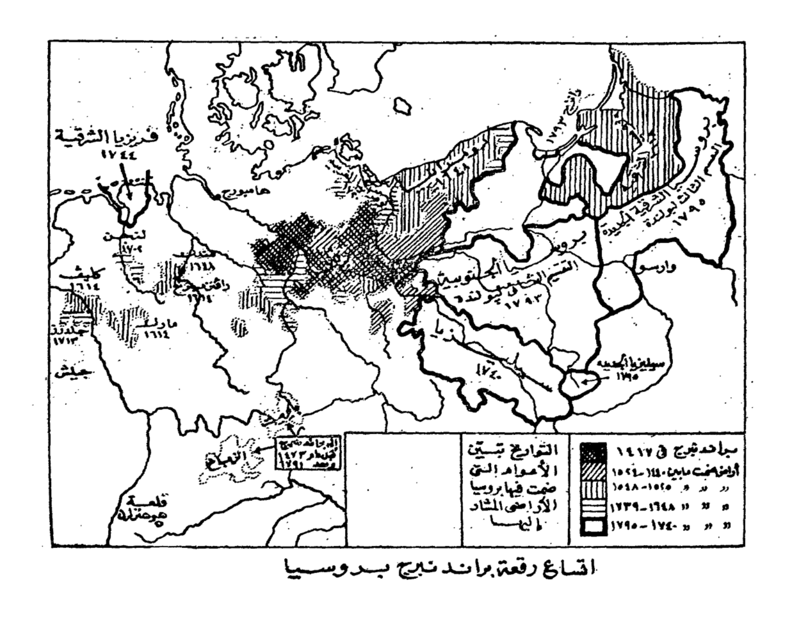
THE EMPIRE OF CHARLES V, 1525.



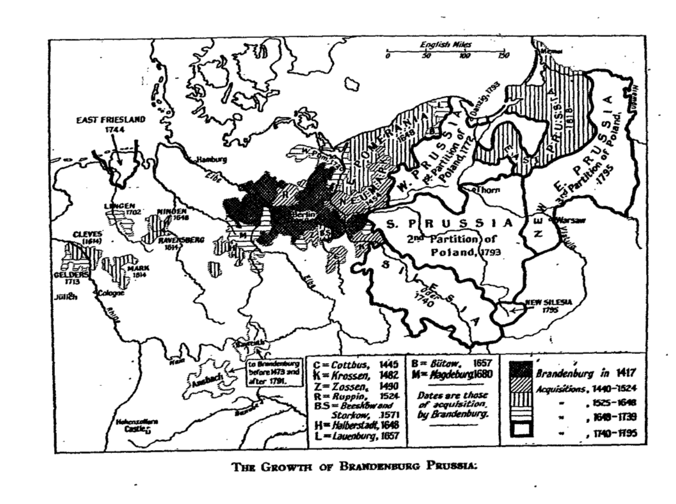
توزيع الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا في عام ١٦١٠



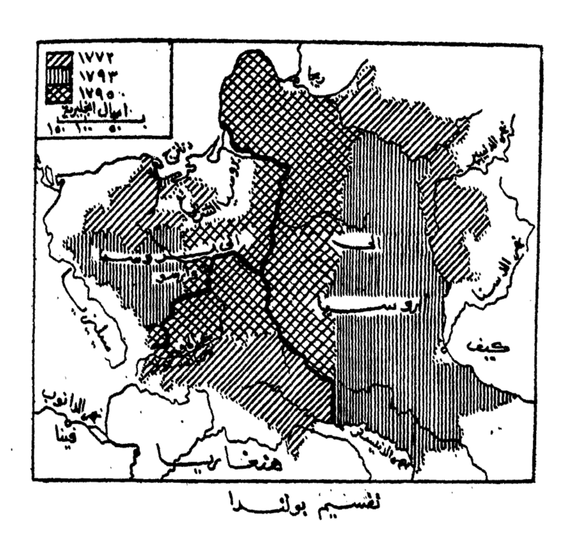
Catholic and Protestant Europe, 1610.



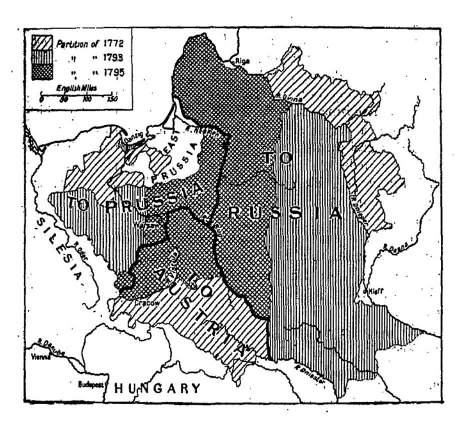
اتساع رقعة براندنبرج بروسيا



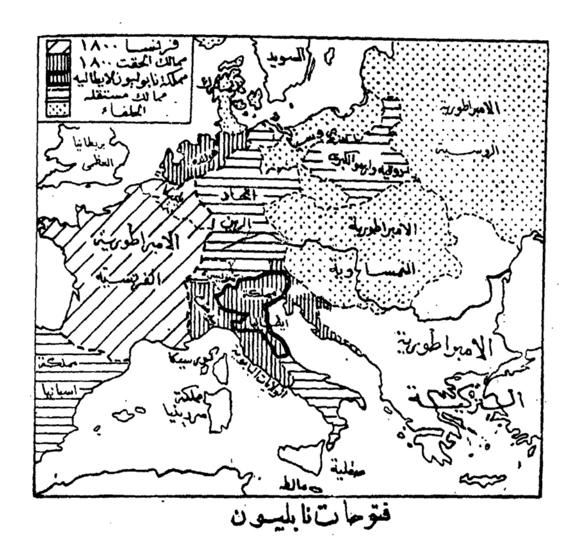
THE GROWTH OF BRANDENBURG PRUSSIA.



تقسيم بولندا



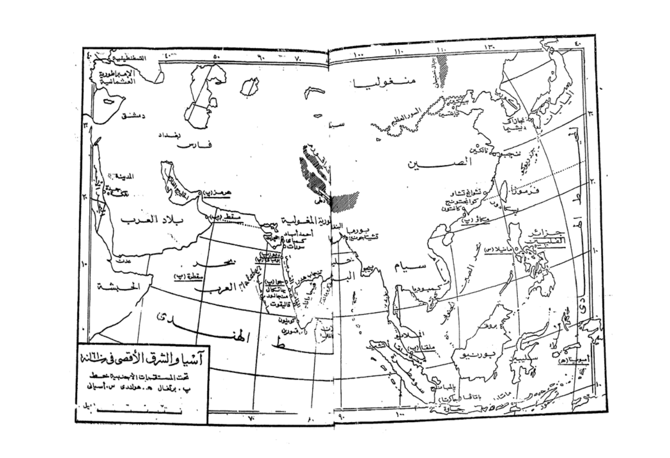
THE PARTITIONS OF POLAND.



فتوحات نابليون



THE CONQUESTS OF NAPOLEON.



آسيا والشرق الأقصى فى سنة ١٦١٠
تحت المستعمرات الأجنبية خط
پ. برتغال هـ. هولندى س. أسبانى
ميل
القسطنطينية
الامبراطورية العثمانية
دمشق
بغداد
فارس
المدينة
مكة
بلاد العرب
عدن
الحبشة
هرمز (پ)
مسقط (پ)
سقطرة (پ)
الدولة المغولية
أحمد أباد
كمباى
سورات
ديو (پ)
جوا (پ)
قاليقوت
بحر العرب
المحيط الهندى
منغوليا
السور العظيم
الصين
نانكين
كانتون
مكاو (پ)
فرموزا
اليابان
بورما
سيام
كمبوديا
الملايو
ملقا (پ)
بورنيو
جزائر الفلبين
مانيلا (س)
أمبوينا (هـ)
جاوة

فهرس تفصيلى

٣ ـ امبراطورية شارل الخامس فى عام ١٥٢٥ (بالإنجليزية)، المرجع
Fisher, Op. cit.

٤ ـ توزيع الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا فى عام ١٦١٠، المرجع:
فيشر: المرجع المذكور

٥ ـ أوروبا البروتستانتية والكاثوليكية فى عام ١٦١٠ (بالإنجليزية)
المرجع: .Fisher, Op. cit

٦ ـ اتساع رقعة براندنبورج بروسيا: المرجع: فيشر: المرجع المذكور.

٧ ـ نمو براندنبورج بروسيا (بالإنجليزية) المرجع : .Fisher, Op. cit.

٨ ـ تقسيم بولندا، المرجع: فيشر: المرجع المذكور : .Fisher, Op. cit.

٩ ـ تقسيم بولندا (بالإنجليزية).

١٠ ـ فتوحات نابليون، فيشر: المرجع المذكور.

١١ ـ فتوحات نابليون (بالإنجليزية) .Fisher, Op. cit.

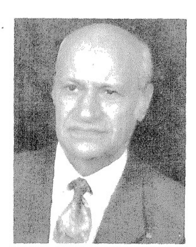
١٢ ـ آسيا والشرق الأقصى فى سنة ١٦١٠، المرجع: بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية.

ف: 1723 تاريخ استلام: 1/6/2006

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٨٠٤/١٩٩٦

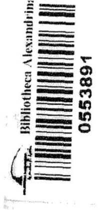
I.S.B.N- 977 - 01 - 5044 - 4



يختلف هذا الكتاب عن كتب المدرسة التقليدية التى تنظر إلى التاريخ من منظور سياسى فتقلبه على قدميه وتقدم فيه النتائج على المقدمات. فهو يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية التى غيرت وجه الحياة فى أوروبا والعالم، ويتتبع نتائج ظهور هذه الطبقة. كما تمثلت فى النهضة الأوروبية، وحركة الإصلاح الدينى، وظهور الدول القومية على أنقاض الاقطاع. ويتناول تطلع هذه الدول القومية إلى التوسع داخل أوروبا وخارجها مما يؤدى إلى نشوب الحروب الإيطالية من جهة، وإلى الكشوف الجغرافية والحركات الاستعمارية من جهة أخرى.

ويتعرض الكتاب للتطورات التى أحدثتها هذه الطبقة البورجوازية فى النظام السياسى فى أوروبا، وانتقالها به من نظام الملكية المطلقة إلى نظام الملكية المستبدة الدستورية فيما عدا فرنسا، الأمر الذى يؤدى إلى نشوب الثورة الفرنسية للقضاء على بقايا الاقطاع واسقاط الحق الإلهى للملوك فى الحكم، فتهب الأسر الحاكمة فى أوروبا للقضاء على الثورة الفرنسية، وتنشب حروب الثورة ونابوليون التى تنتهى بهزيمة نابوليون، وإعادة الدول المنتصرة تقسيم العالم فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م، فيبدأ عصر الثورات القومية والدستورية الذى ينتهى بتوحيد إيطاليا على يد كافور وألمانيا على يد بسمارك، ويشتعل التنافس الاستعمارى بين الاستعمار الجديد والاستعمار القديم على نحو يؤدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى التى تسقط فيها أربع امبراطوريات.

وتقوم ألمانيا النازية بعد الحرب على أنقاض القيصرية، فتشعل نيران الحرب العالمية الثانية التى تنتهى بهزيمة الفاشية والنازية، وانقسام العالم إلى معسكرين رأسمالى واشتراكى، وتنشب بين المعسكرين حرب من نوع جديد هى الحرب الباردة فى ظل التوازن الذرى، ويظهر العالم الثالث ودول عدم الانحياز، ويتغير العالم القديم.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب